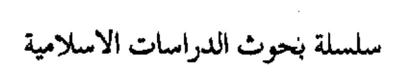
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية
مركز البحوث الدراسات الإسلامية
مكة المكرمة





الحياة العلمية في إفريقية

« المغرب الأدنى » منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري

« ٩٠ / ٤٥٠ هـ »

الجزء الثاني

د / يوسف بن أحمد حواله

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

ح جامعة أم القرى ، ١٤١٩ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

حوالة ، يوسف أحمـــد

الحيـاة العلمية في افـريقيـة (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القـرن الخامس الهجري : ٩٠/٤٥٠ هـ ـ مكة المكرمة .

٤٤٨ ص ٢٤×١٧ سم .

ردمك : ٨ ـ ٣٨٤ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

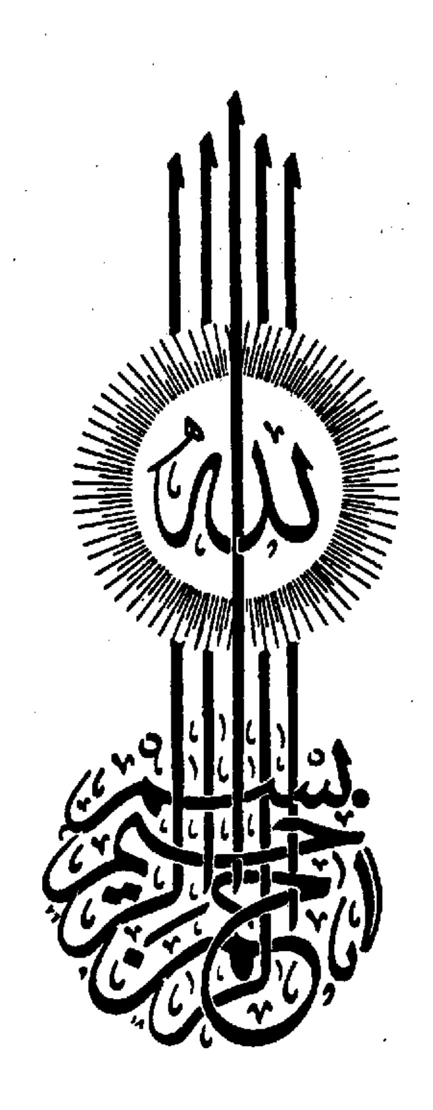
١ ـ التاريخ الإسلامي ٢ ـ الحضارة الإسلامية ٣ ـ أفريقيا الشمالية ـ تاريخ أ ـ العنـوان

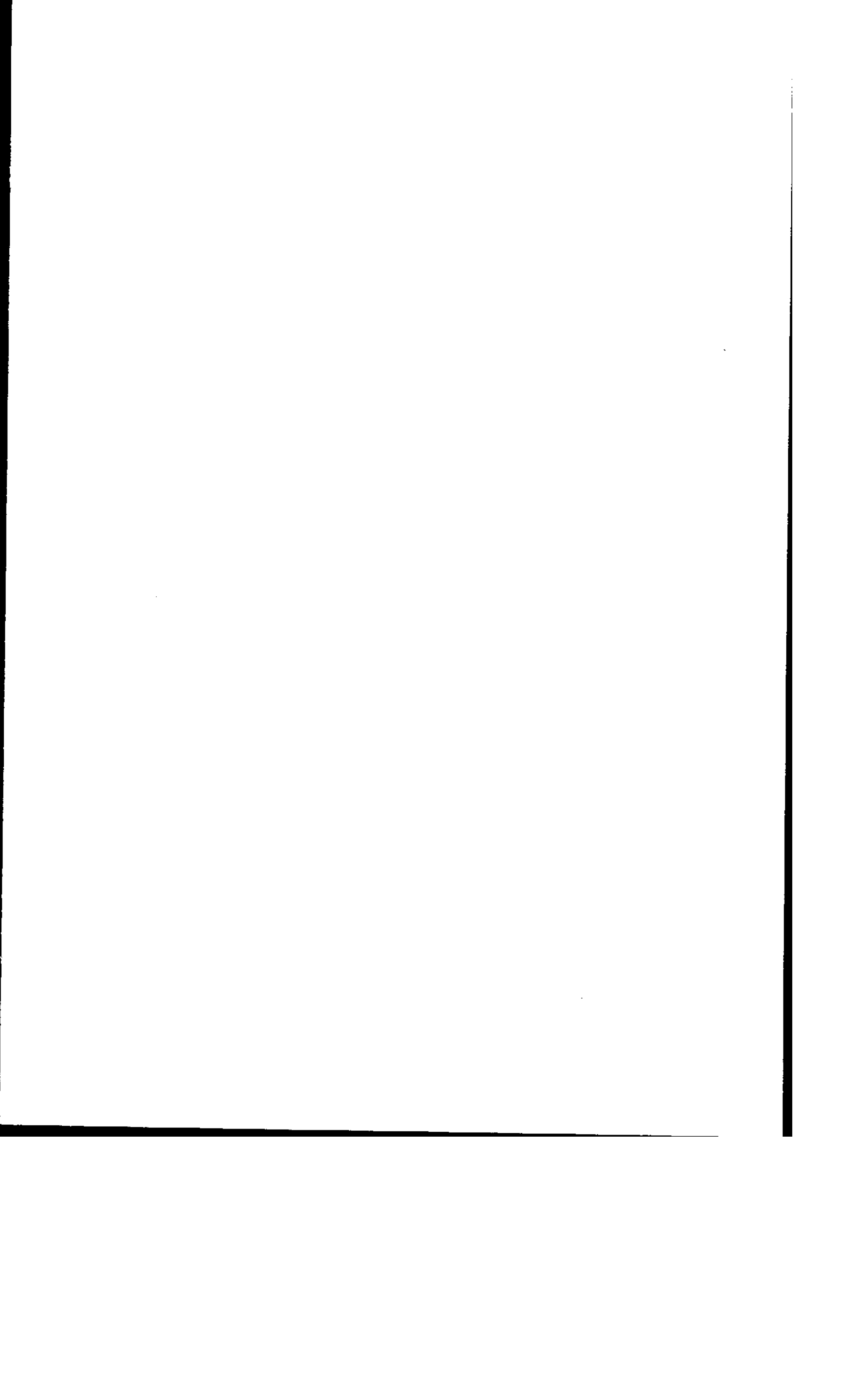
ديوي ٩٥٣,٠٧٢ ١٩ / ٠٥٠٤

رقم الايداع : ١٩ / ٠٥٠٤

ردمك : ٨ ـ ٣٨٤ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

الطبعـــة الأولـــى


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



الفصل الثالث

الدراسات الشرعية

(٣)

الأثر العلمي للصراع المذهبي في إفريقية

- بين المالكية وأتباع المذاهب الكلامية
- بين المالكية والإباضية
- بين المالكية والشيعة

الأثر العلمي للصراع المذهبي في إفريقية بين المالكية وأتباع المذاهب الكلامية

أ- نبذة عن دخول المذاهب الكلامية إفريقية وأهم معتقداتها :

لعل من الضروري هنا أن ننبِّه بادئ ذي بدء إلى أننا نقصد بالمذاهب الكلاميةّ تلك التي تعارف المؤرخون وكتاب الفرق الإسلامية على أنها تعني المذاهب الكلامية العقائدية البحتة ، والتي تأتي على رأسها فرق المعتزلة والمرجئة والجبرية.. الخ . أما المذاهب الدينية الساسية كالخوارج والشيعة – وللكلام جانب كبير في معتقداتها – ، فإن الحديث عنها كان مستقلاً دائماً عند المؤرخين وكتاب الفرق . ولذلك فقد اختصيناها أي المذاهب الدينية السياسية – الخوارج والشيعة – بفصلين مستقلين .

ومنذ أن تمذهب المغاربة بالمذهب المالكي كما عرفنا سابقاً (١) ، لم ينفكوا يقاومون أي اتجاه يؤثر علي الشريعة الصافية الواضحة . ولقد كانوا يترسمون في ذلك خطي زعيم مذهبهم الإمام مالك الذي لم يكره شيئا كرهه للجدل والتنظير . كيف لا وهو الذي كان يعتقد أن الجدل في الدين مفسدة للدين ؟ . وكيف لا وهو الذي كان يتساءل كثيراً عن جدوي البحث في قضايا عقائدية مبتدعة عن ذات الله وصفاته ، والجبر. والاختيار وخلق القرآن .. الخ؟، وكيف وهو الذي كان يحض أتباعه على الاهتمام بالكلام الذي تحته عمل من الدين فقط ، أي الفقه ، الذي يضبط أعمال الناس ويحكمها ويرد

١- أنظر قبل ، ص ٢٦٧ ومابعدها .

الفروع على الأصول (١) ... الخ ؟

ومن هنا فقد كره أتباعه وتلامذته الكثيرون في الحجاز ومصر والمغرب تلك التيارات الفكرية التي طم سيلها وقتذاك في المشرق ابتداء من نهاية القرن الأول الهجري . ولقد كان نصيب اتباعه المغاربة من ذلك الكره النصيب الأوفى والقدر الأعلى .

ولذلك فلن ندهش إذا عرفنا بأن المغاربة – وقد حددوا موقفهم النهائي بالتمذهب بالمذهب المالكي – ، قد اختاروا الابتعاد عن العلوم العقلية النظرية والاهتمام بالعلوم النقلية من فقه وحديث وعلوم القرآن . ولذلك فلم يعد مثيرا للدهشة أن تتكون في إفريقّية مدرسة فقهية متميزة ، ولمَّا يمض سوى أقل من قرن على دخول المذهب المالكي بلاد المغرب .

بيد أن المغاربة مالبثوا أن فوجئوا ببعض التيارات الكلامية الخطيرة تقتحم حياتهم – كما اقتحمت حياة زعيم مذهبهم من قبل – ، ويظل أوارها يهب بين الفينة والفينة ، ممّا يجبرهم على التعامل معها والرد عليها بشتى الواقف ، سواء بالمعارضة الصامتة أو المواقف المتشددة أو بالمواجهة العلمية تأليفاً ومناظرة والتحلي بالجدل والنظر – وهو سلاح المذاهب الكلامية – إذا لزم الأمر علاوة علي مقاطعة أتباعها وعدم ممالئتهم . ولقد أدى هذا الأسلوب إلى مقاطعة بعض فقهاء المالكية أنفسهم ، بعد أن أحست غالبية الفقهاء مجرد احساس في ميل بعض الفقهاء لبعض الآراء الكلامية ،

---

(١) حول هذه المواقف للإمام مالك من المذاهب الكلامية أنظر عبدالرحمن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة ،ص ٧٨-٧٩ .

حسبما سنعرفة في موضعة .

وكانت أهم التيارات الكلامية التي اقتحمت حياة المغاربة ، وتواصلت توسعاً وانكماشاً في فترات زمنية متفاوتة ، هي آراء التيار الاعتزالي ، أو معتقدات المعتزلة ، وهي القضايا العقائدية التي شغلت العالم الإسلامي آنذاك .

على أن وجه الحق هنا هو أن إفريقية لم تعرف وقتذاك كل قضايا الأصول الخمسة التي يقوم عليها مذهب المعتزلة ، وهي التوحيد ، والعدل ، الوعيد ، المنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١) ، فقد عرفت أهم القضايا التي تشعبت عن الأصل الأول ، وهو التوحيد ، كمسائل خلق القرآن ، والأسماء والصفات ، وكقضية الجبر والاختيار التي تفرعت عن الأصل الثاني وهو العدل .

وإذا مارحنا نبحث عن السبل التي تسرَّب مذهب المعتزلة إلى إفريقية عن طريقها . لوجدناها تندرج تحت سبل مباشرة وأخرى غير مباشرة : فأما السبل المباشرة فقد ذكر المؤرخون أن واصل بن عطاء زعيم مذهب المعتزلة وأحد مؤسسية (٨٠ - ١٣١هـ) بعث أحد دعاته إلى بلاد المغرب ويدعي عبد الله بن الحارث الذي أفلح في جذب كثير من البربر إلى مذهبه

---

(١) عن مذهب المعتزلة وأصوله الخمسة وما تشعب عنها ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٨٣- ٣٠١ ، ضحى الإسلام ، الجزء الثالث ، ص ٢١ - ٢٠٧ ظهر الإسلام ، الجزء الرابع ص ٧-٤١، ٧٤- ٨٣ . فقد عالج هذا الموضوع معالجة تاريخية بموضوعية ودقة - محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ج١، ص ١٦٧-١٧٩ .

وخاصة في المغرب الأقصى (١) . وقد ظهرمذهب المعتزلة نتيجة للجهود تلك في المغرب الأوسط ، حيث كان له وجود كثيف هناك (٢) . وليس ببعيد أن يكون قد عُرف في المغرب الأدنى .

أما السبل غير المباشرة التي أدت إلى تسرب مذهب المعتزلة ، ومن ثم التمكين له فهي متعددة . ولعل أهمها هو أن كثيراً من الأحناف في المشرق قد مالوا إلى تعاليم المعتزلة ، وخاصة بعد أن أصبح الاعتزال المذهب الرسمي لبعض خلفاء الدولة العباسية (٣) . ومن هنا فقد مكن فقهاء الأحناف في إفريقية الذين كان لهم وجود كبير فيها حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل لمبادئ الاعتزال أن تنتشر هناك . وسبيل آخر أدى إلى شيوع آراء مذهب الاعتزال ، وهو تمذهب معظم أمراء الأغالبة به ، وما من ريب أن أولئك الأمراء الأغالبة كانوا يصدرون في ذلك من ميلهم إلى تقليد من تعصب لمذهب المعتزلة من خلفاء بني العباس ، وهم المأمون والمعتصم والواثق ، كما هو معروف (٤) .

غير أن الغريب في الأمر أنه في الوقت الذي نبذ خلفاء بني العباس ابتداءً من الخليفة المتوكل مذهب المعتزلة ، واصل الأمراء الأغالبة تأييد

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٣٠٠ - السيد محمد أبو العزم داود: نفسه ، ص ٢٥٤.

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٥٤ -٢٥٥ .

(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٣، ص٧١، ١٦٣- ١٦٥، ١٩٦ ومابعدها سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ،ص ٦٩ .

(٤) أنظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٣ ،ص ١٦٣ - ١٨٢ - محمد أبو زهرة : نفسه ، ج١ ، ص ١٦٧ - ١٧٤ .

مذهب المعتزلة ورجالاته وعكفوا كذلك على تأييد الفقهاء الأحناف في صراعهم ذي الشقين : الحنفي والاعتزالي ضد خصومهم المالكية ، حتى السنوات الأخيرة من عهد الدولة الأغلبية .

والسبيل الثالث غير المباشر ، كان بالطبع ذلك الذي ترفده وحدة الثقافة الإسلامية ، فغير خاف أن ما كان شائعاً وقتذاك في المشرق من اختلافات مذهبية ، وصراعات بين العقليين والنقليين . كان يتردد صداه في كل الأقاليم الإسلامية الأخرى . والأدلة والشواهد أوضح من أن نحددها ونحصرها ، فالرحلات المتبادلة للعلماء بين صقع وصقع ، ورحلات الحج للمغاربة بصفة خاصة والاستيطان المؤقت ، أو الدائم ، كل ذلك كان كفيلاً بأن تنتشر عن طريقة التيارات والآراء المختلفة .

وإلى جانب مذهب المعتزلة ، عرفت إفريقية تياراً كلامياً آخر . وهو الإرجاء ، أي مذهب المرجئة (١) . وهي قضية لاكتها الألسن كثيراً ، غير أن أخطر مافيها أنها أدت إلى اختلاف شديد ، ليس ببين دعاتها والمنتحلين لها وبين المالكية ، وإنما بين فقهاء المالكية أنفسهم .

كما عرفت إفريقية تياراً كلامياً آخر بجانب تيار الإرجاء ، بل هو حقيقة متولّد عنه ، لكنه تيار إفريقي محلي ، أي أنه لم يكن قادماً من المشرق ، وإنما انبثق من إفريقية ، ذلك التيار تمثّل في اختلاف وقع بين فقهاء المالكية في عصر الأغالبة حول قضية عرفت بمسألة الإيمان

---

(١) عن المرجئة وآرائهم المختلفة ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص٢٧٩-٢٨٢، ضحى الإسلام ، ج٣ ،ص ٣١٦ - ٣٢٩ .

والاستثناء فيه ، وقد وقعت بين فقيهين من أشهر فقهاء إفريقية وقتذاك ، هما محمد بن سحنون بن سعيد ، ومحمد بن عبدوس . ولقد استمرت هذه القضية تثور لفترة طويلة من الزمن بين مؤيديهما حسبما سنعرف بعد .

على أن قضية الإيمان مالبثت أن ظهرت ثانية خلال العصرين الفاطمي والزيري . وبتأثير خارجي بين فقهاء المالكية كذلك . وقد قادت إلى نفس النتيجة التي تكشّفت عن القضية الأولى كما سنعرف بعد كذلك .

وإلى جانب هذا كله ثارت بعض القضايا الكلامية ، وخاصة في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري مثل قضية الكفار ، وهل يعرفون الله عز وجل أم لا ؟ وثارت بين فقهاء المالكية كذلك ، كما سنوضحه بعد .

وعلاوة على هذا وذاك ، فقد أثيرت بعض القضايا الفقهية بين فقهاء المالكية وفقهاء الحنفية ، مثل مسألة الوجه الشرعي في النبيذ وشربه . وقد وقف بعض فقهاء المالكية يوضّح وجهة نظر المالكية في ذلك سواء كان ذلك عن طريق المناظرة أو التآليف .

هذا إلى جانب بعض القضايا البدعية التي وقف حيالها بعض فقهاء المالكية موقفاً متشدداً ، وشرعوا يواجهون ذلك التيار البدعي بالمقاومة الشديدة تارة ، وبالتآليف والتصنيف تارة أخرى .

---

(١) عن كل هذه القضايا أنظر بعد موقف فقهاء المالكية من أتباع المذاهب الكلامية وغيرهم .

ب - موقف فقهاء المالكية من أتباع المذاهب الكلامية وغيرهم :

إذا مضينا نستطلع مواقف فقهاء المالكية من المذاهب الكلامية من أهل البدع والأهواء ، في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فلن تأخذنا الدهشة بناء علي كرههم العميق للجدل والتفلسف والتنظير العقائدي أو غيره إذا عرفنا بأنهم قد قاوموا كل من رفع وجاهر بتلك الآراء البدعية ، وعاملوه بكل عنف وقسوة ، واستخدموا معهم كل مواقف الخصومة من مواجهة مباشرة ، إلى مقاطعة سلبية ، إلى مواجهتهم بنفس سلاحهم ، أي الجدل والمناظرة ، إلى غير ذلك من المواقف .

ففي عصر الولاة ، هبَّ الفقيه المشهور عبد الله بن فروخ المتوفى علم ١٧٥هـ كما عرفنا سابقاً ، يعلن رأيه بصراحة وعنف في المعتزلة ، فيرميهم (باللعنات) ، بل ويستجيز ذلك لهم (١) . وكان عبد الله بن فروخ يرد بذلك على من اتهمه بأنه من المعتزلة (٢) . وقد أصر على أن ينفي عن نفسه كل تهمة ترميه بالميل للمعتزلة ، فرفض ذات مرة أن يصلي علي جنازة أحد المعتزلة المعروفين آنذاك (٣) .

---

(١) المالكي : نفسه، ج١ : ص ١٢٠-١٢١ - عياض : نفسه ، ج١ ،ص ٣٥٤ -٣٤٦- ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الأول ،ص ٧٢٣- ٧٢٤ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٢٠ - عياض : نفسه ، ص ٣٤١ .

(٣) وهو المعروف بابن صخرة المعتزلي ، وكان مع ابن فروخ صديقاه عبدالله بن غانم القاضي والبهلول بن راشد . وقد طلبوا من ابن غانم أن يصلى عليه ، فقال : (كل حي ميت ، قدموا دابتي) وقالوا لابن فروخ ذلك ، فقال مثل ما قال صديقه . كذلك فعل صديقهما البهلول =

وكان قرينه الآخر ، وهو علي بن زياد التونسي المتوفى سنة ١٨٣هـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل يشاركه نظرته تلك في المعتزلة ، وكثيراً ماكان يجابه رجالاتها في إفريقية ويقرِّعهم ، ويسفِّه آرآءهم الإعتزالية (١) .

وجاراهما معاصرهما الثالث البهلول بن راشد المتوفى عام ١٨٣ هـ كما عرفنا كذلك من قبل ، وكان شديداً في ذلك ، بل إن شدته كانت تتعدى إلى تلامذته حينما كان يشك بأنهم قد يبادلون رجالات المعتزلة الحديث .

ولعـــل في هـــذا الموقف الـــذي نرويه عنه مـــايدل على ذلك . روى المالكي (٢) عن بعض أصحاب البهلول أنه قال : (كنت جالساً عنده ومعه رجل عليه لباس حسن وهيئة فقال له البهلول « أحب أن تذكر لي ماتحتج به القدرية . فسكت الرجل حتى تفرق الناس ، ثم قال له « يا أبا عمرو ، إنك سألتني عما تحتج به القدرية وهو كلام تصحبه الشياطين ، لأنه سلاح من سلاحهم ، فتزينه في قلوب العامة وفي مجلسك من لايفهم ما أتكلم به من ذلك ، فلا آمن أن يحلو بقلبه منه شئ ، فيقول : سمعت هذا الكلام في مجلس البهلول ، فقال له : « والله لأقبلن رأسك ، أحييتني أحياك الله ») .

أما في عصر الأغالبة ، فقد كانت المواجهة شديدة بين فقهاء المالكية والمعتزلة من فقهاء الأحناف (٣) الذين كنوا مدعومين من قبل بعض الأمراء

= ابن راشد . أنظر عياض : نفسه ، ص ٣٤٦ .

(١) المالكي : نفسه ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) نفسه .

(٣) لانعتقد أن كل فقهاء الأحناف في إفريقية وقتذاك كانوا معتزلة ، وعلى أية حال فقد عقد الخشني في كتاب : قضاة قرطبة وطبقات علماء إفريقية فصلا تحدث فيه عن فقهاء الأحناف المتمذهبين =

الأغالبة ، بالإضافة إلى مقاومتهم لأهل الأهواء والبدع الآخرين الذين كثر عددهم في هذا العصر .

فبينما الفقيه المشهور يحيى بن سلام يملأ البلاد فقهاً وحديثاً وتفسيراً كما ذكرنا من قبل ، يفاجأ بأنه قد اتهم بالإرجاء أي الميل لمبادئ المرجئة ويفاجأ كذلك بوقوف زملائه الفقهاء ضده موقفاً عدائياً ، فيحزنه ذلك ويقسم أشد الأيمان بأنه ماعبد الله على شئ من الإرجاء قط ، ويستغرب كيف صدق الفقهاء عنه ذلك ، وهو الذي كان يحدثهم عنه أنه بدعة (١) ؟ .

ولم يكن فقهاء المالكية بإفريقيَّة وحدهم الذين وقفوا ذلك الموقف العدائي من يحيى بن سلام ، وإنما كان فقهاء المالكية بمصر مثل عبد الله ابن وهب وغيره يقفون ذلك الموقف منه . وعند ماتبين لهم حقيقة موقف يحيى بن سلام، زال غضبهم منه . ورفعوا عنه العزل – إن جاز هذا القول – وذلك بعد ماوثقوا من أن رأي يحيى بن سلام في مسألة الإيمان قد نقل عنه محرفاً .

أما الفقيه المالكي المبرز : أسد بن الفرات المتوفى حسبما عرفنا عام ٢١٣ هـ فقد كان شديداً مع أهل البدع والمذاهب الكلامية ، وخاصة المعتزلة وقضيتهم الأشهر والأبرز ، وهي خلق القرآن . فممَّا حفظ عنه أنه كان يسفِّه آراءهم في مسألة خلق القرآن (٢) ، حتى إنه واجه معتنقي ذلك الرأي من

= بمذهب المعتزلة . أنظر الخشني : نفس المصدر أعلاه ، ص ١٨٠ – ١٨٣ ، ١٨٧ – ١٩٧ ، ٢١٩–٢٢٢، (الوارد ضمن كتاب طبقات علماء إفريقية لأبي العرب التميمي) .

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٧ – ٣٨ .

(٢) أبو العرب : نفسه ، ص ٨٢ – المالكي : نفسه ، ج١، ص ٨١– ١٨٢ (ولقد روى أن أسداً كان =

الفـقـهـاء الأحناف بالعنف ، بل بالضـرب (١) . والغـريب في الأمـر أن مع موقفه ذلك ، يرمى بالقول بخلق القرآن ، ممّا جعل سحنون بن سعيد ينتفض وينفي ذلك بشدة (٢) .

ويقف معاصره عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى على الأرجح عام ٢٢٧هـ من قضية خلق القرآن مواقف شديدة ، ومن ذلك موقفه من أحد فقـهاء الأحناف في حـضرة الأمير الأغلبي : الأغلب بن ابراهيم بن الاغلب (٢٢٣-٢٢٦هـ) حتى أنه كان يغضب الأمير بصراحته الشديدة (٣) .

ويبدو أن رحلات بعض فقهاء الحنفية إلى العراق وقتذاك كانت سبباً في تحريك قضايا الكلام ، بما يقدمون به من أفكار اعـتزالية ، أو مؤلفات مذهبية اعتزالية ، كانوا يبادرون إلى طرحها في إفريقيّة وينادون بها ، بل ولايستتروا في ذلك . ولعل في هاتين الواقـعتين مايؤيد ذلك . فسليمان بن عصفور المعروف بالفراء ، أحد فقهاء الأحناف في العصر الأغلبي ، رحل إلى العراق ، ثم عاد يطرح مبادئ مذهب الاعتزال على شكل مؤلفات تتناول قضايا القرآن وغيرها (٤) .

= يبدع من يقول بأن القرآن مخلوق ، وقد تناول بالهجوم أحد رجالات المعتزلة المشهورين في المشرق وهو بشر المريسي ، وتوعده) .

(١) أبو العرب : نفسه – المالكي : نفسه ، ص ١٨٢ .

(٢) أنظر أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٨٢ .

(٣) أبو العرب : نفسه ، ص ٨٢– المالكي : نفسه ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

(٤) الخشني : قضاة قرطبة وعلماء إفريقية – تصحيح عزت العطار الحسيني ص ٢٨٦– ٢٨٧ .

والفقيه الحنفي الآخر عبد الله بن الأشج - لم يذكر المؤرخون وفاته - ارتحل إلى العراق ، ثم عاد إلى القيروان . وقد تساءل فيما كان يشغل أهل القيروان من القضايا ؟ . ولما قيل له : في الأسماء والصفات ، قال : لقد تركت الناس بالعراق (يتوافقون في مسألتين : مسألة القدر ، ومسألة الوعد والوعيد) (١) .

وتتوالى مواقف فقهاء المالكية ضد القائلين بخلق القرآن والإرجاء وغير ذلك من القضايا حتى أننا نرى فقيهاً مالكياً معروفاً وهو عون بن يوسف الخزاعي (ت٢٣٩هـ) يُستفتي في رجل من القائلين بخلق القرآن ، مات ، فقال لسائليه (إن وجدتم من يكفيكم مؤونته فلا تقبروه ، فسكتوا ، ثم سألوه ثلاثاً كل ذلك يجيبهم بمثله ، فقالوا : لانجد ، فقال : اذهبوا فواروه من أجل التوحيد) (٢) ومهما كان في فعل عون هذا من رأي ، فإننا لم نورد ذلك إلاّ لتوضيح ماهية العلاقة بين فقهاء المالكية وأهل المذاهب الكلامية .

أما الفقيه الأبرز والأشهر على الإطلاق : سحنون بن سعيد المتوفى عام ٢٤٠هـ فقد كان القدوة في المواقف المتشددة مع المعتزلة وأهل البدع ، والأهواء . وقد حمد له المؤرخون مواقفه تلك وأكبروها . وفي الحق لقد تعددت مواقفه ، فمن مواجهة شديدة وتقريع ، إلى مقاطعة وصد ، إلى مناظرات علمية ، وغير ذلك . وسنكتفي بذكر أشهر مواقفه فقط .

---

(١) الخشني : نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٨٧ .

(٢) عياض : نفسه ، ج١، ص ٦٢٩ - ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الثالث ، ص ٨٠٩ .

فقد ترك صلاة الجماعة في جامع القيروان ، لأن الامام به كان أحد القائلين بخلق القرآن (١) ، وكادت السياط أن تلهب ظهره ، عندما رفض الصلاة وراء القاضي الحنفي عبد الله بن أبي الجواد ، الذي شكاه إلى الأمير الأغلبي محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٦-٢٤٢هـ) ، فأمر الأمير بضربه خمسمائه سوط لو لم يتدخل وزيره ، فيمنع ذلك بحسن تدبيره . ولقد تعرض في عهد هذا الأمير أيضاً لمحنة طويلة بسبب مسألة خلق القرآن، وقد ناظر فيها القاضي الحنفي ابن أبي الجواد - وسنعرف ذلك في موضعه - ، إلى درجه أن الأمير أمر بقتله ، لو لم يتدخل وزيره في الأمر أيضاً.

والموقف التالي الذي نرويه عنه يمثّل رأي فقهاء المالكية في القضايا العقائدية والسياسية التي كانت مثارة وقتذاك . ذكر المالكي (٢) عن الفقيه يحيى بن عون الخزاعي الذي تحدثنا عنه قبل قليل أنه قال : (دخلت مع سحنون على ابن القصار ، وهو مريض وكان من أصحابه ، وأصابه في علّته قلق ، فقال له : يا ابن القصار ، ماهذا القلق الذي أنت فيه ؟ قال : الموت والقدوم على الله عز وجل ، فقال له سحنون : ألست مصدقاً بالرسل أولهم وآخرهم والبعث والحساب والجنة والنار ؟، وأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر ؟ وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ؟ ، وأن الله تعالي يُرى يوم القيامة ؟ وأنه ﴿ على العرش استوى ﴾ ، ولاتخرج على

---

(١) أنظر سعدي أبو حبيب : سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ص٤٢ .

(٢) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢٦٦ .

الأئمة بالسيف وإن جاروا ؟ ، قال : أي والله الذي لا إله إلاّ هو . فضرب سحنون بيده على ضبعيه ، وقال له : مت إذا شئت ، مت إذا شئت ، وخرج عنه) .

ويواصل طلبة سحنون وتلامذته النجباء الوقوف بشدة ضد أهل الكلام والمتكلمين فيتصدى ابنه محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ هـ كما عرفنا من قبل لكل من يتجاسر على المناداة بآراء المعتزلة ، ويخوض معهم مناظرات يغلب عليها الجدل وهو الذي دفعته تلك الأمور إلى أن يتحلى بالجدل والمناظرة (١) ، ليجابه المعتزلة بنفس سلاحهم . وإذا كنا سنرجئ الحديث عن المناظرات العلمية إلى مكانها بعد ، فإن ماهومناسب هنا ذكر بعض مواقفه من الفقهاء الأحناف ، ومن زميله ورفيق دربه محمد بن عبدوس . ففيما يتعلق بموقفه من الفقهاء الأحناف الذين كانوا يجاهرون بآرائهم الاعتزالية من حيث مسائل خلق القرآن ، ورؤية الله سبحانه وتعالى، وقضايا الجبر والاختيار ، روى أنه كان على خلاف مع قاضي إفريقية وقتذاك سليمان بن عمران (ت ٢٧٠هـ) ، وقد ضايقه هذا القاضي مضايقة شديدة جعلته يستغيث بالأمير محمد بن أحمد بن محمد الأغلبي (٢٥٠-٢٦١هـ) فأغاثه الأمير وأمّنه ، ثم مازال بالأمير حتي وافق على عزل إمام جامع القيروان المعين من قبل القاضي سليمان بن عمران ، وتولية الفقيه عبد الله بن طالب المتوفى سنة ٢٧٥هـ كما ترجمنا له سابقاً على

---

(١) ذُكر أن محمداً بن سحنون أول من ألف في الجدل من المالكية . أنظر الحجوي الفاسي : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٩ -١٣٠ .

الصلاة . فلما حان يوم الجمعة انتصب ابن طالب على المنبر يقول : (الحمد لله الذي يشكر علي مابه أنعم ، والحمد لله الذي عذب علي مالو شاء منه عصم ، والحمد لله الذي على عرشه استوى ، وعلى ملكه احتوى ، وهو في الآخرة يُرى) (١) . وبالطبع فقد أغضب هذا الأمر القاضي الذي حاول أن يثني الأمير عن قراره دون جدوى .

بيد أن القضية الخطيرة التي شجر الخلاف عليها بين فقهاء المالكية بعضهم بعضاً ، كانت هي مسألة الإيمان التي تعد أصلاً رئيسياً من أصول المرجئة العقائدية . وخلاصة هذه القضية التي ثارت بين محمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس زميلة ورفيق دربه العلمي المتوفي عام ٢٦١ هـ ، ثم بين أصحابهما ومن تعصب لهما من فقهاء المالكية ، أن محمداً بن سحنون دفع إليه بأن محمداً بن عبدوس كان يستثني في مسألة الإيمان . وكان يقول : أنا مؤمن عند الله . ولذلك عارض محمد بن سحنون ذلك الاعتقاد الذي يوافق مذهب المرجئة ، فكان ينكر على محمد بن عبدوس ذلك ويقول إن (المرء يعلم اعتقاده ، فكيف يعلم أنه يعتقد الإيمان ، ثم يشك فيه ؟ وقد جرى بينهما تنازع شديد ، وانقسم معظم فقهاء المالكية وقتها إلى فريقين ، فريق يعاضد محمد بن سحنون ، حتى أنهم سموا بالمحمدية والسحنونية ، وفريق عرف بالعبدوسية والشكوكية - زيادة في توسع شقة الخلاف - نسبة إلى محمد بن عبدوس (٢) . ولقد استمرت ذيول هذه المسألة وقتاً غير يسير

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢، ص ١١١-١١٢ .

(٢) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص١١٣- ١١٦ ، ص ١٢٣ -١٢٤ - الدباغ : نفسه ، ج٢ ،ص ٤٣٩-٤٤٠ مع الحواشي .

تثور بين فقهاء المالكية بعضهم بعضا ، حتى أن منهم لم يكتف بأن يؤيد أحد الرجلين : محمد بن سحنون ، أو محمد بن عبدوس (١) ، بل امتدت الخصومة إلى معارضة بعضهم بعضاً (٢) وقد شغلت هذه القضية فقهاء المالكية من يومها حتى إنتهاء العصر الأغلبي ، ثم تجدّدت ثانية بين فقهاء المالكية أيضاً في العصر الفاطمي حسبما سنعرفه بعد قليل .

وكيفما كان الأمر ، فإن اللغط حول تلك القضية ماكان ليظهر لولا سوء الفهم الذي رافقها . وقد ذكر مؤرخو الطبقات المغربية أن ما حدث لم يكن سوى مجرد تحريف في نقل رأي محمد بن عبدوس في مسألة الإيمان تلك . ولقد رووا عنه أنه لم يكن يرى مسألة الاستثناء في الإيمان بدعة فحسب ، كما يقول محمد ابن سحنون ، وإنما إنه كان يخاف أن تصل إلى حد الكفر (٣) .

وعلى أية حال ، فقد أفادت هذه المسألة ، الناحية العلمية عندما تمخض عنها انبعاث حركة تأليفية حسبما سنعرفه في موضعه بعد . وما من ريب في أنها أسهمت في تثبيت إعتقاد الناس من منظور يخالف منظور فرقة المرجئة .

---

(١) كان الفقيه ابراهيم بن عتاب الخولاني (ت ٢٦١هـ) ، يقف مؤيداً لمحمد بن سحنون في مسألة الإيمان ولايكتفي بذلك بل كان مغالياً جداً، حتى انه لم يصل على جنازة ابن عيدوس عصبيه منه . أنظر الخشني : نفسه ، ص٢٠٥-٢٠٦- عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٢٧٠ - ٢٧١ .

(٢) مثل خصومة الفقيه جمديس (ت : ٢٨٩هـ) الذي يؤيد محمد بن سحنون للقاضي حماس بن مروان (ت : ٣٠٣هـ) المؤيد لمحمد بن عيدوس . أنظر عياض : نفسه ، ص ٢٥٤-٢٥٥ - الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص٢٠٣- ٢٠٥ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ١٢٤- الدباغ : نفسه ، ج٢، ٣٦٢- ٣٦٣ .

وفي عـهـد الأمـيـر ابراهيم بن أحـمـد بن مـحـمـد بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ) عـادت مـسـألة خلق القـرآن تطل برأسـهـا ثانية ، ويستمد دعاتها من نفوذ الأمير نفوذاً واستطالة شديدين . وكان الفقية الحنفي الذي يدين بالاعتزال محمد بن عبدون (ت٢٩٧هـ) ، والذي تولى قضاء إفريقية عام ٢٧٥ هـ الموجّه لتلك القضية واثارتها . وينسب للفقيه المالكي المشهور سعيد بن الحداد (٣٠٢هـ) ، الفضل في التصدي لتلك القضية سواء بمؤلفاته في ذلك ، أو بالمناظرات العلمية التي ناظر فيها المعتزلة في مجلس الأمير ابراهيم بن أحمد ، حسبما سنعرف بعد (١) .

ثم عادت القضية ، أي قضية خلق القرآن ، تثور من جديد في عهد الأمير أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٨٩-٢٩٠هـ)، وهو ابن الأمير المذكور سابقاً . ولقد عمد أبو العباس إلى انتهاج أسلوب مغاير لأسلوب أسلافه في تأييدهم لمسألة خلق القرآن . فلم يكتف بالتأييد الاعتقادي العلني ، بل أمر بكتابة منشورات تدعو إلى القول بخلق القرآن بالقوة والإكراه ، الأمر الذي آثار علماء المالكية وأغضبهم (٢) . وكان الذي تولى عظم هذا الأمـر وأقنع الأمـيـر بذلك هو الفـقـيـه الحنفي ذو الميـول الاعتزالية محمد بن شعيب الصديني الذي ولاّه أبو العباس القضاء في نفس العام ، الذي تولى هو فيه الإمرة ، أي عام ٢٨٩ هـ (٣) .

---

(١) أنظر بعد ص ٤٧٢ .

(٢) الخشني : طبقات علماء إفريقية الوارد ضمن كتاب طبقات وعلماء إفريقية لأبي العرب ،ص ٢٣٨ .

(٣) أنظر عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ،ص ٢١ .

وعندما قتل الأمير أبو العباس عام ٢٩٠ هـ عزل ابنه زيادة الله (٢٩٠-٢٩٦هـ) القاضي محمد بن شعيب الصديني ، وولى بدلاً عنه الفقيه المالكي حماس بن مروان (ت ٣٠٣هـ) ، وكتب مخاطباً الخاصة والعامة قائلاً (إني عزلت عنكم الجافي الجلف المبتدع ووليت حماس بن مروان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنة . فرضيت الخاصة والعامة ، وسروا بذلك) .

وعندما قامت الدولة الفاطمية عام ٢٩٧هـ لم نعد نرى في تراجم العلماء والفقهاء المالكية ، أي إشارات لصراعات مذهبية مع المعتزلة . بل عدمنا أي ذكر للمعتزلة في عصرهم . وهكذا اختفت المسألة التي كان يثور الخلاف حولها كقضايا خلق القرآن والأسماء والصفات والجبر والاختيار لتحل محلها قضايا خلاف مذهبي بين المالكية والشيعة ، وهي وإن كانت ذات مساس بجوانب عقائدية وفقهية وسياسية ، إلاّ أنها تختلف مذهبياً بالطبع عن مذهب أهل الكلام كثيراً .

لكن عصر الفاطميين تميز بالخوض في مسألة الإيمان والاستثناء فيه، وقد شجر الخلاف في هذه المسألة بين فقهاء المالكية أنفسهم كما ذكرنا من قبل ، إذ وقف القاضي حماس بن مروان الذي أشرنا إليه قبل قليل ، يؤيِّد موقف محمد ابن عبدوس شيخه في تلك المسألة . وقد وقف يشايعه في موقفه هذا الفقيه أبو الفضل الممسي (ت ٣٣٣ هـ) ، في حين وقف الفقيه أبو ميسرة أحمد بن نزار (ت ٣٣٧هـ) يخاصمهما خصومة شديدة . ولقد وصل الأمر بأبي ميسرة أنه طلب من أبي الفضل الممسي أن يتوب عن قوله،

بل وعول على أن يأخذ عليه محضراً بذلك ، ممّا حدى برفقائهما الفقهاء إلى التدخل والإصلاح بينهما (١) .

على أن الخلاف حول مسألة الإيمان مالبث أن شجر ثانية بين فقهاء المالكية وخاصة بين الفقيه أبي محمد بن التبان (ت ٣٧١ هـ) والفقيه أبي محمد عبد الله بن أبي زيد (ت ٣٨٩هـ) (٢) . ولقد جد حول مسألة الإيمان تلك جديد ، إذ روي أن الفقيه أبا الحكم محمد بن حكمون الربعي الزيات ، قد جاء بمسألة الإيمان فألقاها على مسامع فقهاء إفريقية المعاصرين له . وأدى الأمر إلى اشتعال الخلاف حولها بين الفقهاء وخاصة ابن التبان وابن أبي زيد كما ذكرنا آنفاً (٣) . ويبدو أنه ليس هناك كبير اختلاف بين هذه المسألة وبين المسألة التي دار الخلاف حولها في عصر الأغالبة شطراً من الوقت في عصر الفاطميين .

أما خلال العصر الزيري المتأخر ، فلم نعد نسمع شيئاً عن أهل الكلام وقضاياهم ، وكل ماذكر هو أنه أثيرت في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري مسألة (الكفار هل يعرفون الله تعالى أو لا ؟) . وقد نشب حولها خلاف بين فقهاء المالكية ، حتي وضع الفقيه أبو عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ) حداً لتلك المسألة (٤) .

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢، ص ٣١٣ - ٣١٤، ص ٣٦١ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥٢٣ ، ٥٢٧ - ٥٢٨- الدباغ : نفسه ، ج٣، ص٧٧-٧٨ .

(٣) عياض : نفسه ،ص٥٢٧-٥٢٨ ،٥٣٥-٥٣٦-الدباغ : نفسه ، ص٧٨ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٧٠٥ -٧٠٦ .

جـ - الأصداء العلميـة للصراع المذهبي بين المالكيـة وأتبـاع المذاهب الكلاميـة :

إذا كنا قد تعرفنا على بعض صور مشرقه لأوجه مقاومة المغاربة لأتباع المذاهب الكلامية ، فإن الجانب العلمي من تلك المواقف لايقل إشراقاً ووضوحاً عنها . ولقد مرت المقاومة العلمية - إن جاز هذا القول - عبر قناتين أو وسيلتين ، هما : الجانب التأليفي ، تأليف المؤلفات للرد على أهل المذاهب الكلامية والجانب الآخر ، جانب المناظرات العلمية . وهذان الجانبان اثنان من ثلاثة سبل انتهجها فقهاء المالكية بعد مع الشيعة كما سنعرف في موضعه إن شاء الله .

الحركــــة التأليفيـــــة :

كان من الطبيعي أن لايكتفي فقهاء المالكية بمجرد المقاومة والمقاطعة لأتباع المذاهب الكلامية ، وإنما حرصوا على مواجهة الفكرة بالفكرة والحجة بالحجة في كل مايتعلق بالقضايا التي كانوا يثيرونها وقتذاك ، وهي مسألة خلق القرآن ، ومسألة الأسماء والصفات والجبر والاختيار ، ومسألة الإيمان بصفة خاصة .

وإذا كان عصر الولاة لم يشهد حدوث جهود تأليفية للرد على أتباع المذاهب الكلامية ، فإن عصر الأغالبة حفل بصورة خاصة بظهور مؤلفات عديدة قبل فقهاء المالكية ،ومن قبل المعتزلة حول تلك القضايا الآنفة الذكر .

فالفقيه محمد بن سحنون بن سعيد يؤلف العديد من الكتب التي توضح وجهة النظر الصحيحة حول القضايا الاعتقادية ، مثل كتاب : الحجة على القدرية ، وكتاب الرد على الفكرية ، وكتاب الرد على أهل البدع في ثلاثة أجزاء ، ورسالة في أدب المناظرة في جزئين (١) ... إلى غير ذلك .

وفقيه مالكي آخر يخوض غمار الرد على أتباع المذاهب الكلامية ، فيكتب عدَّة كتب ، ذلك هو الفقيه يحيى بن عمر الكناني الأندلسي المتوفى سنة ٢٨٩ هـ . ومن تلك الكتب نذكر : كتاب الرؤية ، أي كأنما هو رد على المعتزلة الذين ينكرون رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وكتاب الرد على المرجئة إلى غير ذلك (٢) .

والحقيقة أن مسألة خلق القرآن ، هي أهم القضايا التي كان يثور النزاع حولها ، والتي كانت قطب الرحى في الحركة التأليفية كما نظن ، رغم أننا لم نعثر إلاّ على إشارات يسيرة جداً عن تلك المؤلفات . وعلى أية حال فإن فقهاء الأحناف المعتزلة كانوا حسبما تشير أكثر المصادر السبّاقين إلى التأليف في تلك المسألة ، ثم شرع فقهاء المالكية يردون عليهم .

فمن أولئك الفقهاء الأحناف سليمان بن أبي عصفور ، المعروف بالفراء فقد ذكر الخشني (٣) أنه كان (له كتب في مذهبه في : خلق القرآن) ، وإن لم يذكر أسماء تلك الكتب صراحة . ومنهم كذلك الفقيه محمد بن الكلاعي

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ - الدباغ : نفسه ، ج٢ ص ٣٥٢ .

(٣) نفسه ، ص ٢٨٦ .

الذي صنف كتاباً يؤكد فيه القول بخلق القرآن . ويبدو أن السبب في ذلك هو أن الفقيه المالكي سعيد بن الحداد المتوفى سنة ٣٠٢هـ ، صنف كتاباً يرد فيه على القائلين بخلق القرآن . وأثار هذا التصارع العلمي بين الرجلين فقيهاً مالكياً آخر ، وهو ابراهيم بن محمد الضبي المقتول لاحقاً في عصر الفاطميين عام ٢٩٧ هـ فصنّف كتاباً يناقض فيه الكلاعي ، ويسفّه ماجاء في كتابه آنف الذكر، ممّا دفع الفقيه محمد بن عبدون - الذي كنا قد أشرنا إلى دوره في التآليب على من ينكر خلق القرآن ، إلى أن يستغل الفرصه لاحقاً بالتنسيق مع الكلاعي في الوشاية بالضبي عند عبيد الله المهدي أثناء دخوله القيروان (١) .

وعندما ثارت مسألة الإيمان والاستثناء فيه بين محمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس ، وانقسم قطاع كبير من فقهاء المالكية إلى سحنونية وشكوكية ، كان هذا مدعاة للإنبراء إلى التأليف حول تلك المسألة .

وفي الحق ، لقد تزعم محمد بن سحنون ومن وقف معه من فقهاء المالكية وقتذاك ، ذلك الاتجاه ، على ماعرفناه من نفي الفقيه محمد بن عبدوس لما أتهم به . وهكذا نرى محمداً بن سحنون يؤلف كتاباً بعنوان : كتاب الإيمان والرد على أهل الشرك (٢) . وأتبعه فقيه مؤيِّد له ، وهو الفقيه عبد الله بن غافق التونسي (ت ٢٧٥هـ) (٣) فوضع رسالة في مسألة

---

(١) الخشني : نفسه ، ص ٢٨٩ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) هكذا رجح عياض : نفسه ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ ، وإن كان قد ذكر الأقوال الأخرى ، فقال قيل سنة ٢٧٧هـ ، وقيل ٢٧٣هـ .

الإيمان كان لها صدى طيباً في إفريقية وقتذاك (١) .

ويتعصب فقيه ثالث لمحمد بن سحنون ، وهو الفقيه يحيى بن عمر الكناني ، فيؤلِّف كتاباً حول تلك المسألة ويسميه - فيما يدل على مغزاه العميق - كتاب الرد على الشكوكية (٢) . ويتبعه الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي البجلي الذي أشرنا إليه أنه أحد من مال إلى المذهب الشافعي (٣)، فيصنف كتاباً بعنوان : الرد على الشكوكية (٤) أيضاً .

وحظيت الخلافات الفقهية بين المالكية والحنفية فيما يتصل بالوجه الشرعي في مسألة النبيذ ودرجته ، ومسألة شربه (٥) ، بالعديد من المؤلفات من قبل فقهاء المالكية . وكان لمحمد بن سحنون أيضاً دور معروف في ذلك . فقد صنَّف كتاباً بعنوان تحريم المسكر وهو الكتاب الذي طالبه فيه والده أن يتحرى الدقة والموضوعية في ردِّه على القائلين بعدم التحريم (٦) . ومن كتبه كذلك : كتاب الإباحة ، وكتاب الأشربة (٧) .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) الخشني : نفسه ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) أنظر قبل ص

(٤) الخشني : نفسه ، ص ٢٧٨- ٢٧٩ .

(٥) لايفهم من هذا أن الأحناف يبيحون شرب الخمر فهو محرم دون شك عند كل المذاهب الإسلامية ، غير أن لهم رأياً في النبيذ ، فهم يفرقون بين نيئ العنب ومطبوخه ، ويبيحون شربه مالم يبلغ بشاربه عدم التمييز) ، وهذا ما لايذهب إليه المالكية إطلاقا . أنظر عبدالعزيز المجذوب : المرجع السابق ، حاشية رقم٤ ص٧٢ (نقلاً عن القاضي عياض في كتاب المدارك) المخطوط والمحفوظ بالمكتبة الوطنية بتونس ، العدد ٤٨١٧ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٧) عياض : نفسه ، ص ١٠٧ .

وفي عصر الأغالبة ثارت قضية بين الفقيه يحيى بن عمر الكناني الذي مر بنا ذكره ، وبين عدد من فقهاء المالكية أصحابه ومؤيديهم ، وهي قضية حضور مجلس مسجد السبت . ومسجد السبت هذا كان أحد المساجد المعروفة آنذاك في القيروان ، وكان يغص بالعباد والزُّهاد ، ويشاركهم بعض فقهاء القيروان ، وكانوا يتخذون من كل يوم سبت فرصة للالتقاء هناك وتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم ، ثم تُتداول حكايات الصالحين ، ومن ثم يقف أحد المنشدين فيلقي أشعاراً ملحنة تحث على الزهد والعبادة تعرف بالرقائق . ولقد رأى الفقيه يحيى بن عمر في ذلك بدعة ، فأخذ يشدِّد النكير بعدم حضوره حتى أنه أوذي في سبيل ذلك (١) .

ونحن لايهمنا بالطبع إلاّ ماانعكس من أثر علمي على الدراسات الشرعية من جراء الخلاف ، وذلك عندما وقف يحيى بن عمر معارضاً ذلك ، ومؤلفاً كتاباً (في النهي عن حضور مسجد السبت) (٢) . ولسنا في حاجة إلى القول بأن ذلك قد أفاد العلم ومسيرة الدراسات الشرعية دون شك .

المناظرات العلمية :

وإلي جانب خوض غمار التأليف للرد على أتباع المذاهب الكلامية في القضايا التي كانوا يثيرونها ، وقف فقهاء المالكية يعقدون المناظرات العلمية

---

(١) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٣٩٩ - ٤٠١ ، وأنظر الحاشية رقم ١، ص ٩٩م - الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص٢٣ - ٢٣٩ .

(٢) المالكي : نفسه ، ج١ ،ص ٤٠١ - الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٣٨.

مع فقهاء المعتزلة . بيد أن وجه الحق هنا ، هو أن معظم تلك المناظرات كانت بمبادرة أولية من فقهاء الأحناف المعتزلة ، ومن بعض الأمراء الأغالبة الذين شايعوهم في تلك القضايا .

فمن أوائل هذه المناظرات ، تلك التي جرت بين الفقيه المالكي المشهور أسد بن الفرات والفقيه الحنفي المعتزلي سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء والذي أشرنا إليه سابقاً . وذلك أن أسداً كان يحدِّث يوماً بحديث رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، فأنكر سليمان ذلك ، الأمر الذي أغضب أسد بن الفرات فقام إليه فضربه ضرباً شديداً (١) .

وموقف (٢) علمي آخر لايرقى إلى مستوى المناظرة ، وهو أن أسداً كان يفسر القرآن ، فتلى القارئ :﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (٣) . فقال له أحد فقهاء الأحناف المعتزلة : إن المقصود بالنظر الانتظار ، ففهم أسد غرضه ، وهو نفي رؤية الله سبحانه وتعالى ، فقام إليه مهدداً بضربه ، وآمراً اياه بالاعتراف بالرؤية البصرية المجردة ، ممّا دفع الرجل إلى الإذعان قائلاً : (نعم ننظره) (٤) .

---

(١) أبو العرب التميمي : المصدر السابق ،ص ٨٢ – المالكي : نفسه ، ص ١٨٢ .

(٢) يبدو أن هذه الحادثة لا تختلف كثيراً عن الحادثة التي قبلها ، فالتشابه كبير بينهما ، حتى في اسمي الرجلين المعتزليين ، ففي الأولى عرفنا أن اسمه سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء ، وفي الحادثة الثانية أشار المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ١٨٢، إلى أن اسم الرجل سليمان ابن حفص ، غير أننا مع إيراد الحادثتين معاً نميل إلى أن الحادثتين جرت مع شخص واحد فقط .

(٣) سورة القيامة : آية رقم ٢١ ، ٢٢ .

(٤) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ١٨٢ .

وكثيراً ماكان أسد بن الفرات يقرِّع المعتزلة ويسفِّه آرآءهم ، إذ يروي أنه كان مرة يفسِّر قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ (١) . فقال أسد عندها (ويل لأهل البدع ، هلكت هوالكهم يزعمون أن الله عز وجل خلق كلاماً ، يقول ذلك الكلام المخلوق : لا إله إلا أنا) (٢) .

وفي عصر الأمير الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٣-٢٢٦هـ) جرت مناظرة في مجلسه بين بعض فقهاء المالكية وبعض فقهاء الأحناف المعتزلة ، حول مسألة خلق القرآن . وذلك أنه روى أن الفقيه المالكي عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفي عام ٢٢٧هـ - كما عرفنا من قبل - ، دخل على الأمير الأغلب فوجد فقيهين أحدهما مالكي والآخر معتزلي يتناظران في مسألة خلق القرآن وكلاهما يصر على رأيه . وقد وقف عبد الله بن أبي حسان ينكر بالطبع مسأله خلق القرآن بشده ، حتى أنه لم يتورع من تجريح الأمير نفسه عندما حاول المعتزلي أن يحصل على مساندته في مناظرته لابن أبي حسان اليحصبي ، مما أغضب الأمير (٣) .

وكانت هذه المسألة، أي مسألة خلق القرآن أهم مثار النزاع بين الفريقين كما ذكرنا من قبل. وفي هذا الخصوص روى أبو العرب التميمي (٤) ، أن مجلساً ضم الفقيه المالكي موسى بن معاوية الصمادحي

---

(١) سورة طه : آية رقم ١٢ ، ١٣ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص٨٢ - المالكي : نفسه ، ص ٨٢ .

(٣) أنظر أبو العرب : نفسه ، ص ٨٩- ٩٠ - المالكي : نفسه ، ص ٢٠١ -٢٠٢ .

(٤) كتاب المحن ، ص ٤٦٢ .

والفقيه الحنفي المعتزلي عبد الله بن أبي الجواد – والذي كان قاضياً وقتذاك – ، فأثيرت تلك المسألة ، فقال موسى : سمعت فلاناً وفلاناً ، وذكر جماعة من أهل العلم يقولون : من قال : القرآن مخلوق فهو كافر . فقال له ابن ابي الجواد : لقد أعمى الله قلبك كما أعمى عينيك . وكان موسى بن معاوية قد كف بصره) .

وعندما استبد الأمير أحمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب ولي عهد أخيه محمد (٢٢٦-٢٤٢هـ) بالأمر دونه ، وفوَّض له الأمر والنهي (١) ، شرع يرفع ثانية مسألة خلق القرآن . ودعا بها على المنابر في المساجد . ولقد كان حريصاً على معرفة رأي الفقيه الأشهر سحنون بن سعيد ، بل على موافقته للقول بخلق القرآن كرها . ولذلك وجَّه في طلبه للحضور للمناظرة . وبالفعل جاء سحنون إلى مجلس الأمير ، وهناك أخذ القاضي الحنفي المعتزلي ابن أبي الجواد يوجِّه له الأسئلة حول تلك المسألة . فكان جواب سحنون له : (أصلح الله الأمير ، أما شئ أبتديه من نفسي فلا ، ولكن الذي سمعت ممَّن تعلمت منه وأخذت ديني عنه أنهم كانوا يقولون : إن القرآن كلام الله ، وليس بمخلوق (٢) . فقال له ابن أبي الجواد : أيها الأمير إنه قد كفر فاقتله ودمه في عنقي ، وقال مثل ذلك نصر بن حمزة القائد

---

(١) عاد الأمير محمد بن الأغلب فاسترد سلطانه وامرته من أخيه أحمد بعد أحداث كبيرة ، ثم نفاه إلى مصر ، ومن مصر توجه إلى العراق حيث بقي إلى أن توفي هناك . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : تاريخ المغرب العربي ،ج١ ، ص ٨٢ – ٨٣ الحواشي .

(٢) المقصود به محمد بن سحنون الذي روى القصة عن أبيه . أنظر أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ص ٤٦٢ .

وغيره . فقال لداود بن حمزة (١) : ماتقول ياداود . قال : أصلح الله الأمير، قتله بالسيف راحة له، ولكن اقتله قتل الحياة ، يؤخذ عليه الحملاء (٢) ، وينادى عليه بسماط القيروان لايفتي ولايسمع أحداً ، ويلزم داره ، ففعل ذلك أبو جعفر (٣) ، وترك قول من أشار عليه بقتله وأمر بأحد عشر حميلاً ، فكان ممّن تحمل به ابن علاقة وغيره ، ومنع الله عز وجل القوم من قتله) (٤) .

ويبدو أن قضايا خلق القرآن وقضايا القضاء والقدر وغيرها التي كانت شائعة آنذاك ، كانت تدفع ببعض فقهاء المالكية إلى التصدي لها حتى قبل وقوعها، حماية لمعتقدات الناس من البلبلة والتشويش.. ومن هنا نري فقيهاً مالكياً معروفاً، وهو الفقيه عون بن يوسف الخزاعي المتوفى عام ٢٣٩هـ يملي على طلبته إجابة لمناظرة محتملة مع القدرية ، تقفل عليهم الطريق . ذكر المالكي (٥) عن عون بن يوسف قوله : (إذا أردت أن تكفر القدري فقل له : ما أراد الله عز وجل من خلقه ؟ فإن قال : « أراد منهم الطاعة » ، فقد كفر ، لأن منهم من عصى وكل إله لاتتم طاعته ، فليس بإله .

---

(١) أحد قواد الأمير أحمد بن الأغلب ، أنظر أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ص ٤٦٤ .

(٢) المقصود بذلك : الضمناء ، وهو ما أشار إليه صراحة الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٩٦ - في رواياته لأحداث تلك المناظرة .

(٣) كنية الأمير أحمد بن الأغلب : أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٧٩ وما بعدها .

(٤) أبو العرب التميمي : المحن ، ص ٤٦٢ - ٤٦٥ - عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٦١٠- ٦١١ مع شئ من الاختلاف - الدباغ : نفسه ، ص ٩٤- ٩٦ ، مع اختلاف يسير في الرواية .

(٥) نفسه ، ج١ ، ص ٢٩٨.

وإن قال : أراد منهم المعصية ، فقد كفر لأن منهم من أطاع ، وكل إلهٍ لاتتم ارادته فليس بإله . قال : فإن قال لك المسؤول : ما أراد منهم ؟ فقل : أراد منهم الذي أراد لهم والذي كان لهم . - يريد ماسبق لهم (١) عنده في اللوح المحفوظ) .

على أن الفقيه محمداً بن سحنون تحمل عبئاً كبيراً في مسألة المناظرات مع المعتزلة سواءً بمحضر الأمير الأغلبي أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٥٠-٢٦١هـ) الذي عاش محمد بن سحنون في عهده ، أو مع فقهاء الأحناف المعتزلة . وفي كل تلك المناظرات كان محمد بن سحنون العلم المجلى .

ولنبدأ بمناظرته مع الأمير أبي الغرانيق . فقد روى أن الأمير وجَّه في طلب محمد بن سحنون ، وعندما قدم عليه ، سأله الأمير عن قوله في يزيد (٢) بن معاوية بن أبي سفيان . ففهم محمد بن سحنون المغزي الذي يرمي إليه الأمير ، بحكم كونه معتزلياً ، أي أنه عرف مقصد الأمير الذي يريد أن يحمله علي معتقده في مرتكب الكبيرة ، وهي إحدى الأصول الخمسة التي يقوم عليها المذهب

---

(١) جملة اعتراضية من المالكي يوضح فيها ماقصده عون بن يوسف من كلامه ذلك .

(٢) في أصل النص ، لم يرد حقيقة أنه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فالواقعة روت أن الأمير سأله ما تقول في (يزيد) فحسب ، لكن المعقول أنه يقصد هنا يزيد بن معاوية بن أبي سفيان لأن السياق يدل على ذلك ، فالأمير كان يريد معرفة رأي محمد بن سحنون في أعمال يزيد التي أفاض المؤرخون وبعض الفقهاء في ذكرها كما هو معروف .

الاعتزالي (١) . فكان من جواب محمد بن سحنون له : (أصلح الله الأمير، ما أقول ماقالت الإباضية ولا ما قالت المرجئة . قال : وما قالت ؟ . قال : قالت الإباضية : إن من أذنب ذنباً فهو من أهل النار ، وقالت المرجئة : لا تضر الذنوب مع التوحيد . أما يزيد (٢) عظيماً جسيماً ، ويفعل الله في خلقه ما أحب ثم انصرف) (٣) .

ولمحمد بن سحنون موقف مناظرة آخر مع أحد المعتزلة في مجلس أحد وزراء الأغالبة الذين لايميلون إلى رأي المعتزلة ويدعى ابن حميد . وكان ذلك المعتزلي المدعو بأبي سليمان النحوي قد قدم من المشرق ، وكان يقول بخلق القرآن . فطلب الوزير من محمد بن سحنون أن يناظر هذا المعتزلي ، فكان ممّا قاله له ابن سحنون : (تقول أيها الشيخ أو تسمع ؟ فقال له الشيخ : قل يابني ، فقال محمد : أرأيت كل مخلوق هل يذل لخالقه ؟ ، فسكت الشيخ ولم يحر جواباً ، ومضى وقت طويل وانحصر ولم يأت بشئ .

---

(١) نعتقد أن هذا هو المغزى الحقيقي من سؤال الأمير لمحمد بن سحنون عن يزيد بن أبي سفيان . لأن المعتزلة لهم رأى في مرتكب الكبيرة ، وأنه في منزلة بين المنزلتين ، وفي هذا الصدد نعتقد أيضاً أن التوفيق جانب سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ،ص ١٠٩ عندما فسر سؤال الأمير لمحمد بن سحنون على أنه قصد به امتحان محمد بن سحنون في موقفه من الأمويين والعباسيين فإذا وقف محمد بن سحنون إلى جانب الأمويين من خلال قوله في يزيد فإنه سينكشف موقفه السياسي المعادي للعباسيين ، ونحن نستبعد أن يكون السؤال ذا مغزى سياسي ، ونرجح أنه ذوى مغزى مذهبي بدليل أن السياق كله يدل على ذلك .

(٢) هكذا وردت في النص ، وقد علّق محقّق المدارك أحمد بكير محمود في الحاشية أن المقصود بها ربما : (فكان ذنبه) وأما يقارب ذلك ، لكن نعتقد أن الكلمة الأنسب ، ربما هي : أتى يزيد عظيما جسيما ويفعل الله ... الخ) .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١١٢-١١٣ .

فقال له محمد : كم سنة أتت عليك أيها الشيخ ؟ ، فقال له : ثمانون سنة ، فقال ابن سحنون للوزير ابن حميد : قد اختلف أهل العلم في الصلاة على الميت بعد سنة من يوم موته – وفي نسخة : إذا دفن ولم يصل عليه ، وهذا الشيخ له ثمانون سنة ميت في عداد الموتى ، فقد سقطت الصلاة عليه بإجماع ، ثم قام فسر بذلك على بن حميد وأهل المجلس (١) .

وليس من شك في أن مناظرة محمد بن سحنون تلك تدل على مقدرة جدلية تعتمد على زاد لاينفد من التشبّع بالثقافة الدينية . ولقد طُلب – من بعد – من محمد بن سحنون أن يوضّح لهم ماذا يعني بسؤاله للمعتزلي ، فقال لهم : (إن قال ان كل مخلوق يذل لخالقه ، فقد كفر ، لأنه جعل القرآن ذليلاً لأنه يذهب إلى أنه مخلوق . وقد قال الله عز وجل : ﴿ وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٢) وإن قال إنه يذل فقد رجع إلى مذهب أهل السنة لأنه لايذهب (في هذه الحالة)(٣) إلى أنه مخلوق ، الذي هو صفة من صفاته) (٤) .

وثمة مناظرة أخرى مع الفقيه المعتزلي سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء ، والذي مربنا ذكره من قبل . وقد سأل محمد بن سحنون

---

(١) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٣٥٠ .

(٢) سورة فصلت : آية رقم ٤١– ٤٢ .

(٣) زيادة اقتضاها السياق ، وقد وضعها على ذلك النحو محقق الجزء الأول من رياض النفوس حسين مؤنس .

(٤) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص٣٥٠ – ٣٥١ .

سؤالاً له مغزاه ، فقال له : (يا أبا عبد الله . الله سمى نفسه) ؟ فأجابه محمد بن سحنون قائلاً : الله سمى نفسه لنا ، ولم يزل ، وله الأسماء الحسنى) (١) . وقد علق محمد بن حارث الخشني (٢) على سؤال سليمان الفراء لمحمد بن سحنون أنه سؤال قصد به الإفحام والإسكات . لأن محمداً ابن سحنون لو أجاب بالقول : نعم ، فقد أثبت على نفسه الإقرار بحدوث الأسماء والصفات . لكن محمداً أفسد عليه تدبيره .

ومن المناظرات العلمية المدوية ، والتي دارت حول مسألة خلق القرآن تلك التي خاضها الفقيه المالكي المشهور سعيد بن الحداد مع أحد فقهاء المعتزلة وهو القاضي عبد الله بن الأشج قاضي الأمير الأغلبي ابراهيم الثاني المتوفى عام ٢٨٩هـ . وهي مناظرة عميقة الأثر ، دلت على قدرة جدلية منطقية كبيرة لدى سعيد بن الحداد . فقد تصدى لابن الأشج وللأمير معاً ، ووضّح لهما خلال تلك المناظرة بأدلة نقلية وعقلية منطقية استحالة أن يكون القرآن مخلوقاً . ولم يكن أمام الأمير إلاّ أن يسلم بهزيمته وهزيمة قاضيه ، غير أنه قال له أخيراً : أنت لا تضطرني إلى مذهبك وأنا أضطرك إلى مذهبي) (٣) .

---

(١) الحشني : نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٢) نفسه .

(٣) المالكي : نفسه ، ج٢ ،ص ٧٠ – ٧٥ .

الأثر العلمي للصراع المذهبي في إفريقية بين المالكية والأباضية :

أ - نبذة عن دخول المذهب الخارجي بلاد المغرب :

قبل أن نتصدى للحديث عن الانعكاسات العلمية للخلاف المذهبي بين المالكية والإباضية في إفريقية (المغرب الأدنى) خلال الفترة الزمنية موضع اهتمامنا ، تستدعي ضرورة السياق التاريخي أن نعقد نبذة تاريخية عن كيفية دخول المذهب الخارجي بلاد المغرب والأسباب التي أدت إلى انتشاره بين البربر ، وما رافق ذلك من أحداث سياسية وعسكرية ، ثم الأماكن التي استقر بها ... الخ .

يرى كثير من المؤرخين قدامى ومحدثين أن بلاد المغرب العربي لم تعرف من فرق الخوارج سوى فرقتين فقط ، هما الفرقة الإباضية والفرقة الصفرية (١) . وفي هذا الصدد يشير محمود اسماعيل عبد الرازق (٢) إلى أن ماتردد من أقوال عند بعض المؤرخين تشير إلى انتشار آراء بقية فرق

---

(١) السلاوي : الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، ج١، ص١٣٤ - ١٣٥ سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ج١ ، ص ٢٨٧ مع الحواشي (نقلا عن عدة مصادر) - محمود اسماعيل عبدالرازق الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٤٤ مع الحواشي (نقلا عن مصادر مختلفة) - رفعت فوزي عبدالمطلب : الخلافة والخوارج في المغرب العربي ، الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغالبة ص٢٠ -٢٤ ، ٢٧-٣٠ ، (نقلا عن مصادر واسعة) - الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي - الحياة الإقتصادية والإجتماعية (قرن ٣-٤هـ / ٩ - ١٠م) ص ١٩٠ - ١٩٢ نقلاً عن عدد من المصادر الإباضية) .

(٢) الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٤٣ -٤٤ مع الحواشي .

الخوارج الأخرى في المغرب أمر « مشكوك فيه » (١) وعلى أية حال فإن ماتمخّضت عنه مجريات الأحداث السياسية والعسكرية للخوارج في المغرب العربي منذ أن تسربت إليه آراء الخوارج لاتتحدث إلاّ عن فرق : الإباضية والصفرية فحسب .

أما عن التحديد الزمني لتسرب المذهب الخارجي إلى بلاد المغرب ، فالواقع أن المصادر والمراجع التي تعرّضت لذلك . لم تستطع تحديد زمن دقيق واضح ، بيد أنها أشارت إلي أن المذهب الخارجي قد ظهر في المغرب بفرقتيه : الإباضية والصفرية في وقت متقارب أو متزامن وذلك في أوائل العقد الأول من القرن الثاني (٢) الهجري .

فلقد تتابع تقاطر دعاة الخوارج الصفرية إلى المغرب لنشر تعاليم فرقتهم الخارجية بين قطاع كبير من البربر وخاصة بربر المغرب الأقصى موطنهم الأصلي (٣) . كما انتشرت تعاليم الفرقة الصفرية بين الأفارقة

---

(١) رد محمود اسماعيل عبدالرازق : نفس المرجع السابق والصفحات ، على تلك الأقوال التي قالت بإنتشار آراء بقية الفرق الخارجية الأخرى كما ناقش الآراء الأخرى التي شككت في انتشار فرقتي الإباضية والصفرية في بلاد المغرب ، ورد عليها بموضوعية مهمة .

(٢) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٨٦ - محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص٤٧، ٥٤ (نقلا عن مصادر متعددة كذلك) - فوزي عبدالمطلب : نفس المرجع السابق ، ص٢٩- عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية، ص ١١ ، ١٣٣- ١٣٤ - الحبيب الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٨٢ (وفيها ذكر صراحة دون ان يشير لمصادره أن مذهب الخوارج قد دخل إفريقية عام : ١٥٠هـ ، ص ١٥٧ ، وفيها دون أن يشير لمصادره كذلك أن المذهب الإباضي ، دخل إفريقية في أوائل المائة الثانية من الهجرة سنة ١٢٠هـ ومابعدها تقريباً .

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع الساق ، ص ٤٨ - عوض خليفات نشأة الحركة الإباضية ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

الذين كانوا يشكلون عنصراً سكانياً مستقلاً آنذاك في المغرب ، وذلك بوساطة زعيمهم عبد الأعلى بن جريج الافريقي (١) . وبالإضافة إلى المغرب الأقصى تغلغلت مبادئ الدعوة الصفرية في جنوبي المغرب ، أي بلاد السودان (٢) ، وفي بعض أجزاء المغربين الأدنى والأوسط (٣) .

أما مبادئ الفرقة الإباضية ، فقد ظهرت في المغرب في وقت متقارب مع مبادئ الفرقة الصفرية كما ذكرنا آنفاً . وإلى سلمة بن سعيد الحضرمي تحديداً يعود أمر ظهورها وانتشارها في بلاد المغرب . ولقد ذكر المؤرخون أن سلمة بن سعيد ، وفد إلى بلاد المغرب للدعوة للإباضية تنفيذاً لأوامر زعيم المذهب آنذاك أبي عبيدة مسلم بن كريمة التميمي الذي كان يقيم في مدينة البصرة (٤) .

ولقد اتخذ سلمة بن سعيد من المغرب الأدنى ميداناً لنشاطاته ، حيث أفلح في اكتساب أنصار لدعوته في إقليم طرابلس ، وخاصة بين القبائل التي تقيم في جبل نفوسه ، كما أفلح في تدريب بعض أبناء طرابلس وغيرها، لتولي أمر الدعوة للمذهب بين أبناء جلدتهم (٥) .

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٠١ .

(٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٠١ .

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص٥٠ رفعت فوزى عبدالمطلب : نفس المرجع السابق ، ص ٦٠ -٦١ - الطاهر أحمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ١٨٢ .

(٤) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص٥٤-٥٥ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص٢٧-٢٨- عوض خليفات : نفسه ، ص١١، ١٣٦ (وقد أشار إلى أن سلمة بن سعيد قدم القيروان قبل عام ١٠٤هـ) .

(٥) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٤- ٥٥ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ٢٧ =

وإلى جانب جهود سلمة بن سعيد في الدعوة للإباضية تابع أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر ،وهو أحد أبناء افريقية الذين تلقوا علومهم على يد شيخ المذهب بالبصرة ، مواصلة نشر تعاليم ، المذهب الإباضي بين بربر قبيلة نفوسة بالجبل ممّا جعل الجبل بعد ذلك (دار هجرة)(١) ، ولم يقتصر انتشار المذهب الإباضي على قبيلة نفوسة وحدها ، وإنما انتشر بين القبائل الآخرى كذلك (٢) .

ولقد قدر للمذهب الإباضي أن تستقر قواعده بعد ذلك على أيدي الطلبة الذين ذهبوا إلى البصرة عام ١٣٥هـ ، ثم عادوا في سنة ١٤٠هـ لينشروا ويثبتوا دعائم المذهب في بلادهم ، أي المغرب الأدنى وأجزاء من المغرب الأوسط (٣) ، وأما عن انتشاره في المغرب الأقصى ، فإننا في الواقع لم نعثر لدى المؤرخين قدامى ومحدثين على مايشير إلى ذلك .

وكيفما كان الأمر فقد انتشرت آراء وتعاليم الفرقتين الخارجتين : الإباضية والصفرية ، في كل بلاد المغرب على النحو الذي أشرنا إليه آنفاً . ولقد أدت الظروف والأحداث التاريخية الداخلية التي تعرّض لها المغرب

= ٣٠ - عوض خليفات : نفسه ، ص ١٣٦- ١٣٧ .

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص١٥٤ .

(٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص٥٥ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص٥٣ - ٦١ .

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص٥٥- رفعت فوزي : المرجع السابق ص٢٧ - ٢٨ - عوض خليفات : نفسه ، ص١٣٦ - ١٣٧ - صالح باجية : نفسه ، ١٦، ٣٤، ٣٥ - على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ص٢٣٢ - صالح مفتاح - برقة طرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، ص٥٠ - ٥١ .

وقتئذ والتي سنطرق بابها بعد قليل إلى انتشارها انتشاراً واسعاً بين البربر. كما سهلّت الظروف الخارجية التي تعرَّضت لها الدولة الأموية من فرص تمذهب البربر بالمذهب الخارجي بل والثورة على الدولة الأموية نفسها، ثم العباسية .

ويمكن للمتتبِّع للأحداث السياسية في المغرب آنذاك أن يقرِّر أن البربر الخوارج هم الذين شكَّلوا الأحداث السياسية العسكرية للمغرب منذ أوائل القرن الثاني الهجري - حيث تسرَّبت الدعوة الخارجية - وحتى العقد الثامن منه تقريبا . وكانوا وقتها هم السلطة المهيمنة على شئون المغرب واحداثه .

على أن الشئ الجدير بالتنبيه هنا هو أن المذهب الخارجي بفرعيه : الإباضي ، والصفري لم ينتشر بين كل القبائل البربرية ، فقد أحجمت بعض القبائل عن التمذهب به (١) كما أن بعض القبائل البربرية التي كانت قد مالت إليه من قبل ، لم تستمر على خارجيتها فقد انسحبت منه كما هو ثابت تاريخياً (٢) .

أما وقد أتينا على ذكر كيفية دخول المذهب الخارجي والتحديد الزمني لذلك والمناطق التي انتشر بها ، فإن الحاجة تستدعي كذلك أن نذكر الأسباب والبواعث التي دفعت البربر إلى التمذهب بالمذهب الخارجي ، بل

---

(١) أنظر رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ٦٠- ٦١ - ويضرب المثل بقبيلتي صنهاجية وأوربة ، فصنهاجة ظلت في غالبيتها بعيدة عن المذهب الخارجي وكذلك أوربة في المغرب الأقصى .

(٢) أنظر رفعت فوزى عبدالمطلب : نفسه ، ص ٦١ -٦٢ .

والتمسك به إلى الدرجة التي جعلتهم يثورون على الدولتين الأموية والعباسية في سبيل نصرة مذهبهم .

لقد قيل الكثير عن تلك الأسباب التي تعددت مناحيها واتجاهاتها . ونحن بالطبع ليس من مهمتنا تفنيد تلك الأسباب واخضاعها للتحليل والتدقيق التاريخيين للوقوف على الأصوب فيها ، بقدر مايهمنا الإشارة إلى أهمها والتي لقيت إجماعاً من قبل المؤرخين قدامى ومحدثين على السواء .

ومهما يكن من أمر ، فإن غاية مانستطيع قوله هنا ، هو إن ثمة أسباباً عديدة ، أدت إلى أن يلقى المذهب الخارجي القبول لدى البربر . ويأتي في مقدمة تلك الأسباب : عوامل دينية وسياسية واقتصادية تلازمت جميعها في دفع البربر للأخذ بالمذهب الخارجي ، وتعاليمه وشعاراته (١) . فلقد راع البربر أن ينظر إليهم – على إسلامهم – ، بذات النظرة التي ينظر بها لغير المسلمين وذلك في الحقوق والواجبات . فمن الناحية الدينية فوجئوا بالتفريق في المعاملة بينهم وبين العرب ، لاسيما وهم الذين استهواهم في الدعوة الخارجية ، المبدأ الذي يجعل من أعلى السلطات السياسية في الدولة الإسلامية فضلاً على غيرها حقاً متاحاً لكل مسلم دون النظر إلى جنسه أو لونه ، أو وضعه الاجتماعي .. الخ . كما ساعهم التشكيك في إسلامهم

---

(١) عن تلك الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية المتلازمة : أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص ٢٦٨– ٢٦٩– ٢٨١ – ٢٨٦ – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٠٨– ٢١٦ – محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٦٧–٧٢ و قد أشار هؤلاء إلى منقولاتهم عن المؤرخين القدامى وماهداهم أنفسهم إلى التحليل التاريخي للبواعث أو الأسباب التي دفعت بالبربر للتمذهب بالمذهب الخارجي .

والاعتداء على أعراضهم وأموالهم ، ومن الناحية السياسية البحتة ، ساهم التفرقة في المعاملة بينهم وبين العرب في الحروب والمغانم (١) .

ومن الناحية الاقتصادية ،وهي القضية التي اشعلت الثورة الكبرى ودفعت بهم إلى الارتماء في ظل المذهب الخارجي – بحكم أن الباعث الاقتصادي كان وثيق الارتباط بالباعثين الديني والسياسي – من هذه الناحية أغضبتهم السياسة المالية الخاطئة التي انتهجتها بعض ولاة الدولة الأموية ، مثل الاشتطاط في جمع الأموال من البربر بشتئ الطرق والوسائل، حتى تلك التى تشكك في اسلامهم ، وتعتبرهم وأرضهم فيئاً لابد أن نطلق عليها قواعد الفيئ من التخميس وخلافه كما هو معروف (٢) .

كل هذه الأسباب متداخلة أدت إلى أن يلقى المذهب الخارجي تجاوباً هائلاً بين البربر في مدة زمنية قصيرة ، ليس هذا فحسب بل وخوض ثورات متلاحقة ضد العرب كما هو ثابت تاريخياً وكما سنتطرق إليه بعد قليل بإيجاز ، فلقد بدت لهم الدعوة الخارجية الوسيلة التي تحقّق لهم وجودهم وحقوقهم وتحفظ لهم كيانهم . ولقد تزامن ذلك مع حدثين مهمين أولهما : ضعف الدعوة الخارجية

---

(١) أنظر ابن الأثير : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤٥ (لمعرفة القضايا التي كان يشتكي منها المغاربة كما عبروا هم عن ذلك قبل أن يثوروا على الدولة الأموية) .

(٢) عن السياسة المالية الخاطئة من حيث دواعيها ومن قام بها من الولاة ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٦١، ٢٨٢، ٢٨٣ – السيد عبدالعزيز سالم ، نفسه ، ص ٢٠٧، ٢١٣–٢١٤– رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ٦٩ .

في المشـرق بسبب ماتلقته من ضربات قاصمة من الأمويين (١) والأمر الثاني ، ضعف الدولة الأموية وتردّي أوضاعها منذ وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك (٢) ، ولذلك فلقد تضافرت كل تلك الأسباب جميعها إلى أن يعلن البربر ثورتهم الضخمة ضد الدولة الأموية ، فالعباسية بعد ذلك .

وقبل أن نختتم الحديث عن الأسباب التي أدت إلى تمذهب البربر بالمذهب الخارجي ، لايفوتنا أن نشير إلى أن هناك تفسيرات أخرى جاءت على أقلام بعض المستشرقين وهي التي تفسِّر سبب إقبال البربر على المذهب الخارجي ، بالرغبة في الغنائم والطمع بها والتي لم تتحقَّق لهم عندما أسلموا . وليس الأمر أمر عقيدة . هذا ولمّا لم تتحقق لهم تلك الرغبة تمردوا باسم المذهب الخارجي (٣) ولقد انبرى رفعت فوزي عبد المطلب (٤) الذي أشار إلى ذلك لتفنيد تلك التفسيرات ، موضحاً عدم وجاهتها وصوابها . كما أن فريقاً آخر من المستشرقين وخاصة الفرنسيين ، قد ربطوا بين انتشار المذهب الخارجي في بلاد المغرب ، وبين نحلة الدوناتية المسيحية التي عاشت في المغرب من قبل في ظروف مشابهة لظروف البربر في ظل حكم الولاة في عهد الدولة الأموية . ذلك الارتباط الذي ينطوي على دوافع سياسية واجتماعية بالدرجة الأولى ، في حين يشكّل الدافع أو العامل الديني

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٢٤ .

(٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٢٤ .

(٣) رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ٣٢- ٣٣ .

(٤) الخلافة والخوارج في المغرب العربي ، ص ٣٣ - ٣٧ .

أهميـة ثانوية (١) . ولقـد تصدى محـمود اسمـاعيل عبـد الرازق (٢) الذي أشار هـو الآخر إلى هذا التفسير لتفنيد تلك الآراء ، موضحاً عدم تمشيها مع الوقـائع التاريخـية من جـهة ، ومستـعيناً بالرد عليـها بانتـقادات بقـية المستشرقين الآخرين لها ، ومن جهة أخرى .

أما التفسير الآخير الذي صادفنا ونحن نستطلع تلك الأسباب فـهو ماجـاء على ألسنـة بعض البـاحثين العرب وخاصـة المغاربة منهم ، الذين يرون – في مبالغة واضحة دون شك – أن تمذهب البربر بالمذهب الخارجي ، إنما جاء كرد فعلٍ قومي ضد العرب الذين أساءوا إليهم (٣) .

وأياً مـا كـان الأمـر ، فـإن الشئ الذي لايمكن دفـعـه هو أن مـبـادئ الخوارج قد انتشرت بين مـعظم البـربر انتشـار النار بين الهـشيم في تلك الفترة ، أي في العـقدين الأولين من القرن الثاني الهجري . ولقد أدى ذلك إلى إعـلان البـربر الثـورة الكبـرى ضـد العـرب وولاة الدولة الأمـوية . وقـد استمرت ثوراتهم مايقارب نيفاً وخمسين سنة أو أكثر .

وفي الواقــع لقــد تزعــم البـربر الصـفـرية الثـورة أولاً ، فـخـاضـوا ضد الدولة الآموية حروباً ومعارك ضخمة كان النصر حليفهم في موقعتين مهمتين هما : موقعة الأشراف عام ١٢٢ هـ أو أوائل ١٢٣ هـ وموقعة بقدورة

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، حاشية ، رقم ٢١٧، ص ٥٦ –٥٧ .

(٢) نفسه ، حاشية ٢١٧ ، ٥٧ .

(٣) أنظر مثلا عبدالله العروي : تاريخ المغرب محاولة في التركيب ، ص١١٤– ١١٥ – صالح باجية : نفسه ، ص٢٣ وجارهما محمود اسماعيل عبدالرازق رغم عدم كونه مغربياً في ذلك : نفسه، ص٤١ .

عام ١٢٣ هـ ثم قدّر للجيوش الأموية أن تفلّ بعض قوتهم في عدة معارك أهمها معركتا القرن عام ١٢٥ ثم الإصنام في نفس العام أيضاً (١) .

بيد أن نتيجة هاتين المعركتين لم تقض على ثورتهم فقد واصلوا الثورات ضد الدولة الأموية ، ثم الأسرة الفهرية التي حكمت المغرب معترفة بالخلافة الأموية فالعباسية ، ثم مالبثت أن خلعت طاعتها بعد . وعندما زالت هذه الأسرة تولت الدولة العباسية عن طريق ولاتها المتعاقبين على المغرب محاربة الصفرية (٢) ، ممّا اضطرهم في النهاية إلى الانكفاء في دولتهم التي أقاموها في المغرب الأقصى في مدينة سجلماسة عام ١٤٠ هـ ، وهي الدولة التي ظلّت قائمة حتى تسنى للفاطميين القضاء عليها ٢٩٦ هـ (٣) .

أما الخوارج الإباضية ، فقد دخلوا حلبة الصراع السياسي والعسكري متأخرين عن الخوارج الصفرية . ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعيشون في طرابلس وبقية المغرب الأدنى كإقليم الجريد . وبالطبع فقد

---

(١) عن ثورات الصفرية والمعارك التي خاضوها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ،ص ٢٨٦- ٣٣٩- السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٢٥- ٢٢٩ ، ٢٥٤ - ٢٥٧ - محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٦٢- ٨١ - رفعت فوزى عبدالمطلب : نفسه ، ص ٧٣- ٨٠ ، ٩٥- ١٠٩، ١١٥- ١١٩ .

(٢) سعد زغلول : نفسه ، ٧٥-٨١ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص١٥٦ -١٥٨ ، ١٦٦-١٧٢ .

(٣) عن الدولة المدرارية ، ظروف قيامها وشؤونها السياسية والاجتماعية ، ثم سقوطها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد نفسه ، ج٢ ، الفصل الرابع ، ص ٤٠٧ - ٤١٦ ، محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ص ٢١٢ - ١٤٣ ، ٢١٠ - ٢٢٨ حيث أرخا لهذه الدولة وكل ماجاء عنها في كتب المؤرخين القدامى والمحدثين والمستشرقين .

كانت هذه المناطق قريبة من القيروان العاصمة من جهة ، ثم قرب المغرب الأدنى النسبي للخلافة وقاعدتها الأمامية مصر ، التي كانت تجيِّش الجيوش ضد الخارجين على الدولة سواء الأموية أو العباسية من جهة أخرى (١) . وعلى أية حال فقد خاض الإباضية الثورات منذ عام ١٢٦ هـ عندما اصطدموا بالأسرة الفهرية ، ثم تتابعت اصطداماتهم العسكرية مع الأسرة نفسها في عامي ١٣١ - ١٣٢هـ (٢) .

غير أن ثورتهم الكبرى التي كانت نقطة تحول مهم كانت عام ١٤٠ هـ عندما نجحوا لأول مرة في إعلان إمامة الظهور في جبل نفوسه بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري . حيث نجح في ضمّ أجزاء عديدة لدولته الإباضية ومنها إقليم الجريد ولقد خاض الإباضية عدة معارك ضد ولاة الدولة العباسية كانت نتائجها سجالاً بين الفريقين . ولئن سقطت بعد ذلك إمامتهم في جبل نفوسه بمقتل أبي الخطاب (٣) المعافري ودخولهم طور الكتمان وإمامة الدفاع كما كانوا (٤) يعبّرون . فقد استطاعوا بعد أقل من عقدين من الزمن أن يستغلوا الظروف التاريخية المناسبة ، فيقيموا دولتهم

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٨٢ - ٨٣ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ١٢٠- ١٢١ .

(٢) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٣١٨- ٣٢٤ - محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٨٢ - ٨٥ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ١١٩-١٢٤ .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣٤- ٣٤٧ - ٣٥٥ - ٣٦١ - محمود اسماعيل عبالرازق : نفسه ص٨٢- ٩٥- رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص١٣٧-١٤٥ - ١٥١-١٥٨، ١٥٣- ١٨٠ .

(٤) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ،ص ٨٩- رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ١٦٣ .

ثانية في المغرب الأوسط في مدينة تاهرت عام ١٦١هـ بزعامة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية ، وهي الدولة التي ظلّت قائمة حتى أسقطها الفاطميون عام ٢٩٧هـ فيما اسقطوه من دول بالمغرب كما هو معروف تاريخياً (١) .

وبقيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤ هـ كانت قد استقرت خريطة توزيع القوى السياسية والمذهبية في المغرب كله . فلقد قامت في المغرب الأدنى : الدولة الأغلبية نفسها ، وقامت في المغرب الأوسط الدولة الرستمية الإباضية، وقامت في المغرب الأقصى دولتان هما : الدولة الإدريسية السنية والدولة المدرارية الخارجية الصفرية . والظاهرة السياسية المهمة التي صاحبت قيام الدولة الأغلبية هي أن الخوارج ركنوا إلى الموادعة والمسالمة لاسيما وقد تحقّق لهم تطبيق حلمهم بقيام دولتين في المغربين الأوسط والأقصى ، كانتا تعبّرا عن أمانيهم وعن نظرتهم السياسية والدينية ، ثم رأوا وخاصة الإباضية ، في الدولة الأغلبية تعبيراً للشعور (٢) بالاستقلال فانكفأوا في المناطق التي استقروا فيها يعيشون حياتهم وفق مذهبهم الإباضي الذي اختاروه .

---

(١) عن الدولة الرستمية بتاهرت ، ظروف قيامها ، وأمرائها وشؤونها السياسية والاجتماعية والعسكرية) ، ثم سقوطها أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٢٨٩- ٤٠٦ - (الفصل الثالث) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ١٤٤- ٢٠٨ ، ٢٢٩- ٢٣٤ - فقد تناولا كل ماجاء عن هذه الدولة من أقوال المؤرخين القدامى والمحدثين بما فيهم مؤرخي الإباضية ، ثم أقوال المستشرقين كذلك .

(٢) أنظر ، قبل ص٦١ .

يبقى أن نشير إلى أن الخوارج الإباضية - وهم الذين سيقتصر حديثنا عنهم ، لأنهم عاشوا في المجال الجغرافي الذي نؤرخ لحياته العلمية وهو المغرب الأدنى - كانت تبعيتهم السياسية سواء في إقليم الجريد أو جبل نفوسه تتناقل بين الدولة الأغلبية حيناً الدولة الرستمية حيناً آخر وإن كانت في كثير من الأحيان لصالح الدولة الرستمية ، أما من الناحية المذهبية فلا نزاع على انتمائها للدولة الرستمية (١) .

وأخيراً فإن مّما هو جدير بالتنبيه إليه هنا هو أن كل مؤرخي الإباضية القدامى والمحدثين ينفون عن أنفسهم صفة الخارجية ، ويرون أن مذهبهم مخالف عقائدياً وفقهياً للمذهب الخارجي ، بل إنهم يرون أنفسهم يشكّلون المذهب الخامس بين مذاهب السنة ، ويصرون في كل مناسبة على أن رميهم بالخارجية إنما هو خطأ تاريخي عظيم ارتكب بحقهم (٢) .

ويبدوا أن عدداً من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين يوافقون

(١) أنظر ماقلناه قبل ١٧٩ عن تبعية جبل نفوسه وإقليم الجريد السياسية والمذهبية .

(٢) نكتفي بكتاب واحد فقط ، يعكس كل أقوال المؤرخين القدامى والمحدثين من الإباضية في بعد مذهبهم الإباضي عن الخارجية وذلك الكتاب ألفه علي يحيى معمر وهو مؤرخ وعالم أباضي محدث بعنوان : الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث . والكتاب كما يفهم من عنوانه ، قام على مناقشة هوية المذهب الإباضي مع كتاب المقالات عند المؤرخين القدامى وكتاب المقالات من العرب والمستشرقين في العصر الحديث . والواقع أنه يصعب علينا الإشارة إلى كل الصفحات التي أوردها علي يحيى معمر والتي تؤكد أن المذهب الإباضي بعيد كل البعد عن الخوارج والخارجية أنه مذهب إسلامي من ضمن المذاهب الإسلامية المعروفة . وعلى سبيل المثال أنظر الباب الثالث ص ٢٤٣ - ٢٤٩ - الباب الخامس ص ٣٥٢- ٣٦٠ ..... الخ .

الإباضية في نظرتهم تلك ، بناءً على مالاحظوه من الاعتدال الذي صبغ في النواحي العقائدية والفقهية والسياسية (١) .

(١) أنظر تقديم محمد حمد الحارثي (سفير سلطنه عمان لدى تونس عام ١٩٧٦م) لكتاب صالح باجية : نفسه ، حيث يذكر بعضاً من المؤرخين القدامى الذين شهدوا للإباضية (بأنهم على السنة) كالمبرد في الكامل وابن حزم ، وابن حجر ، والعلامة السندوبي في حاشيته على البيان والتبيين للجاحظ في الجزء الثاني ، وأنظر على يحي معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص ٦ (حيث يورد نص كلام المبرد في الكامل بشأن المذهب الإباضي) . أما عن الباحثين المحدثين ، فقد وافقهم عدد منهم : محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ٨٥ – ٨٦– أحمد أمين : فجر الإسلام : ص ٢٦٠– ٢٦١ – عز الدين التنوخي : في مقدمته لكتابي : ديوان أبي بكر بن أحمد بن سعيد الستالي الإباضي ، (أنظر على يحيى معمر : نفس المرجع السابق ، ص ١٣٣) وكتاب مسند الربيع بن حبيب الإباضي في مقدمته للكتاب ، أنظر باجية : نفسه ، تقديم محمد بن حمد الحارثي) الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص١٥٩ – ١٦٠ ، وغير ذلك .

ب - الأصـداء العلمـيـة للصـراع المذهبي بين المالكيـة والإباضية :

لعل السؤال الطبيعي الذي يطرح نفسه هنا هو : لم حصرنا الأصداء أو الانعكاسات العلمية للصراع المذهبي في المالكية والإباضية وحدهما ، مع أن المذاهب المالكي لم يظهر في المغرب إلاّ بعد منتصف القرن الثاني الهجري ، هذا من جهه ، ومع أن المذهب الإباضي لم يكن وحده في الميدان من جهة أخرى ؟ هذا التساؤل في الواقع له وجاهته التي لاتنكر ، غير أن ماانجلت عنه الأمور : مذهبياً وجغرافياً في المغرب الأدنى ، هو الذي دفعنا إلى طرح مسألة الأصداء العلمية بالصورة التي جاءت بعاليه . ذلك لأن المذهب المالكي قد أصبح ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري مذهب الأغلبية السكانية ، ليس في المغرب الأدنى وحده ، بل وفي بقية المغرب والأندلس كما عرفنا من قبل . هذا من الوجهة المذهبية ، كما أن المذهب الإباضي قد استقرّ من الوجهة الجغرافية في المغرب الأدنى ، وهو المحيط أو الإطار الجغرافي الذي نؤرخ لحياته العلمية كما هو مفهوم .

على أن ذلك يجب أن لاينسينا أنه توجد ثمة إشارات محدوده لأصداء علمية برزت نتيجة للصراع أو إن شئنا الدقة للخلاف المذهبي بين الخوارج بفرعيهم : الإباضية والصفرية ، وبين جمهرة أهل السنة في إفريقية والمغرب كله أحياناً . وهذه الإشارات على قلتها قد تفيدنا في توضيح بعض معالم هذه الفقرة .

وفي الحق ، فإن تلك القلة في الانعكاسات العلمية هي نتيجة طبيعية لعدم وضوح معالم الصراع المذهبي بين الفريقين آنذاك . فنحن في الحقيقة لم نلمس من خلال متابعتنا لكتب التاريخ العام ، ولكتب التراجم والطبقات التي أرّخت للحياة العلمية الإفريقية والمغرب وقتذاك أي صراعات مذهبية علمية بين جمهرة أهل السنة وبين الخوارج . بيد أن مانستطيع أن نؤكده هو أنه كان هناك نفور بين الفريقين ضد بعضهما البعض . ولدينا بعض مايثبت بأن فقهاء السنة في إفريقية قد ناصروا الخلافة الأموية فالعباسية ضد خصومهما من الخوارج ، مع أنهم لم يكونوا على وفاق دائم مع ولاة الدولتين في المغرب آنذاك (١) .

ولعلنا نستطيع تفهم ذلك الموقف من علماء السنة تجاه الخوارج والذي جاء نتيجة للإختلاف المذهبي بين الفريقين من جهة ، ولما احدثته معظم ثورات الخوارج المتعاقبة من آثار سيئة على الأمن والاستقرار . في ربوع المغرب من جهة أخرى (٢) .

وكيفما كان الأمر فقد ظفرنا ببعض الإشارات للأصداء العلمية التي نجمت عن الخلاف المذهبي بين جمهرة أهل السنة وبين الخوارج ، روى المالكي أن الوالي حنظلة بن صفوان (١٢٤-١٢٧هـ) لما ثار عليه الخوارج ، وخاصة في مدينة طنجة ، جمع علماء إفريقية ، وخاصة أفراد البعثة العلمية

---

(١) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص ٩٠ - ٩٤ .

(٢) أنظر مثلا مافعلته قبيلة ورفجومة التي لايعدها الكثير من المؤرخين من الخواج الصفرية ، من أعمال سيئة في القيروان عندما دخلوها من تنكيل وتعذيب بالسكان وربط دوابهم في جامع القيروان . راجع : رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ١٢٨ - ١٣٢ .

التي أرسلها عمر بن عبد العزيز ، وطلب اليهم كتابة رسالة إلى أهل طنجه (ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا مافيها) (١) فكان أن أملى العلماء رسالة مهمة نوردها بنصها : (من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجه . أما بعد فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه ، محمد ﷺ، (قالوا) إنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات : آمرة ، وزاجرة ، ومبشرة ، ومنذرة ، ومخبرة ومحكمة ، ومشتبهة ، وحلال ، وحرام ، وأمثال ، فآمرة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكر ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ومخبرة بخبر الأولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة يؤمن بها ، وحلال أمر أن يؤتى ، وحرام أمر أن يجتنب ، وأمثال واعظة . فمن يطع الآمرة ، وتزجره الزاجرة ، فقد استبشر بالبشرة وأنذرته المنذرة ، ومن يحل الحلال ويحرم الحرام ، ويروا العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله ، مع طاعة واضحة ونية صالحة ، فقد أفلح وأنجح ، وحيا حياة الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » (٢) .

وصدى علمي آخر نجم عن الخلاف المذهبي نذكره الآن فقد ذكر أن خالداً بن أبي عمران التجيبي (ت : ١٢٥ أو ١٢٧ هـ) الذي كنا قد ترجمنا له من قبل ، قدم المدينة المنورة فأتى القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب بمسائل معينة . (فأبيا عليه أن يجيباه ، فقال لهما خالد : (إنا بموضع جفاء في هذا المغرب ، وأنهم حمّلوني هذه

---

(١) كما عبر بذلك : المالكي : نفسه ، ج ١، ص ٦٧ .

(٢) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٦٧ .

المسائل وقالوا لي : - إنك تقدم على المدينة وبها (أبناء) (١) أصحاب رسول الله ﷺ، فسلهم لنا ، وإنكما إن لم تفعلا كانت حجة لهم ، فماشئتما) (٢) ، فقال له القاسم : سل فسألهما خالد فأجاباه ، فيما سألهما فيه) (٣) ومع أن المالكي لم ينص حقيقة على أن تلك المسائل التي طرحها خالد بن أبي عمران على التابعين المذكورين كانت نتيجة للخلاف المذهبي بين جمهرة أهل السنة ، وبين الخوارج ، إلاّ أننا لانستطيع أن نفهم منها إلاّ أنها كذلك . فخالد بن أبي عمران عاصر أنذاك عنفوان الانتشار الخارجي عقائدياً وفقهياً ، بدليل أن المالكي (٤) يقول معقباً على تلك الواقعة، بأن تلك الإجابة قد احتوتها مدونة سحنون الفقهية ، وهو الأمر الذي أشرنا إليه (٥) من قبل . وهكذا نرى أن الدراسات الشرعية قد جنت من جراء ذلك ، قدراً غير يسير من ذلك العطاء العلمي .

وأيا ماكان الأمر ، فإن الصدّى العلمي أو الأثر الثقافي الأبرز والأوضح في الانعكاسات العلمية للصراعات المذهبية بين الخوارج ، وجمهرة أهل السنة في بلاد المغرب آنذاك هو ظهور المذهب المالكي هناك كردّ فعل مباشر لمواجهة تلك التيارات من الترهات الخارجية وبعض الآراء البدعية

---

(١) زيادة اقتضاها السياق وضعها محقق الكتاب حسين مؤنس .

(٢) زيادة اقتضاها السياق وضعها المحقق حسين مؤنس .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ .

(٤) نفسه ، ج١ ، ص ١٠٣ .

(٥) أنظر ، ٣١٢ ومابعدها .

التي ظهرت بين البربر آنذاك (١) ، وذلك في محاولة للحفاظ على الإسلام النقي الصافي . هذا إلى جانب تأثير معظم الأسباب الأخرى التي أدت إلى انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب ، والتي لايمكن اغفال أصلها الديني المتفق وهذا السبب الذي أشرنا إليه .

وعندما استقرت خارطة توزيع القوى للمذاهب الفقهية والمذاهب الدينية السياسية على النحو المشار إليه في الفقرة الأولى من هذا الفصل ، تكشفت لنا حقيقة تاريخية مهمة ، وهي أن كلا المذهبين : المالكي والإباضي قد ركنا إلى مايمكن تسميته بتعايش الامر الواقع بينهما . فلم نلحظ الخلاف الذي كان قائماً – على قلّته – بين الخوارج وجمهرة أهل السنة قبل ذلك . ولسنا نشك في أن ثمة أسباب قد اكتنفت ذلك ، نجملها في الآتي :

السببالأول : أن المذهب الإباضي كان باتفاق عدد من المؤرخين السنة أقرب الفرق الدينية السياسية للمذاهب الفقهية السنية واكثرها

(١) مثل تلك التي أثارها البرغواطيون في المغرب الأقصى ، وهي آراء بدعية منحرفة عن جادة الإسلام نادى بها في بلاد تامسنا بالمغرب الأقصى رجل يدعى صالح بن طريف ، وذلك في القرن الثاني من الهجرة . ولقد دعى هذا الرجل الذي أدعى النبوة إلي نحلة ، وهرطقة تقوم على سن تشريع خاص في الجوانب التعبدية كالصلاة والصوم وصفة الوضوء مخالفة للإسلام تماماً . وفي جانب المعاملات سن قواعد بشأن الطلاق بعيدة عن روح الإسلام وتعاليمة كما أنه وضع لهم قرآناً من ثمانين سورة . أكثرها منسوبة إلى أسماء الأنبياء صلوات الله عليه وسلامه . وقد ظلت هرطقة برغواطة مدة طويلة منذ عهد صالح بن طريف هذا وعهود أولاده وأحفاده الذين خلفوه والذين نجحوا في تأسيس دويلة لهم في المغرب الأقصى . ثم تلاشت وانتهت هذه الدويلة وتلك الهرطاقات التي كانت ترفعها عام ٣٥٢هـ . أنظر ابن عذاري : نفسه والجزء ، ص ٢٣٢ – ٢٣٧ .

اعتدالاً كما مرينا في الفقرة الأولى . وإذا جاز لنا أن نقف قليلاً عند الأصول العقائدية والفقهية للإباضية والمذاهب السنية ، فإن من حق النزاهة أن نستطلع آراء الإباضية أنفسهم فيها . فالواقع أن على يحى معمر ، وهو مؤرخ وعلام اباضي محدث حصر الأصول العقائدية والفقهية للمذهب الإباضي من كتب قدامى ومحدثي الإباضية .

ومع أن علياً يحيى معمر لم يدَّع أن هناك تطابقاً متكاملاً بين الإباضية وأهل السنة في تلك الأصول ، إلاَّ أنه أوضح أن تمة التقاءاً كبيراً في معظم تلك الأصول بين الفريقين (١). ومع ذلك فقد ظل بينهما بعض نقاط اختلاف (٢)

ونحن في الواقع لم نشر إلى ذلك إلاّ كي ندلل على أننا لم نلمس مع المعايشة والتجاور الطويلين بين المالكية والإباضية في المغرب الأدنى صراعات مذهبية مهمة ، ولكي نوضح هذه النقطة نضرب مثلاً بإقليم الجريد، فالجريد كانت تعيش فيه أغلبية إباضية كما عرفنا سابقاً . ولقد ذكرنا آنفاً أن الإقليم لم يكن حكْرا على المذهب الإباضي وحده ، فقد كانت تعيش في بعض مدنه وخاصة في مدينتي : قفصة وتوزر جماعات من

---

(١) أشار إلى ذلك بقوله : أن هناك التقاءً بين الإباضية والأغلبية المطلقة من أهل السنة تأويل المتشابه والقدروهناك التقاء مع الكثيرين من أهل السنة في الصفات ومرتكب الكبائر ، وهناك التقاء ، مع بعض الأئمة في صفة الكلام (القرآن مخلوف أو غير مخلوق) والرؤية ، والخلود . أنظر علي حيى معمر : نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) صالح باجية : نفسه ، ص٥٠ -٥٢ - السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص٢٣٤ .

السنة (١) ، ومع ذلك فقد تعايش الجميع هناك جنباً إلى جنب .

السبب الثاني : مع ذلك التقارب العقائدي والمذهبي بين المالكية ، والإباضية ، فإن الخلاف ، أو لنَقُل الصراع المذهبي كان يمكن أن يظهر بصورة مخالفة لما ظهر عليه لو لم ينحسر الإباضية في المناطق النائية عن مناطق الكثافة السكانية المالكية سواء في الأطراف البعيدة أو في رؤوس الجبال .

السبب الثالث: يبدو أن الإباضية وقد أفلحوا في قيام دولة لهم في تاهرت بالمغرب الأوسط لم يكن عندهم الرغبة في الدخول في مناظرات ومجالس جدل علمية مع المالكية . وبالتالي فإننا لاننتظر شيئاً يذكر في ظلّ سلبية أحد أطراف الصراع .

السببالرابع : أنه ربما تكون هناك صور لصراع مذهبي بين الفريقين - بناء على الاختلاف المذهبي بين الطرفين - ولكن المصادر ، وبالذات المصادر الإباضية لم تفصح عنها . والواقع أن المصادر الإباضية عدا كونها لاتزال مخطوطة في أغلبها ، فإن الإباضية أنفسهم كانوا لايطلعون الآخرين على كتبهم ومصادرهم .

ولعل أقصى ماعرفناه من مواقف تطرف للصراع المذهبي بين المالكية والإباضية . هو أن الإباضية كان لهم آراء سيئة في مخالفيهم من المذاهب السنية، ومنها المذهب المالكي . ومع ذلك فقد احتفظوا بها في بطون الكتب ،

---

(١) أنظر ، قبل ١٧٩ .

دون أن تظهر على أرض الواقع في المغرب الأدنى (١) - وفي المقابل فإن أقصى ماعرفناه من مواقف من السنة ضد الإباضية في المغرب الأدنى هو ماعمد إليه الإمام سحنون بن سعيد ، عندما تولى قضاء إفريقية من إخراج اتباع المذاهب الكلامية ، والدينية السياسية ، ومنها الإباضية من جامع القيروان ، ومنعهم من التحليق فيه (٢) . ثم موقف آخر ، وهو أنه عندما تغلب المذهب المالكي على المذهب الإباضي في مدينة الحامة على أثر الضربات التي وجهتها الخلافة الفاطمية لهم آنذاك ، عمد المالكية إلى غسل المساجد بالماء الكثير كناية عن تطهيره من النجاسة (٣) .

السبب الخامس : ممّا يدل على أنه لم يكن هناك صراع مذهبي بين المالكية والإباضية في المغرب الأدنى ، بالإضافة لما ذكرناه من أسباب أن الأثر العلمي للصراع المذهبي الذي (أمد الثقافة بزاد لاينفذ) . كما يقول علي الشابي في تقديمه لكتاب صالح باجية (٤) ، لم يكن وليد الصراع المذهبي بين المالكية والإباضية ، ولكنه كان بين الإباضية أنفسهم عندما انقسموا إلى قسمين : وهبية ونكارية (٥) . ولعلنا نضيف أيضاً مانجم من

---

(١) أنظر صالح باجية : نفسه ، ص ٧٢ -٧٣ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) صالح باجيه : نفسه ، ص ١٥١ .

(٤) مقدمة كتاب : الإباضية بالجريد بقلم على الشابي .

(٥) انقسم الإباضية في المغرب الأدنى إلى قسمين وهبية ونكارية ، على أثر تولى عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم الإمامة في تاهرت ، فأنكر عليه البعض حق الإمامية ، ومن ثم خرجوا عليه ، ثم انكروا بعد ذلك توريث الإمامة ومن ثم خرجوا عليه ، وعلى الأئمة من بعده بينما رضى فريق كبير من الإباضية إمامة عبدالوهاب . فسموا بالوهبية تبعاً لذلك نسبة إليه ، =

آثار علمية أخرى ظهرت نتيجة لظهور اجتهادات فقهية بين الوهبية الإباضية أنفسهم والتي تمثلت في اجتهادات نفاث بن نصر النفوسي وغيره (١) . ثم ماظهر من أنعكاسات ثقافية للصراع المذهبي العقائدي بين الإباضية والمعتزلة في المغرب الأدنى . ذلك الصراع الذي كان عنيفاً بين الفريقين وتمثّل في شيوع المناظرات بينهم (٢)، على وجود نقاط التقاء بين الفريقين دون ريب (٣) .

السبب السادس : هو أنه لو كان المذهب الصفري ، هو الذي استقر في المغرب الأدنى بدلاً من المذهب الإباضي لربما كنا قد لمسنا صراعات مذهبية ، ومن ثم أصداءاً وانعكاسات علمية مترتبه عليها . ذلك لأن الصفرية كانوا دون ريب من فرق الخوارج المتطرفة ، ولايفوقهم في ذلك سوى فرقتي الأزارقة والنجدات ، كما هو معلوم تاريخيا (٤) . وبصرف النظر عن تفاصيل المبادئ العقائدية والفقهية للصفرية التي لاتعنينا في هذا المجال ، فإن مايهمنا الإشارة إلية ، هو أن بعض مبادئهم العقائدية والفقهية ، وخاصة مسألة الكفر والإيمان يختلفون فيها إختلافاً بيّناً مع الإباضية ،

= وقد مال الإباضية النكارية إلى التطرف بينما صبغ طابع الاعتدال : مواقف الإباضية الوهبية . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٥ - ٣٢٦ - ، صالح باجية : نفسه ، ص ٣٦ - ٣٧ .مع الحواشي .

(١) أنظر علي يحيى معمر : نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٤ - ٢٧١ .

(٢) صالح باجية : نفسه ، مقدمة على الشابي ، ثم ص ٤٢ - ٤٤ - ٤٧ .

(٣) صالح باجية : نفسه ، ص ٥٢ .

(٤) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٢٥ - ٤٤ - ٤٥ . السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص٢٣٥ - ٢٣٦ .

فبينما يرى الإباضية مثلاً في مخالفيهم من المسلمين أنهم موحدون ، نادى الصفرية بتكفيرهم (١) ومن هنا لازمت القسوة والعنف حركاتهم . فلو أن المذهب الصفري هو الذي استقر في المغرب الأدنى لكان قد قُدّر فيما يبدو أن ينشب الصراع . المذهبي بينه وبين المذهب المالكي .

ونخلص من هذه النقطة التي ربما تكن قد طالت مناقشتها هو أننا لانتوقع أن نجد أصداءً علمية مهمّةً للخلاف المذهبي بين المالكية والإباضية في المغرب الأدنى في الفترة الزمنية موضع اهتمامنا . – ففيما يتعلق بإقليم الجريد – ، فلعل كل ماصادفناه من انعكاسات علمية لايتجاوز موقفاً واحداً، تمثّل في صورة مناظرة وقعت بين علماء مالكية ، أو إن شئنا الدقة طلبة مبتدئين وبين عالم إباضي . والواقع أن هذه المناظرة تبدو (٢) متواضعة ساذجة لايمكن أن تلبي تطلّعنا إلى معرفة الصدى العلمي الذي ترتب عليها .

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ،ص ٤٥ مع الحواشي .

(٢) هذه المناظرة جرت عندما ضعف شأن الإباضية في مدينة الحامة على أثر ماوجهته لهم الدولة الفاطمية . ففي ذلك الوقت تنفس السنيون في المدينة الصعداء ، وانتهزوا فرصة مرور أحد علماء الإباضية وهو أبو عمر محمد عثمان بن خليفة السوفي بالمدينة ونزوله بها . دبروا أن يسألوه سؤالاً فيه شئ من المغالطة ، فإذا أجاب بالحق ، ألزموه الحجة ، وإذا أجاب بإجابه أخرى استأنفوا سؤاله كذلك . والموضوع الذي دبروا سؤاله عنهم هو : هل يجوز في مذهبكم تزويج نسائنا ، فإذا استعظم ذلك وأجاب كيف لايجوز ذلك وقد جاز عندنا تزويج اليهوديات والنصرانيات فكيف نساؤكم فضحوه ، وهكذا كان فقد أجاب الإجابة المتوقعة . مما دفعهم إلي الاستنكار عليه إذ كيف يضعهم في منزلة اليهود والنصارى ثم قاموا عليه ، وشتموه وصفعوه ، وطردوه من البلده أنظر صالح باجية : نفسه ، ص ١٥ – ١٥١ .

أما عن جبل نفوسة ، فإننا عبثاً نحاول العثور على مادة توضح لنا الآثار العلمية التي نجمت عن الخلافات المذهبية بين المالكية ، وبين الإباضية، فلم تشر المصادر التاريخية ، وغيرها من كتب التراجم والطبقات إلى شئ من ذلك البتة كما أن المراجع التي أرَّخت لبعض نشاطات الإباضية العلمية لم تشر إلى شئ ايضا . والظاهر أن الإباضية قد تقوقعوا في جبلهم ، ولم ينفتحو علمياً - إن جاز هذا - ، إلاّ على أبناء مذهبهم ومن خالفهم في تاهرت (١) . ولانعتقد أن الجبل الذي عرف أعداداً من الفقهاء والعلماء الإباضية كان خاملاً في إبراز علماء جيل أو مناظرة . فالرستميون كما تروى لنا المصادر كانوا كثيراً مايستعينون بعلماء الجبل لمناظرة خصومهم ، كما حدث عندما أرسل الأمير الرستمي الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم إلى علماء الجبل ، يطلب منهم مساعدتهم في مناظرة خصومة من المعتزلة الواصلية ، فكان أن ذهب الفقيه مهدى النفوسي ونفر آخر غيره فدخلوا في مجادلات علمية أفحمت أولئك الخصوم (٢) .

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ١٥٤ - ١٦٣ .

(٢) سعد زغلول : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

الأثر العلمي للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة الإسماعيلية

أ - نبذة عن دخول المذهب الشيعي الإسماعيلي إفريقية وانتشاره وأهم معتقداته :

تكاد تتفق معظم المصادر والمراجع على أن أول تسرب للدعوة الشيعية في بلاد المغرب قد تم قبيل منتصف القرن الثاني الهجري بقليل عندما بعث الإمام جعفر الصادق بداعيتين له لبثّ الدعوة هناك . ويبدو أن جعفراً الصادق قد رأى أهمية الدعوة إلى آل البيت في أرض المغرب البعيدة عن الدولة العباسية ، هذا من جهة ، واستغلالاً لأوضاعها - أي بلاد المغرب - التي كانت تمزقها الاضطرابات والإنقسامات من جهة أخرى - فكان أن بعث في عام ١٤٥هـ بداعيته : أبي سفيان ، والحلواني إلى هناك (١) . وقد خاطبهما بقوله : (بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثا حتى يجيئ صاحب البذر) (٢) ، (كما أوصاهما بأن يبسطا ظاهر علم الأئمة « صلوات الله

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٤٠- القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحات الدشراوي ص ٢٦- ٢٧ - برنارد لويس : أصول الإسماعيلية ، ص ١٤٤- محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، ص ٢٣ (وينفرد بالقول بأن الداعي الإسماعيلي اليمني ابن حوشب الذي بعث أبا عبدالله الشيعي - وهما قد عاشا في القرن الثالث الهجري - ، هو الذي بعث أبا حسان والحلواني ، مع أن أكثر المصادر السنية والشيعية، والمراجع الحديثة تجعل من رحلة أبي سفيان والحلواني قبيل منتصف القرن الثاني الهجري) - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، ص ٤٦ .

(٢) حسن ابراهيم حسن :المرجع أعلاه ، والصفحة .

عليهم » وينشروا فضلهم ، وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر ، ثم يفترقان ، فينزل كل واحد منهما ناحية) (١) .

وبالفعل فقد نزل أبو سفيان في منطقة تدعى مرماجنة في حين نزل الحلواني في منطقة تدعى : الأبس ، وكلتاهما في المغرب الأوسط ، وقد باشر الداعيتان الدعوة للمذهب الشيعي هناك وخاصة بين قبيلة كتامة ، وهي من كبرى القبائل البربرية حيث أفلحا كما تشير المصادر في تنفيذ ماكلفا به (٢) .

ويبدو من المؤكد أن الأحداث في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ، سواءً تلك الأحداث السياسية التي كان المغرب وخاصة الأدنى يعيشها ، أو تلك التي كانت تمر بها الدعوة الشيعية الإسماعيلية في المشرق قد اقنعت القائمين بأمرها بأن الظروف قد سنحت لاستئناف بث الدعوة في بلاد المغرب التي توقفت لقرن ونصف تقريباً ، والعمل على إقامة الدولة الفاطمية الإسماعيلية هناك ولهذا فقد جنَّد القائمون بأمر تلك الدعوة داعية من أشهر دعاتهم ، وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الكوفي - ويقال الصنعاني كذلك - المشهور بأبي عبد الله الشيعي للقيام بتلك المهمة بحكم أن الداعيتين السابقتين قد حرثا البلاد ووطآها ، فلم يبق إلاّ مجئ صاحب البذر الذي أشار به الإمام جعفر الصادق .

وفي الواقع ، فإننا لن نضيف جديداً إلى ماذكره مؤرخو السنة

(١) القاضي النعمان : نفس المصدر السابق ص ٢٦- ٢٧ .

(٢) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٧ - ٣٠ .

والشيعة القدامى أو المؤرخون المحدثون عن تفاصيل مهمّة أبي عبد الله الشيعي ، والخطوات التي مرت بها تلك المهمة ، حتي كللت بالنجاح ، فهي أشهر من أن تعرف . ولعل غاية مانستطيع قوله هو أن ابا عبد الله الشيعي توجه إلي بلاد المغرب الأوسط وبالتحديد منطقة زواوة حيث تعيش أغلبية قبيلة كتامة عام ٢٨٠هـ مستغلاً المناخ الطيب الذي حققته الدعاية الشيعية هناك . وتروي المصادر أن أبا عبد الله الشيعي قد استخدم الكثير من ضروب الدهاء والحنكة للوصول إلى مسعاه ، سواءً في قصة توصله إلى البربر الكتاميين ، أو في الإفصاح عن حقيقة مهمته ، والهدف الأساسي من وجوده بين ظهرا فيهم ، ثم الخطوات الدقيقة في نشر المذهب الإسماعيلي وتطبيق مبادئه بين البربر هناك (١) .

ولقد رأى أبو عبد الله الشيعي ، بعد أن اطمأن إلى النجاح الكبير الذي حقّقته الدعوة الإسماعيلية بين بربر كتامة وغيرهم أن ينتقل بالقضية من مرحلة الدعوة والإعداد إلى مرحلة المواجهة المسلحة مع القوى السياسية الكبرى في المغربين الأوسط والأدنى ، وخاصة الدولة الأغلبية التي تردّت أوضاعها السياسية والاقتصادية آنذاك في عهد آخر أمرائها زيادة الله الثالث ، وصولاً إلى تحقيق الهدف المنشود ، وهو إقامة الدولة الفاطمية

---

(١) عن تكليف أبي عبدالله الشيعي بمهمة بث الدعوة الإسماعيلية في المغرب والعمل على إقامة الدولة الإسماعيلية هنا والخطوات التي رافقت ذلك أنظر القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص ٣٠-٢٨٧ (تفاصيل واسعة جدا) - ابن عذارى : نفسه ، ج١ ، ص ص١٢٤ - ١٥٧- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦ - ٥٥ (وقد تناول بالحديث تلك الأحداث مدعمة بأقوال عدد من المصادر السنية والشيعية ، ثم المراجع الحديثة الأجنبية والمصريّة) .

هناك (١) .

وفي تلك الأثناء نجح إمام العصر الشيعي في الرحيل الى المغرب بعد أن وردت الأخبار بنجاح أبي عبد الله الشيعي في تهيئة المناخ الصالح لمجيئة (٢) . وتروي المصادر الشيعية وخاصة سيرة جعفر الحاجب قصة مغادرته ودخوله بلاد المغرب وماجرى له في جو مهيب تغلفه الجلالة والكرامة (٣) .

وكيفما كان الأمر فقد استقر المطاف أخيراً بإمام العصر الإسماعيلي وهو عبيد الله الذي تلقَّب فيما بعد بالمهدي في سجلماسة عاصمة الدولة المدرارية ، إنتظاراً لما تسفر عنه الأحداث هناك . ولكنه مالبث أن قبض عليه وأودع السجن هو وولده (٤) .

---

(١) عن الظروف السيئة التي كانت تعيشها الدولة الأغلبية في آخريات حياتها ، أنظر ابن عذاري : نفسه ، ص ١١٨ – ١٣٦ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ١٢٨– ١٨٢ (بتوسع شديد) – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٢٤ – ٣٢٠ ، ٥١١ – ٥١٥ – محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ص ١٩١ – ٢٠٨ .

(٢) القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص ١٥٧ – وما بعدها محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ٢٤– حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ٥٠ – ٥٦ .

(٣) استتار الامام وسيرة جعفر الحاجب ،ص ١٠٧ – ١٣٣ مقال نشره المستشرق الروسي : ايفانوف، ترجمة محمد كامل حسين ، مجلة كلية الأداب بالجامعة المصرية ، المجلد الرابع ، ج٢.

(٤) القاضي النعمان : نفسه ، ص ١٦٣ – ١٦٥ ، ٢٧٦ – ٢٧٨ – ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ١٥٢– ١٥٦ ، حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ص ٥٢–٥٤– محمد كامل حسين ، نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٤ – ٢٥ (وقد انفرد هو دون غيره بأن الأغالبة هم الذين قبضوا عليه في سجلماسه ، بمعنى أنه كان يعد دولة بنى المدرار تابعة للدولة الأغلبية . ولاشك أن هذا خطأ تاريخي كما هو معروف) .

وعندما نجح أبو عبد الله الشيعي في القضاء على الدولة الأغلبية وإسقاطها في عام ٢٩٦هـ ، توجه للمغرب الأقصى لتخليص إمامه من سجن الدولة المدرارية . ولقد تهيأ له ذلك بالفعل وبعد أن أطاح بالدولة المدرارية (١) . ومن مدينة سجلماسة أعلن إمام العصر الإسماعيلي عبيد الله قيام الدولة الفاطمية كأول دولة إسماعيلية ، ثم كرّس ذلك الإعلان رسمياً بمدينة رقادة بإفريقية عام ٢٩٦هـ ، كما أعلن الخلافة الفاطمية بتلقبه بالمهدي أمير المؤمنين (٢) . وعلى هذا النحو قامت الدولة الفاطمية بالمغرب والتي تعاقب على أمرها في هذا الدور المغربي من حياتها أربعة خلفاء ، هم عبيد الله المهدي ، ثم القائم بأمر الله ، والمنصور ثم المعز لدين الله الذي ارتحل إلى مصر عام ٣٦٢ هـ كما هو معروف (٣) .

ونحن بالطبع لايعنينا من مجمل الأوضاع السياسية المذهبية للدولة الفاطمية في المغرب منذ أن تسرّبت الدعوة إلى بلاد المغرب وحتى القضاء عليها نهائياً في عهد المعز بن باديس الصنهاجي إلاّ ماله مساس بالانعكاسات العلمية على الدراسات الشرعية .

وفي الواقع فإن المتتبّع لتلك الأطوار التي مرت بها الدعوة للمذهب الشيعي في المغرب منذ أن استقر الأمر به للدولة الفاطمية سيلحظ حتماً

---

(١) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٧٨ – ٢٨١ – سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣ – ١١٩ ، ١٢٢ ومابعدها – ابن عذارى : نفسه ،ص ١٥٣ – ١٥٧ ، حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٥٥ .

(٢) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٧ – ٢٩٩ – ابن عذارى : نفسه ،ص ١٥٥ – ١٥٨ – ١٥٩ ، ١٦٠ حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٥٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٣) أنظر قبل ص ٧٥ ومابعدها .

ذلك الصراع العنيف الذي وقع بين غالبية السكان وهم مالكي المذهب ، وبين الشيعة الاسماعيلية وسيلحظ كذلك أن ذلك الصراع قد اكتسى أشكالاً شتّى من المواقف ، سواء كانت مواقف مقاومة سلبية أو إيجابية ، أو حتى مسلّحة، بالإضافة إلى الجدل العلمي الذي تمثّل في شيوع المناظرات العلمية وكثرة المؤلفات بين الفريقين .

وفي الحق ، فإن ذلك الصراع العنيف ، كان أمراً طبيعياً نظراً للاختلاف المذهبي : سياسياً وعقائدياً وفقهياً بين المذهبين : المالكي والإسماعيلي ، فغير خاف أن المذهب الإسماعيلي يقوم على أسس ومبادئ سياسية لاتوافقهم عليها المذاهب السنّية ومنها المذهب المالكي . ومن هنا ثار الصراع السياسي والمذهبي بين الفريقين ، عندما شرع الشيعة الإسماعيلية يطبقون عملياً تلك الأسس والمبادئ لمذهبهم .

ولعل من الضروري قبل التصدى للممارسات العملية للمذهب الإسماعيلي التي طبّقها الفاطميون في إفريقية ، ثم ردود الفعل من قبل المالكية ، رعيةً وفقهاءً ، أن نتحدث بإيجاز عن أهم تلك الأسس والمبادئ التى يقوم عليها المذهب الإسماعيلى .

فمن الناحية السياسية يرى الإسماعيلية ، بل ومعظم فرق الشيعة ، أن الإمامة تعد أصلاً من أصول الدين ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ، وهي واجبة بالتعيين والتنصيص وليس بالاختيار كما يذهب أهل السنة . ويرون جميعاً أن الإمامة وراثة إلى يوم القيامة في الوصى على بن أبي طالب وفي ذريته من السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ، وذلك بمقتضى

حديث غدير خم الذي ينسبه الشيعة إلى الرسول ﷺ (١) .

وعلى هذا ، فإن الأئمة هم علي وأبناؤه من فاطمة فالإمامة تنتقل من الأب إلى الابن الأكبر بالتعيين ، ولاتنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين : إبني علي بن أبي طالب (٢) . وهذا المبدأ هو أساس وجود المذهب الإسماعيلي أو الفرقة الإسماعيلية التي ظهرت نتيجة للتصرف الذي قام به جعفر الصادق من نقل الإمامة من ابنه الأكبر اسماعيل إلى ابنه الآخر موسى الكاظم ، ولذلك فلم يقر فريق كبير من الشيعة الإمامية ذلك فانقسموا تبعاً لذلك إلى فرقتين : الإثنى عشرية والإسماعيلية كما هو معروف (٣) .

ولقد رافق هذا المبدأ الخاص بالإمامة أربع مسائل نشأت نتيجة له وتلازمت معه ، وهي العصمة أي عصمة الأئمة ، والمهدية والرجعة ، وهي

---

(١) عن مسألة الإمامة عند فرق الشيعة ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص٢٦٦ – ٢٧٤ ضحى الإسلام ، ج٣ ، ص٢٠٨–٢٢٠ ظهر الإسلام ، ج٤ ، ص١٠٩–١١٤ (وقد تتبع معظم أقوال المؤرخين السنة والشيعة حول هذا المبدأ أو المسألة) – برنارد لويس : أصول الإسماعيلية ص٨٣–٩٦ ، (في تقص دقيق لهذا المبدأ وتطور مفهومة عند الشيعة من المصادر السنية والشيعية ومن مؤلفات المستشرقين الأوربيين) حسن ابراهيم حسن :نفسه ، ص١–٣٣ ص ٦٥١ عن معظم المصادر والمراجع العربية والأجنبية والمصادر الإسماعيلية المنشورة حديثا) – محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ٣–٩ .

(٢) برنارد لويس : المرجع السابق ،ص ١١٢ – محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص١٢ .

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٧٢– ٢٧٣ – ضحى الإسلام – ج٢ ، ص٢١٢– ٢١٣– ظهر الإسلام ، ج٤، ص ١١١، ١٢٧، برنارد لويس : نفس المرجع السابق ،ص ٩٤– ١١٦ ، محمد كامل حسين : نفس المرجع السابق ، ص ٥ – ٢٢ وغير ذلك .

متعلقة بالمهدية ، ثم التقية (١) ، وهي ذات شأن عظيم عند الشيعة الإسماعيلية بالذات (٢) . ولقد دفع هذا الإعتقاد في مسألة الإمامة فرقة الشيعة – ماعدا الفرقة الزيدية (٣) إلى الطعن في خلافة الخلفاء الراشدين : أبي بكر وعمر وعثمان ، فضلاً عن طعنهم في خلافة الأمويين والعباسيين كما أنهم قد جرّموا أكثر ية الصحابة وأزواج الرسول ﷺ ، نتيجة لمواقفهم من علي بن أبي طالب كما يرون هم ، ولم يستثنوا سوى نفر يسير من الصحابة (٤) .

ومما يلحق بمسألة الإمامة ، الولاية ، وهي إحدى دعائم الإسلام السبعة عند الإسماعيلية ، وقد كان لها دور خطير في المعتقد الشيعي . فلقد

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٣ ، ص ٢٢٦– ٢٤٩ (وقد تناول هذه القضايا في تقص دقيق وتحليل منطقي تاريخي وناقشها مناقشة موضوعية) .

(٢) أنظر محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ٦١ – حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص ٢٣٧ .

(٣) مع اعتراف الشيعة الزيدية بأفضلية علي بن أبي طالب وبأحقيته في الخلافة على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، إلاّ أنهم لم ينكروا خلافتيهما . فزيد بن علي زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب الذي تنسب إليه الفرقة الزيدية يجوّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل – كما أن نظرتهم إلى مسألة التفضيل التي رفعتها فرق الشيعة كلها ، كانت معتدلة ، فهم يقولون إن النبي ﷺ قد عين علياً بن أبي طالب بالوصف لا بالشخص ، أنظر أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٧٢ ، ضحى الإسلام : ج٣ ، ٢١٢ .

(٤) الحق أن المصادر السنية هي التي أشارت إلى ذلك ، وقد ذكرت أن الشيعة قد تناولوا بالتجريح كل الصحابة وزوجات الرسول ﷺ ، ماعدا – كما تقول تلك المصادر – ، علي بن أبي طالب ، والمقداد بن الأسود ، عمار بن ياسر – وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري . عن هذا أنظر مثلا ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ١٥٩ .

رأوا أنها أفضل دعائم الإسلام وأقواها ولايستقيم الدين إلاّ بِها . ويقضي مبدأ الولاية بوجوب إتباع الإئمة وأوامرهم والخضوع التام لهم ، وليس مجرد حبهم فحسب (١) .

ولقد قام على مبدأ الولاية هذا الذي يعتنقه الشيعة الإمامية بفرعيهم : الاثنى عشرية والإسماعيلية ثلاثة أسس هي :

١- الفيض الإلهي : وهي الفضل الذي أفاء الله به على الائمة من المعرفة والعلم ، وهو الفيض الذي اختص به الأئمة وراثة عن النبي ﷺ. وعلى ذلك فهم فوق الناس علماً وفوق الناس قدراً (٢) .

٢- مبدأ الاستتار : فالإمام يمكن أن يكون غير ظاهر ومع ذلك تجب طاعته ، وأنه لايخلو عصر من إمام للناس وهو المهدي المنتظر الذي لابد أن يظهر فيملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً . وهذا المبدأ هو مايعني نظرية المهدوية التي رفعها الإسماعيلية في المغرب وتلقب بلقبها أول خلفائهم وهو عبيد الله المهدي (٣) .

---

(١) عن مسألة الولاية وكونها أفضل دعائم الإسلام عند الإسماعيلية أنظر القاضي النعمان : كتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام ، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي ، الجزء الأول وقد بدأه بالحديث عن أهمية الولاية أو الإيمان كدعامة أولى للإسلام ، وأنظر كذلك مقدمة المحقق ، ص ٩ -١٢ فهي تلقى الضوء على هذا الموضوع - محمد كامل حسين : نفس المرجع السابق : ص ١٥٥ .

(٢) محمد أبو زهرة : المرجع السابق ص ٦١- ٦٢ .

(٣) محمد أبو زهرة : نفسه ، ص ٦٢ ، ولزيادة التفاصيل عن مسألة المهدوية ، أنظر البحث الواسع الذي كتبه كل من : برنارد لويس : المرجع السابق ، ص ٨٥- ١٤٣ - أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٣ ، ص ٢٣٥- ٢٤٦ .

٣- عصمة الأئمة ، فالإمام ليس مسؤولاً أمام أياً كان من الناس ، ولاحق لأحدٍ أن يخطئه مهما يأتي من أفعال وتصرفات وأن يفعله من أفعال تبدو غير سليمه ، له فيها مايسوغها (١) .

وسنرى أن هذا المبدأ قد أثار عليهم حفيظة المغاربة بالدرجة الأولى الذين لم يستطيعوا استيعاب تعدي الخلفاء الفاطميين حدودهم البشرية إلى أبعد من ذلك .

ومهما يكن من أمر ، فإن بعضاً من الباحثين يرى أن السبب في ذلك، هو تأثر الشيعة الإسماعيلية بالأفكار الفارسية القديمة والهندية ، والفلسفة الإغريقية المبنية على الرجعة والتناسخ والحلول .. الخ (٢) .

ومن مبادئ الإسماعيلية الرئيسية : عقيدتهم في تأويل علم الباطن . فالعلم في نظرهم علمان : علم الظاهر وعلم الباطن ، وقد علَّم الرسول ﷺ، العلمين معاً لعلي بن أبي طالب الذي ورثهما بدوره إلى الأئمة من أبنائه . وفي نظرهم أن الناس يعلمون علم الظاهر وعند الإمام علم الباطن ، بل أن

---

(١) محمد أبو زهرة : نفسه ،ص ٦٢ - ٦٣ ، وأنظر البحث الممتع الذي كتبه حول هذه النقطة أحمد أمين ضحى الإسلام : ج٣، ص ٢٢٢- ٢٢٥، ٢٢٦ - ٢٣٥ .

(٢) أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ،ص ٢٧٠ -٢٧٤ - ٢٧٦- ٢٧٧ - برناردو لويس : مقدمة المرجع السابق التي كتبها عبدالعزيز الدوري ، ص ٢٢ ، ثم ماجاء في الكتاب نفسه بقلم برنارد لويس ، ص ٤٨- ٥٠، ١٨٧ - ١٩٣ - حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٧١- ٣٧٢- محمد كامل حسين : المرجع السابق ،ص ١٦٤ - ١٢١ - ١٧٣ (وأن كان محمد كامل حسين : لايرى أن الاسماعيلية قد دانوا بفكرتي التناسخ والحلول . بناء على ما جاء في كتبهم المنشورة حديثاً بالمعنى الذي فهمه أهل السنة ، وقد إختفت فكرة الحلول بالذات من الدور الفاطمي كله) .

عنده علم باطن الباطن (١) . ولقد ترتب على ذلك أن أوَّلوا ألفاظ القرآن تأويلات مجازية توافق نظرتهم تلك . وبعض تلك التأويلات تحمل آراء جد خطيرة خارجة عن الإسلام (٢) . ويرى أحمد أمين (٣) أن الإسماعيلية قد أخذوا في مذهبهم بمذهب الإفلاطونية الحديثة وطبقوها على مذهبهم الشيعي تطبيقاً غريباً ، وهذا المبدأ كان أحد الأسباب لتسميتهم بالباطنية أو الباطنيين (٤) وفي هذا الصدد يرى محمد أبو زهرة (٥) . أن بعضاً من اعتقاداتهم في التأويل كانت من الخطورة إلى الحد الذي كانوا يسترون كثيراً منها ولايعلنون إلاّ عن قدر تسمح الظروف بإعلانه .

ومن مبادئهم العقائدية التي أخذت بالأفلاطونية الحديثة ، ذلك الجانب الذي يتعلق بالأسماء والصفات التي وردت في القرآن الكريم . فقد جعلوها

---

(١) محمد أبو زهرة : نفسه ، ص ٦١. وللاستزادة عن مسألة تأويل الباطن ، أنظر أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص٢٧١- ٢٧٣ ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام ، ج٤- محمد كامل حسين ، نفسه ، ص ١٦١ - ١٧٠ - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٤ ومابعدها

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ،ص ٢٧٣ - محمد أبو زهرة - نفسه ، ص ٦٠ .

(٣) فجر الإسلام ، ص ٢٧٣ - أنظر محمد كامل حسين ، نفسه ، ص ١٧٦ .

(٤) أحمد أمين : نفس المرجع أعلاه ،ص ٧٣ - برنارد لويس : نفس المرجع السابق ،ص ٤٨ ، ٦٥- ٦٦ ، ٧٣ - ٧٥ - ١٠٣ محمد كامل علي حسين : نفسه ، ص ١٤٧ - ١٤٨ - محمد أبو زهرة نفسه ،ص ٦١- ٦٢ (ويقول أبو زهرة إن ثمة سببين آخرين لتسميتهم بالباطنية كذلك : السبب الأول : أنهم سموا بالباطنيه لاستخفائهم عن الناس الذي كان نتيجة للاضطهاد الذي لقوه أولاً، ثم صار عندهم حالة نفسية دائمة . والسبب الثاني ، أنهم قالوا في كثير من الأحيان : بأن الامام مستور . واستمر ذلك حتى قامت دولتهم في المغرب ، هذا بالإضافة إلى قولهم بعلم الظاهر والباطن

(٥) نفسه ، ج١ ، ص ٦٢ .

للعقل الكلي الذي أشار إليه الفلاسفة الذي هو المبدع الأول ، الذي أبدع النفس الكلية ، أو المبدع الثاني ... الخ نظريتهم (١) تلك . وهذا الجانب أثار كذلك حفيظة المغاربة الذين رأوا في ذلك كفراً بواحاً .

أما أهم المبادئ الفقهية التي تميز بها المذهب الشيعي والذي أثارت تطبيقاتها العملية ثائرة المغاربة ، فقد كانت كثيرة وخاصة تلك التي تتعلق بجانب العبادات . فمن بين تلك القضايا : إبطال صلاة التراويح واسقاط عبارة : الصلاة خير من النوم في صلاة الفجر ، وزيادة عبارة : حي على خير العمل في الأذان . والجهر بالبسملة في الصلاة ، وزيادة القنوت في صلاة الجمعة في الركعة الثانية ، وابطال صلاة الضحى ، وزيادة تكبيرة خامسة في صلاة الجنازة .. الخ وتأخير الصلوات عن أوقاتها .. الخ (٢) . وفيما يختص بالصوم من حيث تحديد بداية الشهر ونهايته ، فقد نحوا في ذلك منحى يعتمد على الفلك والحساب ، وكانت لهم آراء اجتهادية في ذلك

---

(١) أنظر محمد كامل حسين : نفسه ، ص ١٥٧ -١٥٩ ، حيث ناقش تجريدهم الله ، عز شأنه من كل صفه وكان مبررهم في ذلك هو التنزيه المطلق لله وهذا لايتأتى إلا بتوحيد الله الذي يعنى بأن ينفي عنه سبحانه جميع مايليق بمبدعاته التي هي الأعيان الروحانيه ، ومخلوقاته التي هي الصور الجسمانيه من الأسماء والصفات .. الخ معتقدهم ذلك .

(٢) أبو العرب التميمي : كتاب المحن ط١ ، ص٢٩٤ - ٢٩٥ - المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٤١-٤٣، ٥٥ وغير ذلك - عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ - ٥١٤ - ٥١٧ الدباغ : نفسه ، ج١ ، ص ٢٤ - ٢٧ - ج ٣ ، ص ٥، ٤٧ ، أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية ص ٧٤ - ٧٥ عبدالعزيز المجذوب : المرجع السابق ص ١٧٥ - ١٨٠ - السيد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٦ - ٢٩٨ . وكل هؤلاء المحدثون إعتمدوا على نقولات مؤرخي التاريخ والطبقات ومؤرخي الفرق .

لاتعنينا هنا وقد تأولوا حديث رؤية الهلال ، بأنها رؤية استبصار لا رؤية إبصار (١) .

وفيما يتعلق بجانب المعاملات الفقهي ، فقد أسقطوا الحنث عمن طلّق البتة ، وأحاطوا البنات بالميراث في وجود ابن الابن ، واباحة نكاح المتعة .. الخ (٢) . وسنرى أن إثارة هذه المعتقدات وغيرها ، بل تطبيقها على أرض الواقع ، كانت من الأسباب الإضافية للصراع المذهبي العنيف بين المالكية والإسماعيلية .

أما وقد أتينا على ذكر كيفية دخول المذهب الشيعي الإسماعيلي وانتشاره في بلاد المغرب وأهم الأسس والمبادئ التي يقوم عليها هذا المذهب، فإن من الضروري أن نستعرض بايجاز كيفية تطبيق الفاطميين لمبادئ مذهبهم عملياً ، توطئة لرصد ردود فعل المغاربة على تلك المبادئ والممارسات .

ففي المبدء ، جاء أول تطبيق عملي لمبادئ الإسماعيلية في رفع عبارة : حي على خير العمل ، وذلك عندما دخل أبو عبد الله الشيعي القيروان إثر سقوط الدولة الأغلبية في رجب سنة ٢٩٦ هـ (٣) . كما أن الداعي أمر في

---

(١) أنظر السيد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٧ مع الحواشي (نقلا عن المؤيد في الدين في كتابه السيرة المؤيدية .

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ - عبدالعزيز المجنوب : نفسه ، ١٧٨ - ١٧٩ ، (نقلا عن عدد من المصادر المختلفة) - السيد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٧ (عن عدد من المصادر المختلفة) .

(٣) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٥٠ .

أول خطبة خطبت بالقيروان بأن يتضمن الدعاء في الخطبة : الصلاة على محمد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين علي ، وعلى الحسن والحسين ، وعلى فاطمة الزهراء (صلوات الله عليهم أجمعين) (١) .

وفي الكتاب الذي كتبه أو عبد الله الشيعي إلى البلدان بالأمان ذكر بأن السبب في خروجه ، هو طلب ثأر أولياء الله : آل رسول الله ﷺ من المغتصبين ، لاسيما وأنه عمل جهده في إنابتهم (٢) . ورجوعهم إلى الحق - في نظره - ، وعندما عزم على الخروج إلى سجلماسة لإطلاق سراح إمامه ، حرر كتاباً جعله نسخاً . وبعث بكل نسخة منه إلى معظم المدن بإفريقيّة لقرآته . هذا الكتاب يشرح وجهة نظر أبي عبد الله فيما فعله وماسيفعله ومن جملة ماأشار إليه في كتابه رواية الشيعة ، لحديث الثقلين الذي يقول فيه الرسول ﷺ : « إني تارك فيكم الثقلين بعدي ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي .. الخ » (٣) .

وعندما قامت الدولة الفاطمية فعلياً تولى عبيد الله الإمامة والخلافة ، وتلقب بالمهدي في مديني رقادة والقيروان أثر دخوله إليهما في ربيع الاخر عام ٢٩٦ هـ ، شرح يطبق مبادئ مذهبه عملياً بالقوة والشدة كما تشير إلى ذلك كثير من مصادر السنة المختلفة . فغداة تلقيه البيعة أمر بأن يدعى على المنابر في رقادة والقيروان بالدعاء (بالصلاة على محمد ﷺ وعلى علي

---

(١) القاضي النعمان : نفسه ، ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٣) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ - ٢٧٣ مع الحاشية ، رقم (١) ص ٢٧٢ .

(عليه السلام) وفاطمة والحسن والحسين . وعلى الأئمة من ولده) (١).

وقد أورد القاضي النعمان في كتابه افتتاح (٢) الدعوة نص ذلك الدعاء كما أمر به المهدي . وقد أمر المهدي أيضاً بكتابة خطاب أو منشور بمعنى أدق قرئ على منبر القيروان ونسخت منه نسخ إلى بقية المدن ، وهو كتاب طويل ، أورد فيه المهدي الكثير عن الأوضاع التي مرت بها الدعوة الشيعية الإسماعيلية ، حتى تحقَّق لها إعلان الخلافة وأشار في جملة ماأشار إلى أحقية آل البيت بإرث النبوة ومقاليد الإمامة بأخذه ميراث جده النبي وأبيه الوصي (صلوات الله عليهما) (٣) .

وفي حين لم يذكر القاضي النعمان في كتابه السابق شيئاً عن سب الصحابة ، عندما دخل عبيد الله المهدي رقادة والقيروان ، وهذا بالطبع شئ متوقع ، ذكرت المصادر السنية أن عبيد الله المهدي أظهر التشيع القبيح ، وسب أصحاب الرسول ﷺ وأزواجه حاشا من ذكرنا منهم قبل قليل ، إذ استثنوا من ذلك التجريح ويقول المؤرخون إن عبيد الله زعم أن الصحابة عدا أولئك النفر ارتدوا بعد الرسول ﷺ .

ويذكر ابن عذارى (٤) ومن أخذ عنه أن الشعراء مدحوا عبيد الله (بالكفر) ومنهم الشاعر محمد البديل ، الذي قال فيه مادحاً :

---

(١) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٩٣ .

(٢) ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٣) القاضي النعمان : المصدر السابق ،ص ٢٩٤ - ٩٥ م .

(٤) البيان المغرب ، ج١ ، ص ١٦٠ .

حـل برقـادة المسيـــــح   حـل بهـا آدم ونـــــوح

حل بها أحمد المصطـــــفى   حل بها الكبش والذبيـــح

حل بها الله ذو المعـــــالي   وكل شئ سـواه ريـــح

أمـا القاضي النعمـان (١) فلم يشـر إلى أبيات الشـاعر محـمـد ابن البديل تلك ، ولكنه أورد بعضـاً من مديح الشـاعـر سـعدون الورجيني في الخليفة المهدي ، وفي داعيته أبي عبد الله وذلك إثر دخول المهدي القيروان ، ومن جملة ماأنشده :

هذا أمير المؤمنين تضعضعت   لقدومه أركان كل أمـــير

هذا الإمام الفاطمي ومن بـه   أمنت مغاربها من المحذـور

والشرق ليس لشامه وعراقـه   من مهرب من جيشه المنصور

حتى يفوز من الخلافة بالمنى   ويفاز منه بعدلـه المنشـــور

ولعل البيت الذي يعكس ماذكره المؤرخون عن رضـاء الخليفة المهدي بما يقال عن تأليهه ، هو ذلك الذي خاطب فيه سعدون الورجيني الخليفة المهدي مادحاً داعيه أبي عبد الله قائلاً :

أشبهت موسى وهو حيتّك التي   تُلقى فتلقف كل إفك مسحور(٢)

ويروي ابن عذارى (٣) ومن نقل عنه أن صيغة القسم الذي كان يُحلف

---

(١) نفسه ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) افتتاح الدعوة ، ص ٣٠١ .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص ١٦٠ .

به أيام عبيد الله المهدي ، وخاصة من قبل قبيلة كتامة : (وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقادة) .

وفيما يتعلق بالتطبيق العلمي لفقه العبادات الإسماعيلي ، واصل الفاطميون في عهد المهدي ما أمر به الداعى أبو عبد الله الشيعي من المناداة : بحي على خير العمل ، وبالجهر بالبسملة (١) .

ويروى عدد من مؤرخي التراجم الإفريقية أن المهدي ودعاته طالبوا الفقهاء والعلماء المالكية في نفس عام ٢٩٧ هـ بضرورة الاعتراف بتفضيل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – على كل الصحابة (٢) ، كما يروى أولئك المؤرخون أن دعاة الشيعة كانوا يطلبون من العلماء بأن يشهدوا أن عبيد الله : رسول الله (٣) وفي هذا الصدد يذكر حسن ابراهيم حسن (٤) فيما يرويه عن مصادر عدة اعتمد عليها أن دعاة عبيد الله المهدي أسرفوا في الصاق صفات التقديس بالخليفة بأمر منه مثل قولهم : هو المهدي ابن رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه ، وأن بعض الدعاة كانوا كثيراً مايقولون لبعضهم البعض هو رسول الله . ويقول بعض لبعض آخر : (هو الله الخالق الرازق) .

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ص ٥٥–٥٦ – عياض : نفسه ج٢ ، ص ٢٥٣ – الدباغ : ٢٧٨ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ – ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٧٨ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٤٩ – الدباغ : نفسه ،ج٢ ، ص ٢٦٣ – ٢٦٤ .

(٤) نفسه ، ص ٣٢٧ – ٣٢٨ (نقلا عن أبي شامة في كتابه : الروضتين فيما يتصل بالقول : هو الله الخالق الرازق) .

ويذكـر عبـده بدوي - دون أن يذكـر سنده - أنه قد قيل عن المهدي (كلام كثير منه أنه أدعي النبوه ، وأنه كان يسمع في مجلسه بالقول بأن محمداً (ﷺ) ليس بخاتم المرسلين) (١) .

ويجاري عبد العزيز المجذوب (٢) حسن ابراهيم فيما أشار إليه بل ينقل عنه حرفياً . وقد زاد فقال بأن المقولة الخطيرة السابقة وهي أن المهدي - معاذ الله - ، هو الله الخالق الرازق ، قد أشار اليها ابن عذارى ، في حين أننا لم نر في كتاب بن عذارى مايشير لذلك . ويشير المجذوب (٣) أن المهدي بدعائه بالصلاة على شخصه ، قد أدعى النبوة ، كما أنه يذكر بأن المهدي رضى من دعاته أن يؤلِّهوه ولم ينكر عليهم ذلك .

ونحن بالطبع ليس من مهمتنا التعليق على ماورد من آراء خطيرة للكشف عن مدى وقوعها أو لا ، بقدر مايعنينا اظهار ماتردَّد - إن صحت الروايات تلك - من آراء خطيرة أدت إلى ردود فعل غاضبة من المغاربة .

على أن الشئ الواضح للمتتبِّع لأحداث تلك الفترة وخاصة تلك الممتدة بين عامي ٢٩٧ - ٣١٠ هـ سيلحظ أنها كانت فترة صعبة الوطأة على أهل السنة ، فقد أخذ الفاطميون يطبقون بكل شدة تعاليم مذهبهم السياسية والعقائدية والفقهية ، وعاملوا بكل قسوة كل من خالف ذلك حسبما سنعرف بعد ، سواءً فيما يتعلق بالمناداة بحي على خير العمل ، أو مايتصل بمسألة

---

(١) مع حركة الإسلام في إفريقية ،ص ٤٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

التفضيل أي تفضيل علي بن أبي طالب على غيره من الصحابة ، أو موضوع عدم الإفتاء بمذهب غير مذهب الدولة الفاطمية (١) أو ما رآه المؤرخون من غلو شديد في مدح المهدي وخاصة بعد بنائه المهدية (٢) ذلك الغلو الذي أشار إليه ابن عذارى (٣) عندما أورد الشعر بقوله : « فقالت شعراء إفريقية في انتقاله واستيطانه من الشعر ماذكرنا أبياتاً منها ليستدل بما فيها على ما كان يستحله ويجوز عنده من الأشعار » .

وقبل أن نترك الحديث عمّا جرى في عهد عبيد الله المهدي من ممارسات وتطبيقات لابد أن نشير إلى بعض تصرفات وصفها بحق السيد أبو العزم داود (٤) بالحماقات الغريبة . سواء التي أمر بها هو نفسه ، أو تلك التي ارتكبها رجاله ودعاته . فمن بين تلك التصرفات والحماقات الغريبة ما أمر به الخليفة – إن صحت الرواية – بتعليق رؤوس حيوانات على دكاكين القيروان وكتب تحت كل رأس اسم صحابي من الصحابة . ومنها – وهي ذات دلالات خطيرة – أنه نصب شخصاً سباباً يسب بأسجاع محفوظة فهم

---

(١) ابن عذاري نفسه ، الجزء ، ص ١٥٩ .

(٢) كهذه الأبيات : ليهنك أيها الملك الهمام ... قدوم فيه للدهر ابتسام

حططت الرحل في بلد كريم ... رعته لك الملائكة الكرام

ومنها : هي المهدية الحرم الموقي ... كما بتهامة البلد الحرام

كأن مقام ابراهيم فيه ... ثري قدميك أن عدم المقام

وان لثم الحجيج الركن أضحي ... لنا بعراص قصركم إلتثام

أنظر ابن عذارى : نفسه – الجزء ، ص ١٨٤ .

(٣) نفسه ، ج١ ،ص ١٨٤ .

(٤) نفسه ، ص ٣٠٤ ، وأنظر تلك التصرفات : عياض ، نفسه . ج٢ ، ص ٣١٨ .

منها سب النبي ﷺ كقوله – العياذ بالله – ألعنوا الغار وماوعى ، والكساء وماحوى) ، ونحن نستبعد مع السيد أبي العزم (١) أن يكون هذا بتدبير من المهدي ، فلا يعقل كما يبدو لنا أن يأمر المهدي بسب النبي ﷺ ، والعياذ بالله ، وهو الذي يعتبر نفسه إبناً له يستمد نفوذه من اسمه عليه الصلاة والسلام .

وفي عهدي القائم بأمر الله والمنصور ابنه لم ترو لنا المصادر شيئاً عن الممارسات العملية التطبيقية للمذهب الإسماعيلي سوى بعض الإشارات . ولعلنا لسنا في حاجة إلى كبير ذكاء لنستنتج بأن السبب يعود في ذلك لإنشغال الخليفتين الفاطميين بالثورة الكبرى التي شنها عليهما الثأر الخارجي أبو يزيد مخلد بن كيداد . ولذلك فقد حاولا كما يظهر ، التخفيف من غلواء تطرف مذهبهما بعدم استثارة حفائظ أهل السنة . غير أن الرقع اتسع على الخارق فيما يبدو ، فقد وقف أهل السنة مع أبي يزيد ضد الدولة الفاطمية كما هو معروف .

ومع ذلك فقد أورد لنا ابن عذارى (٢) أن القائم بأمر الله واصل ماقيل عن والده المهدي من سب الصحابة . كما أنه عامل بشدة فقهاء المالكية ومن تحدثه نفسه بالتأليف إلاّ بما يوافق طروحات الشيعة – إن جاز هذا التعبير – .

---

(١) نفسه ، ص ٣٠٥ .

(٢) نفسه ، ج١ ، ص ١٨٥ .

أما في عصر المنصور وهو الذي تصدى للقضاء على ثورة أبي يزيد حتى أفلح أخيراً ، فيبدو أن تطبيقات الشيعة لأسس مذهبهم لم تنقطع - وإن لم تشر المصادر صراحة إلى انقطاعها أو استمرارها - ، وماقد يتبادر للأذهان من أن تحالف أهل السنة مع أبي يزيد وخروجهم على الدولة الفاطمية قد تم في عهد المنصور لايصح أن يعد دليلاً ، فلقد كان خروجهم في عهده نتيجة لتراكمات السنين منذ عهد المهدي . وقد استغلوا ثورة أبي يزيد للوقوف في وجه الشيعة . والأثر الذي أشار إليه مؤرخو التراجم والطبقات كدليل على مواصلة الخليفة المنصور لتطبيق مبادئ مذهبه ، هو تشدّده في مسألة تحديد بداية شهر الصوم ونهايته ومعاقبة كل من يخالف ذلك (١) كما سنعرف بعد قليل .

أما في عهد المعز ، فقد نحا في تطبيق مبادئ المذهب الإسماعيلي ورفع شعاراته منحى خطيراً . ولقد حمل كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين على المعز لدين الله ، وقد رأوه يرضى بصفات وألقاب يوسم بها لاتليق بالبشر . ففيما يتصل بالدعاء لشخصه ، فقد استمر اطلاق لفظ (ﷺ) ولفظ (عليه السلام) على الخليفة من رجاله ودعاته (٢) .

---

(١) مثلما جرى لقاضي برقة أبو عبدالله محمد بن إسحاق الجبلي في سنة ٣٤١هـ ، أنظر الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ٤٧ .

(٢) أنظر القاضي النعمان : نفسه ، ص ٣٣٢- ٣٣٩ - سيرة جعفر ، ص ١١٩ ، ١٢١ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف :نفسه (وقد تردد لفظ ﷺ ولفظ عليه السلام في كل صفحه ورد فيها ذكر المعز عند مؤرخي الشيعة وخاصة القاضي النعمان في كتابه المجالس و المسايرات الذي اعتمد عليها المؤلفان في كل صفحات الكتاب تقريباً) وكتاب =

ويشير ابن عذارى بأن معداً ، وهو اسم المعز لدين الله (إدعى النبوه، وجعل من ينادي فوق صومعة القيروان : أشهد أن معداً رسول الله ، فارتج البلد لذلك ، وداخل أهله الرعب) (١) . ولقد عاد ابن عذارى (٢) . فأكد بعد ثلاث صفحات من كلامه السابق على ادعاء الخليفة المعز للنبوة من على صومعة القيروان ، غير أنه ذكر بأن الرعب قد داخله هو ، أي داخل المعز عندما لمس الضجة الكبرى التي أثارها إعاؤه ذلك .

أما عبد العزيز المجذوب (٣) فيقول بأن المعز لم يكتف بادعاء النبوة ، بل قد تألّه فعلاً وادعى الربوبية علنا . وفيما يتصل بالتطبيق العملي لفقه العبادات الإسماعيلي . فقد واصل المعز تطبيق مبادئ مذهبه الفقهية فيما يتعلق بالدعوة بحي على خير العمل وبالجهر بالبسملة والتكبير على الجنائز خمساً .. الخ (٤) .

بيد أن النقمة الكبرى التي تعرض لها المعز سواءً من أهل السنة ، أو من المؤرخين القدامى ومن بعض الباحثين المحدثين ، كانت بسبب سكوته ،

= المجالس والمسايرات يعد سيرة ذاتيه للمعز تابعها القاضي النعمان متابعة معاصر يوماً بيوم وحدثاً بحدث كما صرح بذلك في الكتاب ، وكما صرح في اختتامه لكتاب افتتاح الدعوة ص ٣٣٨ - ٣٣٩- عن عزمه عن تأليف ذلك الكتاب الذي هو المجالس والمسايرات وبالطبع فقد كانت تلك الكتب والسير معروفة لدى أهل السنة بالمغرب الأدنى آنذاك .

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٢٨٢ .

(٢) نفسه ، ج١ ، ص ٢٨٥ .

(٣) نفسه ، ص ١٧٠ .

(٤) ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٢٤ (وذلك في منشور أصدره إلى أئمة المساجد في كافة انحاء البلاد عام ٣٤٩هـ) .

بل قبوله ورضاه عن قصائد المدح التي قيلت فيه من شاعرة الأشهر ابن هانئ الأندلسي . فقد رأى فيها هؤلاء كفراً بواحاً ، وهي قصائد عديدة سنعرض لها بعد إن شاء الله .

غير أن اشهر ماأثار النقمة علي المعز – وهي نقمة صادقة في موضعها – ، بضعة أبيات أغرق ابن هانئ فيها في إضفاء صفات التقديس على المعز لدرجة رفعته فوق منزلته البشرية . ومن بين تلك الأبيات الأشد خطورة وإغراقاً :

فكأنما أنت النبي محمـــد وكأنما أنصارك الأنصـــار

ماشئت لاماشاءت الأقـــدار فاحكم فأنت الواحد القهار (١)

وكذلك :

أقسمت لولا أن دعيت خليفـــة لدعيت من بعد المسيح مسيحا

شهدت بمفخرك السموات العلا وتنزل القرآن من فيك مديحـــا

ومن قصيدة أخرى : (٢)

وعلمت من مكنون سر الله مـــا لم يؤت في الملكوت ميكائيـــلا

لو كان أتى الخلـق ما أوتيتـــه لم يخلق التشبيـــه والتأويـــلا

---

(١) الرائية : أنظر ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الاندلسي ، تحقيق اكرم البستاني ص ١٤٦ -١٥٣.

(٢) من القصيدة الحائية ، أنظر ابن هانئ الأندلسي ، نفس الديوان السابق ، ص ٧٥ – وما بعدها .

ومن هذه القصيدة :

لولاك لم يكن التفكر واعظــــاً والعقل علماً والقياس دليـــلا

لو لم تعرفنا بذات نفوسنــــا كانت لدينا عالماً مجهــــولا

وفي الحق فإن تلك القصائد وماجاء فيها ، كانت دليلاً على آراء الشيعة في الأئمة حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل وأوضحنا مقدار نظرتهم المقدسة للإمام ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فبعضها دليل كذلك عن الجانب العقائدي من مذهبهم الذي يتعلق بأسماء الله وصفاته التي جلعوها للعقل الكلي الذي يعني المبدع الأول .. الخ تلك الآراء البدعية .

وإذا ماذهبنا نتقصى التطبيقات العملية للمذهب الشيعي الإسماعيلي في عهد الزيريين أو الصنهاجيين منذ رحيل المعز إلى مصر عام ٣٦٢هـ وحتى عام ٤٤٠هـ ، وهو العام الذي قطع فيه المعز بن باديس الخطبة للفاطميين في إفريقية وخطب للعباسيين ، فإن مايمكن ملاحظته هو أن الزيريين كانوا مدفوعين – حتى ولو على غير اقتناع – بالدعوة على المنابر للخلفاء الفاطميين في مصر بنفس النمط الذي سارت عليه الخلافة الفاطمية إبّان مكوثها في المغرب . وفي عهد بلقين أوبلكين بن زيري الذي تولى حكم إفريقية بعد رحيل المعز مباشرة حرص على أن يستمر في الدعوة للمذهب الشيعي ، كما تشدَّد في قضايا النزاع مع فقهاء المالكية كقضية التفضيل وغيرها (١) . والحرص على تهيئة المناخ الصالح لنشر المذهب الشيعي استمر كذلك في عهود خلفائه وإن كان على درجات متفاوته .

---

(١) أنظر حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٣٢– ٣٣٣ .

بيد أن الشئ المؤكد ، هو أن عهد الزيريين تميز بالفتور في الولاء للمذهب الشيعي . فعدا ماذكرنا بعاليه ، لم نر منهم حرصاً على تطبيق مبادئ الشيعة الأخرى ، وخاصة في جانب العبادات . (١) ولاريب في أن لذلك العديد من العوامل التي لاحظها بكل دقة المؤرخون المحدثون والتي سنشير إلى بعضها عند التعرض لردود فعل المغاربة تجاه الصراع العنيف مع الشيعة .

(١) أنظر حسين مؤنس : مقدمة الجزء الأول من الرياض : ص ١٩م ، ٢١م – حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٣٤– ٣٣٧– عبده بدوي : المرجع السابق ، ص ٨٣– ٨٥– اسماعيل العربي : دولة بني حماد : ص١٠٧ – ١١١ – عبدالحليم عويس : دولة بنى حماد : ص١٦٧– ١٦٩ ، ٢٥٥ – ٢٥٦ ، الفرد بل : المرجع السابق ، ص ١٦٣ – ١٦٥ .

ب - موقف فقهاء المالكية من المذهب الشيعي والدولة الفاطمية :-

بعد أن أوضحنا شيئاً من أهم معتقدات المذهب الإسماعيلي وماطبقوه منها على أرض الواقع في إفريقية . علينا أن نستعرض بإيجاز مواقف الفقهاء المالكية ، وهم من هم في تشدُّدهم وكرههم للبدع والضلالات ، وبعدهم عن التفلسف والتنظير الذي تميز به المذهب الإسماعيلي .

لانزاع في أن المغاربة قد وقفوا في وجه الخلافة الفاطمية ودعاتها ، مواقف متشددة لاهوادة فيها ، فلم يهنوا ولم يضعفوا وقاوموها بشتى انواع المقاومة ، بالمواجهة الشديدة تارةً ، وبالمعارضة الصامتة تارةً ثانيةً ، وبالمداراة والتقية تارةً ثالثةً ، وبالمواجهة المسلحة تارةً رابعةً ، وبالمقاطعة وعدم ممالئة من يخضع لنفوذها ويضعف تارةً خامسة ، وأخيراً بالقلم والحجة والبرهان (١) .

وكتب التاريخ المغربية وكتب التراجم والطبقات الإفريقية التي تناولت الأحداث في الدور المغربي من عصر الخلافة الفاطمية ، ثم في العهد الزيري تكلمت عن تلك المواقف بإسهاب أحياناً وبإيجاز أحياناً أخرى ونحن هنا لن نتحدث عن تفاصيل تلك المواقف التي نشبت بين الفريقين : السنة والشيعة ، لأن ذلك لايهمنا كثيراً . ولعل مايهمنا منه هو الجانب العلمي من تلك المواقف

---

(١) جمع أحد الباحثين وهو أبو لبابه حسين تلك المواقف التي وقفها فقهاء المالكية ضد الدولة الفاطمية، ثم ضد دعاتها في العهد الزيري في كتاب أسماه (موقف متصوفه إفريقية وزهادها من الإحتلال العبيدي) تناول فيه بالحديث شتى تلك المواقف . عن تلك المواقف أنظر : أبو لبابة حسين : نفس المرجع أعلاه ، ص ٥ - ٩٥ .

كما هو مفهوم . على أن ذلك لايتّسق إلاّ بالحديث عن أهم جوانب تلك المواقف التي ذكرناها آنفاً .

وفي الحق فإن المغاربة وعلى رأسهم الفقهاء المالكية ، عارضوا الخلافة الفاطمية منذ أن بسطت نفوذها على بلادهم ولقد عبر العامة عن إدعاء الخليفة عبيد الله المهدي الغيب الذي يرافق ذلك القسم الذي كان يحلف به رجال كتامة ، والذي أشرنا إليه سابقاً بطريقة ذكية تفضح إدعاءات عبيد الله المهدي تلك . فكان أن إحتالوا في وضع بيتين من الشعر لهما دلالتهما بين يدي المهدي من حيث لايشعر . وقد أوضح البيتان أصدق توضيح عن تهكم العامة بتلك المسألة . وهذان البيتان هما :

بالجـــور قد رضينا — لا الكفر والحمـاقة

يامـدعي الغيـــوب — من كاتب البطـاقة (١)

كما أن الناس لابد أن يكونوا قد تأثروا وقتذاك بما ثار من تشكيك حول مهدوية عبيد الله التي كان داعية أبو عبد الله قد أشار إليها (٢) .

ولقد راع الناس ذلك ، وراعهم كذلك تخلّص عبيد الله من داعيته أبي عبد الله الذي قامت دولة عبيد الله على أكتافه ، وذلك بقتله هو وشقيقه (٣) .

---

(١) ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ١٦٠ .

(٢) أنظر القاضي النعمان : إفتتاح الدعوة ص ١٥٨ – ابن عذاري نفسه ، و الجزء أعلاه ص ١٦١– ١٦٢ .

(٣) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، ص ١٦٤ – ١٦٥ ، وأنظر ماقاله قاتله له عندما هم بقتله فقد قال إن الذي أمرني بقتلك هو من أمرت الناس بطاعته وانخلعت من الملك له بعد توطئته) .

وأثار عبيد الله الشكوك حوله كذلك عندما تخلص أيضاً من أقرب معاونيه من كتامة الذين تعاطفوا مع الداعي أبي عبد الله (١) . هذا بالإضافة إلى ماشهدوه من تطبيق علمي فى جانبي الفقه والمعاملات ، لم يألفوه ويعرفوه عن الشريعة الإسلامية النقية الواضحة .

أما الفقهاء ، وقد لمسوا الدلالات الخطيرة لمبادئ الشيعة الإسماعيلية ، وخاصة تلك التي طبقوها عملياً كما عرفنا سابقاً فقد أفزعهم ذلك ، فوقفوا تلك المواقف التي ذكرناها قبل قليل ، ولعل أول تلك المواقف التي واجه بها فقهاء المالكية الشيعة هو مواقف المواجهة المباشرة المتشدِّدة ، وفي هذا الصدد حمّل الفقيه جبلة بن حمود الصدفي (ت ٢٩٧هـ) عبء تلك المواجهة الشديدة . فقد ارتفع صوته مستنكراً مبادءهم ومعلناً (كفرهم) أي كفر بني عبيد الله كما كان يطلق على الفاطميين وقتذاك (٢). كما أن مما ينسب إليه: إبتداره إلى مقاطعة صلوات الجمعة في مسجد القيروان وغيره من المساجد وذلك عندما تبين له مايتم فيها من قبل مؤذني وخطباء الدولة الفاطمية (٣) .

---

(١) القاضي النعمان : نفسه ،ص ١٦٧ ومابعدها – ابن عذاري : نفسه ١٦٧ ، ١٧٢ .

(٢) مما يدل على ذلك ، أن عبيدالله المهدي لما دخل مدينة رقادة ترك جبلة سكنى قصر الطوب في ضواحب مدينة سوسة وجاء إلي القيروان ، وعندما سئل عن ذلك ، قال (كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر ، والآن حلّ هذا العدو مساحتنا ، وهو أشد علينا من ذلك) ولذلك فقد كان يقوم يومياً بدور الحراسة للقيروان ويقف تجاه مدينة رقادة من الصباح حتى المساء ، ثم يعود إلى داره ويقول (أحرس عورات المسلمين منهم فإذا رأيت منهم شيئاً حركت المسلمين عليهم) ، وكان كثيراً مايصرح بأن جهاد هؤلاء القوم (أي الفاطميين أفضل من جهاد أهل الشرك) .أنظر عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٣) المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٢-٤٣ . عياض : نفسه ، ص ٢٥٢ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، =

ويعلق المالكي (١) على تصرف جبلة ذلك بقوله (فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعتهم ، وهو أول من نبّه على ذلك) . ويذكر مؤرخو ترجمته أنه مع كل مواقفه منهم ، إلاّ أنهم لم يستطيعوا فعل أي شئ تجاهه (٢) .

وممّن وقف من الشيعة ومذهبهم مواقف متشددة مدافعاً عن الشريعة النقية الواضحة التي لاغموض فيها عدد من فقهاء البلاد الذين عاصروا عنفوان المد الشيعي ، فكان أن تصدوا لذلك ، وقد واجهت الدولة الفاطمية موقفهم العدائي ذلك بقسوة بالغة ، فحكمت على عدد منهم بالقتل ، وضربت بعضاً آخر ونكّلت به وسجنت فريقاً ثالثاً ، ثم مالبثت أن أجبرته بترك الفتيا بمذهب مالك وبالتعهد بعدم إلقاء الدروس .

وقد أورد مؤرخو التراجم والطبقات أسماء كل أولئك الفقهاء فمن الذين ذهبت أرواحهم فداء الشريعة والسنة، الفقيهان : أبو اسحاق ابراهيم ابن محمد الضبي المعروف بابن البرذون ، والفقيه أبو بكر بن هذيل ، اللذان قتلا عام ٢٩٧ هـ في عهد الخليفة المهدي ، لأنهما رفضا أن يشهدا بأن المهدي (هو رسول الله) كما طلبهما دعاته بذلك حسبما تشير إلى ذلك كتب الطبقات المغربية (٣) .

= ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

(١) نفسه : ج٢ ، ص ٤٣ .

(٢) المالكي : نفسه ،ص ٣٨– عياض : نفسه ،ص ٢٥١ ، وغيرهما .

(٣) هذا ماذكرته المصادر السنية المغربية ، أنظر عن هذا مثلا المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٤٨ –٤٩ الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٦٢ – ٢٦٥، ٢٦٦ – ٢٦٨ أما أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ط١ ، ص ٢٩٥ فقد أشار إلى مقتل الفقهين فقط دون أن يشير إلى أسباب قتلهما . ولابد من التنبيه هنا إلي أن المالكي : والدباغ ومعهما ابن ناجي مكمل ومعلق الكتاب قد أشاروا إلى =

ومن أولئك الذين قتلوا كذلك في عهد الخليفة المهدي ، الفقيه محمد بن ابراهيم المعروف بالسنجري وحسن بن مفرج اللذان ضربا بالسياط ، ثم قتلا بالرماح عام ٢٩٩ هـ ، لأنهما كانا يفضلان بعض الصحابة على علي ابن أبي طالب ، رضي الله عن الجميع (١) .

ومنهم أبو جعفر محمد بن محمد بن خيرون المعافري الذي قتل عام (٣٠١ هـ) (٢) وعروس المؤذن (٣١٧هـ) الذي قتل لانه لم يقل في أذانه عبارة : حي على خير العمل (٣) . ومنهم أيضاً أبو القاسم بن مفرج ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله السدرى وقد قتلا عام (٣٠٩هـ) في عهد الخليفة المهدى (٤) .

وممّن ضرب ضرباً مبرّحاً نظراً لمواقفه المتشددة ، عدد من الفقهاء ، وذلك في عهدي الخليفتين المهدي والقائم بأمر الله أبرزهم : أبو عبد الله محمد بن العباس الذهلي المعروف بدعدع (ت ٣٢٩هـ) وقد ضرب لأنه

= أنه حادثة مقتل الفقهين كانت عام ٢٩٩هـ وهذا في الحقيقة وهم منهما فالحادثة وقعت عام ٢٩٧هـ كما أشار أبو العرب التميمي وكما أشار محقق الجزء الثاني من الرياض بشير البكوش في حاشية رقم (١) ص ٤٧ ومحمد الأحمدي أبو النور ، ومحمد ماضور محققا الجزء الثاني من المعالم ، حاشية رقم (١) ص ٢٦٤ .

(١) أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ – ابن عذاري : نفسه ، ص ١٨٧ (وعنده أنهما قد قتلا عام ٢٠٩هـ)

(٢) المالكي : نفسه ، ص٥٢ – ٥٤– الدباغ : نفسه ، والجزء ، ص ٢٨٨ – الدباغ: نفسه ، ٢٩٢هـ .

(٣) أبو العرب : نفس المصدر أعلاه ص : ٢٩٤ – المالكي : نفسه : ص ١٥٢ – الدباغ : نفسه ، ج٣، ص٥ .

(٤) المالكي : نفسه ،ص ١٦٥– ١٦٦، ١٦٦– ١٧٥ .

(كان شديد البغض لبني عبيد كثير السبّ لهم لايخاف في الله لومة لائم)(١)، ولأنه كان يفتي بمذهب الإمام مالك (٢) . وأبو جعفر أحمد بن الثمار (ت٣٢٩هـ) ، وقد ضرب أيام الخليفة المهدي هو وأخوه (٣) .

وكذلك : أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله الزبيري المعروف بالقلانسي (ت ٣٦١هـ) وقد (امتحن على يدي أبي القاسم بن عبيد الله الرافضي ، ضربه سبعمائه سوط وحبسه في دار البحر أربعة أشهر بسبب تأليفه كتاب الإمامة) كما يقول عياض في مداركه (٤) .

كما لجأت الخلافة الفاطمية إلى سجن بعض العلماء الذين وقفوا منها موقفاً عدائياً ، فلم يرضوا بأن يفتوا بمذهبها ، بل أصروا على الفتوى بأحكام مذهبهم المالكي ، ولم يكتفوا بذلك بل واصلوا عقد حلقات الدروس في المساجد وغيرها . ومن أبرز هؤلاء نذكر الفقيه المالكي المشهور أبا بكر محمد بن وشاح اللبّاد (ت ٣٣٣هـ) فقد سجنوه فترة من الزمن ، ثم أطلقوا سراحة على أن لايفتي بمذهب مالك ولايعقد حلقات الدرس لا في بيته ولا في المساجد (٥) .

على أن بعض فقهاء البلاد ، فضل اللجوء إلى المداراة والتقية لمواجهة

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ٣٤٥ .

(٢) عياض : ننفسه .

(٣) عياض : نفسه ،ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .

(٤) الجزء الثاني ،ص ٥٢٤ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٢٨٧ (عن منعة من الفتوى والسماح واجتماع الطلبة) عياض : نفسه ج٢، ص ٣٠٩ – ٣١٠ .

المذهب الشيعي والدولة الفاطمية ، ومن أولئك الذين فضلوا ان يلونوا بمذهبهم السني تحت شعار التقية والمداراة أبو محمد يونس بن محمد الورداني (ت ٢٩٩ هـ) حيث فضل الاستتار تحت مهنة رعي البقر ، على أن يسلم للشيعة بمطالبهم (١) ، ومنهم الفقيه أبو بكر القمودي الذي فضل مداراة الشيعة عندما لمس غضبهم الشديد منه وتهديدهم إيّاه نظراً لمواقفه التي كان قد وقفها من قبل من المذهب والدولة (٢) .

بيد أن أخطر تلك المواقف بلاشك هي المواجهة المسلحة ضد الدولة والمذهب الشيعي التي عكست بصدق نظرة علماء وفقهاء المالكية للمذهب الشيعي ورجالاته هذه المواجهة التي هيأ لها حدث داخلي خطير ، واجه الدولة الفاطمية كاد أن يطيح بها . نعني بذلك ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد التي أتاحت السبيل لفقهاء المالكية للمواجهة المسلحة مع المذهب الشيعي والدولة الفاطمية على نحو ماسنعرف على التوّ .

ذلك أنه في عهد الخليفة الفاطمي الأول المهدي شهدت الخلافة في عام ٣١٦ هـ (٣) بداية تمرد خارجي إباضي مالبث أن تحول إلى ثورة عارمة قادها رجل بربري إباضي المذهب من فرقة النكارية التي انفصلت عن

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٤٥- ٤٦ .

(٢) الخشني : كتاب طبقات علماء إفريقية الوارد ضمن كتاب أبي العرب التميمي : كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص ٢١٤ .

(٣) هذا ما أعتمده محمود اسماعيل عبدالرازق : الخوارج في بلاد المغرب ص ٢٤١ ، - صالح باجية : نفسه ، ص ١١٧ . كما أن ابن عذاري : نفسه ، ص ١٩٣ إعتمد هذا التاريخ كبداية لتمرد أبي يزيد .

الإباضية في المغرب ، ويعرف ذلك الثائر البربري بأبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي المعروف تاريخياً بصاحب الحمار لاشتهاره بركوبه (١) . ويعرف كذلك بأبي يزيد فقط .

وأياً ماكانت الأسباب التي دفعت بأبي يزيد للتمرد فالثورة ضد الدولة الفاطمية (٢) فإن الدافع الرئيسي المعلن هو استنكار مبادئ الشيعة الإسماعيلية وتطبيقاتهم العملية لها (٢) . ومن هنا أعلن تمرده وثورته على الدولة الفاطمية ، ولقد زادت ثورته اشتعالاً في عهد الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله . وبدأ كما لو أن الخلافة الفاطمية ستهوى بين يديه في عهد القائم ، غير أن ثورته تلك مالبث أن قضى عليها الخليفة الفاطمي الثالث اسماعيل المنصور عام ٣٣٧هـ ، بعد أن أفلح في القبض على أبي يزيد الذي

---

(١) لاشتهاره بركوب الحمار في أول أمره ، أنظر مثلا : ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ٥٦-٥٧- عياض : نفسه، ج٢ ، ص ٣١٨ - محمد الشابي ، دولة صاحب الحمار ونقوده ، وهو بحث قدمه إلى المؤتمر الرابع للآثار الذي نظمته جامعة الدول العربية عام ١٩٦٣ ، ص ٥٨٥- ٥٨٩- ٥٩٢ .

(٢) عالج محمود اسماعيل عبدالرازق : كل ماقيل عن الأسباب التي دفعت بأبي يزيد والخوارج الإباضية للثورة ، سواء ماذكره المؤرخون المسلمون أو المستشرقون ، وهي الأسباب التي تعددت مناحيها من أسباب اجتماعية إلى أسباب حضارية إلى أسباب مذهبية ألى غير ذلك . أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : الخوارج ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ مع الحواشي .

(٣) هذا ما يراه محمود اسماعيل : نفسه ، ص ٢٣٧ ، الاعتبار الأول في ثورة أبي يزيد مع عدم نفيه لتأثير بقية تلك الأسباب التي أوردها كذلك ، وهذا أيضا مايؤكده ويصر عليه مؤرخ إباضي معاصر وهو سليمان بن الحاج داود بن يوسف المؤرخ الجزائري ، فهو يرى أن ثورة أبي يزيد ثورة جهاد في سبيل الله وقد صنف كتاباً بعنوان : ثورة أبي يزيد جهاد لاعلاء كلمة الله . أنظر سليمان بن الحاج داود : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٣ -٧٥ .

مات بعد قليل متأثراً بجراحه .

ولعل الأمر الذي يعنينا من تلك الثورة هو ماوقع إبأنها من تحالف بين السنة وعلى رأسهم فقهاء المالكية وبين أبي يزيد للقضاء على المذهب الشيعي والدولة الفاطمية ، وقد وقع ذلك التحالف عام ٣٣٣هـ ، عندما عول أبو يزيد على الاستيلاء على مدينة القيروان توطئة للقضاء المبرم على الدولة الفاطمية في المهدية (١) .

ولقد نظر فقهاء المالكية إلي انضمامهم لأبي يزيد من جهة ومحاربة الدولة الفاطمية من جهة أخرى بنظرة دينية ، ذلك أنهم رأوا أن الخروج مع أبي يزيد (متعين لكفر بنى عبيد) (٢) ولأن أبا يزيد الخارجي الإباضي من أهل القبلة كما يرون . ولذلك فقد وجب الخروج على أولئك الذين لايمكن اعتبارهم من أهل القبلة (٣) .

ومع كل ذلك ، فإن فقهاء المالكية كانوا لايرون الدخول في طاعة أبي يزيدمخلد بن كيداد لو قدر له الانتصار على الشيعة فلعل الله يسلط عليه إماماً عادلاً يخرجه عنهم (٤) .

---

(١) كان المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٢٩٢ – ٣٤٦– وعياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٨ – ٣٣١ – هما خير من عالج مسألة تحالف فقهاء المالكية مع أبي يزيد وما تمخض عن ذلك التحالف من أحداث.

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣١٨ .

(٣) وهذا رأي الفقيه أبو اسحاق السبائي بصفة خاصة ووافقة عليه بقية الفقهاء . أنظر عياض : نفسه ،ص ٣١٨ .

(٤) عياض :.نفسه ، ص ٣١٩ .

وصـرح أحـد الفـقـهـاء وهو أبو الفـضل المـمـسي آنذاك بأن قـتـال الفاطميين أفضل من قتال المشركين ، ذلك لأنه قد قرأ القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، فلم يجد فيه مايوجب القعود ، كما أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي فرض لازم في رأيه (لأن الخوارج من أهل القبلة لايزول عنهم إسم الإسلام ويرثون ويورثون وبنوا عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم إسم الإسلام ، فلا يتوارث معهم ولاينسب إليهم) . (١)

ومهما يكن من أمر ، فقد عزم فقهاء المالكية وعلى رأسهم عدد من أبرز فقهاء ذلك الوقت كأبي الفضل الممسى ، وأبي العرب التميمي ، وربيع القطان ، وأبي اسحاق السبائي وغيرهم على الخروج مع أبي يزيد ضد جموع الشيعة في موقعة عرفت بموقعة وادي الملح عام ٣٣٣هـ . ولقد انتهت المعركة باستشهاد حوالي ثمانين عالماً منهم أولئك النفر المذكورين (٢) آنفا . وينسب المؤرخون إلى إبي يزيد مخلد بن كيداد تعمده التقاعس في المعركة . مماً كشف أهل السنة وأدى إلى انتصار الشعية عليهم (٣) .

ومن المناسب هنا أن نشير إلى أن استعدادات فقهاء المالكية لمواجهة الشيعة، وما اتسمت به تصرفاتهم آنذاك ، جاءت توضح أصدق توضيح عن

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٢٩٧ – ٢٩٨ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ . وأنظر الحاشية رقم ٣ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ . بقلم المحقق ، فهي ذات أهمية عظيمة في توضيح زمان ومكان المعركة – عياض : نفسه ، ص ٣١٩ – ٣٢١ – والدباغ : نفسه ، ج٣، ص ٣٠– ٣٦ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٢١ – ابن عذاري : نفسه، ص ٣١٨ .

وجهة نظرهم في الشيعة ، سواءً في الخطبة التي خطبوها وقتذاك والتي أعلنوا فيها كفر بني عبيد وشرعية مقاتلتهم (١) أو ماكتبوه علي البنود من أيات بينات وأقوال توسم الشيعة بالكفر والمروق عن الإسلام (٢) .

على أن فقهاء المالكية وقد انجلت الأمور عن مقتل العديد منهم لم يهنوا ولم يضعفوا ، فقد عادوا يقفون من الدولة الفاطمية مواقفهم المتشددة السابقة ، كما أنهم لجأوا إلى مقاطعة وعدم موالاة رجالات الدولة والمتقربين

---

(١) جادت الخطبة بتفصيل واسع عند المالكي . ومنها أن الفقيه الخطيب خطب يوم الجمعة من عام ٣٣٣هـ على المنبر فحرض الناس علي الجهاد ، ومايعده الله للمجاهدين ، مضمناً خطبته العديد من الآيات التي تحث على الجهاد ثم قال (يا آيها الناس جاهدوا من كفر بالله ، وزعم أنه رب من دون الله تعالي وغير أحكام الله عز وجل ، وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه) ثم أخذ يرمي عبيدالله المهدي بالكفر وادعاء الربوبية ، والطعن على الرسل والتكذيب للرسول ﷺ ، والسب له ولاصحابه وأزواجه ، ثم أخذ يستمطر عليه (اللعنات) ، والخزى ، ودعا عليه وعلى شيعته .. الخ . وأنظر المالكي : نفسه ص ٣٤٢– ٣٤٤ .

(٢) من ذلك أن ربيعاً القطان وهو واحد من زبرز من استشهد في تلك المعركة خرج ومعه بندان أي علمان : مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والثاني مكتوب فيه (نصر من الله وفتح قريب) (سورة الصف آية ١٣) على يد أبي يزيد ، اللهم انصره على من سب نبيك) ثم بند ثالث مكتوب فيه « قاتلوا أئمة الكفر انهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون » (سورة التوبة آية ٢) . وكتب الفقيه مروان الزاهد على بنده « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديهم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) (سورة التوبة آية ١٤) . وكتب الفقيه أبو الحسن السبائي على بنده بعد البسملة (لا إله إلا الله محمد رسول الله ، (أبو بكر الصديق) (عمر الفاروق) وكتب الفقيه ابراهيم بن العمشاء على بنده (لا إلاه إلا الله محمد رسول الله « ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذا هما في الغار إذا يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا » (سورة التوبة اية ٤٠) انظر المالكي : نفسه ، ص ٣٤١ – ٣٤٢ عياض : نفسه ، ص ٣٢٠ – ٣٢١ .

إليها (١) . وواصل البعض منهم تحديه بعدم تنفيذ أوامر الشيعة بتطبيق بعض اتجاهاتهم الفقهية التعبدية ، ومن أولئك القاضي أبو عبدالله محمد بن اسحاق الجبلي الذي قتل عام ٣٤١هـ في عهد الخليفة اسماعيل المنصور لرفضه أن يفطر الناس حتى تتحقق الرؤية (٢) أي رؤية هلال العبيد ، ولقد وجد من العلماء من رأى ضرورة مداراة الشيعة واتقائهم وخاصة فيما يتعلق بأمر المناداة بحي على خير العمل كالفقيه علي بن محمد بن مسرور الدباغ (ت٣٥٩هـ) (٣) .

وفي العهد الزيري الذي بدأ فور مغادرة المعز لدين الله الفاطمي المغرب عام ٣٦٢هـ ، واصل فقهاء المالكية إعلان رأيهم في الشيعة وقد جاهروا بالعديد من الآراء التي رموا فيها الفاطميين بالكفر البواح ويلعنهم) وأن حالهم حال المرتدين والزنادقة . وحرموا التعامل معهم أيا كانت صيغة ذلك التعامل (٤) . ولقد دعاهم هذا إلي مقاطعة كل من تسول له نفسه من

---

(١) أنظر مثلا عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٤٠- ٣٤٢- ٣٦٣- ٣٦٥، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٨- ٣٧٩، ٣٨١- ٣٨٤- ٣٨٩ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ج٣، ص ٤٧ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٥٢٧- الدباغ : نفسه ، ص ٧٥- ٧٦ .

(٤) أنظر تلك الآراء التي صرح بها الفقهاء : أبو إسحاق الجبنياني (ت٣٩٩هـ) و أبو محمد عبدالله ابن أبي رعيد (ت٣٧٩هـ) وأبو بكر اسماعيل بن عذرة (كان معاصراً لابن أبي زيد) وأبو الحسن القابسي (٤٠٣هـ) وأبو القاسم بن شبلون (كان معاصراً لابن أبي زيد) وأبو محمد ابن الكراني (كان معاصراً لابن أبي زيد) وأبو نصر الداودي (٤٠٧هـ) وغيرهم عند عياض : نفسه ، ص ٥١٣ - ٥١٥، ٧١٨-٧٢٠ .

الفقهاء والدفاع عن الفاطميين ، كما حدث من مقاطعتهم للفقيه البراذعي الذي ألـف كتاباً في نسـب بني عبيـد كما سبـق وأن ذكرنا عنده حديثنا عن الفقه . (١) ولم يكتف فقهاء المالكية بذلك ، بل عارضوا كل من يتصدى للتشكيك فيما ينسب للفاطميين من كفر ، كما فعلوا مع الفقيه أبي إسحاق ابراهيم بن حسن التونسي (ت ٤٤٣هـ) عندما أفتى بأنه لايجب تكفير كل الشيعة ، فمع أن هناك فريقاً منهم كافر مباح الدم إلاَّ أن هناك فريقاً آخر وهم الذين يذهبـون إلى تفـضيل علي بن أبي طالب على الصـحابة لايجب تكفيرهم . وقد قاد هذا الفقهاء إلى التشدد مع هذا الفقيه والطلب منه التبرؤ من أقواله على ما سنعرف بعد إن شاء الله (٢) .

أما عن موقف الزيريين من المذهب الشيعي الإسماعيلي والدعوة إليه فقد واصلوا رسمياً تطبيق مبادئ المذهب في الأمور الحياتية والجوانب التعبدية . غير أنهم ابتداءً من عهد ثاني أمرائهم وهو المنصور بن بلكين أخذوا يوازنون بين الالتزام بالمذهب الشيعي ، وبين رفض أغلبية السكان لهم. وأخيراً روا أن يكسبوا ثقة الغالبية الكبري للحفاظ على نفوذهم . ومن هنا فقد بدأوا يتحللون تدريجياً من الانتماء المذهبي للخلافة الفاطمية مع الحرص على الحفاظ على الإنتماء السياسي لها .

ولقد أسهب كثير من المؤرخين المحدثين في شرح أبعاد تلك الخطوات وتوصلوا بحق إلي القول بأن الفتور في الانتماء المذهبي هو ماطبع العهد

---

(١) أنظر قبل ص ٣٦٠ .

(٢) أنظر بعد ص ٥٦٧ .

الزيري وخاصة عهود المنصور بن بلكين وباديس ابنه ، ثم المعز بن باديس ابن المنصور (١) . ومما ينسب للمنصور من مواقف تجاه بعض المبادئ الشيعية ، موقف له دلالته حيث ذكر بأنه رفع إليه عام ٣٨١هـ بأن شخصاً قذف بعض الصحابه رضى الله عنهم فأمر بقتله وصلبه . (٢) كما أن مما ينسب للمعز من دلالة على التحول المذهبي هو تعمده عام ٤٠٧هـ مخالفة الشيعية الذين يكرهون ويسبون أبا بكر وعمربن الخطاب ، فكان أن ذكرهما بخير وترضى عنهما ، الأمر الذي فهمه الناس وكأنه اشارة إلى تبدل حقيقي حيال الشيعة ، فبدأوا يهاجمونهم ويقتلونهم (٣) ابتداء من ذلك التاريخ وحتى الانفصال السياسي والمذهبي عن الخلافة الفاطمية بعد ذلك .

ومهما يكن من أمر فإن الشئ الذي لاجدال فيه هو أنه كان لمواقف فقهاء المالكية الآثر الأكبر في ذلك التحول في الانتماء المذهبي نهائياً عن الخلافة الفاطمية عام ٤٤٠هـ (٤) ، والرجوع إلى المذهب المالكي مذهب الأغلبية الذي ظل منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتى الآن المذهب الوحيد للأغلبية العظمي للمغاربه .

---

(١) أنظر ماذكرناه عن ذلك الفتور المذهبي ، قبل

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ٢٤٦ .

(٣) الطاهر أحمد الزاوي تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ٢٨٨- ٢٨٩م وتجاوزنا رواية ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٧٤ التي يقول فيها إن المعز خرج في بعض الأعياد إلى المصلى فكبابه جواده فقال عند ذلك (أبو بكر وعمر) مما أغضب الشيعة فهموا بقتله لكن عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة قاموا عليهم فقتلوهم شر قتله) فالرواية الأولى معقولة أكثر من الرواية هذه الرواية .

(٤) عن الإنفصال السياسي والمذهبي للزيريين عن الخلافة الفاطمية أنظر قبل ص٨٩ ومابعدها .

جـ -الأصداء العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة :-

مع أن الصراع المذهبي بين السنة والشيعة كان حاداً وعنيفاً في الفترة التي كانت الخلافة الفاطمية تقيم فيها بإفريقية إلاَّ أن الجانب العلمي من ذلك الصراع لم يكن متساوياً مع أوجه الصراع الأخرى التي أوضحناها من قبل . وفي الحقيقة فليس في الأمر غرابة ، فذلك أمر طبيعي يحدث دائماً في مثل تلك الظروف التي تقف فيها السلطة تدعم مذهبها ومعتقدها . فالدولة الفاطمية كما لايخفى كانت تسعى إلى إخماد أي معارضة لها ، وخاصة تلك التي تتسلح بالجدل العلمي الذي هو أشد أوجه الصراع أثراً وتأثيراً .

ومن ثم فلاغرابة أن يحتل الجانب العلمي المرتبة الأخيرة من أوجه ذلك الصراع وإذا عرفنا أن كثيراً من علماء إفريقية آنذاك قد آثروا المعارضة السلبية ، وآثر بعضهم التقية (١) لاتضع لنا الموقف بجلاء .

ومع ذلك فهذا لاينفي أنه لم تكن هناك اصداء علمية للصراع المذهبي بين المذهبين : فلقد كان هناك العديد من الآثار العلمية للصراع ، وهي على قلتها قد أحدثت دون ريب أثراً إيجابياً في مسيرة الدراسات الشرعية ، فضلاً عن أنها قد أسهمت في تثبيت العقيدة الصحيحة سواء مايتصل بالجانب الفقهي أو العقائدي ، أو حتى الجانب المتصل بأمر الإمامه الذي كان له دور علظيم في بلورة المذهب الإسماعيلي .

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٢ .

والأصــداء العلمـيــة التي ترتبت على الصــراع المذهبي بين السنة والشيعة في إفريقيّة وقتذاك مرت عبر قنوات ثلاث كما يتراءى لنا تلك القنوات هي : حلقات العلم والمعرفة والدرس والمؤلفات والمصنفات العلمية والمناظرات أو المجالس .

حلقات العلم والدرس :

فحلقات العلم في الجوامع والمساجد والبيوت كانت أظهر أثر علمي للصراعات المذهبية آنذاك فلقد كان الطلبة يتحلّقون حول شيوخهم فقهاء المالكية يتلقون عنهم مايثبت عقيدتهم ومايحافظ على شريعتهم . والأمثلة أعسر من أن نحصيها . فقد كانت حلقات الدروس تتناثر في مساجد وبيوتات معظم المدن الإفريقية وكانت الدولة الفاطمية تفيق بعض الأحيان فتستشعر الخطر الذي يأتيها من حلقات الدروس ، فكانت تبادر لمنع فقهاء المالكية من التجمهر وإلقاء الدروس وتسجنهم في دورهم وتهدد من يفعل ذلك بالعقاب الصارم . (١) لكن ذلك لم يثن فقهاء المالكية عن مواصلة دورهم العلمي الذي كسوه بطابع الجهاد ضد الشيعة . فكانوا يستمرون في إلقاء الدروس والتحليق في المساجد الصغيرة وفي بيوتاتهم إصراراً منهم على التصدي للمد الخطير للمذهب الشيعي ولم تفلح محاولات الدولة في منعهم . ولعل في الحادثة التالية مايوضح طبيعة هذا الموقف ، أي حرص علماء المالكية على التصدي للمعتقد الشيعي بكل ما أوتوا . روت كتب التراجم

---

(١) أنظر المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٣ .

والطبقات أن الفقيه المالكي أبا بكر بن اللباد (ت٣٣٣هـ) كما عرفنا من قبل أمتحن أيام الخليفة عبيدالله المهدي ، وسجن لأنه كان يفتي بغير مذهب السلطان ، وهو المذهب المالكي بالطبع ، ولقد أمر الخليفة بإطلاق سراحه بعد ذلك على أن لايفتي ولايجتمع إليه أحد ولايفتى إلا بمذهب الدولة ، وألاّ يجتمع عليه أحد – وهو بيت القصيد هنا – غير أن الفقيه المالكي لم ينصع إلى ذلك ، فقد شرع بفتح باب دارة خفية لإلقاء الدروس على طلبته (١) . ولندع عياض (٢) يروى ذلك لنا بأسلوبه الدقيق قال (فلزم داره ، وأغلق بابه وكان ربما خرج إلي المسجد ، فيأتي الطلبة إلى بابه ، فتفتح لهم خادمة فإذا اجتمعوا أتته ،فيدخل وتغلق عليهم . فيقرأون . وكان منهم أبو محمد التبان وابن أبي زيد رحمهما الله تعالى وغيرهم . وكانوا ربما جعلوا الكتب في أوساطهم حتى تبتل بأعراقهم ، فأقاموا على ذلك إلى أن توفى رحمه الله تعالى) .

ومع أن هذه الحادثة تكاد تكون فردية ، فإننا لا نعتقد بأنها الوحيدة ، ذلك لأن الشئ المؤكد هو أن الفاطميين منعوا الكثير من علماء وفقهاء المالكية من الإفتاء بالمذهب المالكي كما مر بنا سابقاً . ولسنا في حاجة إلى القول بأن الإفتاء كان عادة مايتم في حلقات الدروس والمذاكرة .

أما حلقات الدرس والمذاكرة التي كانت تعقد علناً والتي تكرت تأثيرها العلمي دون شك فلم تنقطع كما قلنا آنفا . ولعل فيما سنورده الآن من دلائل

---

(١) نفسه ، ص ٢٨٧ – عياض : نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٢) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٩ – ٣١٠ .

وإشارات مايسلط الضوء على الأثر العلمي للصراع المذهبي الذي نعنى به حالياً . فعندما بدأ أهل السنة يتأهبون لملاقاة الثائر أبي يزيد مخلد بن كيداد اليغوني للإنضمام إليه ضد الشيعه ، وذلك إبان محاصرته لعاصمة الدولة الفاطمية المهدية، انتصب الفقيه المالكي أبو العرب التميمي (ت٣٣٣هـ) للتدريس في المسجد الجامع بالقيروان . فلم يجد ما يناسب الوضع ويدفع بمعتقدات الشيعة سوى أن يقرئ الناس كتابي الإمامة للعالم القيرواني محمد بن سحنون (١) وليس إلى الشك سبيل بأن هذا العمل كان رداً عملياً على غلو الشيعة في مسألة الإمامة ، ويقول أبو العرب نفسه معقباً على تصرفه ذلك – وهو أمر له دلالته الكبيرة – (كتبت بيدي هذه ثلاثة الآف كتاب وخمسمائة كتاب ، فوالله الذي لا إله إلا هو لقرآءة هذين الكتابين على في هذا الموضع أفضل عندي من جميع ماكتبت (٢) .

ودليل ثان نسوقه ، وهو أن ربيعاً القطان المتوفي سنة ٣٣٣هـ قتيلاً في حرب أبي يزيد مع الشيعة كما عرفنا من قبل استجمع شجاعته مستغلاً فترة التمكين التي سنحت للسنة ، فاتخذ له حلقة في جامع القيروان ، يظهر فيها السنة ، ويجتمع عليه للفقه فيها عدد من الفقهاء المشهورين من أمثال أبي الأزهر بن معتب ، ومحمد بن أحمد السيوري ، وأبي محمد عبدالله بن أبي زيد وغيرهم (٣) .

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢ ص ٣١٠ .

(٢) المالكي : نفسه .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٢١– ٣٢٤ .

ودليل ثالث نورده للدلالة على المغـزى الذي تحـمله حلقـات الدرس والمذاكرة ، إذا يروى عياض (١) أن الفقيه العابد أبا اسحـاق ابراهيم بن أحمد السبائي (ت٣٥٦هـ) وهو الذي وقف من الشيعة مواقف شديدة (كان مما شغل به نفسه ، ذكر فضل الصحابة والثناء عليهم لا نتشار أمر المشارقة (٢) ، فما كان أحد يذكر الصحابة إلاّ في داره) . ولنا بالطبع أن نتصور مقدار ماينعكس على الدراسات الشرعية من فائدة نتيجة لذلك . فلابد أن يحدث ذلك تياراً علمياً دافقاً .

وفي موضـع آخر يقـول عيـاض (٣) عن أبي الحسن السبائي إنه لما (اشتهر أمر بني عبيد ، وفتح دعاتهم أبوابهم ، ودعوا إلى كفرهم ، قال أبو اسحاق لأصحابه : أفتحوا باب داري تأخذ في ذمهم والتحذير منهم) . لا نتصور أن ذمهم والتحذير منهم يخلوان من أثر علمي وفقهي دون ريب .

وأخيراً فإن هناك دليلاً رابعاً ، إذ يروى عياض (٤) كذلك أن الفقيه

---

(١) نفسه : ج٢ ،ص ٣٧٨ .

(٢) المشارقة ، هم الشيعة كما أصطلح على تسميتهم بذلك المغاربة وقتذاك ، وقد جاءت هذه التسمية نسبة إلى أبي عبدالله الشيعي الذي عرف وشهر بالمشرقي كما يقول القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٥٢ ، ثم أصبحت بعد ذلك تطلق على الشيعة وعلى من يتمذهب بالمذهب الشيعي واشتقوا لها فعل وهو تشرق ، أي تمذهب بالمذهب الشيعي ، وقد جرت هذه الكلمة على ألسنة مؤرخي التراجم والطبقات المغربية : كطبقات أبي العرب ، وطبقات الخشني والرياض والمدارك والمعالم وغير ذلك كلما ورد ذكر للشيعة أو من مال إليهم من المغاربة . أنظر حول هذا الموضوع إلى ما كتبه حسين مؤنس في حاشية رقم (٣) ص٤٢-٤١م من الجزء الأول من كتاب : رياض النفوس .

(٣) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٧٨ .

(٤) نفسه ، ج٢ ، ص ٤٨٨ .

أبا سعد خلف بن عمر المعروف بابن أخي هشام الربعي الخياط (ت٣٧١هـ) كان يجتمع هو وعدد من العلماء الفقهاء من أمثال أبي الأزهر بن معتب ، وأبي محمد عبدالله بن أبي زيد ، وابن التبان ، وأبي الحسن القابسي (للتفقه في جامع القيروان عندما ظهر أمر أبي يزيد على بني عبيد) .

وإذا أمعنا النظر فيما انتهجه الفاطميون من سبل لنشر مبادئ مذهبهم عبر حلقات الدرس والمعرفة، لوجدنا أنهم لم يقصروا في الدعاية لمذهبهم مطلقاً، وكيف لا وهم الذين يعدون الدعاية أحد أهم الأسس التي يعتمد عليها لنشر المذهب (١) وفي هذا الصدد تحضرنا عبارة محمد كامل حسين (٢) الذي يقول (بأن الدعاية كانت من صميم عقيدة الإسماعيلية وفلسفتهم). ولقد حشد الفاطميون جهودهم في سبيل نشر مبادئ مذهبهم على نطاق واسع بين السكان عن طريق حلقات الدرس في المساجد وقصور الخلفاء .

بيد أن الفاطميين كانوا بالإضافة إلى رغبتهم في استماله السكان إلى مبادئ مذهبهم، يحرصون على نشر خصائص وحقيقة المذهب الشيعي الإسماعيلي بين الأتباع الخلص والدعاة في حلقات أخرى أطلق عليها مدارس الدعوة(٣) وقد انتصبت تلك المدارس في المهدية أيام الخليفة المهدي، والقائم ابنه، ثم في مدينة المنصورية أيام الخليفة المنصور والمعز لدين الله ابنه (٤) . وعندما رحل الفاطميون إلى مصر واصل الزيريون خلفاءهم في حكم البلاد

---

(١) محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ، ص ١٣٠ .

(٢) نفسه : ص ١٣١ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٢٩ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٣١ .

رعاية تلك المدارس الخاصة بتبيان حقيقة المذهب الإسماعيلي(١) .

ولقد تميز عهد الخليفة المعز بالدعاية المنظمة للمذهب الإسماعيلي ، ومرت الدعاية تلك عبر طريقين أو اتجاهين سارا جنباً إلى جنب - الاتجاه الأول وهو الذي يخاطب الناس العاديين من سنة وشيعة ، وكان اعتماده على حلقات المساجد الجامعة والمساجد الأخرى . وفي هذه الحلقات كان دعاة الشيعة وعلى رأسهم القاضي النعمان يقرأ على مسامع الناس برامج خاصة كالنصائح أو الوصايا وقضايا فقهية وعقائدية واضحة معتمداً في ذلك على كتب علم الظاهر . وكانت هذه البرامج تشكل مايمكن عده منشوراً صادراً من الخليفة نفسه ، وكان غالباً مايتم إثر إنتهاء المناسبات الدينية الإسبوعية كصلاة الجمعة ، أو السنوية كصلاة العيدين (٢) ، ويرى حسن ابراهيم (٣) حسن أن هذه الحلقات هي أساس مجالس الحكمة التي شاعت في مصر في الدور المصري للخلافة الفاطمية .

ولم يكتف الخليفة المعز بذلك ، فقد فتح أبواب قصره في المنصورية أمام الناس لسماع المحاضرات التي كان يلقيها دعاته وعلى رأسهم القاضي النعمان ، وهي مستمدة أيضاً من كتب المذهب التي تعول على علم الظاهر ككتاب دعائم الإسلام . (٤) وقد زاد الخليفة فأباح الاطلاع على الكتب التي تحتويها مكتبة القصر (لدراستها وانتساخها والتعلم

---

(١) حسن ابراهيم حسن : نفسه ،ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٣) نفسه، ص ٢٣٣ .

(٤) حسين ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

منها والتفقه عليها) كما يقول القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات (١) .

وكان الخليفة نفسه يعقد في قصره المجالس العلمية التي يحضرها عادة كبار رجال الدولة والدعاة والعلماء والأدباء فيلقي عليهم من علومه في كل فن تقريباً من فنون المعرفة كالفقه والفتيا وعلم التوحيد وغير ذلك . (٢)

أما الاتجاه الثاني فقد كان مقصوراً علي الأتباع والأشياع من الدعاة وكانوا يخضعون لبرنامج علمي - إن جاز هذا - يتلقون من خلاله أسرار المذهب الشيعي أو علم الباطن الذي كان يعرف بعلم آل البيت (٣) أيضا . وكان الخليفة حريصاً على تنبيه داعي دعاته لشرح وتذليل كل مايصعب على الأولياء فهمه ، حتى يتاح لهم بعدُ الترويج لمبادئ المذهب ، وكان المعز غالباً مايشارك بنفسه في هذه الحلقات الخصوصية فيقرأ على الأشياع كتب الباطن ، وخاصة أولئك الذين لديهم الاستعداد لفهم أدق أسرار التأويل الباطن (٤) .

ومن المهم أخيراً أن نشير إلى ماذكره عبده بدوي (٥) بشأن حلقات الدرس تلك أو مدارس الدعوة فهو يرى - وليس ما يمنع من موافقته - أن

---

(١) فيما ينقله عنه حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٦ .

(٢) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ،ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٥ (عن القاضي النعمان في المجالس والمسايرات) .

(٤) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ،ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٥) مع حركة الإسلام في إفريقية ،ص ٤٤ .

الفاطميين انتهجوا أسلوباً جديداً في الدعوة لمذهبهم يقوم على تشكيك الفرد، ثم التسلط عليه بالحجج العقلية ، تمهيداً للوصول إلي موافقتهم على مبادئ مذهبهم ، ويعتقد أن ذلك الأسلوب قد جاء نتيجة لالتقاء الفكر العرب بالفكر الفارسي والعقلية الإفريقية (١) ، مما أدى إلى أن يتمخض عن ذلك أسلوب معين يمكن تسميته بالطابع الفاطمي .

وممَّا يدعم رأي عبده بدوي ما أشار إليه القاضي النعمان في كتابه (٢) المجالس والمسايرات من نصيحة نصحه إياها الخليفة المعز لدين الله . فقد قال له الخليفة ما نصه : (متى ناظرك من ترى أنه ألحن بالحجة منك ، فاستتر بالباطن ، يعني أن يقطع كلامه ، ويومئ إلى أن في ذلك باطنا لايتهيأ له ذكره ، ولايتمادى في الكلام إلي أن يظهر عليه مخاصمه ، فيكون ذلك فتنة ، وداعياً إلي الإصرار على ماهو عليه ، ولكن يبقية على شبهة من أمره ، إن كان قد وجل في مناظرته ، وأن علم أنه ألحن منه قبل المناظرة ، لم يناظره واستتر كذلك بالباطن ما أمكنه لان احتجاج المبطلين ربما شبهوا به وخيلوا للسامعين أنه الحق) . ومن هنا لم يكن اعتماد الإسماعيلية في نشر وبث الدعوة لمذهبهم إلاَّ على الدعاة المأذونين ، أي أولئك الذين وصلوا درجة من العلم بالباطن تؤهلهم للقيام بالمهمة على أحسن وجه (٣) .

---

(١) مع موافقتنا لعبده بدوي ، فيما قاله ، إلاَّ أننا نوافقه فيما نشار إليه عن العقلية الإفريقية وتأثيرها في الطابع الفاطمي الذي تمخض عن التقاء الفكر العربي بالفكر الفارسي . ذلك لاننا لم نعثر على أي دلالة تؤيد ذلك .

(٢) فيما ينقله عنه حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٣) حسن ابراهيم حسن وطه شرف : نفسه ، ص ٢٣٧ .

الحركة التأليفية :

كان أمام أهل السنة سبيل آخر لمنافحة ومدافعة المعتقد الشيعي ، ذلك السبيل هو التأليف والتصنيف في الموضوعات التي يثيرها المذهب الإسماعيلي ، ونستدرك هنا فنقول بأن تلك التآليف والمصنفات التي سنشير إليها بعد قليل لم ينص فيها حقيقة على أنها جاءت كرد فعل لدعاوى المذهب الإسماعيلي الفقهية والعقائدية والسياسية . لكننا نعتقد اعتقاداً جازماً بأنها كذلك في الواقع ، إذ تكفى نظرة متأنية مدقّقة على ما تحمله تلك التآليف لمصنفات من مضامين لتؤكد فحوى ماتذهب إليه .

وفي الواقع ، فإن لدينا العديد من الأمثلة التي توضح ذلك . فعندما يستغرب فقهاء المالكية تصرفات الفاطميين التي طبقوها واقعياً ينبرون إلي تصنيف كتب في مسألة نسب الشيعة وهو الأمر الذي يجر عليهم النقمة من قبل الفاطميين الذين لم يتورعوا عن قتل من سولت له نفسه ذلك ، وهذا كان حال أبي جعفر محمد بن محمد بن خيرون المعافري الذي قتله الفاطميون عام ٣٠١هـ . بسبب تصنيفه لكتاب نسب الشيعة . (١)

وتشغل مسألة الإمامة من وجهة نظر الشيعة بال فقهاء المالكية فيبادرون إلى التصنيف فيها من منظور سني دون شك – وهذا ما فعله أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله الزبيري – القلانسي (ت ٣٦١هـ) فقد صنف : كتاب الإمامة ، ممّا دعى الخليفة القائم بأمر الله إلي ضربه

---

(١) المالكي :نفسه ، ج٢ ، ص ٥٢ – ٥٣ – مع حاشية ، ص ٥٢ .

وسجنه والتنكيل به ولقد سبق لنا أن لمسنا حرص أبي العرب التميمي في استقراء كتابي : الإمامة لمحمد بن سحنون ، في ذلك الوقت الذي هبت فيه رياح المعارضة على الفاطميين من قبل أهل السنة ، والثائر أبي يزيد مخلد ابن كيداد .

وعندما يشتد الشيعة في الدعوة لمذهبهم ، وخاصة في عهد الخليفة عبيدالله المهدي ، يصنف الفقيه المالكي المشهور سعيد بن الحداد المتوفي عام ٣٠٢هـ ، كتاباً في الرد عليه وهو كتاب المقالات (١). ومع أننا لم نستكنه فحوى الكتاب حقيقة إلاَّ أننا لانستبعد أن يكون قد استهدف المذهب الشيعي في جملة ما استهدف من المذاهب ، ولعل اعتقادنا يزداد يقيناً إذا ماعرفنا أن سعيداً بن الحداد نفسه ، كان الفقيه الأشهر الذي تصدى للشيعة وناظرهم وجادلهم حسبما سنعرف بعد قليل . والقرينة الأخرى أن سعيداً بن الحداد لايستغرب منه الرد على المذهب الشيعي ، وهو الذي صنَّف كتاباً أسماه الرد على الشافعي ، وهو الذي قيل عنه إنه مال إلى المذهب الشافعي في بعض أوقات حياته (٢) .

وفي فترة من فترات اشتداد ذلك الصراع المذهبي ، نري فقيهاً مالكياً ثانياً يكتب كتاباً ، بعنوان : كتاب تجديد الأيمان من شرائع الإسلام . ذلك

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ - الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٩٥ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

الفقيه هو أحمد بن عبدالرحمن القصري (ت : ٣٢٢هـ) (١) .

ويصنف الفقيه المالكي أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني ،الذي عاصر الخلافة الفاطمية في دورها المغربي ، ثم رحيلها إلى مصر ، عدة كتب تخدم ذلك الغرض ، وهو الرد على دعاية المذهب الشيعي ، مثل كتاب : الإقتداء بأهل السنة ، وكتاب الذب عن مذهب مالك ، إلى غير ذلك . (٢)

وعندما كان الشيعة يثيرون بعض القضايا الفقهية والعقائدية كان علماء وفقهاء المالكية يتصدون للرد على تلك القضايا الشيعية ، فيصنفون العديد من الكتب التي تعكس الرأي الموافق للشريعة الصحيحة كما وردت بهذا الشأن في القرآن والسنة . ومن هنا نرى الفقيه أبا بكر بن اللباد ، والذي مر بنا ذكره كثيرا يصنِّف كتاباً في الطهارة (٣) ، ولربما كان ذلك الكتاب رداً على مايراه الشيعة في الطهارة من أنها دعامة من دعائم الإسلام السبعة عندهم .

ونرى فقيهاً خامساً ، هو عبدالله بن أبي القاسم بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجاج (ت ٣٤٦ هـ) يكتب في ذلك الصدد كتاباً ، وهو كتاب المواقيت ومعرفة النجوم والأزمان (٤) . وقد يكون في ذلك رداً على الشيعة الذين لهم رأي مغاير في مسألة تحديد شهر الصوم ونهايته ، على

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ١٩٨ .

(٢) عياض :نفسه ، ص ٤٩٤ .

(٣) عياض : نفسه ،ص ٣٠٥ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٤٢ .

النحو الذي عرفناه سابقاً .

ونرى فقيها سادساً ، وهو ابن أبي زيد يكتب كتباً تصب في ذلك الإطار ، مثل كتاب تفسير أوقات الصلوات وكتاب فضل قيام رمضان (١) . وهو أمر يعكس رغبة السنة كما يبدو لنا في تثبيت صلاة التراويح ، وماجاء فيها ، وهي التي أبطلها الشيعة كما ذكرنا سابقاً .

وعندما كانت تثار مسألة العصمة ، وهي مبدأ من مبادئ الشيعة في أئمتهم كما سبق أن رأينا ، يتصدى علماء وفقهاء المالكية للتصنيف في هذا الصدد ، فنرى أبا بكر بن اللباد الذي أشرنا إليه آنفاً ، يصنِّف كتباً عدة ككتاب عصمة النبيين ، وكتاب إثبات الحجة في بيان العصمة (٢) وليس من شك بأن عنواني هذين الكتابين يدلان دلالة واضحة على المغزى الذي فرضته طبيعة الصراع وقتذاك .

وكيفما كان رأينا في مغزى تصنيف تلك الكتب السابقة بما تحمله من مضامين ، سواء إذا عددناها أثراً مباشراً لذلك الصراع المذهبي أو عددناها أو أنها امتداد طبيعي للحركة العلمية في إفريقِّية ، فإننا لانستطيع أن نغفل أمراً مهماً ، وهو أن عصر الفاطميين قد عرف عدداً من الفقهاء الذين أثروا الدراسات الشرعية على وجه الخصوص بالعطاء الغزير . ففيه ظهر أبو العرب التميمي الذي قيل إن مؤلفاته بلغت ٣٥٠٠ كتاباً أو جزءاً

---

(١) عياض : نفسه ص ٤٩٤ .

(٢) عياض : نفسه ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

بمعنى أدق ، ثم محمد بن حارث الخشني ، الذي قيل إنه ألف مائة ديوان ثم أبو محمد عبدالله بن أبي زيد الذي صنف العشرات من الكتب . أفلا يعطينا ذلك انطباعاً بأن نشاط الحركة التأليفية على الصورة التي ذكرناها وفي عصر الفاطميين ، كان أحد الردود على نشاط الفاطميين في نشر مذهبهم في إفريقيَّة آنذاك ؟

وعلى أية حال ، فإذا تجاوزنا ذلك كله ، فإن الشئ المؤكد هو أن تلك المؤلفات كان لها أثرها الكبير في تثبيت العقيدة الصحيحة في نفوس الناس من منظور سنى . وهذا أثر إيجابي على الدراسات الشرعية دون ريب .

ومادمنا قد أشرنا إلى مصنفات أهل السنة الدينية والسياسية في عهد الفاطميين ، فإن من الضروري أن نعيد إلي الأذهان ماذكرناه سابقاً عن مؤلفات الشيعة الفقهية . غير أنها على كل حال ، قد أسهمت في إثراء الدراسات الشرعية ، حتى ولو عن طريق غير مباشر ، فقد عرفنا أن القاضي النعمان ألفَّ العديد من الكتب الفقهية ككتاب : دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، وهذا الكتاب بالذات جاء يخدم صراحة المعتقد الشيعي ، وقد ألفه بطلب من الخليفة المعز كما أشرنا إلى ذلك من قبل ومن الكتب التي كتبها القاضي النعمان : كتاب الطهارة ، وكتاب كيفية الصلاة وكتاب الإقتصار ويشتمل على مسائل فقهية مستمدة من أئمة أهل البيت ، كما ذكرنا عند حديثنا عن الفقه (١) .

---

(١) أنظر قبل ، ٣٥٣ .

هذا وينسب للخليفة الفاطمي الثالث وهو المنصور تصنيف كتاب بعنوان : تثبيت الإمامة لمولانا علي بن أبي طالب (١) . وإن كان هذا الكتاب ينسب أيضاً للقاضي النعمان (٢) .

أما الخليفة المعز لدين الله فقد عرفنا أثناء حديثنا عن الفقه الشيعي ، أنه ينسب إليه تصنيف كتاب الروضة الذي يحتوى كثيراً من الحالات الفقهية وكتاب أخر ، هو : المناجاة وهو فقهي كذلك .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ، ص ٣٥٤ .

(٢) كارل بروكلمان : نفس المرجع أعلاه والجزء والصفحة .

المناظرات العلمية :-

عرف عصر الفاطميين ، وبعض من عصر الزيريين العديد من المناظرات العلمية بين السنة والشيعة ، وفي الحق ، فقد كان الكثير منها إن لم نقل كلها . بطلب وإصرار من دعاة الفاطميين ، وأحياناً الخلفاء على ماسنعرفه على التَّو . ولقد تمخضت تلك المناظرات عن انتصار أهل السنة فيها بما أوردوه من حجج وبراهين دينية وأدبية ومنطقية .. الخ حسبما روته لنا المصادر السنية التي لم يكن أمامنا سواها . أما المصادر الشيعية الفاطمية المعاصرة ، فلم تشر إلى ذلك مع أن القاضي النعمان قد أشار عرضاً لبعض الإشارات لمناظرات جرت بين السنة ودعاة الشيعة ، كانت الغلبة فيها للشيعة كما يقول ، وهو ماسنشير إليه في موضعه بعد قليل .

وما من ريب في أن أغلب المناظرات العلمية تلك قد جرت في عهد الخليفة الفاطمي الأول عبيدالله المهدي ، سواء تلك التي رعاها هو بنفسه أو تلك التي رعاها دعاته وقضاته ، وفي الواقع فليس بدعاً أن تكون تلك المناظرات قد حدثت في عهد الخليفة عبيدالله ، فلقد حشدت الخلافة الفاطمية وقتذاك كل اسلحتها لمواجهة ومقاومة أهل البلاد لها ، واستخدمت في سبيل نشر وتثبيت مذهبها وبالتالي وضعها السياسي كل الوسائل ، من تشدد مع المخالفين لتطبيق مبادئ المذهب إلى العقوبات الصارمة التي تصل إلى القتل ، وإلى غير ذلك كما عرفنا آنفا . ولذلك فمن الطبيعي أن يستخدموا سلاح الجدل العلمي ويشرعوه في وجه مخالفيهم من السنة ولاسيما وهم الذين اصطبغ معتقدهم بمظهر فكري جدلي . ومن هنا فقد

رأى الخليفة عبيدالله أن تصارع الفكرة الفكرة ويجادل الرأي الرأي . وهذا أمر أشار إليه داعيته أبو عبيدالله الشيعي بكل وضوح عندما عارض تشدد شقيقة المكنى بأبي العباس في معاملة الناس فقال له) أن دولتنا دولة حجة وبيان ، وليست دولة قهر واستطالة) (١) .

ولعل أول ذكر يصادفنا لتلك المناظرات العلمية بين الفريقين هو ما أشار إليه بعض المؤرخين من مناظرة أبي العباس الشيعي للفقيه المالكي أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الضبي المعروف بابن البرذون (ت : ٢٩٧هـ)(٢) ، في مسألة التفضيل، أي تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه على الصحابة بما فيهم الصديق والفاروق رضى الله عن الجميع .

وفي الحق فإن تلك المناظرة لم تقع مواجهة بين أبي العباس ، وابن البرنون ، غير أنه حفظ عن ابن البرذون أنه كان يقول : (كان علي بن أبي

(١) أحمد الطيب الفقيه : المهدية عبر التاريخ : ص ٣٢ .

(٢) ذكر كل من المالكي : نفسه ،ج٢ ، ص ٤٧ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٦٣ – ٢٦٤ – أن مقتل ابن البرنون كان عام ٢٩٩هـ – وقد أشار محقق كتاب الجزء الثاني من المعالم محمد الأحمدي أبو النو ومحمد ماضور بأن ذلك خطأ لان أبا العباس الشيعي الذي أمر بقتلهما قتل عام ٢٩٨هـ مع أخيه أبي عبدالله ورّجحا أن مقتل ابن البرنون كان عام ٢٩٧هـ ولاشك أن هذا الترجيح موافق للصواب ، فإلى جانب ماذكراه فإنني قد تاكدت من ذلك يقيناً عندما أشار أبو العرب التميمي في كتابه المحن ، ص ٢٩٥ ، إلى أن مقتل ابن البرنون وابن هذيل كان عام ٢٩٧ هـ ولاشك أن تحديد أبو العرب ذلك ، تحديد دقيق لانه أقرب للحدث وربما يكون قد عاصره . فهو كما عرفنا سابقاً قتل عام ٣٣٣هـ في موقعة وادي الملح المذكورة سابقاً التي وقعت مع الشيعة .

طالب رضي الله عنه يقيم الحدود بين يدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،ويعينه على أموره . فلو لم يكن عنده إمام هدى ، مستحقاً للتقدمة ، مافعل مافعل) (١) ويبلغ قوله لأبي العباس الشيعي . فيرد عليه قائلا : (كان يوسف الصديق من أعوان العزيز بمصر ، يعينه في أموره ،فماكان فيه نقص ليوسف ولازيادة في مقدار العزيز). ثم نراه يأمر بقتله . (٢) .

ومع هذا فإن الرأي في جواب أبي العباس الذي يبدو ككلمة حق أريد بها باطل يكمن في أن الفقيه المالكي لم يقل كلامه ذلك عبثا ، فقد كانت قضية التفضيل قائمة وقتذاك على قدم وساق ، ولم يكن الأمر يقتصر على ذلك ، وإنما كان يجر إلى الطعن على الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . ولذلك فما كان الفقيه المالكي الذي (كان بارعاً في العلم يذهب مذهب النظر) (والذي لم يكن في شباب عصره أقوى على الجدل والمناظرة وإقامة الحجة على المخالفين مثله) (٣) نقول ما كان له أن يسكت عن ذلك . فكان أن تفوه بما تفوه به وكانت النتيجة أن عد ذلك سبباً من أسباب مقتله كما لاحظ ابن ناجي مكمّل ومعلّق كتاب المعالم (٤) .

وموقف أخر أو لنقل مناظرة أخرى تولى أمرها أبو العباس الشيعي كذلك . ونحن وإن لم نطلع على تفاصيل مادار فيها . إلاّ أننا عرفنا ما

---

(١) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦٢ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٤٧ .

(٤) كان ابن ناجي مكمل ومعلّق كتاب معالم الإيمان دقيقاً في روايته لهذه الحادثة فقد أوضح بأن ذلك السبب كان أحد أسباب مقتله ، ولكنه لم يكن السبب كله ، أنظر الدباغ : نفسه ،ص ٢٩٤ .

تمخض عنها من رد فعل ، إذ يروى الخشني (١) أن الفقيه المالكي أبا بكر القمودي المعروف الفيلسوف (كان حاد القنا بصيراً بوجوه الكلام عارفاً بأبواب المناقضة متدربا في صنعة المعارضة) ناظرة أبو العباس الشيعي ذات مراة مناظرة أفحمت الداعي الشيعي وأحرجته . وقد أدى هذا بأبي العباس إلى أن يتهدَّد أبا بكر ويتوعده : (ويحرك له أصبعه ، ويقول له: وإنك لتظهر لأهل البيت ما أرى منك من البغضاء وتنصب في توجيه أمرك ما أسمع من حجاجك) ولم يكن أمام أبي بكر وقد خشى على نفسه سوى الاعتذار ، والتقرب إليهم تقية ، فولوه أمر السكة ، ورياسة دار الضرب بالبلاد . (٢)

أما المناظرات العلمية الدامغة التي لقيت شهرة عريضة آنذاك فهي التي تصدى لها الفقيه المالكي الأشهر سعيد بن الحداد (ت : ٣٠٢هـ) وكان أبو العباس أحد أطرافها الرئيسين . تلك المناظرات تفاوتت عدداً وموعداً ومضموناً وهي التي وفَّرت لسعيد بن الحديد سمعة وصيتاً عريضاً ، وثناءً وافراً من قبل معاصريه ، ومن قبل مؤرخي التراجم والطبقات ، فلقد أكبر الجميع فيه شجاعته في التصدي للمد الشيعي الخطير ، وأكبروا فيه قدرته العلمية الفائقة التي تعتمد على زاد لاينفذ من التفهم للشريعة الإسلامية السمحة ، من تمكُّنٍ من قواعد الجدل والمناظرة ، بل لقد غفروا له

---

(١) نفسه : ص ٢١٤ .

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ص ١٥١ – ١٥٨ .

تمذهبه وقتاً من الأوقات بالمذهب الشافعي (١) - حتى ولو بدون تقليد - وتبدلت نظرة رفقائه الفقهاء فيه إلى اعجاب وتقدير .

وقبل أن نتعرض لظروف تلك المناظرات وموضوعاتها ، علينا أن نعرف بابن الحداد ، فهو أبو عثمان : سعيد بن محمد الغساني المعروف بابن الحداد نسبة إلى جدة لأمه . وقد سمع لعدد من الشيوخ مثل سحنون بن سعيد وغير ه وسمع منه عدد من شيوخ إفريقيَّة من أمثال ابنه عبدالله ، وأبو العرب التميمي وأحمد بن موسى النمار وغيرهم . وقد مال إلى مذهب الشافعي من غير تقليد، ممّاحدا ببعض الشيوخ إلى تنقّصه ، وقد أشتهر بأنه (كان أحد رجال زمانه في المناظرة والرد على الفرق مقدماً في ذلك) (٢) . وقال الدباغ (٣) : (وكان مذهب أبي عثمان المناظرة وفهم القرآن والمعرفة بمعانيه ، وأخبرني بعض أصحابه أنه سمعه كان يقول : ما حرف من القرآن إلاّ واعددت له جواباً ولكن لم أجد له سائلاً) وروى الخشني (٤) عنه فقال : (كان أبو عثمان هذا قليل الاشتغال بجمع الكتب وبالرواية ، وكان يقول : إنما هو النظر والخبر ، فلو دخلت المشرق ما كانت له فيه حاجة غير الخبر) ويمتدح الزبيدى في طبقات النحويين واللغويين (٥) سعيداً ، ويثنى على اقتداره في علم الجدل والمناظرة ، ويشهد بعلو كعبه في

---

(١) أنظر قبل ، ص ٣٥١ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٩٥ .

(٣) نفسه : ج٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٤) نفسه ، ص ٢٠١ .

(٥) ص : ٢٣٩- ٢٤٠ .

علوم اللغة .

وفي انتصابه للرد على الشيعة ، يقول عنه الخشني (١) . (وكانت لأبي عثمان مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفع عن الإسلام ، والذب عن السنة ، ناظر فيها أبا العباس المخدوم (٢) أخا أبي عبدالله الشيعي الصنعاني ، بملء فمه ومنى نفسه مناظرة القرن المساوى ، بل مناظرة المتعزِّز المتعالي ، لم يتلعثم لفظاعة المقام ولا أحجم لهيبة السلطان ، ولاخاف ماخيف عليه من سطوة الحدثان ، ولقد قال له ابنه محمد يوماً اتق الله في نفسك ولا تبالغ في مناظرة الرجل ، فقال له حسبي من له غضبت وعن دينه ذبت) .

ولقد سأله كثير من أصحابه أن يلجأ إلى التقية ، أي مجاراة الشيعة، ولكنه رفض قائلا : (إني أربيت على التسعين . ومابي إلى العيش من حاجة، وقتيل الخوارج (٣) ، خير القتلى ، ولابد لي من المناظرة والمناضلة عن الدين ، وأن أبلغ ذلك عذرا . ففعل ذلك وصدق ونصح ، رحمه الله) (٤)

---

(١) نفسه ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) لعله خطأ مطبعي أو سهو من الخشني ، والاً فالمشهور أنه كان يعرف بالمخطوم ، وبذلك وصفته معظم المصادر السنية ووصفه القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ بهذا الاسم- وكذلك وصفه جعفر الحاجب : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٦- أما المصادر السنيه فقد ذكرت ذلك كلما ورد ذكر أبي العباس ، ممَّا يصعب علينا الإشارة إلي مواضع ذلك .

(٣) هو يعني بلا شك : الشيعة ولا نعرف سر إطلاقه اسم الخوارج عليهم إلاَّ إذاً فهم منه الخروج عنه الشريعة السمحة الواضحه .

(٤) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٤١ .

ويقول الدباغ (١) : (وكان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة ، وله في ذلك مقامات مشهورة وآثار محمودة ، ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب ، حتى مثّلة أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة). (ولم يدخل في قلوب القوم له من الإجلال والمهابة مادخل لسعيد الحداد) كما يقول الخشني (٢) أيضاً .

ولقد استدعى أبو عثمان سعيد بن الحداد أكثر من مرة من قبل الخليفة المهدي وداعيته أبي العباس وأبي عبدالله الشيعيين ومن قاضيه محمد بن عمر المروذي (٣) ، وعقدوا وأياه عدّة مجالس مناظرة ، وكانت هذه المجالس تضم أحياناً الداعيتين معا ، كما أن أبا الأسود موسى القطان (٤) وهو أحد فقهاء المالكيه كان يشارك سعيداً الحداد في بعض تلك المجالس حسبما سنعرف بعد قليل .

والقضايا التي دارت حولها تلك المناظرات كانت متعدّدة ، ولكنها لم تخرج عن عكس وجهة نظر الشيعة في مبادئ مذهبهم الشيعي السياسية والفقهية والعقائدية التي كنا قد أشرنا إليها من قبل . ونحن لن نورد كل تلك

---

(١) نفسه ، ج٢ ، ص ٢٩٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢١٤ .

(٣) محمد بن عمر المروذي (ت : ٣٠٣هـ) فقيه حنفي تولى القضاء للخليفة الفاطمي الأول : المهدي . وقد لقى منه السنة عنتاً كبيراً ، ولقد أمر الخليفة بقتله بعد أن جار الناس بالشكوى منه . أنظر المالكي : نفسه ، ج٢ ،ص٤١ مع الحاشية رقم ١٨٤ من نفس الصفحة ، ص ٥٢ -٥٤- ابن حماد أخبار ملوك بني عبيد ، ص ٥٢ .

(٤) أنظر ترجمته قبل ، ص ٣٤٨ .

المجالس . ولكننا سنمضي بتسليط الضوء على أهم ماتضمنه كل مجلس من قضايا .

ولعل أولى تلك المجالس ، ما أشار إليه مفصلاً المالكي (١) ، وذلك عندما بعث الداعي أبو عبدالله الشيعي يستدعي سعيداً بن الحداد ، وكان المجلس يضم أحد فقهاء القيروان الذي كان متولياً لقضاء إفريقيَّة قبيل قيام الدولة الفاطمية ، ولماضمَّهم المجلس شرع أبو عبدالله يسأل القاضي المالكي عن السنة ومعناها ، فتلجلج القاضي في الإجابة ، فما كان من سعيد بن الحداد إلاَّ أن تصدى للإجابة فأوضح له ما تعنيه السنة في كلام العرب مستشهداً في ذلك بالشعر ، ثم تطرق إلى معناها الاصطلاحي .

ولقد تشعب عن تلك المناظرة وذلك الرد من سعيد بن الحداد الكثير من القضايا بين الرجلين ، فقد تساءل أبو عبدالله عن الطرق التي انتقلت عنها السنة أي الأسانيد ؟ فأجابة سعيد إجابة مقنعة ، ثم سألة عن القياس وما هو دليل السنة عليه ؟ فأجابة كذلك إجابة مفيدة معتمداً ومستشهداً بآيات من كتاب الله تعالى .

وعندما تطرق الحديث عن الخمر وحدها سأل أبو عبدالله الشيعي أبا الأسود موسى القطان الذي كان مرافقاً لسعيد بن الحداد أن يأتيه بالدليل من القرآن ، غير أن موسى القطان أجابه مستشهداً على وجوب الحد بحديث الرسول ﷺ المعروف الذي ينص على

---

(١) نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٧٩-٨٦(وهو أطول المجالس التي عقدها سعيد الحداد مع الشيعة) .

الحد (١) ممَّا جعل الشيعي يستشيط غضباً ويقول له معنتاً : أطالبك بدليل من القرآن ، وتأتيني بحديث ؟ فتدخل سعيد الحداد في الحوار ، موضحاً السبب الذي حدا بأبي الأسود أن يجيب مستشهداً بالحديث ثم تطرق الحوار بينهما كذلك إلى موضوع الحديث الذي ورد عن الرسول ﷺ في وصفه كبار أصحابه بأوصافهم العظيمة (٢) فأثار أبو عبدالله مسألة قول الرسول ﷺ في علي بن أبي طالب : وأقضاكم علي ، ولقد فهم موسى بن القطان من ذلك حطًّاً من مكانة بقية الصحابة ، فكرر على أسماعه نص الحديث ذلك الذي يتضمن مدحاً لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما . غير أن أباعبدالله أخذ ينكر على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ماقيل عن هروبة بالراية يوم حنين – هذه رواية الشيعة – (٣) ولذلك فهو غير حقيق أن يكون أشد الصحابة في دين الله – وهو ماورد في الحديث عن الرسول ﷺ – ولم يكن من أبي موسى القطان وسعيد الحداد إلاَّ الرد عليه رداً علمياً موثوقاً .

وفي نفس المجلس آثار أبو عبدالله ماجاء في القرآن الكريم على لسان

---

(١) هذا الحديث ، هو الذي رواه الإمام أحمد في المسند ٩ : ٤٩ ، رقم ٦١٩٧ « عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : من شرب الخمر فاجلدوه فإن شربها فاجلدوه ، فإن شربها فاجلدوه . فقال في الرابعة أو الخامسة فاقتلوه » .

(٢) هذا الحديث لم يروه من أصحاب السنن سوى الترمذي في صحيحه رقم ٣٨٧٩. وقد خرجه صاحب المقاصد الحسنة ص ٤٧ ، وصاحب كشف الخفاء ، الجزء الأول ،ص ١١٧ . أنظر الحاشية رقم ٢٨١ ص ٧٩ من الجزء الثاني من كتاب رياض النفوس بقلم المحقق بشير البكوش.

(٣) أنظر رواية أهل السنة ، المخالفة لذلك والتي تروى على العكس من ذلك أن عمر بن الخطاب كان من ضمن الذين ثبتوا مع الرسول ﷺ . أنظر حاشية رقم ٢٨٢ ص ٧٩ من الجزء الثاني من رياض النفوس بقلم المحقق بشير البكوش .

الرسول ﷺ من قوله لأبي بكر { لا تحزن إن الله معنا } (١) ذلك لأن الشيعة كانوا يرون أن حزن الصديق (كان مسخوطاً (٢) ، لأن الرسول ﷺ نهاه عنه) (٣) فرد عليه أبو عثمان رداً وافياً ، ثم أثيرت مسألة البغض والحب لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه، و مسألة ضرورة إطلاق لفظ ﷺ ، ومسألة الولاية .. الخ . ولقد أجاب سعيد عن كل هذه القضايا إجابات موفقة محمودة .

ومجلس ثان (٤) ، وقد تعمَّد أبو العباس الشيعي أن يستدعي سعيداً ابن الحداد ليستفزه ، وفي هذا المجلس كان أبو العباس يثير قضية جدلية عن العالم وأنه أعلم من المتعلم أبداً ، وذلك للتوصل للطعن بأبي بكر الصديق الذي كان يعتمد كثيراً على قضاء علي بن أبي طالب ، وفتاويه . فلم يسع سعيد سوى تبيان حقيقة الموقف معتمداً على أدلة القرآن الكريم ، ومن الواقع ، وقاد الحديث عن هذه المسألة إلى قضايا أخرى لغوية كالاستفهام عن المقصود بالمحصنَّات ، هل هن المتزوجات ، أم العفائف ؟ وفي كل ذلك كان سعيد يجيب إجابات سديدة موقفه مضمناً حديثة بعض آيات من القرآن ومستشهداً ببعض أحاديث تفيد المعنى . كما جرَّ الحديث إلى قضايا أخرى طويلة ، كان سعيد فيها العلم المبرز .

---

(١) سورة التوبة ، آية رقم ٤٠ .

(٢) هذا تعبير المالكي ، ولعله يقصد أن الشيعة كانوا يرون أن أبا بكر قد استحق سخط الرسول ﷺ عندما أبدى الحزن في الغار) .

(٣) المالكي : نفسه ،ج٢، ص ٨١ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٨٦-٩٦ وهو مجلس طويل ، ويأتي في المرتبة الثانية كثيرة بين تلك المجالس) .

ومجلس ثالث (١) ، وكان مع الخليفة المهدي ، وقد بعث إليه بغرض مناظرته . وفي هذا المجلس أثار الخليفة ، مسألة الولاية ، أي ولاية علي بن أبي طالب ، وماجاء في حديث غديرخم عن الرسول ﷺ : (من كنت مولاه ، فعلي مولاه .. الخ) (٢) ولذلك فقد تساءل الخليفة وهو الذي ينتسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه : لِمَ لا يكون الناس عبيداً لنا . فأجابه أبو عثمان عما تعنيه كلمة الولاية لغة واصطلاحاً ، معتمداً في ذلك كله على ما تدخره ذاكرته من الآى والأحاديث وأمثال العرب وكلامهم .

ومجلس رابع (٣) ، وكان الداعي إليه هذه المرة القاضي محمد بن عمر المروذي ، وقد أثيرت فيه مسألة قيام رمضان أوصلاة التراويح ، وتركَّزت حجة القاضي على أن قيام رمضان أوصلاة التراويح ، كان بأمر عمر بن الخطاب ، ولذلك فهو بدعة في نظر الشيعة . فما كان من سعيد بن الحداد إلاَّ أن أوضح له ، أصل البدعة ، مستشهداً بآي من القرآن بشأن البدعة الحسنة ، ولم يملك المروذي سوى أن يختتم المجلس بالتهديد بقتل كل من صلى صلاة القيام ، ممَّا جعل سعيد بن الحداد يذكره بما قاله له في أول المجلس عن عدم الحاجة إلى المناظرة ، لأنه يعرف ماستسفر عنه (٤) .

---

(١) المالكي : نفسه ،ج٢، ص ٥٨ - ٦٠ .

(٢) لم يرو هذا الحديث من أصحاب السنن سوى الترمذي في جامعة (حديث رقم ٣٧٩٧) وابن ماجه في سننه (حديث رقم ١٦، ١٢١) والإمام أحمد في مسنده ، ج ٤ ، حديث ٣٦٨) أنظر حاشية رقم ٣٣ من ص ٥٩ من الجزء الثاني من كتاب رياض النفوس .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٦٠-٦١ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .

ومجلس خامس ، مع أبي عبدالله الشيعي كذلك ، وقد ثارت فيه قضايا عدة . فقد ذكر الداعي مسألة خطيرة ، وهي زعمة بأن القرآن يقرّ بأن محمداً ليس بخاتم النبيين ، فلما قال له سعيد ومن أين جاء بذلك القول؟ قال أبو عبدالله : من قوله تعالى ﴿ .. ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (١) فخاتم النبيين غير رسول الله فقام سعيد له موضحاً بأن تلك الواو ليست كمايظن من واوات الإبتداء ، بل هي من أدوات العطف كقوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر * والظاهر والباطن * وهو بكل شيءٍ عليم ﴾ (٢) ، ثم سألة : فهل من أحد يوصف بهذه الصفة غير الله عز وجل ؟ وفي هذا الصدد يروى المالكي أن سعيداً تكلم يوماً عند أبي عبدالله كلاماً جعل أحد رجالات الدولة الذي كان حاضراً المجلس يغضب ، حتى أنه هم بقتل سعيد فمنعه أبو عبدالله من ذلك . ثم التفت أبو عبدالله لسعيد معتذراً طالبا منه عدم الغضب موضحاً له قيمة ومكانة ذلك الرجل ، وأنه إذا غضب غضب له اثنا عشر ألف سيفاً ، أي يغضب لغضبه أنصاره الكثر ، فقال له أبو عثمان (ولكن أنا يغضب لغضبي الله الواحد القهار الذي أهلك عاداً و ثموداً وأصحاب الرس وقروناً بعد ذلك كثيراً) (٣)

وأخيراً ، فإذا كان لنا من تعليق على هذه المجالس ، فهو أن تلك المجالس لم تشر إليها سوى المصادر السنية وخاصة

---

(١) سورة الأحزاب : آية رقم ٤٠ .

(٢) سورة الحديد : آية رقم ٣ .

(٣) تضمين للآية ٣٨ من سورة الفرقان .

كتب الطبقات والتراجم المغاربة المعاصرين من أمثال محمد بن حارث الخشني (١) ، وأبي بكر المالكي الذي كان يعيش قريباً من ذلك العصر . أما كتب الشيعة المعاصرة فلم تشر إلى تلك المجالس . وكل ما استطعنا العثور عليه في كتاب افتتاح الدعوة (٢) وهو أن أبا العباس الشيعي قد تصدى لمناظرة بعض فقهاء المالكية فأفحمهم وأسكتهم . فهل هي هذه المناظرات التي أشرنا إليها ، أو إلى بعضها ؟ وهل حقيقة أن أبا العباس قد أفحم فقهاء المالكية ، أما أنهم هم الذين غلبوا ؟

ومهما يكن ، فقد افتقدنا بعد ذلك أي ذكر للمناظرات أو للمجالس العلمية عند مؤرخي التراجم والطبقات طوال بقية الدور المغربي للخلافة الفاطمية . غير أننا مالبث أن نرى في عهد الزيريين وخاصة أولهم بلكين بن زيري (٣٦٢- ٣٧٣هـ) إصراراً على استفزاز علماء المالكية واستدراجهم للمناظرة والمجادلة . فكان أن تصدى له العالم القيرواني المشهور أبو محمد عبدالله بن اسحاق المعروف بابن التبان (ت : ٣٧١هـ) كما عرفنا سابقاً .

وتولى أمر الدعوة للمناظرة عامل القيروان في عهد بلكين المعروف بابن المحتال ، فقد طلب هذا العامل من فقهاء المالكية مناظرته في بعض القضايا . ولقد بادر ابن التبان فطلب من رفقائه ان يتيحوا له الفرصة للذهاب إلى العامل ومناظرته ليبيع روحه دونهم حسب قول عياض في

---

(١) أنظر تلك المجالس في كتابه : السابق نفسه ، ص ٢٥٧، ومابعدها .

(٢) ص ٢٤٣- ٢٤٤ .

مداركه . (١) ولنـدع عياضـاً (٢) يروى لنا نص ما دار في ذلك المجلس : (ويقال إنه قال لعبدالله : لما دخل عليه جئتك عن قوم إيمانهم مثل الجبال ، أقلهم يقيناً أنا فحدث بعض من حضر ، قال : كنت مع عبدالله، وقد احتفل مجلسة بأصحابه ، وفيهم الداعيان : أبو طالب ، وأبو عبدالله (لعنهم الله)(٣) وقد وجه إلي ابن التبان ، فإذا به داخل وعيناه توقدان ،كأنهما عيناشجاع ، فدخل وسلم ، فقال أبطأت عنا يا أبا محمد ، فقال : في شغلك . كتاب ألفته في فضائل أهل البيت الساعة . أتاتى به المجلد ودفعه إلي . فقال : يا أبا محمد ناظر هؤلاء الدعاه قال : في ماذا ؟ قال في فضائل أهل البيت فقال لهما : ما تحفظان في ذلك . قال له أبو طالب : أنا أحفظ حديثان - ولحن - ، ثم سأل الآخر ، فقال له : وأنا أحفظ حديثان ، فقال : فيما ذان الحديثان اللذان تحفظ أنت ؟ فقال له : هما يحفظان حديثان - ونطق بلحنهما - وأنا أحفظ في ذلك تسعين حديثاً ، فأولى بهما الرجوع إلي . ثم قال أبو عبدالله : يا أبا محمد ، من أفضل أبو بكر أو علي ؟ قال : ليس هذا موضعه ، فقال : لابد ، فقال : أبو بكر أفضل من علي : فقال عبدالله : أيكون أبو بكر أفضل من خمسة جبريل عليه السلام سادسهم؟ فقال أبو محمد : أيكون علي أفضل من اثنين ، الله ثالثهما (٤)؟

---

(١) نفسه ، ج٢ ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٢) نفسه ، ج٢ ، ص ٥٢٢ - ٥٢٤ .

(٣) هذا هو قول عياض الذي استمطر (اللعنات على الشيعة) .

(٤) أشارة إلى الآية الكريمة { ثاني إثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا } آية ٤٠ من سورة التوبة .

أني أقول لك مابين الوجهين ، وأنت تأتيني بأخبار الآحاد ، فضاق عبدالله ، وقال : فمن أفضل عائشة أو فاطمة فقال له : هذا آخر سؤالك الأول ، قال : لابد، قال عائشة رضى الله عنها وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من فاطمه قال من أين ؟ فقال له قال الله تعالى: ﴿ يانساء النبيْ لستن كأحدٍ من النساء إن إتقيتن ﴾ (١) فيقال إن بعض الدعاة قال له في هذه المسألة . أيما أفضل امرأة أبوها رسول الله ﷺ ، وأمهاخديجة الكبرى ، وزوجها علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ ، وولداها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، أو إمرأة أمها أم رومان وأبوها عبدالله بن أبي قحافة ؟ فقال له أبو محمد : أيهما أفضل عندك ، امرأة إذا طلقها زوجها ، أومات عنها تزوجها عشرون زوجاً ، أو امرأة إذا مات عنها زوجها أو طلقها لم تحل لأحد فيحكى أن أبا عبدالله قال له : يا أبا محمد أنت شيخ المؤمنين ، ومن يوثق بك . أدخل العهد وخذ البيعة . فعطف عليه أبو محمد وقال له : شيخ له ستون سنة ؛ يعرف حلال الله وحرامه ، ويرد على اثنين وسبعين فرقة . ويقال له هذا ؟ لو نشرت بين إثنين . مافارقت مذهب مالك ، فلم يعارضه) .

وفي نفس الفترة نرى حدوث مواجهة علمية أكثر منها مناظرة تقع بين أحد شيوخ المالكية وأحد رجالات الشيعة . فقد روى عياض أن الفقيه المالكي عمر بن خلف المعروف بابن أخي هشام الربعي الخياط (ت ٣٧١هـ)

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٢ .

ناظـره بعضــهم فقال له : أنتــم تقولون من سب عائشة قتل . والله يقول : ﴿ والذين يرمـون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شـهـداء .. ﴾ (١) الآيـة والرسول إنما جلد أصحاب عائشة : فلم تأخذوا بالقرآن ولا بالسنة ! فقال له أبو سـعيـد : قـال الله تـعالى : ﴿ أولئك مـبـرء ون ممَّا يقـولون ﴾ (٢) ليضرب مثل البرآءة بما في القرآن وبعد القرآن من سبها فقد رد القرآن . ومن رد حرفاً منه فقد كفر باجماع) (٣)

وفي عـهد الأمير المعز بن باديس الصنهاجي ، حدثت مناظرة علمية حـول الشيـعة ومـبـادئهم ، ولكنهـا في هذه المرة وقـعت بين فـقـهـاء المالكيـة بعضـهم بعضاً ، وذلك أن الفقيه أبا اسـحاق ابراهيم بن الحسن التونسي استفتى في أمر الشيعة وشرعية معاملاتهم ، وذلك عام ٤٣٧هـ ، فأفتى بأن الشيـعة على ضربين : الأول (كافر مباح الدم والضرب) ، والآخر (الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة لا يلزمـهم الكفر ، ولاتبطل نكاحاتهم) (٤) .

وبالطبع فقد أغضبت هذه الفتوى فقهاء المالكية الذين كانوا متشددين مع الشيعة لاسيما بعد أن لمسوا من المعز بن باديس الرغبة في التخلص من المذهب الإسماعيلي ، ولذلك فقد طلبوا منه العدول عن فتواه ولكنه رفض ،

---

(١) سورة النور ، آية رقم ٤ .

(٢) سورة النور آية رقم ٢٥، ٢٦ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٧٦٦- ٧٦٧ .

فرفع الموضوع إلي المعز الذي استدعاه ونقراً من فقهاء المالكية للمناظرة بحضوره (١) . ولندع عياضاً (٢) يقص علينا تفاصيل تلك المناظرة ، فقد ذكر أن المعز لما استدعى العلماء لمناظرة أبي إسحاق وناظروه) فأظهر الإنابة إلى قولهم ، والرجوع إليهم ، ثم خلا أصحابه ، فأنكروا عليه رجوعه عن قولهم ، وأنه الحق الذي لايجب سواه ، وكان رأى الفقهاء سد هذا الباب للعامة على هذه (الكفرة) وأن بنى عبيد زنادقة ، وأن الداخل في دعوتهم وإن لم يقل بقولهم ، كافر لتوليه الكفرة) .

ومهما يكن من أمر فقد تمسك أبو اسحاق بفتواه السابقة مماً أثار حفيظة الفقهاء والعامة عليه ، لاسيما وأن فتواه تلك قد استحسنت لدى الشيعة ولذلك فقد رماه الفقهاء بالتضليل والتبديع ، وحركوا عليه الشعراء ينتقدونه ، حتى أدى الأمر بالمعز إلى إنشاء سجل يحكى واقعة أبي اسحاق، ويعلن التبرؤ من قوله له وأمر بقرآته على منبر القيروان في أحد أيام الجمع من عام ٤٣٨ هـ ، قبل الصلاة (٣) .

(ثم أمر السلطان باحضاره في ذلك اليوم ، إثر الصلاة وأحضر معه الفقيه أبا القاسم اللبيدي في بقية مشيخة الفقهاء وكبيرهم ، والفقيه أبا الحسن بن المغربي والقاضي أبا بكر بن محمد بن أبي زيد ، خاصة من بين سائر الفقهاء ، وكان هذان الفقيهان من أشد الناس ، وحكم في المسألة

(١) عياض : نفسه ، ص ٧٦٧ .

(٢) نفسه ، ص ٧٦٧ -٧٦٨ .

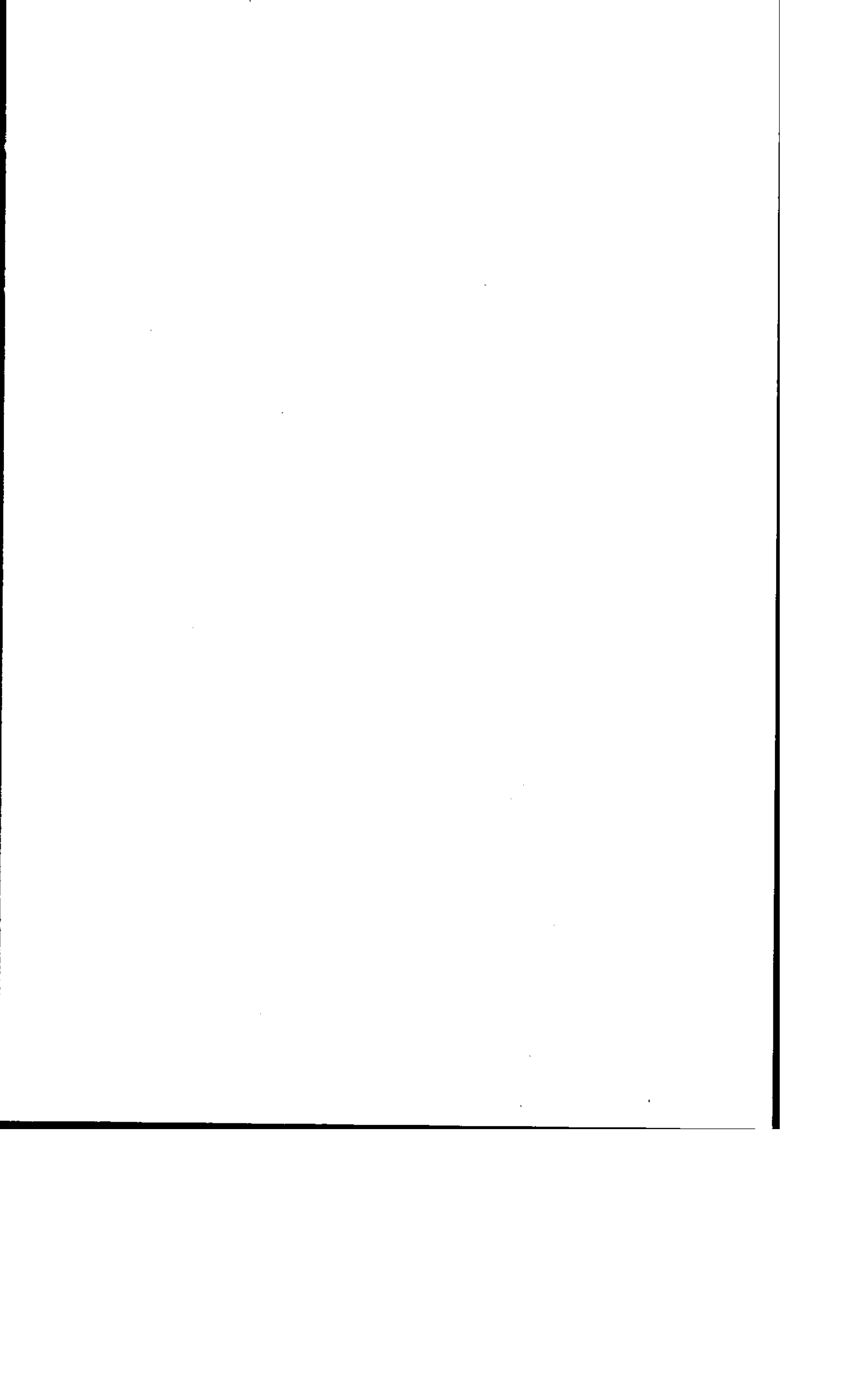
(٣) عياض : نفسه ، ص ٧٦٨ .

اللبيدي ، فحكم بأن يقر بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس ، وأن يقول، كنت ضالاً فيما رأيته ونطقت به ، ثم رجعت عن ذلك إلى مذهب الجماعة ، فكانوا على ذلك . وكأنه استعظم الأمر على المنبر ، وقال ها أنا أقول هذا بينكم . فساعدوه وقنعوا منه يقول ذلك بحضرة السلطان والجماعة ، وأن يقوله في مجلسه ويشيعه عن نفسه ، فافترقوا على ذلك) . (١)

ويعلق القاضي (٢) عياض بأن الأمر الذي لاجدال فيه أن الحق هو ماقاله أبو إسحاق غير أنه أخطأ في إصراره على فتواه لأن (رأي الجماعة كان أسد للحال وأولى بعائدة الخير) .

(١) عياض : نفسه ،ص ٧٦٨ .

(٢) نفسه .



الفصل الرابع

الدراسات الأدبية واللغوية

- مدخل
- النثر
- الشعر
- اللغة والنحو

مدخـــــــــل :

قبل أن نتصدى للحديث عن الدراسات الأدبية واللغوية في إفريقية خلال الفترة الزمنية التي اخترناها رحاباً زمنياً للرسالة . نجد لزاماً علينا أن نلقي الضوء على العوامل التي أثَّرت في مسيرة هذه الدراسات وقتذاك سلباً وايجاباً ، ثم التعرض في إيجاز لملامح الحركة الأدبية واللغوية ذاتها ، ورصد اتجاهاتها وتطوراتها .

إن المتتبع للحركة الأدبية في إفريقية سيلحظ دون ريب أن الاهتمام بالدراسات الأدبية واللغوية هناك قد تأخر لفترة طويلة نسبياً ، لكنه سيلحظ أيضاً أن الاهتمام بتلك الدراسات مالبث أن أخذ حقه بعد ذلك ، فانبعثت نهضة أدبية ، ازدهرت وتطورت ، بل بلغت من الإزدهار حداً جعلها تحتل مكاناً مرموقاً في مسيرة الحركة الأدبية العربية عموماً وتسهم في إثرائها كما سنعرف بعد .

وإذا أردنا مناقشة أسباب تأخر الإهتمام بالدراسات الأدبية الذي طال أمده أكثر من قرن ونصف قرن ، أي منذ المحاولات الأولى للفتح وحتى قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤هـ التي يعد قيامها نقطة تحول مهمة في تاريخ إفريقية لوجدناها تتدرج في عناصر مختلفة صبغت الحركة الأدبية بصبغتها آنذاك .

فبادئ ذي بدء نجد أن بلاد المغرب انفردت دون غيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى بأن مدة فتحها قد طالت كثيراً ، وأن العرب لم يتمكنوا من أحكام سيطرتهم على هذه البلاد ، إلاَّ بعد سبعين عاماً من المحاولات

الأولى للفتح كما هو معروف تاريخياً .

ومن المؤكد أنه في ظل طول أمد الفتح ، وما رافق ذلك من اضطرابات وفتن ، لم يكن من اليسير أن يظهر أي نشاط أدبي وقتذاك . كما أن من الطبيعي أن يكون إهتمام الفاتحين العرب مصروفاً إلى نشر الإسلام والدراسات الإسلامية بين البربر أولاً وقبل كل شئ .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن ثمة عنصراً ثانياً كان سبباً في تأخر الإهتمام بالدراسات الأدبية بل بالأدب عموماً . فعلى جهود الفاتحين العرب في نشر الإسلام واللغة العربية بين البربر ، وعلى عظم الدور العلمي الذي أدته مدينة القيروان منذ تأسيسها ، وعلى جهود البعثات العلمية ، سواءً كانت رسمية ، أو فردية ، في نشر الإسلام واللغة العربية بين السكان ، على ذلك كله ، فإن الحركة الأدبية لم يقدر لها البروز والظهور آنذاك ، صحيح أن اللغة انتشرت بين من أسلم من البربر بالضرورة – وكانوا كثرة – ، نتيجة لجهود الفاتحين والولاة ، ولأنها لغة العبادات ، ولغة التخاطب والوظائف ، ولعجز اللغة البربرية من مجاراتها بعد دخول البربر حظيرة الإسلام إلاّ أن الانتشار شئ ، وتشرب روح اللغة العربية وفصاحتها وبلاغتها شئ آخر والأدب بوصفه نتاجاً إبداعياً وجدانياً يعتمد على الموهبة والاستعداد أولاً ، ثم الحصيلة أو الخلفية الثقافية الكبيرة ثانياً ، يتطلب وقتاً طويلاً حتي تتفتح القرائح وتظهر الملكات ، وينشأ بالتالي أدب محلي ، وفي إعتقادنا أن هذا الأمر جد بدهي ، فلا يمكن أن يظهر أدب بين قوم لم يتشبعوا بعد باللغة العربية ولم يصلوا إلى درجة الانفعال بها ، كما لايمكن

أن يظهر أدب بين قوم لم يتشبعوا بعد باللغة العربية ولم يصلوا إلى درجة الانفعال بها ، كما لايمكن ذلك حتى تكون دواخلهم قد تمثّلت الأدب العربي نثراً وشعراً وأقاصيص ومسامرات في أيام العرب وغيرها .

ولقد كان من المنتظر – كما يتراءى لنا – ، بعد أن هدأت حركة الفتح وأسلم المغرب قيادته للعرب المسلمين ، أن تؤدي العوامل المساعدة لإزدهار الحياة الأدبية سواءً المباشرة أو غير المباشرة إلى ظهور حركة أدبية محلية ، لولا العوائق المعروفة التي اكتنفت بلاد المغرب ، فأخّرت الاهتمام بالدراسات الأدبية ، فالأحداث المؤسفة التي شهدتها بلاد المغرب منذ العقد الأول من القرن الثاني الهجري ، وحتى العقد الثامن منه ، من حروب دامية بين العرب والبربر من جهة ، والولاة العرب والجند العرب من جهة أخرى – كما هو معلوم . وكما سبق أن ألمحنا إليه – ، جاءت لتؤخر انبعاث نهضة أدبية محلية في هذه البلاد . ولسنا في حاجة إلى القول بأن الأدب دائماً هو مرآة صادقة تعكس طبيعة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتفيأ الأدب ظلالها انكماشاً وتوسعاً توقفاً وازدهاراً .

وثمة عنصر أخير أدى إلى تأخر الاهتمام بالأدب والدراسات الأدبية في إفريقّية ، وهو عنصر تنفرد به إفريقية دون سائر الأمصار الإسلامية ، ويتلخص ذلك العنصر في أن الاهتمام بالدراسات الشرعية في إفريقية أسهم بطريق غير مباشر في تأخر الاهتمام بالدراسات الأدبية . وهذا القول – على ما فيه من غرابة – ، يبدو غير بعيد عن الصواب ، فتحت تأثير هبوب رياح التيارات الخارجية المتطرفة ورياح البدع والضلالات التي

انتشرت في المغرب آنذاك ، لم يكن أمام المغاربة سوى الاهتمام بالدراسات الشرعية وحدها ، فكرسوا لها جل وقتهم ، وكأنما كان الإهتمام بالدراسات الشرعية وحدها وقتذاك مطلبا دينياً - ولربما كان قومياً - أيضاً .

على أن ذلك كله لاينسينا أن ثمة حركة أدبية متواضعة كانت تتفاعل في المغرب الأدنى خلال هذه الفترة التي حصرناها بين الفتح وقيام الدولة لأغلبية ، كانت تلك الحركة ذات شقين : شق جاء عفوياً وتمثّل في تيار شعرى ، جاء نتيجة لاستعار الخلاف بين الولاة العرب والجند العرب ، فاستخدم كل من الطرفين سلاح الشعر ، وشق آخر يمكن عده بمثابة حركة أدبية وافدة سواءً بالمؤثرات التي تبنتها ، وهى انتصاب الأسرة المهلبية لحكم البلاد المغرب وخاصة يزيد بن حاتم الذي شجع الأدب والأدباء ، أو بالعناصر التي صنعتها ، وهو ما تمثل في تقاطر الأدباء واللغويين على إفريقية إما بدعوات رسمية من المهالبة ، أو برغبات فردية محضة (١) .

أما وقد أتينا على ذكر مسببات تأخر الاهتمام بالأدب والدراسات الأدبية خلال تلك الفترة التي أشرنا إليها ، فإن الوقت قد حان للتحدث عن المسببات التي أدت إلى تقدم الدراسات الأدبية ، بل وتطورها وازدهارها فيما بعد .

سبق أن ذكرنا قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤هـ ، كان نقطة تحول مهمة في مسيرة الحركة الأدبية ، وهو قول صحيح لاغبار عليه - فقيام

---

(١) عن تلك الحركة الأدبية الوافدة ودور يزيد بن حاتم فيها أنظر تقويم محمد محمد طه الحاجري : دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية ،ص ٤٩ - ٥٤ .

الدول المستقلة ومن ثم استقرارها أمر مؤثر جداً في تطور الأدب والدراسات الأدبية ، بل وفي تطور الحياة العلمية عموما(١) ، وإن كان ذلك في الأدب أبرز وأظهر . ولقد اتضح هذا بصورة جلية في إفريقية ، فما أن قامت الدولة الأغلبية واستقرت قواعدها ، حتى رأينا الدراسات الأدبية تأخذ مكانها في مسيرة الحركة العلمية ، وهو الأمر الذي توالى بعد ذلك في عهدي الفاطميين والزيريين ، ولقد أدى انفراد الأغالبة بحكم إفريقية انفراداً مطلقاً ، إلاَّ من سلطة إسمية للخلافة العباسية ، إلى انصرافهم لبناء دولة بكل مقوماتها الحضارية لهم هناك . وسمح لهم الإستقرار النسبي الذي عرفته إفريقية في عهدهم بتحقيق أهدافهم . فعمت البلاد في عهدهم نهضة شملت كافة ضروب الحياة الإجتماعية والإقتصادية والعمرانية (٢) ، وكان من الطبيعي أن تشمل الحياة العلمية ، والدراسات الأدبية اقتضاء .

ومما أدى إلى نشاط الدراسات الأدبية في عهد الأغالبة وما تلاه من عهود أن ظروفاً شتى أسهمت في ذلك كإنعدام الروح العنصرية بين البربر والعرب بل وذوبانها ، ولاسيما وأن البربر ، رأوا في قيام الدولة الأغلبية تعبيراً عن الشعور بالإستقلال كما ذكرنا سابقا (٣) . ثم الرخاء والثراء الذي أصابته الدولة من جراء فتحها لصقلية عام ٢١٣هـ ، مما ترتب عليه

---

(١) راجع ما قلناه قبل عن عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية .

(٢) عن التقدم الحضاري الذي بلغته إفريقية في عهد الأغالبة . أنظر مثلا عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ص ١٠-٤٤ .

(٣) أنظر قبل ، ص ٥٩ ومابعدها .

بحبوحة من العيش انعكست آثارها في تهيئة المناخ الصالح لتقدم الدراسات الأدبية . ولذلك انطلق أبناء البلاد سواء كانوا من البربر أو العرب إلى ابتهال تلك الظروف السانحة فملأ وا البلاد شعرا ونثرا .

ولقد زاد من اشتعال جذوة الأدب والدراسات الأدبية في عهد الأغالبة، أن الأمراء الأغالبة أنفسهم بحكم كونهم عرباً خلصاً ، كان يهزهم كما يقول محمد عبدالمنعم خفاجي (١) البيان الجيد ، وتدفعهم أريحيتهم إلى تشجيع الأدباء واللغويين والنحاة وتقريبهم . هذا إلى جانب أن معظم أولئك الأمراء كانوا يفرضون الشعر ويتذوقونه .

والحق أن الأسباب والعوامل التي دفعت بالدراسات الأدبية قدماً نحو الأمام ، كانت متعددة ، علاوة على ما أسلفنا ذكره منها . فعلى سبيل المثال نذكر من أهم تلك الأسباب توافد الأدباء والنحاة على إفريقية واستيطانهم بها ، ثم رحلات المغاربة إلي المشرق وما تضفيه من إذكاء الحس الأدبي لديهم ، ثم الرغبة في إضفاء جو من المهابة على الدولة ، إرضاء للشعورالذاتي من جهة ، وايجاد شعور بالاستعلاء والتفوق على الدول المجاورة من جهة أخرى .

وفي عصر الفاطميين تضافرت معظم تلك العوامل السابقة في تقدم وازدهار الدراسات الأدبية من استقرار سياسي نسبي ، ومن رخاء اقتصادي عميم نتج عن اتساع رقعة البلاد بضمها أجزاء واسعة من المغرب الكبير ، إلى الرغبة في تشجيع الأدب ورجالاته ، إلى تمتع خلفاء الفاطميين

---

(١) قصة الأدبية في ليبيا من الفتح الإسلامي إلى اليوم ، الجزء الأول ، ص ٦٢ .

أنفسهم بالحس والذوق الأدبي ، ولاسيما أن معظمهم ممن قرض الشعر وتذوقه ، إلى الرغبة الطاغية في جعل بلاطاتهم أكثر توهجاً وتألقاً من بلاطات العباسيين في بغداد والأمويين في قرطبة إضافة إلي تأثير عوامل إزدهار الحياة العلمية سالفة الذكر التي ألمحنا إليها من قبل .

بيد أن الباعث الرئيسي الذي أسهم في تنشيط الحركة الأدبية في عصر الفاطميين بالإضافة لما ذكر ، هو باعث الاختلاف المذهبي الذي أفاد الحركة الأدبية أيما إفادة . فلقد نشط الفاطميون في الترويج لمبادئ مذهبهم فاصطنعوا العديد من الأدباء والشعراء واللغويين يمجدون دولتهم ويمتدحون مذهبهم ويغالون في إضفاء صفة الإجلال والمهابة عليهم . وحفز ذلك أدباء وشعراء البلاد ممَّن تمذهبوا بالمذهب المالكي ، – وهو مذهب الأغلبية العظمى –، إلى الإنبراء للتصدي لأولئك الأدباء المحسوبين على الدولة بنفس سلاحهم الذي شرعوه ، وهو سلاح الأدب ، فكان أن أوجد ذلك كله تياراً أدبياً قوياً نشطاً . فاتسعت بالتالي البحوث اللغوية والأدبية ، وأصبحت سوق الأدب نافقة في عصرهم (١) .

أما عصر الزيريين ، فلم يكن إلاَّ الثمرة الناضجة التي تكونت نتيجة لتضافر معظم العوامل السابقة التي أشرنا إليها ، والتي أسهمت في انبعاث وتقدم النشاط الأدبي في العصرين السابقين ، علاوة على تأثير

---

(١) حول تأثير العامل المذهبي في إثراء الدراسات الأدبية واللغوية في إفريقية في عصر الفاطميين وللاستزادة ، أنظر محمد عبدالمنعم خفاجي : قصة الأدب في ليبيا ، ج١، ص ١١٣ – ١١٧– عبدة قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي ، ج١ ، ص ٣٥– رابح بونار : المرجع السابق ، ص١٨٥، ٢٥٢ –٢٥٣، ٢٨١ .

عوامل ازدهار الحياة العلمية الطبيعية التي أشرنا إليها سابقاً .

بيد أن إزدهار الحركة الأدبية وتطورها في عصر الزيريين لم يكن نتيجة للعوامل السابقة التي كانت قدراً مشتركاً بين العصور السابقة فحسب ، بل انفرد هذا العصر بعوامل أخرى ، منها ماجاء عفوياً طبيعياً ، ومنها ما جاء قصداً ، فأدى بالإضافة لما سبق إلى تقدم الدراسات الأدبية واللغوية التي بلغتها البلاد في هذا العصر الذي يعد العصر الذهبي للحياة الأدبية على وجه الخصوص .

فلم يكن قيام الدولة الزيرية وانفرادها بحكم البلاد إنفراداً مطلقاً إلاَّ من تبعيه سياسية إسمية ومذهبية بالخلافة الفاطمية في الدور الأول من حياتها . نقول لم يكن ذلك وحده واضحاً في استمرار الاهتمام بالحياة العلمية ومن بينها الحياة الأدبية دون شك . ذلك أنه رافق ذلك عامل آخر كان له دوره المؤثر هو الشعور القومي الذي استفزه واستنفره قيام هذه الدولة البربرية الصرفة ، فانطلق أبناء البلاد يبدعون ويثرون الحياة العلمية بأوجهها المختلفة . وفي اعتقادنا أن الأمر لم يقتصر على إرضاء الشعور العنصري لدى البربر فحسب ، بل أرضى شعور العرب المقيمين والمتأصلين في تلك البلاد أي إفريقية ، الذين رأوا في الدولة الزيرية دولة عربية المنزع والهوى ، بتوجها نحو الثقافة العربية قلباً وقالباً (١) .

---

(١) لعل الزيريين بالإضافة إلى تشيعهم بالثقافة العربية ، كانوا يصرون في تشجيعهم للعلم والعلماء والأدباء من أنهم كانوا يرون أنفسهم عرباً ، ومن هنا كانوا يصرون على تأكيد حقيقة انتسابهم إلى قبيلة حمير كل ما سنحت الظروف إلى ترديد ذلك . ويكفي أن نسوق دليلاً واحداً لنؤكد ما قلناه. فقد نسب إلى المنصور بن بلكين بن زيري (٣٧٣- ٣٨٦هـ) ثاني أمراء الدولة الزيرية=

وإذا كان الاستقرار النسبي المؤثر في دفع الحركة العلمية قدماً ، قدراً مشتركاً بين العصور السابقة للعصر الزيري ، أعنى العصر الأغلبي والعصر الفاطمي إلا أنه كان أوضح وأبرز في عصر الزيريين ، لاسيما بعد أن تمخضت الأحداث السياسية عن انكفاء الزيريين على أنفسهم بعد الانقسام العائلي الذي تم بموجبه قيام الدولة الحمادية في المغرب الأوسط (١) ، وأدي هذا بهم إلى الالتفاف لرفع شأن دولتهم والاهتمام بها ، وتكريس جل أوقاتهم في رعاية الحركة العلمية والأدبية على وجه الخصوص.

وممَّا أسهم في تنشيط الحركة الأدبية في عصرهم ، الرخاء والثراء الاقتصادي العظيم الذي تحقق لهم ، صحيح أن العصريين السابقين تمتعا بحالات كبرى من الرخاء الاقتصادي ، لكن الرخاء الذي شهده عصر الزيريين فاق كل ماشهدته تلك العصور السابقة ، وذلك نتيجة للتحول الذي

= قوله وهو يبرر حسن معاملته للناس (إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهراً ، وأنا لاآخذهم إلاَّ بالإحسان ، وما أنا في هذا الملك ممَّن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي وورثوه عن أبائهم وأجدادهم حمير) . أنظر ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٤٠ . ولقد جرىٰ كثير من المؤرخين القدامى على انهاء نسبهم بالجد الأكبر لقبيلة حمير . ومن أولئك : ابن خلكان : نفسه ، المجلد الثاني ، ص ٣٤٣-٣٤٤ في ترجمته لزيري بن مناد جد الزيريين ، وفي ترجمة بلكين بن زيري ابنه في الجزء الأول ،ص ٢٨٦ ، وفي ص ٤١١ من نفس الجزء في ترجمته باديس بن بلكين ، وفي المجلد الخامس ، ص ٢٣٣- ٢٣٦ في ترجمة المعز بن باديس ، وفي ص ٣٠٤ - ٣٠٦ الجزء الأول في ترجمة تميم بن المعز ابن باديس ، حيث أوصله إلي سام بن نوح ، ونحن نورد هذا لاعلى أساس أننا نؤيد صحة نسب الزيريين إلى حمير أو نستبعده ، بل لنستدل به على أنهم كانوا يرون أنفسهم عرباً خلصاً .

(١) أنظر قبل ص ٧٤ .

طرأ على طرق التجارة بين غرب إفريقية ومصر (١) ، ممّا كفل حياة ناعمة لينة للمجتمع الإفريقي في عصرهم ، وأوجد مناخاً صالحاً لانتعاش الحياة الأدبية .

وكان من حظ الدولة الزيرية كما يتراءى لنا أنها كانت الوريثة للتمدن الإسلامي والتحضر الذي كانت قد رعته الأنظمة السياسية التي سبقتها ، ثم سلمتها إيَّاه يافعاً ، أسهمت هى في تطوره وسوقه بعيداً نحو الازدهار والتطور .

وأخيراً ، فإن ممّا أسهم في تنشيط الدراسات الأدبية واللغوية ، بل وازدهارهما ، أن قيض الله للبلاد شخصياً كان له دور عظيم في ذلك . ذلكم هو الأمير المعز بن باديس ، الذي يعد الباعث الحقيقي للنهضة الأدبية الشاملة التي شهدتها إفريقية آنذاك . وليس في الأمر غرابة إذا ما عرفنا أن المعز كان واسطة عقد الأمراء الزيريين ، وأوسعهم طولاً ونفوذاً ، ثم أن عهده كان أطول عهودهم زمناً ، فقد امتد حكمه إلى مايصل لنصف قرن من الزمن ومن هنا فقد حرص على أن يجعل بلاطه لايقل روعة وبهاء عن البلاطات الزاهية في الأندلس والقاهرة وبغداد وغيرها ، إضافة إلى ذلك ، فقد فطر هو نفسه على حب العلم والأدب ، لاسيما وهو ذو الحس والأدب المرهف . ومن هذا كله يتضح لنا كيف أفاء على الأدب والأدباء التشجيع والرعاية ، ويتبين لنا بالتالي ازدحام عهده بأبرز الأدباء واللغويين ذكراً وأبعدهم صيتاً . ولقد أطنب كثير من المؤرخين القدامى وبعض من الباحثين

---

(١) أنظر الجيب الجنحاني : المغرب الإسلامي – الحياة الإقتصادية والإجتماعية ، ص ١٣–٢٦ .

المحدثين في وصف مقدار ما وصلته الحياة الأدبية (١) في عهده الذي وصفه بعضهم بحق بأنه العصر الذهبي للأدب (٢) .

يبقى أن نشير أخيراً إلى أهم ملامح الحركة الأدبية الإفريقية خلال الفترة موضع الاهتمام . وفي الحق فإن أول ما يتبادر للمتتِّبع للحركة الأدبية الإفريقية من ملاحظات ، هو أن إفريقية لم تعرف كل فنون الأدب التي عرفها المشرق ، وعرفتها الأندلس كذلك ، ففي النثر لم تعرف البلاد القصص مثلا ، كما أنها لم تعرف المقالة أيضا . وإذا كانت قد عرفت المقامة فإنها قد عرفتها بشكل محدود جداً . وفي الشعر لم تعرف إفريقية الموشحات ولا الأزجال ، كما أن طرقها لبعض الأغراض الشعرية كان ضعيفاً باهتاً إلى الدرجة التي لايكاد يبين فيها ، مثل الخمريات ولعل في طبيعة المغاربة الدينية الواضحة والمحافظة على العقيدة النقية ما نأى بهم عن طرق هذا اللون من ألوان الشعر إلاَّ قليلاً .

---

(١) أنظر مثلا : ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس ،ص ٣٣١- ٣٣٦ - ابن عذاري : نفسه ، والجزء ، ص ٢٩٥ - ٢٩٨ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، ص ١١١ - ١١٥ - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٢٢٢- بساط العقيق ،ص ٧٧، ٨٢ - ٨٥ - عبدالرحمن ياغي : حياة القيروان ومواقف ابن رشيق منها، ص ٧٨ - ٧٩ ، ٩٦-١٠٢ - عبدالرؤوف مخلوف : ابن رشيق ونقد الشعر ، ص ٧٤-٧٧- أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية ، ص ٥٠- ٥٤ - محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصري القيرواني ، ص ١٤- ١٥ - عبدة قلقيلة : المرجع السابق : ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ١١٣ - أحمد بن عامر : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ٥٠ - عبدة قلقيلة : المرجع السابق ص ٣٦ .

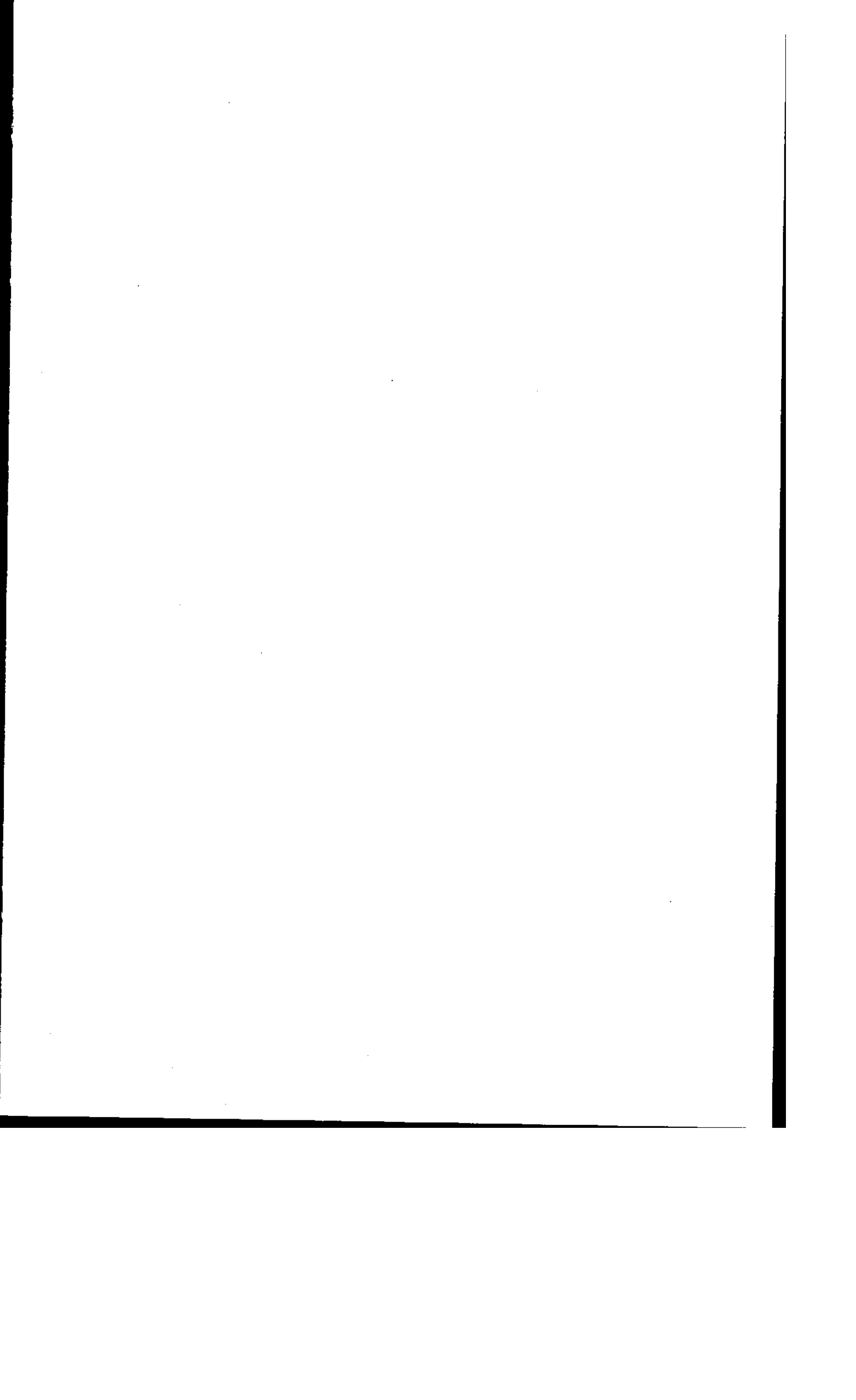
والملاحظة الثانية التي نلحظها من تتبعنا لملامح الحركة الأدبية الإفريقية ، هي أن بعض أوجه الحركة الأدبية بمعناها الواسع من نثر وشعر ولغة ونحو قد حظيت بالغلبة والظهور في بعض العصور السياسية السابقة دون بقية الأوجه أو بمعنى أدق أن بعض أوجه الحركة الأدبية كانت أوسع انتشاراً من بقية الأوجه الأخرى .

والملاحظة الثالثة التي تبدّت لنا ونحن نستقرئ أهم ملامح الحركة الأدبية واللغوية الإفريقية ، هي أن الحركة الأدبية هناك كانت تقتفي دون ريب مثيلتها في المشرق . بمعنى أن الحركة الأدبية الإفريقية تأثرت في كثير من مناحيها بالحركة الأدبية في المشرق . ولكننا نستدرك فنقول بأن ذلك لم يكن مطلقاً ، لتماثل العناصر الأساسية التي كوّنت الثقافة والأدب العربي في المشرق والمغرب كما لاحظ ذلك بحق أبو القاسم كرو وعبدالله شريط في كتابيهما : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب (١) عند تناولهما لحقيقة التشابه بين الأدبين المشرقي والمغربي حسبما سنعرف بعد .

أما الملاحظة الرابعة والأخيرة كما تتراءى لنا في أهم ملامح الحركة الأدبية ، فهي أن الدراسات الأدبية واللغوية لم تكن متساوية مع الدراسات الشرعية في كمّها ونوعها . وعلى ذلك فهي تمثل المرتبة الثانية في تسلسل مسيرة الحياة العلمية بعد الدراسات الشرعية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٥- ١٥٠ .



النـــــــــــــــثر

- النثر في عصر الولاة
- النثر في عصر الأغالبة
- النثر في عصر الفاطميين
- النثر في عصر الزيريين

الأدب

أولا : النــثر :-

من المعروف أن النثر يشكل أحد فرعي الأدب بجانب الشعر ، كما أن من المعروف أن النثر ينقسم بدوره إلى نوعين رئيسيين ، أولهما : النثر الفني ويضم عدة فروع كالكتابة الديوانية أو السلطانية ، وهي المكاتبات الرسمية التي تصدر عن الخلفاء والملوك الأمراء والوزراء والولاة والعمال وغيرهم، أو العكس ، وكالرسائل الاخوانيه المتبادلة بين الأدباء وغيرهم ، مثل الخطب والوصايا وغيرذلك ، وثانيهما هو النثر التأليفي الأدبي المتمثل في تأليف مؤلفات أدبية بالمعنى الدقيق للأدب ، ثم المقامة ، والمقالة ، والقصة .. الخ .

النثر في عصر الولاة :

ذكرنا من قبل أن عصر الولاة لم يَقَّدر له أن يشهد نشاطاً أدبياً مزدهراً ، وإن كان هو العصر الذي بزغت فيه تباشير النهضة الأدبية التي عرفتها إفريقية بعد ذلك . بيد أن هذا لايعنى خلو هذا العصر من نشاط نثرى . فعلى سبيل المثال كان هناك نشاط نثرى فنى لابأس به ، لاسيما وأن ظروف بلاد المغرب السياسية استدعت وجوده ، وبالأخص المكاتبات الرسمية بين الخلافة في المشرق والولاة ، وبين الولاة والخارجين على الدولة، ونفس الشئ يمكن أن يقال عن الخطب .

النثر الفنـــي :

فيما يتصل بالمكاتبات الرسمية ، حفظت لنا المصادر إشارة إلى رسالة بعث بها الوالي حنظلة بن صفوان الكلبي (١٢٤-١٢٧هـ) إلى خوارج طنجة ، وهي الرسالة التي أشرنا إليها من قبل عند حديثنا عن الأثر العلمي للصراع المذهبي بين المالكية والإباضية (١) . والرسالة بالطبع كانت تحمل روح ذلك العصر من الناحية الأدبية ، فقد اتسمت بالتلقائية ، والبعد عن التكلف والتزويق الأدبي الذي عرفته المكاتبات الرسمية بعد ذلك .

ومع أن المؤرخين أشاروا إلى أن عصر الولاة بعد ذلك ، وخاصة في عهد الأسرة المهلبية التي تولت أمر المغرب الأدنى مدة تصل إلى ربع قرن من الزمن ، قد حفل بالمكاتبات الرسمية بين الخلافة العباسية والولاة من جهة ، وبين الولاة والخارجين عليهم من جهة أخرى (٢) . إلاَّ أننا لم نوفَّق في العثور على نصوص تلك المكاتبات لمعرفة كتَّابها من ناحية ، ولتبيان مكانتها الأدبية من ناحية أخرى . غير أن المرجَّح أن أسلوبها لايحمل أي خلاف لطبيعة كتابة وروح ذلك العصر . والأمر نفسه يمكن أن يقال عن المكاتبات الرسمية التي حفل بها عهد آخر واليين عباسيين للمغرب الأدنى ، وهما ، هرثمة بن أعين ، ومحمد بن مقاتل العكي (٣) .

---

(١) أنظر قبل ، ص ٧٣ ومابعدها .

(٢) عن تلك المكاتبات الرسمية التي أشار إليها المؤرخون دون أن يوردوا نصوصها ، أنظر مثلا : الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ١٤٥ . ١٦١-١٨٢-١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩١-١٩٢ . إلى غير ذلك

(٣) عن تلك المكاتبات، أنظر كذلك :الرقيق القيرواني، نفس المصدر أعلاه، ص٢٠٢-٢٠٤ ، ٢٠٧-٢١١.

ولئن لم تخلد لنا المصادر أسماء كتّاب عصر الولاة ، إلاّ أنها احتفظت لنا بذكركاتب أديب كانت له مكانة في الترسل والإنشاء ، ذلك الكاتب هو خالد بن أبي ربيعة الإفريقي (كان حياً سنة ١٤٠هـ) فقد عاصر خالد بن أبي ربيعة عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع مؤسس الأسرة الفهرية التي حكمت المغرب ، من عام ١٢٧حتى ١٤٠هـ ولقد استكتب عبدالرحمن خالد بن أبي ربيعة ، فجعله مسؤولاً عن المراسلات الرسمية ، ومع أننا لم نعثر على شئ ذي بال من كتاباته ، وكذلك عن تفاصيل ترجمته، إلاّ أننا عرفنا عنه أنه هو الذي حرّر الكتاب الرسمي الذي بعثه عبدالرحمن إلى الخليفة الأموي مروان بن محمد يعترف له فيه بالطاعة ، وعرفنا بأنه هو الذي حمل الكتاب الرسمي إلى الخليفة في دمشق . وفي دمشق قابل الكاتب المشهور عبدالحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب ، حيث انعقدت أواصر صداقة بينهما (١) . ثم عاد إلى بلده ليمارس مهمته في تحرير الرسائل الرسمية التي كان عبد الرحمن بن حبيب يبعثها إلى الآفاق. وعندما خلع عبدالرحمن طاعة الدولة العباسية حرّر خالد بن أبي ربيعة الكتاب الرسمي الذي نص على خلع طاعة الخليفة المنصور ، والذي قرئ على المنابر في سائر بلاد المغرب (٢) .

ومهما يكن ، فإن خالداً بن أبي ربيعة وصف بأنه كاتب (مترسل

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٥١ -١٥٣ .

(٢) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ويسميه خالد بن ربيعة بدون (أبي) -سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٣٣٠ .

بليغ، نشأ في الدواوين ، وله رسائل مجموعة في الأدب نحو مائتي ورقة كما يقول ابن النديمْ (١)

وإذا مضينا نبحث عن الرسائل الإخوانية بوصفها ضرباً من ضروب النثر الفني ، فلن تأخذنا الدهشة إذا عرفنا أنها انعدمت تقريباً خلال هذا العصر ، وهو أمر طبيعي دون ريب ، وبين أيدينا رسالتان بعثهما العابد الزاهد العالم أبو يزيد رباح بن يزيد اللخمي (٢) (ت : قبل ١٧٠هـ) (٣) إلى صديقيه : الفقيه البهلول بن راشد المتوفي عام ١٨٣هـ ، والفقيه عبدالله ابن فروخ المتوفى عام ١٧٥هـ حسبما عرفنا سابقاً . أما رسالته للبهلول ، فقد غلبت عليها بسهولة في التعبير ، ووضوح المعنى لاسيما وهي رسالة نُصح وقد ضمَّن رباح بن يزيد الرسالة بالعديد من الآيات القرآنية الكريمة ، كما استشهد فيها بالعديد من الأحاديث النبوية (٤) .

أما رسالة رباح بن يزيد الأخرى لعبد الله بن فروخ ، فهي على غرار الرسالة الأولى من حيث خلوها من الرونق الأدبي ، ومن حيث وضوح فكرتها ومن حيث تضمينها بعض الآيات الكريمة ، والاستشهاد ببعض

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٥٥ .

(٢) ترجم له المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢١٠- ٢٢٠ .

(٣) هذا هو التاريخ المعقول لوفاته . ولاعبرة لما قاله المالكي : نفسه ، ص ٢١١، من أنه توفى سنة ١٧٢هـ ، ذلك لأن المالكي نفسه يذكر بأن يزيداً بن حاتم المهلبي شهد وفاة رباح وصلى عليه والمعروف تاريخيا أن يزيداً بن حاتم توفى سنة ١٧٠هـ . أنظر ماذكرناه عن ولايته قبل ، ص ٦٩. ومن هنا أشرنا إلي أنه توفى قبل عام ١٧٠هـ . أولعله في نفس العام الذي توفى فيه يزيد بن حاتم .

(٤) أنظر نص الرسالة عند المالكي : نفسه ، ص ٢١٦ – ٢١٨ .

الأحاديث النبوية وإن كانت قد تميزت عن الأولى باشتمالها على بعض أقوال الحكمة ، وقد جاءت هذه الرسالة رداً على رسالة كان قد بعثها له عبدالله بن فروخ (١) .

وفيما يتصل بالخطابة ، سواء كانت سياسية ، أو كانت دينية ، فقد انعدمت الإشارة إليها تقريباً . على أننا تمكّنا من العثور على ذكر خطبتين سياسيتين ، إحداهما لعبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة مؤسس الأسرة الفهرية كما عرفنا من قبل ، والأخرى لأبي الخطاب عبدالأعلى بن السمح المعافري الإباضي (ت : ١٤٤هـ) أول أئمة الظهور الإباضية في المغرب الأدنى حسبما عرفنا من قبل أيضاً .

أما خطبة عبدالرحمن بن حبيب التي ألقاها من على منبر القيروان عام ١٣٧هـ ، والتي أعلن فيها خلع طاعة الخليفة العباسي المنصور ، فإن النتف اليسير الذي وصلنا منها ، لايمكننا من الحكم على مكانتها الأدبية (٢) ، وأما الخطبة الأخرى التي خطبها أبو الخطاب في جموع الإباضية أثناء الاستعداد لاقتحام مدينة القيروان ، وذلك قبل وفاته بقليل، فهي وإن كان قد ورد عنها شئ غير يسير ، إلاّ أنها كانت تعبر عن روح العصر الأدبي الذي عرفه عصر الولاة إذ بدت عليها السهولة في التعبير ، ووضوح الفكرة وجنوحها إلى مخاطبة العقل ،

---

(١) أنظر نصها عند المالكي : نفسه ، ص ٢١٨ – ٢٢٠ .

(٢) عن تلك الخطبة أنظر الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ١٣٤ – ابن عذارى : نفسه ، ص٦٧ .

وخلوها من الرونق الأدبي (١) .

٢- النثر التاليفي : -

من الطبيعي ألاَّ نوفق في العثور على أي اسهامات في النشاط النثري التأليفي في هذا العصر ، الذي ذكرنا أنه يمثل عصر النشوء الأدبي . وينطبق هذا على مدينة القيروان آنذاك ، كما يصدق على بقية مدن وأقاليم إفريقية . ولسنا في حاجة إلى القول بأن الاهتمام بنشر المذهب المالكي والتأليف في مجال الفقه كان أهم ما يشغل العقول آنذاك ويصرف أبناء البلاد عن الاهتمام بالأدب والتأليف فيه ، إضافة إلى تأثير العوامل سالفة الذكر في تأخر الإهتمام بالأدب خلال هذا العصر .

---

(١) عن نص تلك الخطبة أنظر أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٧٨هـ وأنظر تعليقة عليها كذلك في ص ١٨٠ .

النثر في عصر الأغالبة :-

أهم ما يلاحظه الدارس للحركة الأدبية واللغوية في عصر الأغالبة هو أن النثر بقسميه الرئيسيين وبما يندرج تحتهما من فروع وأنواع ، كان أقل أوجه الحركة الأدبية عطاءً ، سواءً كان ذلك في مجال الشعر ، أو مجال الدراسات اللغوية والنحوية ، على أن ذلك لاينفي حقيقة أن ماحفظ من ذلك النثر القليل بأنواعه المختلفة قد لمسه التطور الأدبي كماً ونوعاً قياساً بعصر الولاة الذي سبقه .

ا - النثر الفني :-

على الاستقرار النسبي الذي عرفته إفريقية في عصر الأغالبة ، إلاّ أنه لم يخل بالطبع من الفتن والقلاقل الداخلية والخارجية ، ومن هنا فقد حفل هذا العصر بالكثير من القضايا السياسية والعسكرية التي استوجبت اللجوء للمكاتبات الديوانية أو الرسمية ، سواء ماكان من مراسلات بين الخلافة العباسية ، وبين بعض أمراء الأغالبة ، أو ما كان بين بعض أمراء الأغالبة وبين عمالهم والخارجين عليهم ، ومع أن المؤرخين القدامى أشاروا إلى ظروف تلك المكاتبات ، إلاّ أنهم لم يزودونا إلاّ بنصوص قليلة منها ، كما أنهم ضنوا علينا بذكر الكتاب الذين أوكل إليهم أمر تلك المكاتبات .

ولعل من أول النماذج القليلة التي حفظها لنا المؤرخون ، والتي تبودلت في أول عصر الأغالبة ، الرسالة التي بعثها الأمير ابراهيم بن الأغلب

مؤسس الدولة الأغلبية إلى الثائر عليه ، خريش بن عبدالرحمن بن خريش الكندي (١) والرسالة في الأصل عبارة عن رسالة تهديد وتقريع ، ولكنها تحمل في مضامينها روح السخرية والازدراء بقليل من التأنق اللفظي . وقد ختمها ابراهيم بعدة أبيات يفتخر فيها بنفسه ، ويتوعد خريشاً ويتهدده (٢).

أما في عهود خلفائه من أبنائه الثلاثة الذين تولوا الحكم بعده :عبدالله (١٩٦-٢٠١هـ) وزيادة الله المعـــروف بزيادة الله الأول (٢٠١- ٢٢٣هـ) والأغلب (٢٢٣-٢٢٦هـ) ، فلم يقدر لنا لسوء الحظ العثور على نماذج أو نصوص المكاتبات العديدة التي كانت متداولة وقتها بين الخلافة وبينهم من ناحية (٣) ، وبينهم وبين الخارجين عليهم من ناحية أخرى (٤) . هذا فضلاً عن أننا لم نحظ بالتعرف على الكتاب الرسميين الذين كان يضمهم البلاط الأغلبي وقتئذ .

وفي عهد الأمير أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٦-٢٤٢هـ) صادف أسماعنا لأول مرة ذكر لكاتب رسمي له وهو نصر ابن حمزة الجروي . ولم يتسن لنا أن نعرف عنه أكثر من أنه غدا ذا أهمية كبيرة في عهد الأمير محمد ، ثم ازدادت مكانته وأهميته عندما استبد ولي

---

(١) عن ثورة خريش بن عبدالرحمن بن خريش الكندي على ابراهيم بن الأغلب وما تمخض عنها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٤ - ٣٥ مع الحواشي .

(٢) أنظر رابح بونار : المرجع السابق ، ص ١٠٨ حيث أورد نص الرسالة .

(٣) أنظر عن تلك المكاتبات ، سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ص ٦٤ مع الحواشي .

(٤) عن تلك المكاتبات ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ،ص ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ .

العهد الأمير أحمد شقيق الأمير محمد بشؤون الإمارة دون أخية ، فقد رقاه الأمير أحمد إلى مرتبة الوزارة ، بالإضافة إلى رتبة الكتابة (١) . أما عن مكانته في الترسل والإنشاء ، فلم تسعفنا المصادر بالتنبيه إلى ذلك .

أما عهد الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ) المعروف بابراهيم الأصغر أو الثاني ، فقد كان عامراً بالنشاط الأدبي ولاسيما جانب المراسلات الدويوانية أو السلطانية ، ولاغرابة في الأمر إذا عرفنا أن هذا الأمير يعد واسطة عقد الأمراء الأغالبة ، ويعد عهده أطول العهود الأغلبية زمنا . كما أن عهده يمثل ذروة العصر الأغلبي في كافة الجوانب (٢) خاصة الجانبين : الأدبي والعلمي (٣) .

وعلى كل حال فقد طرق أسماعنا لأول مرة ، ذكر ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل الديوانية ، وهو أمر له دلالته من حيث الإشارة إلي مابلغته البلاد من رقي وتطور أدبي ، كما أننا تعرفنا على العديد من نصوص الرسائل الديوانية ، فضلا عن أننا ازددنا تعرفاً بعدد من أسماء الكتاب اللامعين في هذا العهد والعهدين اللذين بعده ، وفوق هذا وذاك ، فإن عهد ابراهيم الثاني عرف نشاطاً نثرياً تاليفياً حسبما سنشير إليه بعد قليل .

ومن أوائل الكتاب الأدباء اللامعين الذين عرفهم عهد الأمير ابراهيم

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ،ص ٧٩، ٨١ .

(٢) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١١٤ - ١٢٩ .

(٣) أنظر قبل ، ص ١٥٥، لمعرفة دوره في تأسيس بيت الحكمة .

الكاتب الأديب أبو العباس محمد بن أحمد بن حيون المعروف بالبريدي (١) (ت : ٢٧٦هـ) ولقد بلغ البريدي من المكانة الأدبية ما جعل الأمير يوليه أمر المكاتبات الديوانية ، بيد أنه مالبث أن سخط عليه فسجنه . ولقد حاول البريدي أن يستعطف الأمير بأن يعفو عنه ، فبعث له برسالة ، حفظ شطر كبير منها لحسن الحظ .

وللرسالة من الحلاوة والطلاوة والتمكن البلاغي مالها ، ممّا يسمح لنا أن نوردها هنا ، لما تمثله من إيضاح للجو الأدبي الذي كانت تعيشه بلاد إفريقية وقتذاك ولإيضاح الفرق بين مابلغه النثر الفني – على قلته – ، في عصر الأغالبة وبين ماكان عليه النثر في عصر الولاة ، فلقد خاطب البريدي الأمير بقوله : (أعز الله الأمير ، لكرم العفو ، وعلو قدره ، وجليل خطره تسمى الله عز وجل به فسمى نفسه العفو الغفور . والطبع البشرى مركب على النقص ، مقرون بالزلل إلاّ ما خص الله به الأنبياء ، وأودعه السادات الأمراء ، من طهارة الأخلاق ونزاهة الأنفس ، ولست أيد الله الأمير ممن يدعى العصمة والبرآءة من الهفوة ولست أمت إليك إلاّ بفضلك عليّ ، وإحسانك إليّ ، ولا أعرفك ، بل أذكرك ، أن من غرس غرساً فواجب أن لايجتثه ، وأن أبطأ بسوقه ، بل يجدد بمداد موارده العذبة حتى تمتد

---

(١) هذا ما يقوله ابن عذاري : نفسه ، ص ١٢١ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٣٠ – حسن حسنى عبدالوهاب الورقات ، القسم الأول ،ص ٢٤٧-٢٤٨- وانفرد ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، أو الجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام ،ص ٣٠٠ (وهو الذي نقلنا عنه النص) يذكر اسمه ولقبه مختلفاً . فيسميه أحمد القديدي .

خيطانه ، وتورق أغصانه ، أعاذك الله بما أودعك من معالي الأخلاق ، من ترك العفو عن مقر معترف ، لايعرف إلاّ فضلك ولايرجو إلاّ عدلك ولو كنت أعز الله الأمير عواناً في الخدمة ، لكان عفوك أكبر من ذنبي ، وفضلك في حلمك أعظم من جرمي ، فكيف وأنا بكر في خدمتك ، لم أقف على حدودها ، ولا معرفة اقتسام مراتبها ، فإن يكن ذنب فعلى غير قصد أوزلة ، فليست عن عمد ومماّ ذهبت به الأفواه ونطقت به الألسن وعرفه الخاص والعام بياناً واضحاً ، أنك ممَّن عنى الله عز وجل ذكره بقوله : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله * وليعفوا وليصفحوا * ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (١) ، وقال عز وجل : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾(٢) ، فلا أحد بمعالي الأخلاق والامتثال لأدب الله أحق منك ، لما وهب الله لك من كريم الطبع ، وصحة المركب ، فاعتبر أمرى فما سألت إلا سؤال من دحضت حجته ، وأحاطت به زلته ، وأوبقه جرمه ، فالحظني بعين عفوك ، وأضف عليَّ ستر نعمتك) (٣) . وقد ختم الرسالة بعدة أبيات يطلب فيها صفح الأمير ، لكن دون جدوى ، فقد قضى عليه أخيراً (٤) .

ومهما يكن فإن الأمر الذي يشدنا للرسالة ، هو ما يتجلى فيها من

---

(١) سورة التوبة : آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران : آية رقم ١٣٣ .

(٣) ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني ، ص ٣٠ -٣٢ .

(٤) ابن عذارى : نفسه ، ص١٢١-١٢٢- سعد زغلول عبدالحميد نفسه ، ص١٣٠ .

تأنق في اللفظ ، وما فيها من محسنات بديعية من سجع وخلافه ، وما فيها من التفات ومزاوجة ، وقدرة على استخدام مختلف لحروف الجر .. الخ ، ويرى رابح بونار (١) أن هذه الرسالة تدل على مقدار تشبُّع البريدي بأسلوب الكاتب ، المشهور : الجاحظ وغيره من أدباء فن الترسل في المشرق وقتذاك .

ومما يؤكد ارتقاء النثر الفني ، وخاصة النثر الرسمي - إن جاز هذا-، الرسالة التي بعثها الأمير ابراهيم بن أحمد للداعي أبي عبدالله الشيعي الذي بدأت حركته في الدعوة للشيعة في عهد هذا الأمير كما سبق أن ذكرنا من قبل . والرسالة فيها شئ من الطول ، وتتسم بصفتين رئيسيتين الترغيب والترهيب ، وفي ثنايا ذلك جهد كاتبها أن يوضح الغرضين الآنفيين بكل ما أوتى من قدرة بلاغية تكمن في أسلوب الترسل والتوشيح (٢) .

وفي عهد هذا الأمير حظى بلاطه بوجود شخصية أدبية وعلمية لامعة هي شخصية الكاتب الأديب الرياضي أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني (ت ٢٩٨هـ) ، الذي كان له دور في اثراء النثر الإداري والتأليفي في إفريقية وكان له دور كذلك في اثراء الدراسات العلمية التطبيقية أو التجريبية حسبما سنعرف بعد . وأبو اليسر الشيباني بغدادي الأصل ، ترعرع في بلده العراق ، وتتلمذ على يدي أبرز الكتاب المشهورين آنذاك ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥، ١٠٥ .

(٢) أنظر نص تلك الرسالة عند القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، ص ٥٦-٥٧ .

من أمثال الجاحظ والمبرد ، وابن قتيبة ، كما تأثر بالشعراء المشهورين آنذاك في العراق ، من أمثال أبي تمام والبحتري وغيرهما . وقد ترك بلده ألعراق ، وطوف في الجزء الغربي من الدولة الإسلامية ، أي الأندلس والمغرب ، ثم استقر به المقام في إفريقية . وهنا لقى التشجيع والتكريم من الأمير ابراهيم الذي عينه رئيساً لديوان الإنشاء ، وهذه أول مرة يمر بنا ذكر هذا الديوان ، وقد استمر أبو اليسر يعمل في خدمة مخدومه الأمير ابراهيم ثم ابنه عبدالله، ثم حفيده زيادة الله حتى سقطت الدولة الأغلبية عام ٢٩٦هـ . ولما دخل الخليفة عبيدالله المهدي القيروان ورقادة عرف له قدره ، فاستمر يعمل في خدمته كاتباً ومشرفاً على بيت الحكمة القيرواني حتى توفى عام ٢٩٨هـ (١) وأبو اليسر الشيباني أول كاتب يحظى بترجمة واسعة لدى المؤرخين القدامى والمحدثين ، ممَّا يدل على علو كعبه الأدبي ، وممن وصفه وأثنى على مكانته الأدبية المؤرخ والأديب القيرواني ابراهيم الرقيق (٢) ، فقد وصفه بالأدب الرفيع ، والترسل البليغ ، والشعر الرائق ، مع مصافة الفكرَ ومكارم الإخلاق) . وقال أيضاً عنه (وكان ضارباً في كل علم وأدب ، كتب بيده أكثر كتبه مع براعة خطه وحسن وراقته) .. الخ ماحلاه به من نعوت .

ومن الكتاب المشهورين أيضاً في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد ، وخليفتيه من بعده ، الكاتب محمد بن أحمد بن الفرج البغدادي (ت:٢٩٠هـ)

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٤٤ – ٢٤٧– (نقلا عن غير واحد من المؤرخين القدامى) .

(٢) فيما ينقله عنه حسن حسنى عبدالوهاب : المرجع السابق ،ص ٢٤٥– ٢٤٦ .

وهو ممن وفدوا إلى افريقية والعراق ، فألحقه برئيس ديوان الإنشاء أبي اليسر الشيباني (١) ، ويقول حسن حسني عبدالوهاب (٢) ، أنه كانت له (مشاركة عالية في فنون الأدب) .

ومن الكتاب اللامعين أيضا ، عبدالله بن الصائغ (ت ٢٩٦هـ) وهو من أبناء القيروان ، وقدتولى وظيفة الكتابة في ديوان الخراج في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد (٣) ، وفي عهد الأمير زيادة الله الثالث (٢٩٠- ٢٩٦هـ) ازدادت مكانته ، وعلت منزلته ، فرقّاه الأمير إلي رتبة : صاحب البريد ، بالإضافة إلى رتبة الكتابة (٤) ، ولقد مارس ابن الصائغ دوراً في الأحداث التي انتهت إليها الدولة الأغلبية في أخريات أيامها ، وانتهى به الأمر مقتولاً عام ٢٩٦هـ ، أي نفس العام الذي سقطت فيه الدولة الأغلبية (٥) . وممّا ينسب لابن الصائغ أيضاً تمتعه بموهبة شعرية اشتهر بها آنذاك (٦) .

وقبل أن نختتم الحديث عن المكاتبات الرسمية ، والكتّاب الذين ذكروا خلال هذا العصر ، لا يفوتنا الإشارة إلى المكاتبات التي حررها الأمير زيادة الله ، والتي يهاجم فيها الداعي أبا عبدالله الشيعي ، ويوضح حقيقة دعوته والتي أمر أن تقرأ على المنابر .

---

(١) الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٤٦.

(٢) نفس المرجع والقسم والصفحة أعلاه .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٧٩ – حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ،ص ٢٣٠ .

(٤) حسن حسنى عبدالوهاب : المرجع السابق والجزء ، ص ٢٣٠ .

(٥) عن دوره ذلك ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه، ص ١٦٢-١٦٣، ١٧٥- ١٨٢ .

(٦) أنظر بعد ص ٦٧٥ .

وأيا ماكان الرأي في حقيقة ماورد في تلك المكاتبات ، وأيا ماكان رأي المؤرخين (١) في زيادة الله ، فإن تلك الرسائل التي أمر بقرآءتها على المنابر تعد بدون ريب قطعاً أدبيبة ، فيهـا بلاغة وفصاحة ، وفيها سمو ورقي أدبي (٢) .

وإذا مضينا نبحث عن الرسائل الإخوانية ذات الطبيعة الأدبية خلال هذا العصر ، لوجدنا الإشارة إليها تكاد تنعدم ، ويبدو أن الإهمال قد طال هذا اللون من ألوان النثر الفني ، كما طال غيره خلال هذا العصر أو لعل طبيعة التوجه الأدبي لهذا العصر لم تكن منصرفه إلاَّ إلى الشعر ، والدراسات اللغوية والنحوية .

ومع ذلك فإن إهابنا لم يخل من التعرف على صور من هذا اللون الأدبي ، فبين أيدينا رسالة بعث بها العالم النحوى أحمد بن أبي الأسود النحوي إلى صديق له وكان قد وقع بينهما خلاف أدى إلى تهاجرهما فترة من الزمن ، وقد جهد ذلك الصديق ما أمكنه أن يسترضي صديقه أحمد بن الأسود دون جدوى ، ولم ير أحمد بن أبي الأسود بداً من أن يبعث إلى صديقه برسالة يوضح له فيها موقفه منه . ومما جاء في الرسالة (... أما بعد ،فإن طول الترداد يورث الملال ، وقلة غشيان الناس أفضل لقوله ﷺ : « زرغباً تزدد حباً » وللقلوب نبوة ، فإن أكرهت لم يكن لما يتولد منها لذة،

---

(١) أنظر تقويم سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٥٩ وما بعدها ، لفترة حكم زيادة الله عن عدد من المؤرخين .

(٢) عن تلك المكاتبات ، أنظر القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص ١٨٥ - ١٩١، ١٩٢- ١٩٧ .

ولابد من استجماعها إلي غايتها . وأسأل الله أن يجعلها منا عزمة ، ومنك سلوة ، والملتقى إن شاء الله في داره وجواره ، حيث لاتحاسب ولاتصاحب) (١) . فهذه الرسالة كما يبدو لا تخلو من مسحة أدبية واضحة، ورسالة أخرى أمكننا العثور عليها ، وهي رسالة عتاب بعثها أبو محمد عبدالرحيم بن عبد ربه العبدي الزاهد (٢) إلى صديقه الفقيه المشهور سحنون بن سعيد ، يعتب فيها عليه قبوله تولى القضاء . والرسالة (٣) مع قصرها، فإنها تترك في النفس تأثيراً جميلاً – من الناحية الأدبية المحضة – بما فيها من محسنات بديعية كالطباق والمقابلة .

ومثلما كان حظنا ضئيلاً من الرسائل الإخوانية ، كان حظنا ضئيلاً أيضاً من لون آخر من ألوان النثر الفني ، وهو الخطابة ، ويصدق هذا على الخطب السياسية والدينية معا . ولانقصد بالدينية بالطبع، خطب المناسبات الدينية التعبدية كخطب الجمع والأعياد . ومع يقيننا بأن الإهمال ربما كان .

السبب في ذلك، لانسى أن روح العصر على مستوى الدولة الإسلامية نفسها، كانت تتميز بالفتور في الاتجاه نحو الخطابة ، إذ حلّت الرسائل .

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤ – الفيروز آبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، ص ١٣٢ .

(٢) ترجمته موجودة عند أبي العرب التميمي : نفسه ، ص ١١٣– المالكي : نفسه ،ج١ ، ص ٣٢٧–٣٣٤ بتوسع) .

(٣) عن نصها أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٢٩ ..

الديوانية والمنشورات محل الخطابة ، لضعف القدرة عليها ، ولقلة الدواعي إليها كما يرى أحمد حسن الزيات (١) .

ومهما يكن فإن بين أيدينا مقتطفات من خطبة خطبها الفقيه عبدالله ابن طالب (ت: ٢٧٦هـ) على منبر القيروان ، وكنا قد أشرنا إلى ظروفها سابقاً عند حديثنا عن موقف فقهاء المالكية من أتباع المذاهب الكلامية (٢) ومن الملائم أن نعيد الآن ذكر هذه المقتطفات ، فعندما اعتلى ابن طالب المنبر قال : (... الحمد لله الذي يشكر على مابه أنعم ، والحمد لله الذي عذَّب على مالوشاء منه عصم ، والحمد لله الذي على عرشه استوى ، وعلى ملكه احتوى ، وهو في الآخرة يرى). هذه المقتطفات على قصرها ، تحمل كما يتراءى لنا معظم خصائص الخطابة من افتتاحها بالحمد ومن عذوبة ألفاظها ، واقتباسها من القرآن ، ثم مافيها من سجع في كلمتي : استوى واحتوى ، إلى غير ذلك .

على أن اللون الأدبي الذي كثر طرقه خلال هذا العصر إنماهو الوصايا والمواعظ . وفي تصورنا أنه ليس في الأمر غرابة إذا ما عرفنا أن معظم من طرق هذا اللون كانوا من العلماء والعبَّاد الزهاد الذين زهى بهم هذا العصر، وتأسيساً على ذلك ، فلسنا في حاجة إلي كبير عناء لنكتشف أن معظم تلك الوصايا والمواعظ جاءت تحث على الزهد والقناعة ، والتأدب

---

(١) تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا ، ص ٢١٩ .

(٢) أنظر مقتطفات تلك الخطبة ودواعيها قبل ص .

والتأسي بسير الصالحين والزهاد بل بتعاليم الإسلام نفسه (١) . ومن هنا فلن نطمع أن نجد فيها عناية بالتذويق الأدبي كثيراً إلاَّ في القليل منها (٢).

ومن بين تلك الوصايا والمواعظ التي لم يخل سطر واحد منها من رونق أدبي ، تلك التي أملاها العابد الزاهد أبو على شقران بن على الفرضي على تلميذه المصري الشهير بذى النون (٣) ، وقد اتَّصل به وطلب منه تزويده بمواعظه، فكتب اليه يقول : (يا أخي إن لله عز وجل عباداً غلبوا فألفوا ، وطلبوا فرحلوا ، وقصدوا فوصلوا ، أولئك الربانيين والأحبار وعمال الله الأبرار ، أولئك قوم كرمت نفوسهم على الله فركبوا مطية النجاة إلى الله، وأحياهم الله عند ذلك حياة الأصفياء ، ثم أمدهم بمعونات الأقوياء، فسبحانه ما أكرمه فيما أعطاهم وخولهم ، ولقد دعاهم فأجابوا ولقد قبلوا فأصابوا) (٤) .

وسمعه تلميذه مرة يخاطب نفسه ويقول : (أواه ! ألا مريد صادق ؟ ألا فتى نمت عليه الحقائق ؟ . مالي لا أرى الصادقين ؟ مالي عدمت أهل

---

(١) عن تلك الوصايا والمواعظ ، أنظر مثلا المالكي : نفسه ،ج١ ، ص ٢٣٦- ٢٣٧ (الموعظة التي بعثها عبدالخالق المتعبد المعروف بالفتات إلى أحد أصدقائه) ،ص ٢٤٦- ٢٤٨، (حيث الموعظة التي بعثها اسماعيل بن رباح إلى أحد أصدقائه كذلك) ، ص ٣٤٨- ٣٤٩ (حيث ذكر الموعظة التي وعظ بها الفقيه محمد بن سحنون أحد أفراد بنى الأغليب) .

(٢) أنظر من ذلك مثلا : الموعظة التي وعظ بها الفقيه أحمد الصواف (٢٩١هـ) طالب العلم ، والتي تدل على المسحة الأدبية التي تشع منها . - أنظر رابح بونار : نفسه ،ص ١٠٥ -١٠٦ (حيث ورد نص تلك الموعظة .

(٣) أنظر ترجمته عند ابن خلكان : نفسه ، ج١ ، ص ٣١٥ - ٣١٨ .

(٤) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٥ .

اليقين ؟ ألا فجدوا، فإن الطريق واضح ، ثم اسمعوا منى، وإني لكم ناصح ، فكم يلق من هو غداً مكرم محبور إلى من هو موبخ بما جنى محقور ، ثم يؤمر به إلى لظى مجرور ، ويحكم إن الدنيا دار فناء ، والآخرة دار بقاء ، ولنعم دار المتقين ثم قال : ألا لهج خدوم ؟ ألا ثكل ندوم ؟ ألا حبيب كئيب ؟ ألا صفى لبيب، ألا تائب يتوب ؟ ألا خادم يذوب ؟ ألا راغب في الجزيل ؟ ألا عارف بالجليل ؟ أين من استراحت بواطنه بحب الله تعالى ؟ أين من ظهرت على جوارحه شواهد الهيبة ؟ أين من اقترب الرب تعالى من سرائره ؟(١) أين من دانت لمعاملة الله عز وجل ظواهره ؟ أين من خبر الطريق ؟ أين من نظر بالتحقيق ؟ أين من أدناه فلم يبرح ؟ أين من شوق فلم يفرح ؟ أين من شجى فباح ؟ أين من بكى فناح ؟ أين من قبل ففرح ؟ أين من وصل فغنم ؟ أين من لزم فاجتبى ؟ أين من بكى بعويل ؟ أين من صرخ بغليل ؟ أين من رضى فطاب ؟ أين من نخل فذاب ؟ أين من شفه الوداد ؟ أين من جد باجتهاد ؟ أين من همه الحبيب ؟ أين من دهره غريب ؟ أين من طالع الكشوف ؟ أين من صال بالمعروف ؟ أين عماله الكرام ؟ أين خدامه القيام ؟ أين من ذكره غذاه ؟ أين من قلبه يراه ؟ يا أخي هل كانوا إلاَّ بركات على المسلمين ما أبصرهم بعلوم أهل اليقين ؟ ما أغوصهم في بحار المستنطقين؟ ما قولك في رجال أتتهم فوائد العطايا والمواهب ؟ ، جعلنا

(١) لابد أن نؤكد هنا أن هذه الجملة بشكلها هذا ، غير مقبولة من الناحية العقدية فالله عز وجل قريب من البشر في سرهم وعلانيتهم ، ويخيل إلينا أن ثمة تحريفاً قد وقع من الناسخ ، وحق العبارة أن تكون : أين من أقترب إلى الرب تعالى بسرائره .

الله منهم وفيهم وحشرنا في زمرتهم) (١) .

هذا النص يمثل لنا قطعة أدبية رائقة ، حيث التأنق اللفظي ، والتفتن في العبارات والأخيلة ، والقدرة البالغة في استخدام المحسنات البديعية وبالجملة، فالقطعة تشيع فيها روح أدبية لم يخل منها سطر ، ولم تخل منه كلمة ، ومن هنا فقد حرصنا على أن نأتي بها بتمامها .

ومن المواعظ القليلة التي حفظت عن بعض الأدباء واللغويين ، تلك التي أشير إلى أن العالم اللغوي عبدالملك بن قطن الفهرى (ت : ٢٥٣هـ) - والذي سنترجم له بعد - ، وعظ بها الفقيه عبدالله بن غانم في مرضه الذي مات فيه ، إذ روى أنه دخل عليه فقال له : (رفع الله ضجعتك من هذه العلة إلى إفاقة وراحة ، وأعاد عليك ماعودك من الصحة والسلامة ، فطالما صححت وعوقبت أصلحك الله ، فاصبر لحكم ربك ، فإن الله عز وجل يجب أن يصبر على بلواه ، كما يجب أن يشكر على نعماه (٢) .

وما من ريب في أن هذه الموعظة على قصرها لا تخلوا من رونق أدبي جميل ، ويعتقد رابح بونار (٣) أن هذه الموعظة يشتم منها روح جاحظية .

وأخيراً ، فإن عصر الأغالبة ، لم يخل من لون من ألوان النشر الفنى كان شائعا في الدولة الإسلامية ، وهو الحكمة . والحكمة كما هو معروف عبارة عن قول موافق للحق وسالم من الحشو ، وهو خلاصة الحنكة وثمرة

---

(١) المالكي : نفسه ،ج١، ص٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) رابح بونار : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٣) نفسه .

التجربة (١). وقد اشتهر بقولها آنذاك عدد من الفقهاء المعروفين كالفقيه أحمد بن سليمان (٢) ، المعروف بالصواف (ت : ٢٩١هـ) الذي ترجمنا له من قبل ، والفقيه عبدالجبار (٣) بن خالد بن عمران السرتي (ت : ٢٨١هـ)، وقد سبقت ترجمته ، والفقيه عيسى بن مسكين (ت : ٢٩٦هـ)، الذي ترجمنا له من قبل كذلك ومن أقوال الحكمة الجيدة التي كان عبدالجبار بن خالد كثيراً ما ينطق بها نجتزئ شيئاً يسيراً منها فنورده هنا مثل : من قل كلامه، قلّت آثامه ، وكذلك : من كان في الله همُّه ، قلّ في الدنيا والآخرة غمّه ، وأيضاً : لولا الفضول لصَفَت العُقول ، ولكان المجهول عندك معقول ، ومن الحكمة التي تشد الانتباه لروعتها : من وبّخك فقد نفعك ، ومن نفعك فقد رفعك (٤) .. الخ .

ومن أقوال الفقيه عيسى بن مسكين التي تدخل في باب الحكمة ، قوله : أشرف الغنى ترك المنى ، وقوله : من قاسى الأمور على المستور ، ومن تلك الحكم أيضاً : من أطلق طرفه كثر أسفه ، ومنها : في تقلّب الأحوال ، علم جواهر الرجال (٥) ... الخ

(١) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ١٨ .

(٢) أنظر عياض : نفسه ،ج٢، ص ٢٤٥ .

(٣) أنظر عياض : نفسه ، ص ٢٦٢ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٢٦٣ .

(٥) عياض : نفسه ،ص ٢٢٥ .

٢- النثر التأليفي :-

يتملك العجب أنفسنا ، ونحن نتطلع إلى الحركة الأدبية في عصر الأغالبة ، فلا نجد ثمة مؤلفات أدبية تملأ الساحة ، وتتناسب مع النهضة العلمية الشاملة التي شهدتها البلاد في هذا العصر ، ومبعث العجب يكمن بالإضافة لما ذكر في أننا لا نتصور انعدام وجود تلك المؤلفات في مجتمع أخذ بكل أسباب النهضة الأدبية ، وفي ظل مناخ مشجع للعطاء برعاية أمراء محبين للأدب ورجاله .

بيد أننا على أية حال ، لم نعدم مطلقاً الإشارة إلى وجود مؤلفات أدبية آنذاك . فلقد ذكر بأن الأديب الكاتب أبو اليسر الشيباني ، الذي أشرنا إليه آنفا ، خاض مجال التأليف الأدبي ، وترك لنا عدة مؤلفات منها : لقط المرجان في الأدب ، ويقول حسن حسني عبدالوهاب (١) أنه جاء على نسق عيون الأخبار لابن قتيبة ، وإن كان أكبر حجماً منه . ومن بين تلك الكتب التي عرفت له ، قطب الأدب ، المرصعة والمدبجة ، وهي كتب من نوع الرسائل النثرية في الأدب (٢) . كما أننا تعرفنا على مصنفين أدبيين كما يعتقد (٣) ، وهما : راحة القلب) . وكتاب (الزهر للأمير الأغلبي محمد بن

---

(١) الورقات ، القسم الأول ،ص ٢٤٦ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم والصفحة .

(٣) نقول كما يعتقد ، لأن ابن الابار في كتابه : الحلة البراء ، ج١ ص ١٨٠ ، قال وهو يترجم للأمير الأغلبي الشاعر محمد بن زيادة الله بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الأغلب ، بأنه كان (أديباً ظريفاً ، ألف كتاب : (راحة القلب) وكتاب (الزهر) ، بالإضافة إلى كتاب في تاريخ أسرته بني الأغلب .

زيادة الله بن محمد بن الأغلب (ت : ٢٨٦هـ) . يبقى أن نشير في ختام حديثنا عن النثر في عصر الأغالبة ، أننا لم نوفق لسوء الحظ في العثور على مايدل على وجود نشاطات نثرية مختلفة ، سواء في بقية المدن الإفريقية، أوفي بقية الأقاليم الإفريقية الأخرى ، وإذا جاز لنا أن نعلق ، فإننا نقول بأن ذلك يعد أمراً طبيعياً في ظل ضعف النشاط النثرى كله على مستوى العصر نفسه .

النثر في عصر الفاطميين :-

مثلما كان النثر في عصر الأغلبة أقل أوجه الحركة الأدبية ظهوراً وبروزاً ، كان كذلك في عصر الفاطميين وخاصة فيما يتصل بالنثر التأليفي الأدبي ، أما النثر الفني ، فهو وإن كان أحسن حظاً في الإشارة من النثر التأليف الأدبي ، إلاّ أنه لم يزدهر منه سوى بعض ألوان دعت دواعٍ إلى وجودها بكثرة ، كالمواعظ والوصايا التي كان الخلفاء الفاطميون يعظون بها أتباعهم .

ا - النثر الفني :-

حفل عهد الخليفة الفاطمي الأول عبيدالله المهدي (٢٩٦ - ٣٢٢هـ) بكثرة المكاتبات الرسمية التي كانت تُتبادل بينه وبين ولي عهده أبي القاسم الذي كان مكلفاً ببعض الفتوحات في المغرب

ومصر (١) ، وتلك التي كانت تُتبادل بينه وبين قواده ورجال دولته (٢) . وبلغت تلك المكاتبات من الكثرة حداً لدرجة تعذر علينا معها استقصاؤها في المصادر التي أشارت إلى ذلك . بيد أن الإشارات العديدة والكبيرة لتلك المكاتبات لم يرفقها ايراد نصوصها إلاَّ فيما ندر . والواقع أننا كنا نُمنى النفس في العثور على تلك النصوص حتى يتسنى لنا الحكم على مقدار ما بلغه فن الكتابة من رقي وتطور من جهة ، ولنتعرف على من اضطلع بكتابة تلك الرسائل الرسمية من جهة أخرى . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فلم تَجُدْ علينا المصادر إلاَّ بنماذج يسيرة جداً من تلك المكاتبات ، وهي التي أشار إليها القاضي النعمان في كتابه افتتاح الدوعوة (٣) .

وعلى أية حال فإن النزر اليسير من تلك النصوص التي حفظت لنا ، يكفينا للدلالة على التطور الذي رافق الكتابة الرسمية من حيث الشكل والمضمون . فلقد اصطبغت المكاتبات الرسمية آنذاك بميزات كثيرة ، منها متانة الأسلوب ورصانه العبارة ، والحرص على استخدام المحسنات البديعية المختلفة عن سجع وطباق ومقابلة . وكذلك التفنن في استخدام الجمل الاعتراضية ، والاستشهاد كثيراً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والتأكيد على استخدام عبارات التمجيد والتفخيم للخليفة . أما من حيث المضمون ، فلقد أتسعت المعاني واتسعت أغراضها من دون ريب ، فقد

(١) أنظر ابن عذارى : نفسه ، ص ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨١، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) أنظـــر ابن عـذارى : نفسـه ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ١٦٢، ١٦٥، ١٧٠، ١٧١ – ١٧٢، ١٧٥، ١٧٨ وغير ذلك .

(٣) نفسه ، ص ٢٨١ – ٢٨٩، ٢٩٠-٢٩٩ .

أصبحت هناك معانٍ لا يخلو منها كتاب رسمى على ما نستنتجه من ملاحظتنا للقليل من النماذج المحفوظة ، كالتأكيد على الحقائق الشيعية التي هي من قبيل المسلمات عندهم . وهي التذكير أبداً بالحق المغتصب من الخلافة الذي استعاده الفاطميون ، وأن الولاية واجبة الطاعة على الناس ، مع التركيز على ترديد عبارات أو ألفاظ شيعية اسماعيلية محضة ، من أمثال حجة الله في أرضه ، وابن رسول الله ، أوولد رسول الله ، وولى الله ، والإمام أمير المؤمنين ، وهي ألفاظ خاصة بالخلفاء الفاطميين ، وكذلك أولياء الله وهم أتباعهم (١) ... الخ .

وكيفما كان الأمر ، فإننا إذا تركنا ذلك وبحثنا عن أهم الكُتَّاب في عهد الخليفة الفاطمي الأول لوجدنا من حسن الحظ ذكراً لعدد منهم كأبي عبدالله الشيعي الذي قتل عام ٢٩٨هـ ، وكأبي اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني الذي كان متولياً شؤون ديوان الرسائل في عصور أمراء الأغالبة الثلاثة الأخرين حسبما ذكرنا من قبل . وقد استكتبه الخليفة عبيدالله المهدي أيضا ، وظل يزاول مهمام منصبه حتى توفى عام ٢٩٨هـ (٢) . ثم استكتب

---

(١) راجع تلك النصوص عند القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٨٠– ٢٨٩ ، وهو الكتاب الذي بعثه الداعي أبو عبدالله الشيعي إلى عامل القيروان غداة نجاحه في اطلاق سراح عبيدالله المهدي من سجن بني المدرار في سجلماسة ، وكذلك الكتاب الثاني ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ ، وهو الكتاب الذي كتبه أبو عبدالله الشيعي بأمر من الخليفة عبيدالله ، الذي كان متهياً لدخول القيروان، ثم الكتاب الذي كتبه الخليفة ، ص ٢٩٤ – ٢٩٩ أمر أن تنسخ منه نسخاً وترسل للمدن، وهو أن لم يشر إلى كاتبه ، إلا أنه جاء يعكس كل خصائص الكتابة الفنية والمذهبية التي «أشرنا إليها في المتن .

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ص ١٦٣ .

الخليفة كاتباً آخر هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن أحمد بن هارون البغدادي الذي مالبث أن رقى إلى وظيفة صاحب ديوان البريد ، بالإضافة إلى الكتابة ، وذلك عام ٣٠٠هـ (١) . هذا ولم تزودنا المصادر بمعلومات عنه أكثر مما سبق ذكره . ومن الكتاب الذين ذكر أنهم كانوا ضمن كتاب الخليفة عبيدالله المهدي وقتذاك كاتب يدعى أبا غانم الكاتب (٢) . وهذا أيضا هو جل ما نعرفه عنه . ومن العجيب أن ابن حماد صاحب كتاب : ملوك بني عبيد وسيرتهم الذي أشرنا إليه مرات عديدة سابقاً ، لم يعن بذكر كتاب الخليفة ، وهو يأخذ نفسه بمنهج محدد في نهاية ترجمته للخلفاء الفاطميين يذكر فيها قضاة وحجاب وأصحاب بيوت المال في عهد كل منهم (٣) .

وفي عهد الخليفة القائم بأمرالله (٣٢٢- ٣٣٤هـ) لم يقدر لنا التعرف على أي نشاط نثري فيما يتصل بالمكاتبات الرسمية ، ويبدو أن ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني قد أخذت عليه كل سنوات عهده ، فانكفأ معزولاً ومحاصراً في عاصمته المهدية . ومع أن عهد ابنه الخليفة اسماعيل المنصور (٣٣٤-٣٤١هـ) قد شهد تداول كتابات رسمية بين الخليفة وقواده ورجال دولته (٤) ، إلاّ أننا لم نستطع العثور على نماذج المكاتبات ، ولا على معرفة كتابها .

---

(١) ابن عذاري : نفسه ، ص ١٦٩ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ،ص ١٨١ .

(٣) أنظر : ص ٥٣ ، من الكتاب .

(٤) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٦٤- ٦٥ ، ٦٧، ٧١، ٧٥، ٧٦ .

وفيما يتصل بالكتاب الرسميين في عهد الخليفة القائم بأمر الله ، فإن غاية ماعرفناه أنه أقر أبا جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي على منصبيه اللذين كان يتولاهما من قبل كما عرفنا آنفا(١) . أما في عهد الخليفة المنصور ، فقد انعدمت الإشارة إلى أي كاتب من كتاب الدولة الرسميين ، وقد أغفل ابن حماد (٢) الإشارة إلى ذلك في ترجمته للخليفة المنصور ، وكذلك في ترجمة أبيه الخليفة القائم من قبل .

أما عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله (٣٤١- ٣٦٢هـ) أي عهده المغربي الذي يعنينا هنا - ،فقد كان حافلاً بالنشاط النثرى الإداري إذ أن سلطان الدولة الفاطمية الذي شمل بلاد المغرب كلها على وجه التقريب، تطلّب تبادل الرسائل الديوانية بين الخليفة وقواده ورجال دولته من جهة وبين الخليفة والملوك والأمراء المجاورين لدولته براً وبحراً من جهة ثانية، وبين الخليفة وبعض الثائرين عليه من جهة أخيرة . ولعل من حسن الحظ أن كثيراً من تلك المكاتبات ، قد حفظت نصوصها (٣) ، وليس يساورنا شك في

---

(١) ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٢) ملوك بني عبيد وسيرتهم ، ص ٨٧ - ٥٨ ، ٨١- ٨٢ .

(٣) أنظر بعضاً من نصوص تلك الكتب عند : القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، تحقيق الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي > ص ١٦٨- ١٧٣- ١٧٤ (حيث رد الخليفة المعز على رسالة الخليفة الأموى عبدالرحمن بن الناصر) ، ص ٣٦٧-٣٦٩ (حيث نفس الرسالة التي بعثها الخليفة المعز إلى امبراطور الدولة البيزنطية) و ص ٣٤٥ (حيث نص رسالة المعز لدين الله إلى الإخشيدي صاحب مصر) - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٣٠١- ٣٠٢ (حيث نص رسالة المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم القرمطي) - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٠٨-٢٠٩ (حيث نص رسالة الامير عبدالله بن المعز لجوذر الصقلي) (نقلا عن أبي علي منصور العزيزي الجوذري صاحب كتاب :سيرة الاستاذ =

أن النثر الإداري جاء متوافقاً مع روح العصر الذي كانت تحياه الدولة الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء ، فالنصوص التي حفظت لنا تمثل قطعاً أدبية لا تقل عن مثيلاتها في المشرق من إغراق في التأنق اللفظي ، ومن إغراق في الصنعة والتكلف ، إلى الاستخدام المبالغ فيه للمحسنات البديعية . هذا مع التوسع في استخدام الخصائص التي تميّزت بها الكتابة الفاطمية مثل استخدام الألفاظ الشيعية الاسماعيلية المعتادة ، على غرار: ولي الله ، والإمام ، وصلوات الله عليه ... الخ ، وكذلك الإغراق في اسباغ صفات الإجلال والتعظيم للخليفة مع ترديد المسلمات الشيعية المعروفة ، وهي الحق المغصوب في الإمامة ، وحق الولاية الواجبة على الناس، وعلم الولي الذي هو فوق علوم البشر ... الخ .

ولعل أصدق رسالة (١) ديوانية تعكس التطور الكبير الذي أصاب المكاتبات الرسمية من حيث الشكل والمضمون ، تلك التي بعثها الخليفة المعز لدين الله إلى الثائر عليه الحسن بن أحمد الأعصم الثائر القرمطي (٢) ، وقد بعثها له الخليفة المعز عشية قدومه من إفريقية إلى مصر . فتلك الرسالة بلغت فيما يبدو لنا الذروة في الروعة الأدبية ، إذا استخدم فيها المعز كل ما

= جوذر) – عبدالمجيد عطية وعبدالرازق الحليوي : تميم بن المعز ،.ط١ ،ص ٩٩-١٠٤ ، (حيث بعض نماذج لنصوص رسائل متبادلة بين المعز ومولاه جوذر الصقلي (نقلا عن سيرة الاستاذ جوذر) إلى غير ذلك من النصوص .

(١) أنظر نص الرسالة بتمامها عند حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٣٠١-٣٠٧.

(٢) عن ثورة الحسن الأعصم وصراعه مع الفاطميين والخليفة المعز ، أنظر حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ١٠٦ – ١٢٦ .

أوتى من بلاغة وفصاحة ، وتفنن في استخدام المحسنات البديعية المختلفة ، ومما زاد في قيمتها الفنية استخدام أسلوب الترغيب والترهيب من قبل الخليفة ، وكذلك أسلوبي الاستفهام والتعجب اللذين لم يخل منهما فقرة من الفقرات ، ثم القدرة الفائقة على استخدام المترادفات ، وكذلك القدرة المتمكنة في الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية في كل سطر من سطور الرسالة تقريباً .

أما من حيث المضمون ، فقد كانت الرسالة كما يقول حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (١) الغاية في فن الدبلوماسية السياسية ، والديبلوماسية المذهبية . فأما الشق السياسي ، فقد حاول الخليفة أن يتعرض بالتفصيل لجميع قضايا الخلاف السياسي مع ذلك الثائر . وأما الشق المذهبي ، فقد شغلت المضامين المذهبية كل أجزاء الرسالة . إذ تناول الخليفة فيها كل مسلمات المذهب الشيعي الإسماعيلي التي كنا قد أشرنا إليها من قبل ، مثل الحق الآلهي الأزلي لهم في الخلافة والإمامة ، إلى التذكير بالنقمة التي تحل بمغتصبي حقهم في الخلافة من العباسيين أو غيرهم ، إلى نظرية تقديس الأئمة، إلى الطاعة التامة الواجبة للأئمة ... الخ. مع التركيز على ايراد المصطلحات الشيعية الإسماعيلية المحضة التي أشرنا إليها من قبل .

ومن المثير للدهشة أن لايتهيأ لنا التعرف على الكتّاب الذين كان يضمهم بلاط الخليفة المعز لدين الله آنذاك . فعدا جوذر

(١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ١٢٢ .

الصقلي (١) المشهور بالأستاذ (ت : ٣٦٢هـ) ، الذي كان أحد كتاب الخليفة المعروفين ، لم نوفق في العثور على ذكر لكتاب آخرين غيره ، نعم لقد ذكر بأن القائد الفاطمي المشهور جوهراً الصقلي (٢) (ت : ٣٨٦هـ) كان يعرف بجوهر الكاتب ، لكننا فيما عدا رسالته التي بعثها للمصريين عند افتتاحه لمصر (٣) ، لم نتبين أي نشاط نثرى سابق له في إفريقية .

وأيا ماكان الأمر فيما يتصل بالمكاتبات الرسمية في عصر الفاطميين إلاّ أنها كانت بدون ريب أفضل حظاً من غيرها من ألوان التعبير الأدبي فالرسائل الإخوانية وهي لون من أعذب ألوان النثر الفني ، لم تكن متداولة آنذاك ، مع أن العصر لم يخل من الكتاب والأدباء واللغويين المرموقين ، ومن غير المستبعد أن يكون الإهمال قد لف هذا الجانب الممتع من النثر مثلما لف غيره .

على أن هذا العصر ازدهى بلون آخر من ألوان التعبير الأدبي ، ذلك هو المواعظ والوصايا التي كانت شائعة في العصر الفاطمي . وفي الحق فأن ثمة دواع فرضت ذيوع هذا اللون من ألوان التعبير الأدبي ، فالفاطميون بوصفهم دعاة لمذهب يختلف كثيراً عن مذهب الأغلبية الكبرى من السكان ، كان لابد لهم من دعاة يتصدون لتقريب الناس وتأليفهم إياه . ثم أن الغموض والابهام الذي يتميز بهما المذهب الشيعي الإسماعيلي ، كانا

---

(١) أنظر ترجمة مفيدة له عند الزركلي : نفسه ،ج٢ ، ص ١٤٤ .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٩٨، ٢٠١ .

يتطلبان أناساً أكفاء يخضعون لتدريب مكثَّف لفهم طبيعة المذهب ، ولنشر ما تقضي الظروف نشره وقت الحاجة (١) .

ومن هنا ، فإن فن الدعاية التي تشكِّل عنصراً رئيسياً في المعتقد الشيعي الإسماعيلي حسبما عرفنا من قبل (٢) . استوجب أن يخضع الداعي لمنهجين رئيسيين : أولهما أخلاقي ، ويهدف إلى بث صفات الخير كلها في شخصية الداعي ، وثانيهما تعليمي مذهبي ، ويهدف إلى غرس مكونات الثقافة المذهبية في شخصية الداعي أيضاً . ولذلك فقد كثرت الوصايا والمواعظ من قبل الأئمة التي تتطرق إلى الجانبين معاً في تكوين شخصية الداعي .

ولقد جاءت تلك الوصايا والمواعظ التي كان الأئمة يبثونها دعاتهم متينة السبك ، جزلة الألفاظ . واضحة العبارة ، تميل إلى القصور والإيجاز، حتى تكون أكثر وقعاً في النفس (٣) .

ومن ألوان النثر الفني الذي عرفه عصر الفاطميين ، وإن لم يكن بصورة واسعة ، الخطب السياسية المذهبية التي كان الخلفاء الفاطميون يخطبونها في صفوف الناس سواء في المناسبات الدينية كالجمع والأعياد ،

---

(١) أنظر القواعد التي وضعها الفاطميون في الدعاة ومواصفاتهم عند حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٢- ٢٤٠ - ٢٦٢- ٢٦٦ .

(٢) أنظر قبل ، ص ٥٤٢ .

(٣) أنظر بعض تلك المواعظ والوصايا عند القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، ص ٨٣، ٩١، ٩٢، ١٠٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٢٢، ٢٥٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ وغير ذلك .

أو في المناسبات الأخرى (١). وما من ريب في أن عصر الفاطميين لم يخل من الدواعي التي تتطلب الخطابة ، لاسيما ، وهم يعيشون في مجتمع يناصبهم العداد آناء الليل وأطراف النهار . ومن هنا فقد اهتموا بالاهتمام بوسيلة توضح نياتهم وأهدافهم دون لبس أو ابهام ، ولذلك فقد أولوا الخطابة جزءاً كبيراً من عنايتهم ، وتمثلت تلك العناية في أنهم كانوا يتولون بأنفسهم الخطابة حتى يكون تأثيرها أوقع في نفوس أتباعهم وخصومهم على السواء ، ولم يعهدوا لأحد أن يتولى أمر الخطابة إلاَّ نادرا .

ولعل الخطبة التي توضح أصدق توضيح الاتجاه المذهبي للفاطميين من جهة، وتعكس جل خصائص أسلوب فن الخطابة من جهة أخرى هي الخطبة التي خطبها الخليفة المنصور في الناس في عيد الفطر عام٣٣٤هـ، وهو العام الذي انتشرى فيه خطر ثورة أبي يزيد،ومماَّ جاء في تلك الخطبة قول المنصور :(اللهم انك أخرجتني من المهاد والوساد، وجنبتي الرقاد ، وحالفتني السهاد وسلكت بي مغاور البلاد ، اللهم احكم لي على مخلد بن كيداد { فرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد} (٢)

(١) لم تقتصر الخطب على الخلفاء الفاطميين أو من ينيبونه عنهم ، ولكن كان لأهل السنة مشاركة في ذلك ، ولقد مر بنا سابقاً ونحن نتحدث عن أثر الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة على الحياة العلمية ، الخطبة التي خطبها الخطيب المالكي – وهو أحمد بن محمد بن أبي الوليد – في جموع السنة إبان الاستعداد لمقاتلة الشيعة والتأهب للانضواء تحت قيادة الثائر البربري أبي يزيد مخلد ابن كيداد . عن ظروف هذه الخطبة ونصها الكامل ، أنظر المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٣٤٢– ٣٤٤ مع الحواشي . وهناك خطبة دينية غير مذهبية تنتمي إلى هذا العصر ، وقد نسبت إلى الفقيه المشهور ، ربيع القطان ، وهي خطبة بليغة عكست كل خصائص الخطابة أنظر نص هذه الخطبة عند المالكي : نفسه ، ص ٣٣٤ .

(٢) سورة الفجر آية رقم (١٠–١٢) بدون ذكر حرف الواو من كلمة : فرعون .

اللهم أنزلهم بالمرصاد ، اللهم إنك تعلم أني سلالة نبيك ، وابن رسولك ، وبضعة من لحمه ، ونقطة من دمه ، ماقلت فخراً ولا لدداً، اللهم إنك تعلم من أين أقبلت ، إلى أين انتهيت ، وما فيك لاقيت ، اللهم إني بذلت مهجتي ونفسي في سبيلك مجاهداً لعدوك ، طالباً الثأر لنبيك ، وابتغاء مرضاتك ، حتى تعيد في الأرض حق عبادتك ، ويحكم فيها بحكمك ، إنك أهل المن والطول) (١) .

فهذه الخطبة علاوة على القضايا السياسية المذهبية التي تثيرها فإنها تميزت بمتانة الأسلوب وعذوبة الألفاظ ، وقوة التأثير ، والاقتباس من القرآن الكريم ، وهي المميزات التي تميزت بها الخطب في الدولة الإسلامية (٢) .

ومن ألوان النثر الفني التي انفرد بها عصر الفاطميين دون غيره: التوقيعات التي شغف بها الخلفاء الفاطميون منذ عهد الخليفة عبيدالله المهدي ، حتى عهد المعز لدين الله ، والتوقيعات كما هو معروف لون جذاب من ألوان التعبير الأدبي ، ويتلخص فيما يعلّق به الخليفة أو الملك أو الأمير أو الوزير على مايرفع إليه من الكتب ، وتمتاز التوقيعات بأنها تجمع بين القصر والإجمال ، وقد تكون بمثابة بيت من الشعر ، أو آية، أومثل .(٣)

والخلفاء الفاطميون كانوا ذوى ثقافة واسعة ، ومن هنا اهتموا بالتوقيعات التي تترك أثراً جميلاً في نفوس الأتباع ، ومماً اشتهر من

---

(١) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٥٩- ٦٠ .

(٢) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ١٧٦ .

(٣) أحمد حسن الزيات : نفس المرجع أعلاه ، ص٢١٩- ٢٢٠ .

توقيعات في عهد الخليفة الفاطمي الأول عبيدالله المهدي توقيعه بعزل القاضي أبي اسحاق بن أبي المنهال في سنة ٣١١هـ ، فقد وقع على خطاب عزلة مخاطباً القاضي (لم نعزلك عن حرجة ، وانما عزلناك للينك ومهانتك !) (١) . ثم مالبث أن أعاده بعد عام واحد للقضاء ، فوقع في خطاب تعيينه مخاطبا له : (وانما كنا عزلناك للينك ومهانتك ! ورددناك لدينك وأمانتك !) (٢) .

وشغف المعز لدين الله بالتوقيعات أيضا ، لكنها لم تكن موجزة مثل توقيعات المهدي ، بل غلب عليها الطول والاستقصاء مع احتفاظها بخصائص فن التوقيعات (٣) . والملاحظة الأخرى لتوقيعات المعز أنها كانت موجهة غالبة لشخص واحد ، وهو قاضيه وداعيته الأبرز والأشهر القاضي النعمان ، الذي كان يرفع إلى خليفته كل أمر يهمه من شؤون القضاء ، وشؤون تنظيم الدعوة ، وكل مايخدم الثقافة المذهبية الإسماعيلية ، وأحياناً أموره الشخصية . ولم تكن كل توقيعات المعز طويله وإنما كان بعضها قصيراً موجزاً ، مشرق العبارة ، ومن تلك التوقيعات التي وقعها الخليفة المعز والتي لانستطيع كتم إعجابنا بها ، التوقيع الذي وقَّع به الخليفة للقاضي النعمان عندما رأى جزع القاضي على وفاة الخليفة المنصور والد المعز ، فوقع له : (يا نعمان ، ليحسن عزاؤك ويجمل صبرك ، فمولاك

---

(١) ابن عذارى : نفسه ، ص ١٨٨ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ، ص ١٨٩ .

(٣) أنظر مثلا القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، ص ١٢٢ ، ١٢٣، ٢٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠ ، ٣٣٤ ، ٣٩٥ .

مـضـى، ومـولاك بقى ، وأنت واجـد عندنا مـاكنت واجـداً عنده ، ونحن كنا سـبـبك عنده ، ولن ينقطع ذلك السـبب لدينا لك إن شـاء الله تعـالى ، فطب نفساً ، وقر عينا، وليحسن بنا ظنك ، وتسكن إلي ماتحبه لدينا نفسك) (١).

بقى أن نشير أخيراً إلى أن عصر الفاطميين لم يخل من أناس نطقوا بالحكمة ، والقـول المأثور . وقد اشـتـهـر بذلك عـدد من الفـقـهـاء تماماً مـثل ماعرفه العصر الأغلبي من قبل . فممَّن أشير إلى أنه اشتهر بقول الحكمة الفقيه سعيد بن الحداد (ت٣٠٢هـ) ، وهو ممن عرضنا له أثناء حديثنا عن انتـشار المذهب المالكي في إفريقـيَّة ، وتردد اسمه كثيراً عند الحديث عن الدراسات الشرعية . ومنهم الفقيه ربيع القطان (٢) (ت : ٣٣٣هـ) ، وهو كذلك أحد الذين تردد اسمهم كثيراً عند حديثنا عن انتشار المذهب المالكي . وعند التعرض للدراسات الشرعية ، ثم الفقيه أبو ميسرة أحمد بن نزار (٣) المتوفى عام ٣٣٧هـ ، وغير ذلك .

ولقد كان سعيد بن الحداد أكثرهم طرقاً لهذا اللون الممتع من النثر الفني . فمن حكمه مـانصـه : من تحـبب إلى العبـاد بمعـاصي الله تعـالى بغَّضه الله إلى من تحبب إليه بمعصيته ، وكذلك : ما استنقذت النفوس بمثل ترك مساعدتها ، وأيضا : إنما هو دين مروءة ، فمن عرى فهمهما، فقد عرى من كل خير. و أعظم من ذنب المذنب تركه الاعتراف بذنبه (٤) ، إلي غير

---

(١) القاضي النعمان : نفس المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٢) أنظر عياض : نفسه ، ص٣٥٩- ٣٦٠(حيث بعض تلك الأقوال المأثورة) .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ج٢ ص٣٣٢(حيث الاشارة إلى اشتهاره بقول الحكمة) .

(٤) المالكـي : نفسه ، ص١٠٥-١٠٩ (حيث الإشـارة إلى هذه النصوص وغيرها) .

ذلك من الأقوال العديدة التي تدل على البراعة الأدبية المميزة .

٢- النثر التأليفي :-

أيا ماكانت الأسباب في تفسير قلة الانتاج الأدبي فيما يتعلق بالتأليف الأدبية بالمعني المفهوم والدقيق لها ، فإن الحقيقة المؤسفة أننا لم نعثر على أي ذكر لنشاط تأليفى أدبي في هذا العصر ، أي عصر الفاطميين ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى المناخ المذهبي الذي ساد إفريقيَّة في عهود الخلفاء الفاطميين ، الذين كان اهتمامهم مركزاً على نشر المذهب الشيعي الإسماعيلي بين المغاربة الرافضين له . وكما سبق أن أوضحنا في مجال الدراسات الشرعية أن المغاربة - بدورهم - قد قاوموا هذا المذهب أشد المقاومة . وليس ثمة شك في أن هذا المناخ الذي اصطبغ بالصراع العنيف بين الخلفاء الفاطميين وبين الكثرة الغالبة من المغاربة . وليس ثمة شك في أن هذا المناخ الذي اصطبغ بالصراع العنيف بين الخلفاء الفاطميين وبين الكثرة الغالبة من المغاربة المالكية قد ترك بصماته على الانتاج الأدبي في ذلك العصر ، وعلى أية حال فإن المؤلفات ذات الصفة المذهبية التي وصلت إلينا من ذلك العصر لم تخل من قيمة أدبية طيبة . فبين أيدينا ثلاثة كتب من نتاج ذلك العصر ، أولها كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان بن حيون ، وثانيها كتاب الهمّة وفضل الأئمة للقاضي النعمان كذلك ، والمؤلف الثالث كتاب : تلقيح العقول للأديب برية بن أبي اليسر الشيباني (ت٣٤١هـ)

أما كتاب المجالس والمسايرات ، فهو كتاب قيم متعدد الجوانب والاهتمامات ، وإذا تجاوزنا الإشارة إلى قيمته وأهميته التاريخية والوثائقية

والمذهبية ، فإن قيمته الأدبية لا تقدر .

فكتاب المجالس والمسايرات ، كتاب أدبي ممتع ، طريف في موضعه ، إذ يعد من كتب أدب السيرة ، فقد ألَّف القاضي النعمان مادته من ملازمته شبه الدائمة للخليفة المعز لدين الله ، ومن آرائه المتعددة في شتى جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والمذهبية التي كانت تعيشها الدولة في عهد المعز ، بالإضافة إلى بعض أحداث جرت في عهود الخلفاء والسابقين ، كما أن الكتاب كان يرصد مواقف المعز من القضايا الداخلية والخارجية التي تشهدها الدولة وقتذاك .

أما من حيث القيمة الأدبية للكتاب ، فهو قطعة أدبية رائعة كما وصفه بحق حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (١) في تقريظهما للكتاب ، ذلك لأن الكتاب يمتاز بأسلوب سهل رقيق ويمتاز بالانسجام الكبير بين ألفاظه ومعانيه . والكتاب يعد انعكاساً صادقاً للأدب الشيعي الإسماعيلي في عصوره الأولى .

أما المؤلف الأدبي الثاني ،فهو : كتاب الهمّة وفضل الأئمة للقاضي النعمان (٢) نفسه ، والكتاب كما يومئ عنوانه . ألفٍ بقصد تبيان فضل الأئمة وحاجة الناس لهم ، ويسعى بالإضافة إلى هذا ، لبث روح التفاني والإخلاص في نفوس الأتباع ، أي الدعاة ، لإعدادهم بما يبثهم فيه من المثل

---

(١) المعز لدين الله ، ص ٢٦٤ .

(٢) أنظر ما ذكرناه قبل ، ص ٣٥٣ ، عن مؤلفات القاضي النعمان .

والأخلاق النبيلة إلى ممارسة دورهم الخطير في نشر الدعوة ، علاوة على تعدّد مناصبه التاريخية المذهبية الأخرى (١) .

ولاشك أنه لايقل من حيث قيمته الأدبية عن المجالس والمسايرات ، ويرى حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف (٢) أن الكتاب يمثل الأدب الإسماعيلي في عصوره المبكرة أحسن تمثيل .

والمؤلف الأدبي الثالث والأخير والذي ينتمي إلى عصر الفاطميين ، هو كتاب : تلقيح العقول للأديب : برية بن أبي اليسر الشيباني ، كما ذكرنا آنفا . والكتاب عبارة عن مجموعة من الأمثال ، ويقع في ١٥٧ باباً من الأبواب الصغيرة (٣) ، ويبدو أنه قد ألفّه في بداية عهد الخليفة المعز (٣٤٣-٣٦٥هـ) لأنه توفى في نفس العام الذي تولى فيه المعز الخلافة ، أي عام ٣٤١هـ .

يبقى أن نشير قبل أن نتأهب لترك الحديث عن النثر في عصر الفاطميين ، إلى أننا لم نعثر على أي نتاج نثرى كانت تتجاوب أصداؤه في بقية المدن الإفريقية . أما النثر الإباضي سواء في جبل نفوسه (٤) ، أوفي إقليم الجريد (٥) ، فلم يكن واضحاً آنذاك . وكل النماذج التي أشير إلى أنها قد تنتمي إلى عصر الفاطميين لاتروى ظمأ ، ولاتشفى غلة .

---

(١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٤ – ٢٦٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦٤ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٢، ص ٢٧٧.

(٤) أنظر أحمد مختار عمر : المرجع السابق ،ص ٢٠٨ – ٢١٣ .

(٥) أنظر صالح بأجنية : نفسه ، ص ١٥٧ – ١٦٣ .

النثر في عصر الزيريين :-

لم يبلغ النشاط الأدبي في مجال النثر في عصر من العصور السابقة مابلغه من ازدهار ورقي في عصر الزيريين الذي نؤرخ لحركته الأدبية هنا ، ولقد أصاب ذلك الإزدهار والرقي الدعامات الثلاث التي يقوم عليها النشاط النثرى . وهي الشكل والمضمون والكم ، غير أن نشاط الدراسات النثرية بقسميها الرئيسيين : النثر الفنى ، والنثر التأليفي لم يكن متساوياً خلال هذا العصر في عطائه . فالنثر التأليفي كان أكثر بروزاً وظهوراً من النثر الفني . وفي هذا من الدلالة مافيه ، على أن البلاد دخلت وقتذاك المجال الأرحب من الدراسات الأدبية وهو مجال التأليف والمجاميع الأدبية ، وكفى به دليلاً ينهض على صدق مقولة تقدم الدراسات الأدبية في هذا العصر .

١ - النثر الفني :

أهم مايلاحظ على مسيرة النثر الفني في عصر الزيريين أن بعض ألوانه المتعة التي عرفتها إفريقية من قبل قد اختفت في هذا العصر مثل الوصايا والمواعظ والخطابة ، والتوقيعات وغيرها . ولعل السبب في ذلك يكمن في ضعف الدواعي الداعية لها في هذا العصر . واللونان اللذان تلمسنا شواهد لهما هما المكاتبات الديوانية أو الرسمية ، والرسائل الإخوانية فحسب ، ومن البدهي أن الحاجة إلى المكاتبات الرسمية لا يمكن أن تنتفي في ظل دولة كبيرة مثل الدولة الزيرية ، كما أن الرسائل الإخوانية لايمكن انقطاعها في هذا العصر الذهبي للأدب ، بل لعلها كانت الدليل

الواضح على مقدار الرقى الأدبي الذي بلغته الحياة الأدبية في العصر الزيري .

أما المكاتبات الرسمية ، فمع أن هذا العصر قد عرف كتاباً كباراً لهم قيمتهم الأدبية التي خلَّدتها كتب التاريخ والأدب حسبما سنعرف بعد قليل ، إلا أننا لم نوفق في العثور على نماذج أو نصوص لمكاتبات ديوانيه (١) تنتمي إلى هذا العصر ، حتى يتهيء لنا الحكم على مقدار مابلغته من رقى وتطور متوقع من حيث الشكل والمضمون هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لنتعرف على كتابها . وعلى كل حال فإننا قد عثرنا على ماهو أبلغ في الدلالة على مقدار ما بلغته المكاتبات الرسمية كماً ونوعاً وقتذاك . فهناك دليلان مهمان غاية الأهمية، الأول : أن هذا العصر ازدحم بعدد كبير من الكتاب المرموقين ذوى الثقافة الأدبية المتنوعة والواسعة ، والثاني : أن الكتابة الديوانية بلغت شأواً بعيداً من الإهتمام . فقد غدا ديوان الإنشاء في عصر الزيريين جهازاً حكومياً من أبرز الأجهزة (٢) . وفي هذا مايضع الدولة الزيرية في مصاف الدول الكبيرة التي أولت الكتابة كل عنايتها . ولهذا فلم يعد مدهشاً لنا أن نعرف

---

(١) على الإشارة الواسعة لهذه المكاتبات في معظم المصادر ، كتلك التي كانت تتبادل بين الأمراء الصنهاجيين والخلفاء الفاطميين من جهة ، وبينهم وبين عمالهم وقوادهم من جهة أخرى . أنظر مثلا ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٤٤، ٢٤٦ ، ٢٤٩، ٢٥٠ ، ٢١ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، إلى غير ذلك .

(٢) أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : بساط العقيق، ص٥٤- أحمد بن عامر ، المرجع السابق ، ص١٦١ .

بأن ديوان الإنشاء في عهد المعز بن باديس كان يضم وحده مائة كاتب من الكتاب المعروفين والبارزين (١) .

وكيفما كان الأمر ، فإذا تلفّتنا نبحث عن أهم وأبرز الكتاب خلال العصر الزيري لوجدنا كما قلنا عدداً وفيراً منهم . ففي عهد الأمير بلكين بن زيري (٣٦٢-٣٧٣هـ) تعرفنا على كاتب مشهور هو : عبدالله بن محمد الكاتب الذي كان يلي أمر القيروان بالإضافة إلى الكتابة آنذاك . وقد اشتهر بأنه كان شاعراً بارعاً له أشعار جزلة ، وقد استمر عبدالله الكاتب إلى أن قتل عام (٣٧٧هـ) يتولّى أمر منصبه في عهد الأمير المنصور بن بلكين بن زيري (٣٧٣- ٣٨٦هـ) إلى أن قتل عام ٣٧٧ هـ (٢)

وفي عام ٣٨٣هـ عهد الأمير المنصور بن بلكين إلى شخصية أخرى بتولى أمر المنصبين الخطيري اللذين كان عبدالله الكاتب يتولاهما من قبل . ذلك الشخص هو : محمد بن أبي العرب الكاتب (٣) ، وهو ربما يكون أحد أحفاد الفقيه المالكي المشهور بأبي العرب التميمي الذي عرفنا دوره العلمي المؤثّر من قبل ، وعلى أيه حال فإن معلوماتنا عن محمد بن أبي العرب الكاتب لاتزيد عمّاً ذكر ، فلا نعرف انتاجاً أوإسهاماً أدبياً له ، كما أننا لا نعرف على وجه اليقين أو التقريب سنة وفاته .

ومن الكتاب المرموقين في العصر الزيري أيضا : الأديب الشاعر

---

(١) حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٩-٢٤٠ ، ٢٤٢ .

(٣) ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٤٦ ومابعدها .

عبدالكريم بن ابراهيم النهشلي التميمي القيرواني (١) (ت : ٤٠٥ هـ) . وعبدالكريم النهشلي من رموز الأدب الإفريقي الذين أنبتتهم التربة الإفريقية، وسنفرد له لاحقاً حديثاً مسهباً عن مكانته الأدبية والنقدية . أما مايخصنا هنا فهو الحديث عن مكانته بوصفه كاتباً، فقد ذكر بأنه كان أحد كتاب الدولة الزيرية حتى عهد الأمير باديس بن المنصور (٣٨٦-٤٠٦هـ)(٢). ويرى المنجي الكعبي (٣) ، أنه كان من كتاب الدولة الفاطمية ، وبالذات الخليفة المعز لدين الله . لكننا في الواقع لانميل إلى تأييد هذا القول لافتقارنا إلى الأدلة التي تدعم هذا الرأي .

ومن كتاب عصر الزيريين المشهورين أبو الحسن محمد بن اسماعيل ابن اسحاق ، الملقب بأبي الحسن الكاتب (٤) (٤٠٨هـ) . وقد قال ابن

---

(١) تتبع المنجي الكعبي ترجمته في كل المصادر والمراجع التي كتبت عنه وقد خرج بانطباع مفاده أن النهشلي لم يوف حقه ، ولذلك فقد تتبع كل ذكر له في المظان المختلفة في كتاب بعنوان : النهشلي القيرواني ، جمع فيه كل شاردة وواردة عنه .

(٢) المنجي الكعبي : النهشلي القيرواني ،ص ٥٧-٥٨ (نقلا عن ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار) ، على أنه صحح ماقاله ابن فضل الله العمري من أن النهشلي ظل كاتباً حتى عهد تميم بن باديس ، فنفى المنجي الكعبي : نفس المرجع ، ص ٥٨ أن يكون النهشلي قد ظل كاتباً حتى عهد تميم لأنه ليس هناك أمير صنهاجي يدعى تميم بن باديس كما أشار ابن فضل الله العمري . ولكن هناك أمير يعرف بتميم بن المعز بن باديس الذي خلف أباه المعز في الإمارة ، ولما كان النهشلي قد توفى عام ٤٠٥ هـ ، فإن أمر كتابته للأمير تميم بن المعز الذي تولى الإمارة عام ٤٥٤هـ ليس أكثر من وهم ولعل مرده كما يرى المنجي الكعبي – وهلى على حق – اضطراب في النقل من ابن فضل الله العمري .

(٣) نفس المرجع أعلاه ،ص ٥٧ .

(٤) ترجم له كل من : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، جمع وتعليق زين العابدين التونسي ، ص ١١٩-١٢١– الصفدي : الوافي بالوفيات : الجزء الثاني ، ص ٢١٤ – ٢١٦ – =

رشيق (١) عنه بأنه (من بيت شعر وكتابة ، وكان أبوه من جلة أهل زمانه في الرياسة والكتابة وعلم الدواوين ، وابتدار الشعر ، وكذلك ولده المذكور) .

ومنهم الحسن بن علي الكاتب المعروف بابن زنجي الكاتب (٢) (ت:٤١٦هـ) ، ويصفه ابن رشيق بأنه (من بيت كتابة ورئاسة وعلم (٣) . وكان بالإضافة إلى هذا شاعراً بارعاً مشهوراً .

ومنهم أيضا ، محمد بن عطية الكاتب المعروف بابن حيان الكاتب المغربي (٤) ويذكر الصفدي (٥) أنه كان متولياً شؤون الكتابة في (كتابة الحضرة) أي الحضرة الزيرية مع الكاتب المشهور ابراهيم الرقيق ، ويقول حسن حسني عبدالوهاب (٦) بأنه كان أحد حملة الأقلام في عهدي الأمير باديس بن المنصور والمعز ابنه .

= عبدالرحمن ياغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٦٧-١٦٨ (نقلا عن ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار) وقد أورد عبدالرحمن ياغي خطأ ماذكره ابن فضل الله العمري واهماً من أنه توفى عام ٤٤٨هـ . بينما الصحيح أنه توفى عام ٤٠٨هـ كما ذكر ابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ،ص ١٢٠.

(١) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ١١٩ .

(٢) ابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٣-٨٧- عبدالرحمن ياغي : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢١٣-٢١٤ .

(٣) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ،ص ٨٣ .

(٤) الصفدي : نفس المصدر أعلاه ،ج ٤ ، ص ٩٥- ٩٧ - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ،ص ٢١٨-٢١٩ - بساط العقيق في حضارة القيروان - شاعرها ابن رشيق ، ص٨٠ مع الحاشية .

(٥) الوافي بالوفيات : ج٤، ص ٩٥ .

(٦) بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ،ص ٨٠ .

ومن الكتاب المشهورين أيضاً : أبو اسماعيل الكاتب ابراهيم بن غانم ابن عبدون الملقب بابن غانم الكاتب (١) (ت : ٤٢١هـ) . وكان بالإضافة إلى شهرته بالكتابة ، شاعراً مبرزاً من شعراء القيروان الذين أثنى عليهم ابن رشيق في كتابه الأنموذج (٢) .

ومنهم الكاتب المشهور عبدالعزيز بن محمد القرشي الطارفي ، وقد اشتهر بالنثر ، وكان فيه : (فارس الفرسان ، وواحد الزمان ، ما بين تزوير مقامة مبتدعة ، وتصدير خطبة غير مفترعة ، إلى الرسائل السلطانية ، والمكاتبات الإخوانية) (٣) .

ويضيق بنا المجال لو استقصينا كتاب هذا العصر جميعهم ، فهم في الواقع كثيرون ، لكننا نختتم الحديث عن الكتابة والكتاب بكاتبين كانا أشهر كتاب الدولة الزيرية على الإطلاق ، ومن الكتاب المعدودين في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

فأولهما الكاتب الأديب والمؤرخ المشهور أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني (٤) (ت : ٤٢٥هـ) ، وهو من ألمع الكتاب الذين عرفتهم إفريقيَّة ، تولى رئاسة ديوان الإنشاء ، أي ديوان الرسائل منذ عهد الأمير المنصور وابنه باديس ، ثم حفيده المعز ، وظل

---

(١) ابن رشيق : نفس المصدر السابق أعلاه ،ص ٢٢- ٢٥ - الصفدي : نفس المصدر السابق أعلاه، ج٦ ، ص ٧٨-٧٩ - عبدالرحمن ياغي : نفس المرجع السابق ،ص ١٦٩- ١٧٠ .

(٢) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٣ .

(٣) عبدالرحمن ياغي : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ٢١١-٢١٢ .

(٤) عن ترجمته الواسعة وسنة وفاته والاختلاف في ذلك أنظر بعد ، ص ٧٩٨ ومابعدها .

يمارس مهمته مدة تصل إلى نصف قرن من الزمان ، وكان يسمى خلالها بكاتب الحضرة ، أي الحضرة الصنهاجية (١) . وقد أثنى ابن رشيق (٢) معاصره على مكانته في فن المكاتبات فقال عنه (شاعر سهل الكلام ، محكمه ، لطيف الطبع قويه ، تلوح الكتابة على ألفاظه ، قليل الشعر ، غلب عليه رسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس ، وهو كاتب الحضرة منذ نيف وعشرين سنة إلى الآن) . ويرى حسن حسنى عبدالوهاب (٣) أن ابن رشيق يقصد بعبارة : (إلى الآن) : أي إلى عام ٤٢٥هـ ، وهو العام الذي ألف فيه ابن رشيق كتابه : الأنموذج .

ومما يدل على مكانته في فن الكتابة الرسمية أن معظم من ترجم له من المؤرخين نعته بأهم صفتين رئيسيتين له وهما : أنه كان كاتباً (٤) ومؤرخاً (٥).

والكاتب الآخر المشهور هو الأديب الرياضي الفلكي : أبو الحسن علي ابن أبي الرجال التاهرتي الشيباني (٦) (ت : ٤٢٥هـ) . وأبو الحسن علي

---

(١) حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ،ص ٤٣٨ (نقلا عن عدد من المؤرخين) .

(٢) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٨ .

(٣) الورقات ، القسم الثاين ،ص ٤٤٢.

(٤) ممن نعته بالكاتب : ابن رشيق : نفس المصدرالسابق ، ص ٢٨ الصفدى : الوافي بالوفيات ، ج٦، ص ٩٢ – حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ،ص ٤٣٨– الزركلي : نفسه ،ج١ ، ص ٥٧١ – الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا حاشية رقم ١، ص١٨٨ .

(٥) عن مكانته في علم التاريخ ، أنظر بعد ص ٨٠٠ .

(٦) أنظر ترجمته ووفاته والاختلاف في ذلك ، بعد ، ص ٨٢٦ .

ابن أبي الرجال تاهرتي الأصل ، إلا أنه قدم القيروان مبكراً ، فالتحق بخدمة الدولة الزيرية (١) ، ولقد أوصله نبوغه إلى محل رفيع في البلاط الزيري ، لذلك رأيناه يُعهد إليه بتربية وتثقيف الأمير المعز بن باديس (٢) ، الذي تولى الحكم عام ٤٠٦هـ . ومما ينسب إليه من جلائل الأعمال أنه كان السبب الرئيسي في إثناء الأمير المعز عن المذهب الشيعي وتحوله إلي مذهب الأغلبية : المذهب المالكي (٣) . أما مكانته العلمية فقد كانت ذات جوانب متعددة ، إذ كان كما ذكرنا كاتباً بارعاً وهو الأمر الذي أهله لتولى رئاسة ديوان المراسلات أو الانشاء (٤) ، وإن كنا لانعرف متى تم ذلك على وجه التعيين ؟ وبالإضافة إلى ذلك كان شاعراً متمكناً (٥) ، وعدا هذا وذاك فهو ذو اهتمامات معروفة بعلمي : الفلك والرياضيات ، حتى أن له فيهما مؤلفات حسبما سنعرف بعد إن شاء الله .

ومما يدل على المكانة الأدبية التي بلغها أنه كان يحيط الأدباء والشعراء المشهورين آنذاك من أمثال ابن رشيق ، وابن شرف وغيرهما برعايته وحدبه . وهذا مادفعهم إلى أن يهدى إليه البعض منهم

---

(١) رابح بونار : نفسه ،ص ٢٩٨ ، ويقول عنه أنه من أشراف تيهرت (يقصد تاهرت) وأنه نشأ في قرطبة ، ثم قدم القيروان والتحق بخدمة الدولة الزيرية) - عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية ، الجزء الأول ،ص ٢٧٧ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ،ص ٢٧٣ .

(٣) ابن عذارى : نفسه .

(٤) لم يشر إلى توليه رئاسة ديوان المراسلات أو الانشاء ممن ترجم له سوى عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ، وهو مع ذلك لايقطع قطعاً أكيداً ولكنه لايستبعده .

(٥) عن مكانته الشعرية ، أنظر بعد ، ص ٧١٩ .

مؤلفاته الأدبية (١) جرياً على العادة التي كانت شائعة وقتذاك .

وإذا ما نحينا الكتابة الرسمية والكتاب جانباً وبحثنا عن اللون النثرى الآخر الذي ذكرنا أنه قد ازدهر في عصر الزيريين ، فإننا على قلة نماذجه التي بين أيدينا واثقون من أن النثر قد بلغ أوج تقدمه وتطوره من حيث الشكل بالدرجة الأساسية – على مقاييس التطور المعروفة آنذاك بالطبع – فتلك النماذج القليلة (٢) كافية لنتبين من خلالها العام الذي سلكته المكاتبات الإخوانية في إفريقية آنذاك ، فهى لا تخرج عن حشو الرسائل بالصنعة والتكلف في الكلام المسجوع والمحلي بألوان البديع من جناس وتورية وطباق ومقابله إلى تقليب الجمل على المعنى الواحد ... الخ .

وإذا جاز لنا أن نقف عند واحدة من تلك الرسائل الإخوانية التي ذاع أمرها، فإننا لانجد خيراً من الرسالة الإخوانية الأدبية الممتعة وانتشرت عند مؤرخي الأدب في الأندلس والمغرب والمشرق أيضاً ، وهي الرسالة التي بعثها الأديب القيرواني المسكن والوفادة ، التاهرتي الأصل أبو علي الحسن

---

(١) كما فعل ابن رشيق الذي أهدى إليه كتاب : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، وكما فعل زميله الشاعر الأديب الناقد ابن شرف الذي أهدى إليه كتاب : مسائل الانتقاد أو أعلام الكلام ، أنظر ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ص٣- ابن شرف : مسائل أو رسائل الانتقاد بلطف الفهم والافتقاد (أعلام الكلام) ، تصحيح وضبط عبدالعزيز أمين الخانجي ،ص١٥.

(٢) من تلك النماذج للرسائل الاخوانية القليلة التي عثرنا عليها : الرسالة التي بعثها ابن رشيق للأديب أبي الحسن علي بن أبي الرجال ، وهو يهدي إليه كتابه العمدة ، والرسائل التي كان يبعثها الحصرى القيرواني الضرير إلى أصدقائه في الأندلس . عن رسالة ابن رشيق أنظر ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابة ونقده ،ص١٥-١٨ و عن رسائل الحصري ، أنظر محمد المرزوقي والجيلاني ابن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصري القيرواني ،ص٩١-٩٩ .

ابن محمد التميمي ، القاضي التاهرتي المعروف بابن الربيب (١) (ت:٤٢٠هـ) إلى صديقة الأديب الأندلسي أبو المغيرة عبدالوهاب بن حزم الوزير والكاتب الأندلسي المشهور. والرسالة (٢) في الأصل قصد منها نقد الحالة الأدبية في الأندلس ، والافتخار بمثيلتها في القيروان خاصة .

ولقد أجابه الأديب الأندلسي برسالة أدبية ضافية يوضّح له فيها حالة الحركة الأدبية في بلاده الأندلس (٣) . وبالطبع فنحن ليس من مهمتنا نتبع ذلك ، ولكننا رغبنا في إظهار ما بلغته حالة النثر الفنى في إفريقية وقتذاك من خلال رسالة ابن الربيب التي جاءت تعكس كل خصائص النثر الفنى الذي بلغته من حيث الشكل ، مع مافي الرسالة من مضامين توضح حالة الحركة الأدبية في إفريقية وقتئذ .

وقبل أن نغادر الحديث عن النثر الفنى وفروعه التي طرقها الأدباء في العصر الزيري ، لايفوتنا الإشارة إلى أن هذا العصر عرف نماذج للون من ألوان التعبير الأدبي وهو الحكمة ، وقد نطق بها عدد من الفقهاء ، - و هو أمر أصبح بمثابة ظاهرة عامة - من أمثال : ابن التبان المتوفى عام ٣٧١هـ،

---

(١) ترجم له كل من : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص٧١-٧٢ المقرى : نفح الطيب ، ج٣، حاشية رقم ٢ ، ص ١٥٦، وقد قال المحقق احسان عباس بأنه قد استمد ترجمته من ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار . ولقد أطلق عليه اسم : الحسين بينما سماه ابن رشيق الحسن ، وكذلك فصل المقرى في متن الصفحة رقم ١٥٦ .

(٢) ممن أشار إلى تلك الرسالة ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، القسم الأول ، المجلد الأول ،ص ١٣٣ - المقري : نفس المصدر أعلاه ، والجزء ،ص ١٥٦، مع اختلاف يسير في الألفاظ بين المصدرين .

(٣) ابن بسام : نفس المصدر السابق والقسم ، المجلد الأول ،ص ١٣٨ - ١٣٩ .

وأبي اسحاق (١) الجبنياني المتوفي عام ٣٩٩هـ ، وقد ترجمنا لهما من قبل عند حديثنا عن دور فقهاء المالكية في نشر المذهب المالكي وفي الدراسات الشرعية . وكذلك من الفقهاء الذين اشتهروا بقول الحكمة الفقيه النفوسي أبو عبدالله محمد بن بكر (٣٤٥-٤٤٠هـ) ، وقد ترجمنا له كذلك من قبل عند حديثنا عن دراسات الفقه الإباضية . ولعل في النموذجين اللذين نوردهما الآن لأبي عبدالله محمد بن بكر النفوسي مايوضح لنا حقيقة مابلغه الأدب من رقى في العصر الزيري من خلال لون الحكمة هذا . قال أبو بكر : هم أهل الزمان كالسبخة إن ابتلت زلقت ، وإن جفت خدشت ، وكذلك قوله : كالتيوس إن اجتمعوا تناطحوا ، وإن إفترقوا تصايحوا (٢) .

٢- النثر التأليفي :

ذكرنا آنفاً أن إفريقيَّة دخلت في عصر الزيريين المجال الأرحب والأوسع من الدراسات الأدبية ، وهو مجال التآليف والمجاميع الأدبية الكبيرة ، وهو قول صحيح لاغبار عليه ، فلقد ازدحم هذا العصر بصفة خاصة بأدباء كبار كان لهم أثرهم العظيم في إثراء الدراسات الأدبية الإفريقية ، ليس على مستوى عصرهم فحسب وإنما على مستوى كل العصور الإفريقيَّة حتى الآن . فلقد وجد في هذا العصر معظم رموز الأدب الإفريقي الذي يشار إليهم بالبنان حتى الآن من أمثال : النهشلي القيرواني

---

(١) عياض : المصدر السابق ، ج٢، ص٥١٢، ٥٢٣ (حيث الإشارة إلى نماذج الحكمة في أقوال ابن التبان وأبي اسحاق الجبنياني) .

(٢) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٨٦ .

والقزاز القيرواني وابراهيم الحصري والرقيق القيرواني ، وابن رشيق ، وابن شرف، والحصري الضرير ، وغيرهم ممَّن ملأ البلاد انتاجاً أدبياً غزيراً في شتى المجالات الأدبية حسبما عرفناه من قبل ، وحسبما سنشير إليه الآن ، ثم لاحقاً إن شاء الله .

ولعل من أوائل أولئك الأدباء الذين أثروا الحركة الأدبية بمؤلفاتهم وإسهاماتهم ، الأديب والشاعر المشهور أبو محمد عبدالكريم بن ابراهيم النهشلي التميمي القيرواني (ت٤٠٥هـ). والنهشلي القيرواني عربي الأصل وينتسب إلى قبيلة تميم المشهورة ، وقد ولد بمدينة المحمدية أو المسيلة كما تعرف أيضاً، وهي احدى مدن إقليم الزاب ، ثم قدم القيروان ، فالتحق بخدمة الدولة الزيرية ، وتولي منصب الكتابة في بلاط الزيريين حتى عهد الأمير باديس بن (١) المعز (٣٨٦-٤٠٦هـ) . على أن الكتابة لم تكن مجال النهشلي الأدبي الوحيد فقد كان شاعراً وناثراً وناقداً بجانب ذلك . وإذا كنا سنؤجِّل الحديث عن مكانته الشعرية إلى مابعد ، فإن مايعنينا هنا هو انتاجه الأدبي النثري الذي خلَّفه ونعنى بذلك (كتاب الممتع في علم الشعر وعمله (٢)) ، الذي كان له شهرة في دنيا الأدب في العصور الأولى (٣) . وكتاب الممتع من أهم كتب المجاميع الأدبية في تاريخ الأدب العربي بما يتضمنه من مادة غزيرة منتقاة من الأدب العربي والجاهلي والإسلامي

(١) المنجي الكعبي : النهشلي القيرواني ، ص ٣٨ –٥٨ .

(٢) هكذا رجح المنجي الكعبي بعد بحث طويل هذا العنوان لكتاب النهشلي القيرواني . أنظر المنجي الكعبي : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٢٧، ١٥٤، ١٦٧ .

(٣) المنجي الكعبي : المرجع السابق ،ص ١٧٧ – ١٧٨ .

تسهم في إرواء ثقافة الشاعر والناثر على السواء ، وهو في الوقت نفسه خير معين للناقد في ممارسة رسالته (١) ، والممتع من كتب الأدب التي جاءت على نسق كتاب الكامل للمبرد ، والأمالي لأبي على القالي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، وزهر الآداب للحصرى القيرواني .. الخ ، بالإضافة إلى أنه من كتب النقد المعدودة .

وممَّن أسهم في إرواء الحركة التأليفية الأدبية آنذاك ، الأديب والعالم اللغوي النحوي المشهور أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي القيرواني المعروف بالقزاز القيرواني (٢) (٣٢٢-٤١٢هـ) (٣) . والقزاز القيرواني شخصية أدبية متعددة الجوانب والاهتمامات ، وقد عاصر الدولتين الفاطمية والزيرية معاً ، ذلك لأنه ولد عام ٣٢٢هـ . وهذا يعنى أنه قد عاش أربعين عاماً في ظل الخلافة الفاطمية ، وقد كان خلالها شعلة تتوهج أدباً ولغةً

---

(١) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) تصدى المنجي الكعبي إلى تأليف كتاب عنه ، وقد أطلق عليه العنوان الآتي : القزاز القيرواني - حياته وآثاره) . ولقد تتبع في هذا الكتاب كل مايتصل بالقزاز في حياته وشيوخه وتلامذته وأولاده ، إلى غير ذلك ممَّا يتعلق بأدق تفاصيل حياته ثم من ترجم له . وفي الشق الثاني من الكتاب تطرق إلى كل شاردة وواردة عن آثاره الأدبية واللغوية على وجه الدقة والتفصيل . ومن هنا فقد اكتفينا في الترجمة للقزاز القيرواني وفي التعرض لآثاره الأدبية على هذا الكتاب وحده لشموليته .

(٣) فيما يتعلق بتاريخ وفاته ، فقد كانت في عام ٤١٢هـ ، وذلك باتفاق كل من ترجم للقزاز . ولكن الاختلاف كان في تحديد عمره ، وبالتالي سنة ولادته . فمن قائل إنه توفى وهو في السبعين من عمره ، ومن قائل بل في التسعين ، وقد حقق ذلك المنجي الكعبي فتوصل إلى ترجيح أنه ولد في حدود عام ٣٢٢هـ فهو بالتالي قد توفى في التسعين من عمره . أنظر المنجي الكعبي : القزاز القيرواني - حياته وآثاره ، ص ٥-٨ .

ونحوا، وكان الخليفة المعز لدين الله يجله ويقدره ، وقد اصطحبه معه إلى مصر عندما غادر المغرب عام ٣٦٢هـ . غير أن القزاز القيرواني مالبث أن عاد إلى بلاده بعد مدة ، حيث ظل هناك إلى أن توفى عام ٤١٢هـ (١) .

وإذا كنا سنترك الحديث عن مكانته الشعرية إلى موضعها فيما بعد ، فإن الخليق بنا الآن أن نعرض إلى إسهاماته في دنيا النثر التأليفي . فقد أهدى القزاز للحركة الأدبية الإفريقية مجموعة من الكتب القيمة منها : التعريض والتصريح ، وهو كتاب تتكون مادته الأدبية من مجموعة من النوادر والحكايات التي تدور بين الناس في التعريض من كلامهم (٢) . وكتاب : شرح رسالة البلاغة ، وهو كتاب يقع في عدة مجلدات (٣)، ثم كتاب : ما أخذ على المتنبي من اللحن والغلط (٤) . ويقع في جزء واحد ، وهو من كتب النقد أيضاً . وللقزاز كذلك كتاب ثالث هو : كتاب أبيات معان في شعر المتنبي (٥)، وهو كتاب تدور مادته الأدبية حول استعراض معاني الحكمة والأخلاق التي دارت في شعر المتنبي .

ومن مصنفات القزاز الأدبية أيضاً : كتاب معاني الشعر ، وهو لايمت بصلة إلى الكتاب السابق : أبيات معان في شعر المتنبي ، كما يرى المنجي الكعبي (٦) ، والكتاب السادس والمهم : كتاب : أدب

---

(١) المنجي الكعبي : المرجع أعلاه ،ص ٣٠ – ٣٢ .

(٢) المنجي الكعبي : نفس المرجع السابق ، ص ٤٥، ٧٥– ٧٧ .

(٣) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٥، ٧٧ .

(٤) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٧٧ –٧٩ .

(٥) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٥، ٧٩ .

(٦) نفسه ، ص٤٥ ، ٧٩ – ٨٠ .

السلطان (١) والتأدب له وهو من أضخم مؤلفاته ويقع في عشرة أجزاء . وقد جاء على نسق المؤلفات التي تعنى بالآداب السلطانية ، وهو معنى طرقه الأدباء المشارقة من قبل مثل ابن المقفع والجاحظ وغيرهما .

ومن الأدباء الذين أثروا الحركة الأدبية بمؤلفاته قيمة ، الأديب الشاعر: أبو اسحاق : ابراهيم بن على بن ابراهيم بن تميم الحصري أحد أدباء القيروان (٢) المبكرين الذين عرفهم العصر الزيري ، وهو كما يتراءى لنا ثالث أربعة أدباء تتلمذ على أيديهم الرعيل الثاني من أدباء بلاد إفريقية الذين يأتي على رأسهم ابن شرف وابن رشيق، والحصري الضرير وغيرهم والأربعة الأدباء هم : النهشلي والقزاز ، وابراهيم الحصري نفسه والرقيق الكاتب والمؤرخ .

بيد أن الغموض للأسف لف جزءاً غير يسير من حياة ابراهيم

---

(١) المنجي الكعبي : نفسه - حياته وآثاره ، ص ٤٥، ٨٠- ٨١ .

(٢) ترجم له كل من : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص١٨- ٢٠ - ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، الجزء الثاني ، ص ٩٤ -٩٧ - ابن خلكان : المصدر السابق ،المجلد الأول ، ص ٥٤- ٥٥ - الصفدى : المصدر السابق ، الجزء السادس ، ص٦١- ٦٢ - ابن السراج : الحلل السندسية في الاخبار التونسية ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٢٧٦- ٢٧٨- أبو القاسم كروو عبدالله شريط : شخصيات من المشرق والمغرب ، ص ٢٧٩ - ٢٨٧ - عبدالجبار الشريف وعلى دب : ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب - دراسة ومنتخبات ، ص ١١-١٢ وغير ذلك من المؤرخين القدامى والمحدثين . وقد تفاوتت الإشارة إلى اسم الحصرى بين مصدر وآخر ، وبين المراجع بالتالي فهناك من اكتفى بذكر اسمه ولقبه فقط هكذا ابراهيم الحصري ، وهناك من نسبه نسباً كاملاً وهناك من اكتفى بالإشارة إلى اسمه واسم أبيه وجده ، ثم لقبه .

الحصري مع أنه قد عاش طويلاً ، فقد قارب الثمانين من عمره (١)، وذلك بعكس ماحظى به زملاؤه : النهشلي ، والقزاز، والرقيق ، لكننا على أيه حال ظفرنا من ترجمته بمعلومات مهمة سواءً كان ذلك فيما يتصل بمكانته الشعرية التي سنتطرق إليها لاحقاً ، أو مكانته في فن النثر التأليفي عن طريق مؤلفاته التي خلدت له .

وأهم مؤلفات ابراهيم الحصري ، وأشهرها ، وأعظمها تأثيراً وأثراً هو كتاب : زهر الآداب وثمر الألباب (٢)، وهو الكتاب الذي وضع الحصري

---

(١) اختلف في سنة وفاة ابراهيم الحصري اختلافاً بيناً ، فابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٠ يقول إنه توفى عام ٤١٣هـ ، وتابعه في ذلك ياقوت : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٩٥ . أما ابن خلكان : نفس المصدر السابق والمجلد، ص٥٤ . فقد ذكر أنه توفى عام ٤١٣هـ ، ثم ذكر أنه قيل بل ٤٥٣هـ (نقلاعن ابن بسام في الذخيرة) .لكن ابن خلكان عاد فاعتمد التاريخ الأول ، ووقف الصفدي : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٢ ، نفس موقف ابن رشيق . أما ابن السراج : نفس المصدر السابق والجزء والقسم ، ص ٢٧٨ فقد (اعتمد سنة ٤١٣هـ، وحدها . أما الباحثون المحدثون فإن أكثرهم يميل إلى تأييد ابن بسام فيما ذكره من أن الحصري توفى سنة ٤٥٣هـ ، وأنظر بعناية الشاذلي بويحيى : مقال بعنوان : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الأول ، ١٩٦٤م ، تونس ، ص ٩-١٨ ، حيث يشير إلى أنه توفي سنة ١٤١٣هـ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج٢ ، ص٦٩- ابن خلكان : نفسه ، المجلد الأول ، ص ٥٥ – الصفدي : نفسه ، ج٦ ، ص ٦٢- ابن بسام : نفسه ، القسم الرابع ، المجلد الثاني ، ص ٥٨٤ – أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨١ . وانفرداً وحدهما بالقول بأن اسم الكتاب : زهر الآداب ونثر الألباب – عبدالجبار الشريف وعلي دب : ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب ، ص ١٥ وما بعدها . وكل هؤلاء المؤرخين القدامى والمحدثين ونفر آخر غيرهم أجمعوا على أهمية شهرة كتاب زهر الآداب .

في مصاف مؤلفي المجاميع الأدبية المشهورين مثل الجاحظ والقالي، والمبرد، وابن عبدربه ، والنهشلي القيرواني وغيرهم (١) . ولقد بناه ابراهيم الحصري على طريقة كتاب البيان والتبيين للجاحظ (٢) . وتتألف مادته الأدبية من مختارات ، شعرية ونثرية ، ونوادر ، وملح وطرائف ، كالتي كانت تتضمنه كتب الأمالي ، والبيان والتبين ، والعقد الفريد إلى غير ذلك (٣) ، ولقد تبنى ابراهيم الحصري منهجية لا تختلف عما كانت تسير عليه تلك المجاميع الأدبية من نهج يجمع بين التنويع والتلوين (٤) .

وفي الحق فإن كتاب زهر الآداب يعد من أهم كتب الأدب الخالص بما يشتمل عليه من مضامين وقيم أدبية واجتماعية ونقدية وتاريخية ووصفيه إلى غر ذلك كما يعتقد عبدالجبار الشريف ، وعلى دب في كتابها : ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب (٥) . وإن كان المأخذ الوحيد عليه أنه تجاوز الإنتاج المغربي ، فلم يعره اهتمامه (٦)، تماماً مثل مافعل الأديب الأندلسي ابن عبدربة في كتابه : العقد الفريد .

---

(١) المنجي الكعبي : النهشلي القيرواني ،ص ١٧٨-١٧٩ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨١ - ٢٨٣.

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٥، ص ١٠٥ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه، ص ٢٨١، ٢٨٣ - عبدالجبار الشريف وعلى دب : نفس المرجع السابق ، ص ١٥- ١٩ .

(٤) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ص ٢٨٤- ٢٨٥ - عبدالجبار الشريف وعلى دب : نفسه، ص ١٦- ٢٤ .

(٥) ص ٢٤- ٢٩ .

(٦) عبدالجبار الشريف وعلى دب : نفسه ،ص ٢٤- المنجي الكعبي : نفس المرجع أعلاه ،ص ١٧٨ ، وإن كان لايرى أن ذلك عيباً بقدر ماهو جهد مأثور تاريخي لأدباء المغرب الذين كان لهم الفضل في جمع مادة الأدب المشرقي جمعاً لا مثيل له .

ومن مؤلفات الحصري الأخرى عدة كتب منها : نور الطرف ونور الظرف (١) ، وهو مختصر لكتاب : زهر الآداب ويقع في جزء واحد وقد يسمى : النورين أيضاً (٢) . ومنها : كتاب جواهر النوادر ولمح الملح (٣) كما سماه هو ، أو : « جمع الجواهر في الملح والنوادر » (٤) كما سماه ونقله بعض من مؤرخي الأدب القدامي .

ومن مصنفات الحصري القيرواني التي بلغت شهرة عريضة ، كتاب : المصون في سر الهوى المكنون (٥) ، وقيل الدر المكنون . ويقع في جزء واحد وهو ذو قالب أدبي طريف في بابه ، إذ هو عبارة (عن دراسة تحليلية لعاطفة الحب في مظاهرها) (٦) ، ويرى الشاذلي (٧) بويحيى أن هذا الكتاب ربما يكون أصلاً من الأصول لكتاب الأديب والعالم الأندلسي

---

(١) الصفدي : نفسه ، ص ٦١ – أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٢٨٢ – كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٥ ، ص ١٠٦ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج٢ ، ص ٩٧– أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨٢ – بينما يسميه ابن بسام : نفسه ، ج٢ ، ص ٥٨٤ كتاب : النور والنور .

(٣) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨٢ .

(٤) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨٢ – كارول بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٥ ، ص ١٠٥– ١٠٦ .

(٥) ياقوت : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٩٦– ٩٧ ويسميه المصون والدر المكنون – الصفدي : نفسه ، ج٦ ، ص ٦١– أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٢٨٢ وقد أشارا إلى أن الكتاب يعرف كذلك : المصون في الدرالمكنون . في حين أغرب ابن بسام : نفسه ، ج٢، ص٥٨٤ ، فقال إن اسم الكتاب هو : (المصون من الدواوين) .

(٦) الشاذلي بو يحيى : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري – مجلة حوليات . الجامعة التونسية ، العدد الأول ، ١٩٦٤م ، ص١٧ .

(٧) حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري ، ص ١٧– ١٨ .

المشهور : ابن حزم القرطبي المعروف بكتاب (طوق الحمامة في الألفة والآلاف) ومن مصنفات الحصري أيضاً ، كتاب : طيبات الأغاني ، مطربات القيان ، ويقول أبو القاسم كرو وعبدالله شريط(١) إن هذا الكتاب مفقود . وقد أشار إليه الحصري نفسه في كتابه : جواهر النوادر ، أو جمع الجواهر، كما هو مشهور .

ويعد الكاتب والمؤرخ والأديب ابراهيم الرقيق (ت : ٤٢٥هـ) ، الذي عرفنا دوره من قبل في الكتابة الرسمية ، أحد الأدباء الذين أسهموا في تنشيط واغداق الحركة الأدبية الأفريقية بمؤلفاتهم القيمة الممتعة . فقد كان الرقيق أحد الذين فتح لهم الباب في التأليف سواء في التاريخ أو الأدب .

فمن مصنفاته التي خلَّدت له نذكر : كتاب : نظم السلوك في مسامرة الملوك ، ويقع في أربعة أجزاء ، وهو على نسق كتب الآداب السلطانية كما يومئ عنوانه بذلك (٢) ، وكذلك كتاب : الأغاني ويقع في مجلد واحد ضخم ، وهو على نسق كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني كما يدل عليه عنوانه (٣) أيضاً . ومن كتبه كتاب : « النساء » (٤) ، ويتضمن أخبار النساء الشاعرات وغيرهن ، وكتاب : « المتيمين » (٥) وليس هناك ما

---

(١) نفسه ، ص ٢٨٢ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٤٤٥- مقدمة المنجي الكعبي محقق تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ، ص ٢٣ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٤٤٦ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، ص ٤٤٦ - مقدمة المنجي الكعبي ، ص ٢٣ .

(٥) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، ص ٤٤٦ .

يرشدنا إليه سوى ذكر اسمه فحسب .

وللرقيق القيرواني مجموعة من المصنفات تتناول الخمريات ، أشهرها كتاب : قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور (١) ، ويقع في جزأين . وهذا الكتاب على عكس ما يوحي به عنوانه لا يتضمن إلاَّ القليل من المادة عن الخمرة (٢) وإلاَّ فهو في معظمه مختارات وطرائف (من أمثال الحكماء ومنثور البلغاء ، ومنظوم الشعراء ، وأخبار الأدباء والظرفاء ، مالا يستغني عنه شريف ولايجوز أن يخلو منه ظريف) (٣)، ويرى الشاذلي بو يحيى(٤) أن كتاب قطب السرور (لايوجد له مثيل في نوعه بين مؤلفات المشرق)

وأما الأديب الإفريقي الذي غمرت مؤلفاته الأدبية ساحة الأدب ، لا الإفريقي فحسب ، وإنما العربي أيضا ، فهو الأديب الشاعر الناقد طائر الصيت ، أبو علي : الحسن بن رشيق القيرواني (٥)

---

(١) هذا هو العنوان الصحيح للكتاب كما أشار إلى ذلك حسن حسني عبدالوهاب والشاذلي بو يحيى، لا كما أورد المنجي الكعبي محقق القطعة المحفوظة من كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق : نفسه ،ص ٢٣ . من أن اسمه كتاب قطب الدرر في الأنبذة والخمور . أنظر حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٤٤٥- الشاذلي بويحيى : حول نشر كتاب قطب السرور أو من سوء حظ ابراهيم الرقيق ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثامن ، السنة ١٩٧٠م ، ص ٨ .

(٢) الشاذلي بويحيى : نفس المقال أعلاه ص ٩ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٤٤٥ (نقلاً عن مقدمة الرقيق نفسه لكتابه ذلك) .

(٤) الشاذلي بو يحيى : نفس المقال أعلاه ، ص ٩ .

(٥) لم يحظ أديب من أدباء إفريقية بمثل ما حظى به ابن رشيق من اهتمام واسع إلاَّ القليل جداً ، فمن بين من ترجم له من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين نذكر : ابن بسام : =

(٣٩٠-٤٥٦هـ) (١) ، وابن رشيـــق - كمـا نعتقد - لسنـا في حاجـة إلى التعـــريف والترجمـــة له ، فهو في الحقيقة أشهر من أن يعرف . كـيف لا ، وهـــو واحـد من أعظم من أنبتتهم الساحة الآدبية على مستوى الدولـــة الإسلاميـــة حتي الآن ؟ . ومع ذلك فإن من ضــروريات المنهـج أن نلـــم ببعـــض شؤون حياته . فقد ولد بالمحمدية أو المسيلة ، ثم قدم إلى القـــيروان ولم يتـعد العشـرين من عـمـره ، فـالتـقى بكبـار أدبائها وعلمـــائها المشــهــورين من أمـثـال : القـزاز القـيـرواني ، وابراهيم الحصـري ، وابراهيم الرقـيـــق وغيـرهم ، ثم مـالـبث أن أوصله نبـوغه الأدبي إلى الأمـــيـر المعز بن باديس ، حـيث لقى منــه حـدباً وحظـوة

= نفس ، القسم الرابع ، المجلد الثاني والجزء ، رقم ٨ ، ص ٥٩٧ - ٥٩٩ - ابن خلكان: نفسه، المجلد الثاني ، ص ٨٥ -٨٩ . ياقوت : معجم الأدباء ، ج٨، ص ١١٠- ١٢١ مقدمة محقق كتاب العمدة لابن رشيق : محمد محي الدين عبدالحميد ،ص ١٠-١٤- أبا القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٣ -٣٢٠ - عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ، ص ٦٢- ٦٣ وقد أشار إلى حوالي ٢٣ مصدراً ومرجعاً جاءت فيها ترجمة ابن رشيق - كارل بروكلمان: المرجع السابق ، ج٥ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ، وبالإضـافـة إلى هؤلاء ، فـقـد اخـتصـه أربعـة من البـاحـثين المحدثين بكتب مستقلة تترجم له وتترجم لعصره الأدبي من خلاله مثل: حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق - عبدالرحمن باغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منهـا - عـبدالرؤوف عـبدالعزيز مـخلوف : ابن رشيق ونقد الشعـر - أمـا البـاحـث الرابع فـهـو عبدالعزيز الميمني الراجكوني الذي جمع شعر ابن رشيق وابن شرف في كتاب أطلق عليه :النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين .

(١) هناك اختلاف شديد في تاريخ ولادته وتاريخ وفـاته بين أولئك المؤرخين القدامى والمحدثين الذين أشرنا إليهم آنفا ، ولكن الذي يبـدو أن الأكـثـرية تميل إلى أن ولادته كـانت عام ٣٩٠هـ ، ووفـاته كانت عام ٤٥٦هـ حسبما أشرنا في المتن .

لامثيل لهما (١) . وقد جمعه بلاط المعز بمعاصره الشاعر المشهور ابن شرف، حيث شجر بينهما تنافس كبير في تزعم النشاط الأدبي داخل قصر المعز وخارجه . وقد أدى ذلك إلى أن ينشب بينهما تلاح وخصومة أفادت الحياة الأدبية من حسن الحظ ، وظل ابن رشيق في معية المعز حتى سقطت القيروان عام ٤٤٩هـ بيد الهلاليين ، ثم ذهب معه إلى عاصمته الجديدة المهدية حتى توفى المعز عام ٤٥٤هـ . وبعد وفاة المعز التحق ببلاط ابنه تميم، إلاّ أنه مالبث أن غادر المهدية في نفس العام إلى صقلية ، حيث استقر به المقام هناك حتى توفى عام ٤٥٦هـ (٢) على الأرجح .

وابن رشيق في الحق نموذج متكامل للأديب الشامل ، فهو شاعر بارع (٣) ، وهو ناثر متمكن بليغ وهو ناقد يتمتع بثقافة واسعة، وهو عالم لغوي (٤) كل ذلك في آن واحد . وهو مع ذلك كان ذا اهتمام بالتاريخ وأحداثه . ومن هنا فقد حظى بإهتمام كبير من قبل مؤرخي الأدب وغيرهم الذين ترجموا له ترجمات اختلفت طولاً وقصراً . كما أنه كان محط اهتمام كثير من الباحثين المحدثين الذين بهرتهم المكانة الأدبية العظيمة له ، فصنفوا عدداً من الكتب تدور حول دوره الأدبي في الحياة الأدبية الإفريقية آنذاك حسبما أشرنا آنفا .

---

(١) تتبع تلك الأحداث وسردها بشئ من البسط أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص٣١٢ – ٣١٤ – معتمدان في ذلك على أقوال كثير من المؤرخين القدامى ولذلك رأينا الاكتفاء بأقوالهما هنا.

(٢) أنظر أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفسه ، ص ٣١٢ – ٣١٣ .

(٣) عن مكانته الشعرية أنظر بعد ص ٧٢٠ ومابعدها .

(٤) أنظر بعد ، ص ٧٦٨ .

ومهما يكن من أمر ، فقد ترك ابن رشيق مجموعة كبيرة من التآليف الأدبية القيمة . فمن تلك التآليف : « كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده » . وقد ألفه في عام ٤٢٠هـ ، وقدمه للأديب والكاتب المشهور أبي الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني رئيس ديوان الإنشاء في دولة المعز (١) آنذاك . وهو كتاب أدبي من أجل كتب الأدب بجانب صفته الأساسية ، وهو النقد الأدبي .

والعمدة يقع في جزأين ، متعدد الأبواب والفصول في قضايا صناعة الشعر ودوره وأثره في حياة العرب وفي حياة الشعراء ، وجمع الأخبار والروايات وتعريف الشعر ومذاهبه المختلفة (٢) ، وعلى هذا فهو من هذه الوجهة كتاب أدبي خالص (٣) ، ممًّا جعل ابن خلدون يقول (٤) عنه : (هو الكتاب الذي انفرد بصناعة الشعر وأعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولابعده مثله) . وممًّا يدل على مكانة كتاب العمدة الأدبية الفائقة ، أنه قد

---

(١) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مقدمة المحقق ، ص ٣-٤، مقدمة المؤلف ، ص ١٥-١٧ - حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ١٢٩ - عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٤٧- ١٤٨.

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ،ص ١٢٩- ١٣٠- أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٥ .

(٣) ابن رشيق : قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، مقدمة المحقق الشاذلي بو يحيى ، ص ٥-٦- حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ص ١٣٠ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفسه ، ص ٣١٧ - ٣١٩ - عبدة قلقيلة : المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، مع الحاشية رقم ٢ من نفس الصفحة .

(٤) فيما ينقله عنه حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، ص ١٣٠ .

أولع به الأدباد قدامى ومحدثين ، فعلقوا عليه الحواشي والشروح (١) .

ومن كتب ابن رشيق ذائعة الصيت، أيضاً كتاب :« قراضة الذهب في نقد أشعار العرب » (٢) ، وهو كتاب يعنى بالدرجة الأساسية بسرقات الشعراء أو أنه يعنى بمعنى آخر بالشعر الإبداعي ويعيد المعنى المبتكر الذي يستخدمه أو يستخدم مايقاربه بعض الشعراء إلى صاحبه الأصلي ، سواء أكان قد وفق في الاستخدام، أم فشل فيه . وذلك منذ العصر الجاهلي حتى عصره ، أي عصر ابن رشيق (٣) ، والكتاب على الرغم من أنه في عداد كتب النقد ، إلاَّ أن أسلوبه ومواضيعه ومختاراته الأدبية الشعرية لا تقل روعه ومكانة عن قيمته النقدية .

والكتاب الثالث الذي كان لايقل شهرة عن سابقيه هو كتاب : «أنموذج الزمان في شعراء القيروان » (٤) . وقد وضع فيه ابن رشيق تراجم لأكثر

---

(١) أنظر حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٣٠ – ١٣١، حيث الإشارة إلى تلك الحواشي والشروح .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٣١ (ويسميه « قراضة الذهب في أشعار العرب) = أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٤ .(ويطلقان عليه « قراضة الشعر ») – عبده قلقيلة ، نفسه ، ص ١٤٠– كارل بروكلمان : المرجع السابق ،ج٥ ، ص ٣٤٤ – ٣٤٥ .

(٣) أنظر ابن رشيق : قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، مقدمة المحقق ص ٦–٧ كذلك مقدمة المؤلف ، ص ١٩–٢١ .

(٤) حسن حسنى عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٣٢ – ١٣٣ – أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٤ . وهذا الكتاب مفقود وإن كان الكثير من المؤرخين القدامي من أمثال الصفدى وابن فضل الله العمري ، وياقوت وغيرهم قد نقلوا عنه كثيراً . وقد عمد أحد الباحثين المحدثين ، وهو زين العابدين السنوسي إلى جمع ما تناثر من كتاب الأنموذج في كتب المؤرخين القدامى =

من مـائة شاعر من شعراء القيروان وإفريقية المعاصرين له . وهو كتاب (١) أدبي رائق يدل على مايتمتع به ابن رشيق من مكانة في دنيا الأدب سواء كـان ذلك من حـيث أسلوبه النثرى المتـأنق ، أوفيـمـا يتـعلق باخـتـيـاراته وموضوعاته ، أو ذوقه الأدبي إن شئنا ، وكما رأى بعض نقاد الأدب العربي أن أبا تمام في كتابه : الحماسة ، كان أشعر منه في شعره ، فإن ابن رشيق يعد في أنموذجه أشعر منه في شعره (٢) ، على كعبه في الشعر ، ويكفى أن نذكر بأن ابن خلدون (٣) عده (أشعر شعراء عصره) والكتاب في شقه الآخر من كتب النقد الأدبي ، مثل العمدة وقراضة الذهب ، والكتاب بعد هذا يعد من الكتب التي تتدرج ضمن كتب التأريخ للأدب .

ولابن رشيق كتاب آخر عنى بطبقات الشعراء ، هو كتاب : « الروضة الموشية في شعراء المهدية (٤) » ، وقد دوَّنه في أخريات حياته عندما استقر بالمهدية قبل أن يغادرها إلى صقلية .

وبالإضافة إلى هذه الكتب القيمة ، ترك ابن رشيق مجموعة من

= على شكل مختارات علَّق عليها – وقد تنشرت هذه المختارات بعد وفاة زين العابدين السنوسي في شكل كتاب صغير يحتي على بعض تراجم الانموذج ، وقد رأى أبو القاسم محمد كرو الذي عهد إليه كتابة المقدمة لهذه المختارات أن يطلق عليها اسم شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، أنظر ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٥– ٨ .

(١) عده حسن حسني عبدالوهاب المأثرة الخالدة لابن رشيق ، أنظر حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٢) عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

(٣) فيما ينقله عنه أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٤ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ١٢٣ .

الرسائل الأدبية الصغيرة ، التي جاءت في أكثرها رداً على منتقديه من أمثال ابن شرف وغيره ، مثل : رسالة : « الأشكال ودفع المحال » و « نقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية » و « نسخ الملح وفسخ الملح » و « الرسالة المنقوضة » و « نجح الطلب » و « ساجور الكلب » و « قطع الانفاس » (١) ... الخ .

وقبل أن نختتم الحديث عن النثر عامة ، والنثر التأليفي خاصة ، لايفوتنا الإشارة إلى أديب لامع غذى الحركة الأدبية والإفريقية بمؤلفاته وابتكاراته . ذلك الأديب هو الشاعر الأديب الناقد أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني المعروف بابن شرف (٢) (ت : ٤٦٠هـ). وابن شرف أحد أشهر شعراء إفريقية وفحولها الكبار ، وهو من بلدة إجدابية (٣) ، بليبيا الآن ،ثم قدم إلى القيروان . وقد جذبه توهجها وتألقها الأدبي ، فالتقى هناك بكبار أدبائها وشعرائها من أمثال إبراهيم الحصري ، والقزاز القيرواني ، وإبراهيم الرقيق وغيرهم ، ولقد قادته موهبته الأدبية إلى بلاط الأمير المعز بن باديس حيث غدا يشار إليه بالبنان – هو

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) ترجم لابن شرف عدد كبير من المؤرخين قدامى ومحدثين ، وفمن أولئك : ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩، ص ٣٧– ٤٣ – ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الابياري ، ص ٦٦– ٧٢ – الصفدي : نفسه ، ج٦ ، ص ٩٧– ١٠١ – الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبدالحميد ، ج٢ ، ص ٤١٠– ٤١٣ – أبو القاسم كرو وعبدالله شريط ، نفسه ، ص ٣٢١ – ٣٢٧ – محمد عبدالمنعم خفاجي : مقدمة الأدب في ليبيا ، ج١ ، ص ١٠٨– ١١٢ ، وغير ذلك .

(٣) محمد عبدالمنعم خفاجي : نفس المرجع أعلاه ، ج١ ، ص ١٠٨ .

وزميله ابن رشيق من بين كل الأباء الذين كان يضمهم بلاط الأمير . وكما ذكرنا من قبل فقد اشتعلت جذوة المنافسه بينه وبين ابن رشيق ، ممَّا أدى إلى تلاحيهما وتخاصمهما (١) ، وكان الأمير المعز نفسه يعمل كثيراً على إذكاء الخصومة بينهما (٢) ، وفي كل ذلك كان الأدب والحركة الأدبية تربحان دائما . وعندما سقطت القيروان عام ٤٤٩هـ بيد الهلاليين رافق ابن شرف الأمير المعز في عاصمته المهدية ، غير أنه مالبث أن غادرها إلى صقلية مثل صديقه اللدود ابن رشيق ، حيث اتصل بصاحبها ولكنه عاد فغادر صقلية إلى الأندلس ، حيث اتصل بأمرائها وأدبائها ، وظل يتنقل بين مدنها حتى وافته المنية عام ٤٦٠هـ (٣) .

ولقد أهدى ابن شرف كما ذكرنا آنفاً الحركة الأدبية مجموعة من المصنفات الأدبية القيمة من حيث الشكل والمضمون ، فمن بين تلك المصنفات نذكر ، كتابه : « أبكار الأفكار » (٤) ، ويقع في جزئين ، ويقول ابن دحية صاحب كتاب المطرب (٥) من أشعار أهل المغرب أنه (اختراع كله في الحكم والأمثال والنظم والنثر) ، ومن كتبه

---

(١) الصفدي : نفسه ،ج٦ ، ص ٩٧ – الكتبي : فوات الوفيات ، ج٢ ، ص ٤١٠ – أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٣٢١ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه .

(٣) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٣٢١-٣٢٢ – محمد عبدالمنعم خفاجي : المرجع السابق ، ص ١٠٨-١١٢ .

(٤) الصفدي : نفسه ،ص ٩٧- الكتبي : نفس المصدر السابق والجزء ،ص ٤١٠- ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ٦٦- أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٣٢٣ .

(٥) ص ٦٦ .

أيضـاً « ملح اللمح » (١) ، وهو الكتـاب الذي عـارضـه فـيـه ابن رشـيق برسالته: « نسخ الملح وفسخ الملح » حسبما أشرنا من قبل .

على أن أشـهـر مصنفات ابن شـرف القيِّمة من الناحيـتين : الأدبيـة الخالصة والنقدية ، هو كتاب : « أعلام الكلام » أو « مسائل الانتقاد بلطف الفهم والانتقاد » ، وهذا الكتـاب في الواقع حـمل أكثر من اسم ، بل حتى اختلف الاسم الواحد له (٢) . ويرى أحد الباحثين (٣) أن أعلام الكلام هو نفسه كتاب مسائل الانتقاد ، وليس كتاباً آخر مستقلا .

ومهما يكن من أمر ، فإن كتاب أعلام الكلام (مسائل الانتقاد بلطف الفهم والانتقاد) كتاب أدبي طريف وممتع في بابه وموضوعه ، فعدا القيمة أو الهدف الأسـاسي لتصنيفه ، وهو النقد الأدبي ، فـهو كتـاب أدبي رائق النثـر بما يحتـوى عليه من المحسنات البديعية المختلفة . كما أنه – وهذا تطور أدبي مـهم – قد جاء على شكل مقامات اخترع ابن شرف شخصية

---

(١) ابن دحية : نفس المصدرالسابق ، ص ٦٦– ويسميه لمح الملح . ويبدو أنه تصحيف ، وإلاَّ فالمعقول أن يكون اسمه : ملح اللمح ، كما أشرنا في المتن والسبب في ذلك أن ابن رشيق له كتاب بعنوان « فتح الملح ونسخ اللمح » الذي أشرنا إليه سابقاً ، وقد ألفه ليعارض به كتاب ابن شرف هذا .

(٢) فهو قد حمل اسم أعلام الكلام . واسم : مسائل الإنتقاد بلطف الفهم والافتقاد . حسبما أشرنا في المتن ويطلق عليه مسائل الانتقاد كذلك .أنظر أبو القاسم كرو وعبدالله شريط :نفسه ، ص ٣٢٣– محمد عبدالمنعم خفاجي : نفسه ،ص ١١٢ .

(٣) هو عبدالعزيز أمين الخانجي مصحح وضابط ألفاظ هذا الكتاب لابن شرف أنظر أبن شرف : مسائل الانتقاد بلطف الفهم والافتقاد (أعلام الكلام) ، صححه وضبط ألفاظه عبدالعزيز أمين الخانجي ، المقدمة ، ص ١٠ .

راويها (١) ، كما اخترع من قبل بديع الزمان الهمذاني في مقاماته شخصية عيسى بن هشام ، فجاء الكتاب - على عدم جدة موضوعه - ، قطعة أدبية رائعة تدل على مقدار ما بلغته الحركة الأدبية الإفريقية من ازدهار وتطور في عصر الزيريين .

على أن ابن شرف لم يكن وحده الذي اشتهر بتحرير المقامات أو أنه السباق في ذلك . فقد ذكر بأن محمداً القرشي الطارقي ، الذي ترجمنا له ونحن نتحدث عن الكتاب في العصر الزيري كان أحد الذين اشتهروا بتحرير المقامات المتدعة ، وإن لم نعثر على نصوص أو نماذج لتلك المقامات المبتدعة (٢) .

---

(١) ابن شرف : مسائل الانتقاد بلطف الفهم والانتقاد ، ص ١٣- ١٥- مقدمة المؤلف نفسه .

(٢) أنظر عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ٢١٣ .

الشعـــر

- الشعـر في عصـر الولاة
- الشعـر في عصر الأغالبة
- الشعر في عصر الفاطميين
- الشعر في عصر الزيريين

الشعر في عصر الـــولاة :

لعل من الضروري هنا أن نعود بالأذهان إلى ماسبق وقلناه من قبل من أن عصر الولاة ، على الظروف العديدة التي شرحناها ، والتي أدت إلى تأخر الاهتمام بالأدب ، قد شهد حركة أدبية لا بأس لها ، تفاعلت أصداؤها في أرجاء البلاد . وذكرنا أيضا أن تلك الحركة الأدبية المتواضعة كانت ذات شقين : شق جاء عفوياً غير مباشر ، وشق آخر كان بمثابة حركة أدبية وافدة بمؤثراته التي تبنته ، وبعناصره التي صنعته .

أما فيما يتصل بالشق الأول الذي أسهم في انبعاث حركة أدبية لا بأس بها آنذال في هذا العصر ، فإنه قد جاء نتيجة طبيعية أو إن شئنا الدقة صدى للخلافات التي شجرت بين بعض الولاة العرب ، وبين الخارجين عليهم من رؤساء الجند العرب المقيمين بإفريقية وقذاك ، إذ لجأ كلا الطرفين لاستخدام سلاح الأدب ، مع ما استخدموه من سلاح وعدة في مقارعة بعضهم بعضاً . ولم يكن ذلك السلاح الأدبي ، سوى سلاح الشعر الماضي الفتاك ، الذي لاجدال في أن العرب كانو يجيدون استخدامه .

ومن المألوف والحالة كذلك أن تكون الأغراض الشعرية التي دارت على ألسنة أولئك الذين أوتوا نصيباً من الشاعرية ، لاتخرج عن أغراض محددة تتفق مع الظروف التي فرضتها الأحداث آنذاك . ومن هنا فقد رأينا النصوص التي حفظت عن تلك الفترة لا تتجاوز في أغراضها الشعرية : الفخر، والوعيد ، والهجاء ، والعتاب .

ومهما يكن من أمر فإن من أوائل الذين حركت الأحداث السياسية شاعريتهم في ذلك العصر ، أبوالخطار الحسام بن ضرار بن سلامان الكلبي (١) (ت : ١٣٠هـ) (٢) ، أحد العرب اليمنية الذين كانوا برفقة الوالي الأموى : بشر بن حنظلة الكلبي (١٠٢ - ١٠٩هـ) فقد حفظت له مقطوعة شعرية في الوعيد تدور في فلك العصبية القبلية التي كانت قائمة وقتذاك بين المضرية واليمنية (٣) ويقول ابراهيم الدسوقي جاد الرب(٤) أن تلك القطعة تركت أثراً مدوياً وقتها في المشرق والمغرب معاً .

ومن الشعراء الذين عرفهم عصر الولاة ، وعرف آثاراً شعرية لهم ، أبو داود سليمان بن حميد الغافقي (٤) (ت : ١٣٥هـ) (ت : ١٣٥هـ) ، وقد وصفه (٥) ابن الآبار بقوله : (فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره ، وأحسن الناس لساناً ، وأبلغهم إلى المعرفة بأيام العرب وأخبارها ، ورواية لوقائعها وأشعارها) . وسليمان بن حميد الغافقي أحد رجالات العرب بإفريقية الذين عاصروا عبدالرحمن بن حبيب الفهري الذي تولى أمر إفريقية

---

(١) ترجم له كل من : ابن الأبار : الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ج١ ، ص ٦١- ٦٦ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب ، شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ١٦- ١٧- الزركلي : نفسه ، ج٢، ص١٧٥ .

(٢) الوحيد الذي أشار إلى سنة وفاته هو الزركلي : نفسه ، ج٢، ص ١٧٥ .

(٣) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المرجع السابق ،ص ١٦ .

(٤) شعر المغرب حتي خلافة المعز ،ص ١٧ .

(٥) ترجمته موجودة عند ابن الأبار : نفس المصدر السابق ، ج١ ،ص ٨٢- ٨٣ ، حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٣٣-١٣٥- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ص ٧٣ - ٧٤ .

عام ١٢٧هـ ، والذين دخلوا في خدمته ، غير أنه مالبث أن أمر بسجنه ، ويبدو أن هذه الحادثة كانت سبباً في تحريك كوامن الشعر لدى هذا الفارس والشاعر المعروف ، فشرع ينظم الشعر ، ولسوء الحظ فإنه لم يحفظ من ذلك العطاء الشعري له سوى نص واحد يقع في عدة أبيات ، وافتخر فيها الشاعر بنفسه وبقومه (١) . ويمتاز هذا النص بجزالة الألفاظ ورصانة العبارة ، وقوة الجرس مثلما كان يتميز به شعر الفخر في المشرق (٢) .

وفي إبان ولاية الوالي العباسي الأغلب بن سالم بن عقال التميمي (١٤٨- ١٥٠هـ) ، احتدم الصراع بينه وبين أحد الثائرين العرب عليه وهو الحسن بن حرب الكندي (٣) . ومن الطبيعي أن يسهم النظم في ذلك الصراع بين الرجلين اللذين كانا يتمتعان بموهبة شعرية ، ولقد احتفظ المؤرخون من ذلك النظم بمقطوعتين شعريتين تنتميان إلى الفخر تبودلتا بين الرجلين (٤) . ومماً هو جدير بالذكر أن المقطوعتين جاءتا على نسق واحد وزناً وقافية وحركة روى ، وعدد أبيات ، وهذا أمر شائع معروف في حلبات الصراع العربي كما يقول ابراهيم الدسوقي جاد الرب (٥) .

---

(١) أنظر نص القطعة عند ابن الأبار : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٨٣- حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم أعلاه ،ص ٣٥- ابراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ٧٣ .

(٢) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٧٤ .

(٣) عن تلك الأحداث أنظر ابن عذارى : نفسه - والجزء ، ص ٧٤- ٧٥- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٣٤٨- ٣٥٠ .

(٤) أنظر نص المقطوعتين عند ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ،ص ٦٨ - ٦٩، ٧٢- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ،ص ١٨-١٩ .

(٥) شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ١٩ .

وشـهـدت الفـتـرة التي تلت وفـاة الوالي يزيد بن حـاتم المهلي (ت : ١٧٠هـ) والتي تعاقب على حكم بلاد إفريقية والمغرب خلالها عدد من الولاة المهالبـة تياراً شـعـرياً قـوياً ، تجاوبت مع أصدائه البلاد ، وذلك بين الولاة والأمراء المهالبة ، وبين مناوئيهم ، فجاشت النفوس بأشعار قويه في الوعيد والعتاب والفخر .

فممّن أوثر عنه قوله للشـعـر ، الوالي الفضل بن روح بن حـاتم المهلي (١٧٧-١٧٨هـ) ، الذي ثار عليه رجل من الجند العرب المقيمين في إفريقية ويدعى عبدالله بن الجارود العبدي أو العبدوي (١) . ولقد جاءت كذلك على نسق واحد من حيث الوزن والقافيه وحركة الروى ، وعدد الأبيات (٢) .

وعندما استبد عبدالله بن الجارود بالأمور بعد مقتل الوالي السابق الفضل بن روح ، استخدم الشعر في كثير من مواقفه السياسية ، فعلاوة على الأبيات السابقة التي بعثها للفضل بن روح ، حفظت له أبيات في الفخر والوعيد كتلك التي افتخر فيها بنفسه بعد أن أفلح في الفتك بأحد رؤساء جنده (٣) . وكالتي بعثها متوعداً الأمير المهابي العلاء بن سعيد والي إقليم الزاب آنذاك (٤) .

---

(١) أنظر نص المقطوعتين عند ابن الأبار : نفسه ، ص ٧٧-٧٨- ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٠ . ٢١ .

(٢) أبراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ٢١ .

(٣) أنظر نص المقطوعة عند الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ٢٠٠- ابن الأبار : نفسه ، ص ٨٥-٨٦- والرجل الذي فتك به ابن الجارود هو صديقه وقائد جيوشه محمد بن الفارس .

(٤) أنظـر نصـهـا عند الرقـيق القـيرواني : نفسه ، ص ١٩٦- ١٩٧ - ابن الأبار : نفسه ، ص٨٦-٨٧ .

ومن الذين أنطقتهم الأحداث السياسية تلك شعراً ، مالك بن المنذر الكلبي ، الذي كان والياً على مدينة ميلة بالزاب من قبل الفضل بن روح بن حاتم ، والمقطوعة الشعرية التي حفظت عنه تنتمي إلى غرض الفخر ، وكان قد ألقاها أثناء لقاء له مع عبدالله بن الجارود (١) .

ومن الأمراء المهالبة الذين أوتوا حظاً من الشاعرية ، والذين حفظت عنهم قطعة شعرية الأمير العلاء بن سعيد عامل الزاب من قبل الوالي الفضل بن روح بن حاتم ، وهي أيضاً في الوعيد ، وقد بعث بها إلى عبدالله ابن الجارود يتوعده فيها بالثأر منه لقتله للوالي الفضل بن روح (٢) .

ومنهم سعيد بن يزيد بن حاتم ، وقد اشتهرت له قطعة شعرية في النصح (٣) وعبدالله بن يزيد بن حاتم المهلبي أخوه ، وقد خلدت له قطعة من الشعر في العتاب (٤) .

وقبيل أن يأذن عصر الولاة بالانتهاء ، شهد آخر الولاة العباسيين في إفريقية ، وهو محمد بن مقاتل العكي (١٨١- ١٨٤هـ) خروج أحد رجالات العرب المقيمين بإفريقية عليه ، وهو تمام بن تميم الدارمي التميمي (٥) وكما

---

(١) أورد نص المقطوعة كاملة ، ومقطوعة ابن الجارود في الرد عليها : ابن الأبار نفسه ص ٨٦-٨٧ .

(٢) هذه القطعة جاءت رداً على القطعة التي افتخر فيها ابن الجارود بنفسه ، والتي أشرنا إليها في الحاشية رقم (٢) أعلاه .

(٣) ابن الأبار : نفسه ص ٧٩-٨٠ ، حيث أورد نص تلك القطعة ، والظروف التي دعت لها .

(٤) ابن الأبار : نفسه ، ص ٨١- ٨٢- ابراهيم الدسوق : نفسه ، ص ٢٤٤، حيث الإشارة إلى ظروف تلك المقطوعة ، وكذلك نصها الكامل .

(٥) عن تلك الأحداث أنظر الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ٢٠٥ - ٢١١ ابن عذارى : نفسه ، ص ٨٩-٩٢- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣٩٠- ٣٩٥ .

سلف من عادة ، فقد تبادل الرجلان الرسائل التي تشتمل على نظم شعرى من باب الوعيد (١) ، جاء على نسق واحد من حيث الوزن والقافية وحركة الروى ، وعدد الأبيات .

يبقى أن نشير ونحن نتأهب لترك الحديث عن هذه النقطة إلى أن عصر الولاة عرف أول محاولة شعرية جاشت بها نفس أحد أبناء البلاد الإفريقية ممّن ولدوا فيها ودرجوا على ثراها وتنفسوا هواءها ، نعنى به القاضي عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري (٢) (ت: ١٦٠هـ) الذي ذكر بأنه (أول مولود ولد في الإسلام بعد فتح إفريقية ٩ (٣) ، فلقد حفظ عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم مقطوعه شعرية تندرج ضمن غرض الحنين والتشوق (٤) .

والمقطوعة الشعرية تلك جاءت ضمن رسالة كان قد بعثها القاضي عبدالرحمن بن زياد بن أنعم إلى أحد أبنائه في القيروان إبان رحلته إلي العراق .

ومن أبيات تلك المقطوعة :

ذكرت القيروان فهاج شوقي ... وأين القيروان من العــراق

مسيرة أشهر للعيس نصــا ... على الإبل المضمرة العتــاق

---

(١) ابن الأبار : نفسه : ص ٨٨-٩٠- ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٤-٢٥ ، حيث نص المقطوعتين .

(٢) أنظر ترجمته قبل ٣١٣ .

(٣) المالكي : نفسه ، ج١ ،ص ٩٦ .

(٤) المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٩٩ .

فأبلغ أنعمـاً وبني أبيـــه   أومن يرجى له ولنا التلاق
بأن اللـه قد خـلى سبيـلي   وجد بنا المسير إلى مُزاق (١)

أما وقد تيسر لنا إبراز ملامح الحركة الشعرية التي جاءت عفوية في عهود بعض الولاة الأمويين والعباسيين ، وكذلك الإشارة إلى أولئك الذين استفزتهم الظروف والأحداث ، فاستنطقتهم شعراً ، فإن من الملائم هنا أن نتحدث عن الحركة الشعرية الوافدة التي ذكرنا من قبل أنها عمت البلاد في عهد يزيد بن حاتم المهلي .

لعلنا لانكون مبالغين إذا قلنا بأن ولاية يزيد بن حاتم المهلي لإفريقية التي امتدت من عام ١٥٥ حتى عام ١٧٠هـ أي حوالي ستة عشر عاما ، تعد نقطة تحول مهمة تركت آثارها الحسنة في البلاد في شتى منامي الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية والعلمية ، وإذا كان ليس من مهمتنا التحدث عن أعماله الجليلة في تلك المناحي (٢) ، فإن ماهو خليق بالإشارة إليه هنا التنوية بجهوده العلمية ، والأدبية منها على وجه الخصوص. ذلك أن يزيداً بن حاتم منذ أن استقرت له الأمور في البلاد عمل على إضفاء جو ثقافي وأدبـي في البلاد يحيي به تقاليد أسرته العريقة في تشـجيع الأدب والأدباء . وفي الحق فإن ذلك لم يكن مستغرباً منه ، وهو الذي وصف

(١) وضّح المالكي : نفسه ، ص ٩٩ - ابن أبي دينار : نفسه ، ص ١٨-١٩ مايعنيه هذا المعلم الجغرافي فقالا إنه فحص من أحد فحوص إفريقية أو القيروان وسمى بذلك لأن السحاب كان يتمذق عنده .

(٢) عن جلائل الأعمال تلك : أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ج١، ص ٣٥٨- ٣٦٤ ، ٣٦٤ - ٣٧٠ مع الحواشي .

بأنه (كان جواداً سرياً مقصوداً ، ممدحاً) (١) . ولذلك فقد رأيناه يستقدم بعض الأدباء والشعراء المشارقة ممَّن ذاع صيتهم آنذاك ، إلى جانب أن بعضاً من الشعراء والأدباء ، وقد تراءت إلى أسماعهم عطايا الأمير يزيد وهداياه ، قصدوا بلاطه ، وأسهم هؤلاء وأولئك في انبعاث حركة أدبية نشطة في البلاد تعهدها الوالي ورعاها بكرمه وجوده ، ليس هذا فحسب بل ، وبمشاركته أيضا. (٢) .

وها نحن نعرض أولاً ، إلى أبرز من أم بلاطه من الشعراء المشارقة . أما اللغويون والنحاة الذين قدموا عليه ، فسوف نعرض لهم بعد إن شاء الله، ولعل أبرز من وفد على يزيد بن حاتم طمعاً في نواله الشاعر المشهور أبو أسامة ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي أحد شعراء الدولة العباسية المجيدين ، ممَّن طارت شهرتهم في الآفاق ، وقد امتدحه بقصيدة خالدة ، نالت لدى مؤرخي الأدب شهرة عريضة (٣) .

ومع أننا لانعرف على وجه اليقين ، ولا على وجه التقريب ، متى غادر ربيعة بن ثابت الرقي إفريقية ، وكم أمضى فيها ؟ إلاَّ أننا لانستبعد أن يكون قد أضفى على البلاد حركة شعرية طيبة ، لاسيما وهو الشاعر الطائر الصيت ، كما أننا لانستبعد أن يكون قد ترك أثراً وتأثيراً لدى الشبيبة

---

(١) ابن خلكان : نفسه ، ج٦ ، ص ٣٢١- ٣٢٢ .

(٢) عن بعض محاولاته الشعرية ، وكذلك عن حسه وذوقه الأدبي والنقدي : أنظر ابن خلكان : نفسه ، ص ٣٢٥ - ابن الأبار ، نفسه ،ج١، ص ٧٦ .

(٣) أنظر ابن خلكان : نفسه ، ص ٣٢٢-٣٢٣- ابن الأبار : نفسه ، ص ٧٤-٧٥ ، حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٤١-١٤٣، حيث نص القصيدة .

الإفريقية آنذاك .

ومن الشعراء الذين وفدوا على يزيد بن حاتم ، محمد بن عبدالله بن مسلم المعروف بابن المولى ، وقد مدحه بعده مقطوعات شعرية ، سارت بها الركبان (١) وهو ممَّن قصده كذلك أيام ولايته على مصر (٢) .

ومنهم الشاعر المشهور : المسهر التميمي ، الذي قصد إفريقية طمعاً في عطايا يزيد بن حاتم ، وقد حفظ عنه مدحه بقصيدة سائرة مشهورة (٣) ، دفعت بيزيد إلى إغداق الجوائز عليه ، ويظن حسن حسنى عبدالوهاب (٤) أن المسهر التميمي مكث لفترة طويلة من الزمن في إفريقية ، وإذا ما ثبت ذلك ، فإنه يعطينا دون ريب انطباعاً حسناً عن الحركة الشعرية في إفريقية آنذاك .

وممَّن وفد على يزيد بن حاتم ، بل ممَّن قدم معه ، المعمر بن سنان التميمي ، وهو وإن لم يكن من الشعراء إلاَّ أنه كان من ذوي الأدب ، ومن رواته. وقد أشار إلى اهتمامه بالأدب : ابن الآبار (٥) ، وألى قصة قدومه مع يزيد بن حاتم ، فقال : « وكان زميله في طريقه إذا ركب عماريته لأنسه

---

(١) ابن خلكان : نفسه ،ج٦، ص ٣٢٦ – حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، القسم الأول ، ص ١٤٥– ١٤٦ – حيث الإشارة إلى تلك المقطوعات .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ،ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلكان : نفسه ،ص ٣٢٥– ٣٢٦ – حسن حسني عبدوالهاب : نفسه ص ١٤٤ ، حيث الإشارة إلى بعض أبيات تلك القصيدة .

(٤) الورقات : القسم الأول ،ص ١٤٤ .

(٥) الحلة السيراء ، ج١ ، ص ١٠٧ .

يه واستماعه من حديثه ، وكان المعمر من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب » .

والجملة الأخيرة من كلام ابن الأبار ، وهي قوله : وعنه أخذ أهل إفريقية .. الخ تغنينا عن التعليق ، فلسنا بعدها في حاجة إلى ذكر ما أفادت الحركة الأدبية من وفادة هذا الرواي المؤرخ للأدب ، ويقول حسن حسني عببد الوهاب (١) إن المعمر بن سنان ظل في إفريقية حتى ولاية الفضل بن روح بن حاتم المهلبي (١٧٧- ١٧٨هـ) حيث توفى هناك .

ومماً ينسب من حسن الحظ ليزيد بن حاتم ، أن المعمر بن سنان لم يكو وحده الذي أثرى الحركة الأدبية بما اشتهر من صحبته ليزيد بن حاتم المهلبي وللولاة المهالبة من أهل بيته ، فقد كان للمعمر دور أدبي عن طريق ابنه عامر ، الذي كان شاعراً مشهوراً ، قد امتدح ابراهيم بن الأغلب قبل وبعد أن يتولى إمرة إفريقية (٢) ، ولقد أهدى ذلك البيت أيضاً للحركة الأدبية شاعراً وأديباً ثالثاً ، هو : حمزة بن أحمد بن عامر بن المعمر الذي عاش في العهد الأغلبي ، ومات في منتصف القرن الثالث الهجري (٣) .

---

(١) الورقات، القسم الأول ، ص ١٣٧ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٣٨ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه . والقسم ،ص ١٣٨- ١٣٩ .

الشعر في عصر الأغالبية :

تستلفت نظر الباحث ، وهو يتتبع حركة الشعر واتجاهاته ورجالاته في إفريقية خلال عصر الأغالبة العديد من المؤشرات ذات الدلالات الإيجابية التي كان لها أثرها الطيب في مسيرة الدراسات الأدبية هناك . ولعل أول تلك المؤشرات هي أن إفريقية عرفت وقتذاك ولأول مرة شعراء أوتوا نصيباً من الشاعرية أنبتتهم التربة الإفريقية . أي أننا بدأنا نجد من أبناء البلاد الأصليين سواء كانوا عرباً أو بربراً من قرض الشعر ونظمه ، ممَّا يصدق معه إطلاق لقب شاعر عليهم ، وهذا بالطبع أمر له دلالته البالغة .

وممَّا تبدى لنا من مؤشر حسن ، ونحن نمعن النظر في الحركة الشعرية خلال هذا العصر ، وهو أن بعض أولئك الشعراء الذين أظهرهم العصر الأغلبي كانوا من فقهاء وزهاد المالكية على وجه التعيين .

والمؤشر الثالث الذي لفت نظرنا ، هو أن معظم الأمراء الأغالبة الذين حكموا إفريقية ابتداءً من الأمير ابراهيم بن الأغلب أولهم ، وانتهاءً بزيادة الله الثالث آخرهم ، قرضوا الشعر ونظموه في أكثر المعاني والأغراض ، ولم يكن الأمر قاصراً على الأمراء الذين تولوا سدة الحكم فحسب وإنما شارك في قول الشعر ونظمه عدد آخر من الأمراء المهالبة ، ممَّن كانوا يتولون حكم الولايات وقيادة الجيوش .

وثمة مؤشر رابع تابعناه ، ونحن نرقب ذلك الإنتاج الذي خلفه عصر الأغالبة ، هو أن شعراءه طرقوا معظم أغراض الشعر المعروفة ، وإن كانت

الغلبة والظهور قد رافقا بعض الأغراض الشعرية دون الأخرى ، مثل الرثاء، والهجاء ، والمديح ، وشعر الزهد ، فقد كانت هذه الأغراض أحفل في الظهور والاهتمام دون بقية الأغراض ، هذا في الوقت الذي لم تلق بعض الأغراض مثل الغزل أي قدر ملحوظ من الاهتمام والظهور تقريباً .

والمؤشر الخامس والأخير في سلسلة ملاحظاتنا على الحركة الشعرية في العصر الأغلبي أن المعاني والأخيلة ، أو أدوات البناء الشعري عموماً وأشكالها ، جهدت على أن تتمشى مع طبيعة روح العصر الأدبي التي كانت قد قصرت أن تبلغهما بالطبع .

وأيا ماكان الأمر ، فإذا مضينا نترجم لأبرز الشعراء وأشعارهم خلال هذا العصر ، فإن ضرورة المنطق تستدعى تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام تبعاً لاتجاهاتهم الفكرية والإجتماعية كما أشار إلى ذلك بحق رابح بونار (١) وهذه الأقسام الثلاثة هي : الشعراء الأمراء ، والشعراء الفقهاء والزهاد ، والشعراء الأدباء الخلص .

---

(١) نفسه ، ص ١٠٧ .

الشعراء الأمراء :

لابراح في أن الأمـيـر ابراهيم بن الأغلب (١٨٤-١٩٦هـ) مـؤسس الدولة الأغلبية ورأسها ، يعد في طليعة الشعراء الأمراء الأغالبة ، وهو واحد من أشهر شعراء العصر الأغلبي . فقد حفظ عنه الكثير من القطع الشعرية التي تدل على علو كعبة في الشعر ، وكيف لايحدث هذا ، وهو الذي وصف بأنه (كان عالماً أديباً شاعراً خطيباً) ؟ (١) .

وفي الحق فإن شاعرية ابراهيم بن الأغلب قد تجلت قبل أن يتولى الإمرة فقد روى أنه كانت له مقطوعات شعرية في الوعيد والفخر والهجاء في مناوئيه ومناوئي ولاة إفريقية قبله (٢) .

وعندما تولى الإمرة دعت ظروف ودواع إلى أن يستخدم ، وهو الشاعر الأديب سلاح الشعر الماضي في مواجهة مناوئيه الخارجين عليه . ومن الطبيعي أن تكون الأغراض التي طرقها في أشعار إمرته لاتختلف عن الأغراض التي طرقها من قبل أن يتولى الإمارة ، وذلك لتشابه الدواعي والظروف (٣) .

---

(١) ابن الأبار : نفسه ، ص ٩٣ .

(٢) عن تلك الأشعار ، أنظر ابن الأبار : نفسه ، ص ٩٥ - ٩٦- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه، ص ٧٢٥- ٩٥٢ .

(٣) راجع ابن الأبار : نفسه ص ٩٨، حيث الإشارة إلى شعر الوعيد ، ص ١٠٤ حيث الإشارة إلى شعر الفخر ، - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٢٩- ٣٠ ، حيث الإشارة إلي أشعار الوعيد ، ص ٧٦- ٧٧ حيث الإشارة إلى نصوص الفخر .

ومن أبنائه لصلبه ممَّن اشتهر بقول الشعر وفرضه الأمير زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب : (٢٠٢- ٢٢٣هـ) ، فقد كان شاعراً متضلعاً في الشعر ، مع قلة شعره ، ويقول ابن الأبار عنه (١) : (كان أبوه ابراهيم بن الأغلب إذا قدم عليه أحد الأعراب والعلماء بالعربية والشعراء ، أصحبهم ابنه زيادة الله هذا ، وأمرهم بملازمته ، فكان أفضل أهل بيته ، وأفصحهم لساناً ، وأكثرهم بياناً وكان يعرب كلامه ولايلحن ، دون تشادق ولا تقصير ، ويصوغ الشعر الجيد) . ووصف ابن الأبار (٢) مكانته في الأدب فقال عنه بأنه كان أمتن إخوته أدباً بعد أبيه .

وقد أفلت من الشعر الذي كان يصنعه ويكتمه ، كما يقول ابن الأبار (٣) بضع مقطوعات جيدة في شعر الوعيد والشكوى ، والنسيب ،كانت كلها تدل على أصالة شعرية ، وقدرة فائقة على التعبير (٤) .

أما الأمير الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٣- ٢٢٦هـ) ، وهو ثالث إخوته ممَّن تولى الإمارة ،فقد (كان له حظ من الأدب يصوغ به مقطعات من الشعر) كما يقول ابن الأبار (٥) . لكننا لم نظفر من تلك المقطعات إلاَّ بثلاثة أبيات في النسيب (٦) ، وهي على تفردها وقصرها تتسم بالعبارة

---

(١) نفسه : ج١، ص١٦٣ .

(٢) نفسه ، ص ١٦٨ .

(٣) نفسه ، ص ١٦٥ .

(٤) عن تلك المقطوعات : أنظر ابن الأبار : نفسه ، ص ١٦٥ -١٦٦ -١٦٧ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٣٢، ١١٢- ١١٣، ٢٣٣- ٢٣٤ .

(٥) نفسه ، ص ١٦٨ .

(٦) ابن الأبار : نفسه ، ص١٦٩- ابراهيم الدسوقي : نفسه ص ٢٣٤ .

البارعة كما يرى ابراهيم الدسوقي جاد الرب (١) .

وكان الأمير محمد ابنه (٢٢٦- ٢٤٢هـ) الذي تولى الإمارة بعده ، لايقل حظاً من الأدب عن أبيه ،وقد حفظت له قصيدة في الفخر ، تعد من أطول نصوص الفخر في العصر الأغلبي (٢) ، مع أنها لم تكن ذات متانة شعرية ، لافتقارها إلى قوة الجرس المطلوبة عادة في شعر الفخر (٣) .

هؤلاء الأمراء الأغالبة الحكام كانوا في نظر مؤرخي الأدب أشهر الأمراء الحكام وأقربهم إلى صفة الشاعرية . أما بقية الأمراء الآخرين . فقد كانوا أقل حظاً في الشاعرية منهم ، وإن كان بعضهم قد خلف شيئاً من الشعر في أغراض الفخر والحنين وغيره . مثل الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٤) (٢٦١- ٢٨٩هـ) ، وابنه الأمير عبدالله بن ابراهيم بن أحمد (٥) (٢٨٩-٢٩٠هـ) ، وحفيده زيادة الله (٦) (الثالث) بن عبدالله بن ابراهيم بن أحمد (٢٩٠- ٢٩٦هـ) .

---

(١) نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٢) عن تلك القصيدة : أنظر ابن الأبار ، نفسه ، ص ١٧٠-١٧١ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٧٨-٧٩ .

(٣) ابراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ٧٩-٨٠ .

(٤) حيث ذكر بيتان في الفخر له ، انظر بن الأبار : نفسه ،ص ١٧٢- ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٨٠ .

(٥) وقد روى له ثلاثة أبيات في شعر الحنين قالها وهو في صقلية بعيداً عن القيروان ، أنظر عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ،ص ٤٠-ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص٢٥٤ .

(٦) وقد رويت له أربعة أبيات في الفخر ، انظر ابن الأبار : نفسه ، ص ١٧٨ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٨٥- ٨٦ .

وإذا تركنا الأمراء الأغالبة الحكام جانباً ، فهناك نفر آخر من أفراد البيت الأغلبي أثرى الحركة الشعرية بآثاره وأدبه . فمن أبرز أولئك الأمراء . أحمد بن سفيان بن سوادة بن سفيان بن سالم بن عقال ، الذي كان والياً على إقليم الزاب ،ثم طرابلس في عهد الأمير أبي العباس محمد الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب المتوفى عام ٢٤٢هـ كما عرفنا سبقا . فقد كان أحمد هذا شاعراً معروفاً ، ومماً ينسب إليه مقطوعتان في الفخر ، تدل على شاعرية قوية متمكنة (١) .

ومنهم محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب الذي كان والياً على طرابلس في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد المتوفى عام ٢٨٩هـ ، وقد وصفه ابن الأبار (٢) بقوله : كان عالماً أديباً شاعراً خطيباً ، مع عشرة لإخوانه ولين جانب لأخدانه . لاينادم إلاً أهل الأدب). وقد قتل عام ٢٨٤هـ على يد ابن عمه الأمير ابراهيم بن أحمد (٣). ومماً حفظ عنه أبيات حسنة في شعر الحنين (٤) .

ومن الأمراء الأغالبة كذلك في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد ، مجير ابن ابراهيم بن سفيان ، الذي كان والياً على صقلية من قبل الأمير ابراهيم

---

(١) عن هذا الأمير ، وعن تلك المقطوعتين ،أنظر ابن الأبار : نفسه ،ص ١٨٢- ١٨٣ ، ١٨٥- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ٨١ - ٨٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٩- ١٨٠ .

(٣) عن ظروف مقتله : أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ١٤٠- ١٤١، ١٤٣ .

(٤) ابن الأبار : نفسه ص ١٨١ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، حيث الإشارة إلي النص .

الثاني ، ثم مالبث بعد ذلك أن وقع أسيراً في يد الروم ، حيث بعث إلى القسطنطينية ، ولقد بعث من أسره في القسطنطينية بقصيدة طويلة « اشتهرت آنذاك اشتهاراً كبيراً .

٢- الشعراء الفقهاء :-

لم يكن قول الشعر وقرضه وقفاً على الأمراء الأغالبة ، ولا على بقية الأدباء الآخرين وحدهم ، فقد شارك بعض فقهاء البلاد في إرواء الحركة الشعرية بفيض لا بأس به من شعرهم المتعدد المعاني والأغراض ، فمن أوائل الفقهاء الذين أوتوا شيئاً من الشاعرية : الفقيه المالكي عبدالله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى عام : ٢٢٧هـ وهو أحد الفقهاء الذين كنا قد عرضنا لهم من قبل أثناء حديثنا عن الفقه في العصر الأغلبي . ومما حفظ عنه من شعر أبيات أربعة في شعر الشكوى (١) . وأيضاً الفقيه عبدالملك بن نصر . وقد اشتهر له من الشعر مقطوعه تقع في أربعة أبيات رثى بها الفقيه المشهور سحنون بن سعيد المتوفى عام ٢٤٠هـ (٢) . ومن العباد الذين قالوا الشعر نذكر حاتم الجبنياني الذي نظم قصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتا في رثاء عبدالرحيم بن عبدين المتعبد (٣) .

ومن الفقهاء الذين روى عنهم شئ من الشعر ، نذكر الفقيه محمد بن

---

(١) المالكي : نفسه ،ص ٢٠٣ - ابرهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ١١٢- ١١٣ .

(٢) المالكي : نفسه ،ص ٩٠- ابراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ١٩٥ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٣٢٣ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٩٥ .

داوود . ومعلوماتنا في الحق عن محمد بن داوود لاتتعدى مجرد معرفه اسمه فحسب ، غير أن ماعرفنا به هو مقطوعة شعرية جيدة في الرثاء ، قالها في رثاء صديقة الفقيه محمد بن سحنون (١) المتوفي عام ٢٥٦هـ كما أشرنا لذلك من قبل .

بيد أن أبعد أولئك الفقهاء ذكراً في الشعر وأشهرهم فيه في هذا العصر الأغلبي الذي نؤرخ له كان بلامراء الفقيه المشهور أحمد بن أبي سليمان داود المعروف بالصواف (٢) (ت : ٢٩١هـ) ، وأحمد بن أبي سليمان أحمد ممَّن تتلمذ على الفقيه الأشهر سحنون بن سعيد وأفاد منه ، ومن هنا كان يعبر في شعره دائماً عن تقديره العميق له ولابنه محمد بن سحنون كذلك ، ويبدو أن مكانته الشعرية كانت تزاحم مكانته في الفقه ، ومما جاء في الثناء على مكانته ما قاله عياض (٣) من أنه كان أديباً وراوية للشعر، مكثر القول فيه ، ونقل عياض (٤) أيضاً عن أحد مصادره التي اعتمد عليها ، أنه كان له بالشعر عناية في أول أمره ، فلما صار إلى درجة العلم وصحبة العلماء ترك قوله) .

وكيفما كان الأمر ، فإن بين أيدينا انتاجاً شعرياً غزيراً له في بعض

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١١٧- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) ترجم له ترجمة واسعة كل من المالكي : نفسه ، ج١ ،ص ٤٠٧- ٤١٣- عياض : نفسه ، ص٢٤٢- ٢٤٥ .

(٣) نفسه ، ج٢ ، ص ٢٤٢ .

(٤) نفسه ، ج٢، ص٢٤٢ .

أغراض الشعر كالرثاء والزهد وغيرهما . فأما ما يتصل بالرثاء ، فقد روى أنه نظم قصيدة تقع في ثلاثمائة بيت – وهو أمر له دلالته البالغة هنا – في رثاء الفقيه محمد بن سحنون . على أنه لم يبق من تلك القصيدة الطويلة سوى أربعة وخمسون بيتا ذكرها المالكي (١) وحده ، في رياضه ، ويقول مطلع تلك القصيدة :

ألا فابك للإسلام إن كنت باكيا   لحبل من الإسلام أصبح واهيا

تثلم حصن الدين وانهد ركنه   عشية أمسى في المقابر ثاويا

إماماً حباه الله فضلا وحكمة   وفقهه في الدين كهلا وناشيئاً

وعلى كل فإن مابقى منها يدل على أنها ذات سبك قوى متين ، فيها حرارة العاطفة ولوعة الأسى ، وعندما توفى الفقيه عبدالله بن طالب (ت:٢٧٥هـ) رثاه أحمد بن أبي سليمان الصواف كذلك بقصيدة طويلة ، لم يشر إلاَّ إلى ستة أبيات منها فقط (٢) .

والغرض الشعري الآخر الذي قال فيه أحمد بن أبي سليمان، وأجاد ، هو غرض الزهد ومايسمى بالشعر الروحي . ولقد ترك العديد من القصائد الطوال فيه ، التي توضح نظرته للحياة ومواقفه الداعية إلى إيثار العبادة والعلم ، والرغبة في العزلة ، والانقطاع عن الدنيا والتبرم بها ، والندم على مافات إلى غير ذلك (١) . ولقد ترك قصيدة تعبر عن موقفه من الشعر الذي

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٣٥٧ – ٣٦٠ .

(٢) نفسه ، ج١ ، حاشية رقم ٣ ، ٣٨٧ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٤١٠– ٤١٣ – ابراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ١٤٢ – ١٤٧ .

زهد فيه الشعراء وهي جيدة ذات سبك حسن (١) على قصرها .

وثمة فقيه آخر أوتى شيئاً طيباً من الشاعرية ، وهو الفقيه محمد ابن عبدالرحمن بن سليم بن أراب بن سهيل الفارَسي الملقب بزرزر (٢) (ت : ٢٩١هـ) ، فقد ذكر بأنه كان (حافظاً للغريب بصيراً بالعربية ، راوية للاشعار يحسن الصنعه له جيد القول فيها) (٣) ، ويقول المالكي (٤) عن انتاجه والطابع الذي يغلب عليه : (وشعره كثيرجداً ، واكثره في توحيد الله عز وجل ، والرد على الزنادقة والملحدين والكذابين) . على أنه لم يزودنا من شعره الكثير جداً ، إلاَّ بمقطوعة واحدة تقع في خمسة أبيات (٥) ، وقد أتت صورة صادقة تعكس الطابع الذي تميز به شعره الذي أشار إليه المالكي .

وأخيراً ، فإن الفقيه عيسى بن مسكين (ت : ٢٩٦هـ) ، الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن الدراسات الشرعية في العصر الأغلبي ، كان من الفقهاء الذين عرف عنهم قولهم للشعر ، ولقد وصفه عياض (٦) بالفصاحة وإجادة الشعر ومماً حفظ عنه من ذلك الشعر الذي كان جيداً ،

---

(١) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١٤٢ .

(٢) ترجم له الخشني : المصدر السابق ،ص ١٩٠- المالكي : نفسه ،ص ٤١٤ - ٤١٦ . وقد نبه محقق الجزء الأول من الرياض حسين مؤنس إلى اسمه كاملاً بناءاً على ما أستقاه من مصادر مختلفة . أنظر المالكي : نفسه ، حاشية رقم ٢ ، ص ٤١٤، ويقول في نفس الحاشية أن زرزر لقب له وليس اسمه .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٤١٥ .

(٤) نفسه ،ص ٤١٥ .

(٥) المالكي : نفسه ، ج١، ص ٤١٥ .

(٦) نفسه ، ج٢، ص ٢١٥ .

ثلاث قطع في الشكوى والتوجع بعد أن هده الكبر وذهب عنه الشباب (١) .
ولعل من أمتع تلك القطع ، القطعة التي ذكر منها هذان البيتان (٢) .

لما كبرت أتتنى كل داهية — وكل ما كان منى زايد انقصا
أصافح الأرض إن رمت القيام وان — مشيت تصحبنى ذات اليمين عصا

٣- الشعراء الأدباء :-

ونقصد بذلك أولئك الذين طغت عليهم صفة الأدب عامة ، وصناعة الشعر خاصة ، وسواء كانوا من الثائرين على الدولة الأغلبية ، أو غيرهم .
فمن أوائل أولئك نذكر خريشاً بن عبدالرحمن بن خريش الكندي (توفى مقتولاً عام ١٨٦ هـ) وهو أحد الثائرين على الأمير ابراهيم بن الأغلب إبان إمارته ، وقد نسب إليه قطعة في شعر الوعيد بعث بها إلى الأمير ابراهيم ، وهي على قصر أبياتها تدل على شاعرية حسنة لدى خريش الكندي (٣) .

ومن أولئك الثائرين علي ابراهيم بن الأغلب ممَّن كان له شئ من الشعر ، عمران بن مجالد بن يزيد الربعي (توفى مقتولاً كذلك عام ١٩٦هـ) وقد أورد ابن الأبار (٤) له مقطوعة واحدة في شعر الفخر.

---

(١) أنظر عياض : نفسه ، ص ٢٢٦- ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١٤٤- ١١٥ .
(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٢٦ .
(٣) ابن الأبار : نفسه ، ج١ ،ص ١٠٢- ١٠٣ .
(٤) نفسه ، ص ١٠٥- ١٠٦ .

أما الثائر الذي يمكن اعتباره بحق شاعراً أصيلاً ، فهو عامر بن المعمر ابن سنان التميمي ، وعامر بن سنان سبق لنا أن تعرضنا له أثناء حديثنا عن والده المعمر بن سنان ، الذي كان أحد شعراء عصر الولاة ، ولقد وقف عامر بن سنان هذا يعاضد إبراهيم بن الأغلب بشعره وسيفه حتى قبل أن يتولي الإمارة ، فقد روى أنه نظم قصيدة مدح في ابراهيم أيام تصدية لثورة تمام بن تميم التميمي على والي إفريقية محمد بن مقاتل (١) العكي (١٨١– ١٨٤هـ) . وعندما انتصر ابراهيم على الثائر خريش الكندي الذي ذكرناه آنفاً امتدحه عامر كذلك بقصيدة حسنة (٢) . ولكن عامراً قد استهوته فكرة الثورة والتمرد . فخرج على إبراهيم بن الأغلب مع الثائر عمران بن مجالد الربعي الذي ترجمنا له قبل قليل ، غير أن إبراهيم مالبث أن عفا عنه بعد ذلك (٣) .

ومن شعراء عهد الأمير ابراهيم بن الأغلب ، القائد الفارسي والشاعر المجيد حمزة بن السبال المعروف بالحرون (٤) . ولقد رويت له عدة قطع شعرية في مدح ابراهيم بن الأغلب ، كما رويت له قطعة واختلط فيها الفخر بالوعيد (٥) ، وكذلك الشاعر المعروف بأبي المضرجي – وهذا كل مانعرفه عنه – وذكر القاضي عياض في مداركه (٦) أنه كان أحد جلساء وشعراء

(١) ابن الأبار : نفسه ، ج١، ص ١٠٦– ١٠٧ .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٠٦ .

(٤) ابن الأبار : نفسه ، ج١، ص ١٠٧– ١٠٨ .

(٥) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٩ .

(٦) الجزء الأول ، ص ٣٢٣ .

الأمير ابراهيم بن الأغلب ، ويظهر أن فنه الشعري المشهور هو الهجاء . فقد ذكر عياض (١) أيضاً أنه هجا الفقيه عبدالله بن غانم الرعيني (ت١٩٠هـ) بشعر اشتهر آنذاك .

ومن شعراء العصر الأغلبي الشاعر يعقوب بن يحيى الذي عاش في عهد الأمير زيادة الله بن آبراهيم (٢٠١- ٢٢٣هـ) ، ويبدو أنه كان شاعر الأمير . وقد حفظت عنه مقطوعة شعرية محرضة تقع في أربعة أبيات . وقد قالها محرضاً الأمير للتخلص من بعض الثائرين عليه (٢) آنذاك .

ولقد عرف عهد الأمير زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب شاعراً آخر مشهوراً هو الحسن بن منصور المذحجي ، أحد رجالات العربي النابهين آنذاك ، وقد قال ابن الأبار (٣) عنه بأنه (كان يجمع إلى شرف آبائه وأهل بيته ، علماً واسعاً وأدباً غزيراً ، وأقل ما تصرف فيه الشعر ، وكان بصيراً باللغة ناقداً في النحو عالماً بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها ، هذا وتنسب إليه عدة مقطوعات جيدة في الرثاء والمديح والنسيب (٤) .

ومن ألمع الشعراء الذين عرفهم العصر الأغلبي : ابو العباس محمد ابن حيون الكاتب المعروف بالبريدي : (ت : ٢٧٦هـ) ، الذي كنا قد تلمسنا دوره في نشاط الحركة النثرية إبَّان توليه الكتابة للأمير ابراهيم بن أحمد بن

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٣٢٣- ٣٢٤ .

(٢) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢،ص٦٢- ابراهيم الدسوقي: نفسه ، ص٢٤٦- ٢٤٨ .

(٣) نفسه ،ج١، ص ١٨٧ .

(٤) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٨٧ -١٨٨-ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٣٩ .

محمد بن الأغلب ، فالبريدي بالإضافة إلى شهرته في النثر ، كان شاعراً مجيداً ، ومماً حفظ عنه من شعر جيد الأبيات الثلاثة التي نظمها في ختام رسالة الاستعطاف التي بعث بها إلى الأمير ابراهيم بن أحمد من محبسه ، والأبيات من الشهرة والجودة بحيث لانرى غضاضة في أن نوردها هنا ، فهي توضح لنا مقدار ما بلغته الحركة الشعرية آنذاك من تطور .

هبني أسأت فأين العفو الكـــــــرم	قد قادني نحوك الاذعان والنـــــدم
ياخير من مدت الأيدي إليه أمـــــا	ترثى لمن قد بكاه عندك القلــــم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر	إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا (١)

وشاعر آخر مشهور لايقل مكانة عن البريدي ، عرفه هذا العصر ، وهو عبدالله بن الصائغ الكاتب وصاحب البريد (ت : ٢٩٦هـ) الذي كنا قد عرفنا دوره في الحركة الأدبية عن طريق وظيفته الرسمية في ديوان الانشاء في عهد آخر الأمراء الأغالبة الأمير زيادة الله بن عبدالله بن ابراهيم (٢٩٠-٢٩٦هـ) ، وكذلك دوره السياسي الذي اضطلع به آنذاك فقد كان عبدالله بن الصائغ شاعراً مجيداً ، كما يقول ابن الأبار (٢) ، ولقد أورد له

---

(١) هذه الأبيات متنازع عليها ومختلف فيها أشد الإختلاف فابن عذارى :نفسه ، ص ١١٥، يقول أنها لمحمد بن حيون المعروف بالبريدي هذا الذي نترجم له في المتن ، وكذلك يقول ابن الأبار : نفسه ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، وإن كان لم يقطع بذلك ، فقد أوردها في معرض الإشارة إلى الاختلاف فيها بين من يقول إنها للبريدي وبين من يقول إنها للحاجب الأموي الأندلسي جعفر بن عثمان المصحفي ، وقد قالها مستعطفا الحاجب الأموي المشهور المنصور بن أبي عامر ، وأورد ابن الأبار : نفسه ص ٢٦٦، أيضاً رأيا ثالثاً وهي أن هذه الأبيات تنسب إلي الشاعر الأندلسي أبي عمر بن دراج القسطلي .

(٢) نفسه ، ص ١٧٧ ، ١٨٩ .

عدة مقطوعات شعرية رائعة المعاني والأسلوب : (تمثل قمة ما وصل إليه الشعر المغربي في القرن الثالث الهجري) ، كما ذكر ابراهيم الدسوقي جاد الرب (١) . ومعظم تلك المقطوعات جاءت في غرض واحد ، هو النسيب ، وفي الحق فإننا لانستطيع أن نتجاوز البيتين اللذين صاغهما ارتجالا ومن فوره ، عندما طلب منه الأمير زيادة الله أن يجعل من عجز بيت ، وهو : «فقد صرت بعد البين أقنع بالهجر » .

قال :

ولي كبد لولا الأسى لتصـــــدعت وقلب أبى أن يستريح إلى الصبر

وقد كنت أخشى هجرهم قبل بينهم فقد صرت بعد البين أقنع بالهجر (٢)

وأخيراً فإن هناك شاعراً آخر عاش ردحاً من الزمن في عصر الأغالبة، وتولي ديوان الإنشاء في بلاطات الأمراء الثلاثة الأخيرين منهم ، ثم توفى في صدر العصر الفاطمي ، أي عام ٢٩٨هـ ، ونعنى بذلك الأديب الرياضي الكاتب أبا اليسر ابراهيم الشيباني ، الذي كنا قد ترجمنا له عند حديثنا عن النثر الفني والتأليفي ، وفي الحق فإننا لم نعثر له إلاَّ على بيت واحد من الشعر قاله وهو يجود بأنفاسه وهو :

يكاد جسمي من نحول الضنى تحمله أنفاس عوادى (٣)

---

(١) نفسه ، ص ٣٣٦.

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٧٧ .

(٣) حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٣٦٨– ٣٦٩ .

الشعر في عصر الفاطميين :-

لعل أهم مظهر نلحظه علي الحركة الشعرية في إفريقية خلال عصر الفاطميين ، هو غزارة الإنتاج الشعري الذي خلفه هذا العصر . وما من ريب في أن معظم ذلك الانتاج الشعري الغزير قد جاء نتيجة للتحول السياسي والمذهبي الذي رافق قيام الدولة الفاطمية ، والذي تلمسنا بصماته أو آثاره على ماسبق من حقول الحياة العلمية التي تعرضت لها الدراسة من قبل . بيد أن ذلك التحول السياسي والمذهبي كان أكثر تأثراً في الحرة الشعرية – التي عادة ما تكون المرآة الصادقة لمجمل نواحي الحياة المختلفة – من أي حقل علمي أو أدبي آخر .

فلقد سخرت الدولة الفاطمية منذ أن قامت طاقات من استخوزت عليه من الشعراء لخدمة معتقدها المذهبي ، والدفاع عنه ، ومدح خلفائها والإشادة بهم . وبالمقابل تصدى الشعراء المناصرون للمذهب المالكي إلى مناهضتهم ، ومن الطبيعي والحالة كذلك أن تكون محصلة ذلك محصلة شعرية وفيرة . زد على ذلك أن لغزارة الإنتاج الشعري في هذا العصر سبباً آخر ، إلا وهو رغبة الخلفاء الفاطميين في جعل بلاطاتهم لا تقل روعة ومكانة عن بلاطات منافسيهم في بغداد وقرطبة بصفة خاصة ، وغيرها من البلاطات بصفة عامة . ومن هنا ازدحم بأبوابهم الكثير من الشعراء الذين أثروا الحركة الشعرية بنتاجهم الغزير .

وفيما عدا هذا فبإمكاننا القول إنه ليس ثمة مايميز الحركة الشعرية كثيراً في عصر الفاطميين عن عصر الأغالبة . فلقد تتابع ظهور شعراء

إفريقيين من نبت الأرض الإفريقية ، سواء كانوا عرباً أو بربراً . والأمر الجديد هنا أن بعض أقاليم ومدن إفريقية عرفت شعراء أصلا أرضها ، عاشوا مبرزِّين ينتسبون إليها .

وكما عرف عصر الأغالبة نوعيات ثلاث من الشعراء ، وهم الشعراء الأمراء والشعراء الفقهاء ، والشعراء الأدباء الخلص ، كذلك عرف هذا العصر ، بل واشتهر بهذه النوعيات الثلاث من الشعراء .

وفيما يتصل بالأغراض الشعرية التي قام على سوقها ذلك الإنتاج الشعري الغزير الذي خلفه عصر الفاطميين فإن شعراء طرقوا كسابقيهم في العصر الأغلبي أكثر أغراض الشعر المعروفة ، وإن كانت الغلبة والظهور لبعض الأغراض دون الأخرى مثل المديح والهجاء بصفة خاصة ، ثم الفخر والوصف ، ومايعرف بالشعر الروحي . على أن الغرض الشعري الأحفل كان بلا مراء المديح ، وانزوت بعض الأغراض الأخرى التي كانت سائدة من قبل مثل الرثاء والزهد تقريباً .

وأخيراً ، فإن أدوات البناء الشعرى من معان وأخيله وغيرها من ضروب البناء الشعري عموما تمشت كسابقتها في العصر الأغلبي مع طبيعة روح العصر الأدبي التي كانت تعيشها الحركة الشعرية في الدولة الإسلامية .

الشعـــــراء الخلفـــــاء :

أشرنا آنفاً إلى أن عصر الفاطميين عرف نوعيات ثلاث من الشعراء ، و هم الشعراء الخلفاء ، والشعراء الفقهاء ،ثم الشعراء الأدباء الخلص ، ومن البدهي أن نتطرق بالحديث عن الشعراء الخلفاء جرياً على ما احتذيناه من منهج عند حديثنا عن الشعراء في العصر الأغلبي .

عرف عن الخلفاء الفاطميين الذين تولوا الخلافة في الدور المغربي نظمهم للشعر ، وإن كان حظهم قد اختلف كماً ونوعاً من واحد لآخر . فالخليفة عبيدالله المهدي (٢٩٦- ٣٢٢هـ) مع أنه كان (مفوهاً فصيحاً عالماً أديباً)، كما يقول ابن الأبار (١) ، إلاَّ أنه لم يعرف عنه سوى مقطوعتين احداهما في الوعيد ، وتتكون من عدة أبيات ، بقي منها بيتان فقط ، وهي التي بعثها إلى أحد خصومه في المغرب الأقصى (٢) . والمقطوعة الأخرى في الفخر ، وتقع في أربعة أبيات ، يفتخر فيها بنفسه وبشجاعته وبحيويته الجرارة (٣) وتتميز بجزالة معبرة ، وجرس قوي .

أما الخليفة القائم بأمر الله ابنه (٣٢٢- ٣٣٤هـ) فقد كان أغزر شعراً من أبيه ، وقد اختفظ له المؤرخون بمقطوعتين إحداهما في مايسمى

---

(١) نفسه ، ص ١٩٣ .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٩٣- ابن عذارى : نفسه ، ص ١٧٨ .

(٣) أحمد الطيب الفقيه : المهدية عبر التاريخ ، ص ٢٠٠ – ١-٢ .

بالشعر الروحي وقد بعثها إلى والده في عام ٣٠٣هـ ، عندما أخفق في فتح مصر . وتقع في أحد عشر بيتاً ، وهي عبارة عن (تسبيحة غريبة تصدر اسم الجلالة (الله) كل بيت منها وختمه) (١) وهي في الوعيد ، وتقع في أربعة عشر بيتا (٢) .

ويقول ابن الأبار (٣) ان الأديب العباسي أبا بكر الصولي أجابه بمقطوعة مماثلة لمقطوعته ، وذلك بأمر من الخليفة العباسي المقتدر .

وكان الخليفة المنصور (٣٣٤-٣٤١هـ) لا يقل شاعرية عنهما . وقد عرفت له مقطوعتان الأولى وتتكون من ٨ أبيات بعثها ضمن كتاب إلى ولده المعز لدين الله إبان مطاردته للثائر البربري أبي يزيد مخلد بن كيداد . وهي مقطوعة اختلطت فيها الشكوى بالفخر (٤) . والمقطوعة الأخرى في الفخر ، وقد قالها وهو يتأهب للنصر الوشيك على أبي يزيد مخلد ، وهي أفضل من الأولى من حيث القيمة الشعرية ، فقد تميزت بقوة الجرس ، وجزالة العبارة (٥) كما هو شأن شعر الفخر عادة .

---

(١) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١٨٧- ١٨٨ .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ٢٨٧، ولم يورد منها سوى أربعة أبيات - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٣٨- ٣٩ ، وقد زورد النص بأبياته كلها .

(٣) نفسه ، ص ٢٨٧- ٢٨٨ .

(٤) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٨٧ .

ولم يتخلف الخليفة المعز لدين الله (٣٤١- ٣٦٢هـ) عنهم ، فقد كان (شاعراً أيضاً(١) وأديباً) وكان له شعر يميل فيه إلى استخدام الصنعة والمحسنات البديعية التي كانت سائدة في عصره آنذاك (٢). ولقد نسبت إليه عدة مقطوعات جاءت كلها في النسيب (٣) ، ولعل أشهر المقطوعات ، تلك التي لم يبق منها سوى هذين البيتين :

أطلع الحسن من جبينك شمسا فوق ورد في وجنتيك أطلا

وكأن الجمال خاف على الورد جفافا فمد بالشعر ظـــلا (٤)

فلقد رأى فيهما ابن خلكان (٥) (معنى غريباً بديعاً) ، وفصل محمد عبدالغني حسن (٦) ذلك المعنى الغريب البديع بما في البيتين من خيال جميل وصوره مستحسنة ، وحس شاعري مرهف دقيق ، أو هو الصورة المستملحة المخترعة وكفى .

---

(١) محمد عبدالغني حسن : الأمير الشاعر تميم بن المعز ، سلسلة المكتبة الصغيرة رقم ١١٠ .

(٢) أحمد الطيب الفقيه : المرجع السابق ،ص ٩٧.

(٣) عن تلك النصوص أنظر محمد عبدالغني حسن : نفس المرجع أعلاه ، ص ١١- ١٣ .

(٤) محمد عبد الغني حسن : المرجع السابق ،ص ١٢، و إن كان يقول إنها نسبت إلى شاعر فاطمي مصري آخر هو ظافر الحداد ، (أنظر ص ١٢-١٣) . على أن المؤلف فاته كذلك أن يشير إلى أن هذين البيتين ينسبان إلى الأمير تميم بن المعز نفسه ،كما أشار هو أي محمد عبدالغني حسن نفسه إلى ذلك في ص٥٤ نقلا عن ابن سعيد المغربي صاحب كتاب المرقصات) . وليس ثمة اختلاف في البيتين إلاَّ في صدر البيت الثاني ، فبدلا من : فكأن المال .. الخ قال عن بيتي تميم في نفس صدر البيت الثاني : فكأن العذار ... الخ .

(٥) فيما ينقل عنه محمد عبدالغني حسن : نفسه ص ١٢ .

(٦) نفسه ،ص ١٢ .

بقي أن نشير قبل أن نترك الحديث عن الشعر الخلفاء إلى أن أعظم وأنبغ شاعر أنبته البيت الفاطمي قاطبة هو الأمير تميم بن المعز لدين الله (٣٣٧- ٣٧٤هـ) (١) . ومع أن تميماً لم يل الخلافة لا في دور الخلافة الفاطمية المغربي ، ولا في دورها المصري ، إلاَّ أننا لانستطيع إغفال ذكره كشاعر أمير من أمراء الفاطميين ، كان له في الشعر دولة سامقة الذرى . وكيف لنا أن نغفل ذلك وهو كما وصفه ابن الأبار : (شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع ولا مدافع ، وكان فيهم كابن المعتز في بنى العباس غزارة علم ومكانة أدب ، وحسن تشبيه ، وابداع تخييل ، وكان يقتفى آثاره ، ويصوغ على مناحيه في شعره أشعاره) (٢) ، ولم يكتف ابن الأبار بهذا الوصف فزاد فقال : (وشعر تميم مدون ، ومحاسنه كثيرة ، وتصرفاته بديعة) (٣) .

على أن سؤالاً قد يبدو هنا ، وهو أن كل شعر تميم بن المعز المدون (٤) والمحفوظ جاء في دور الخلافة الفاطمية المصري ، وكانت مناسباته وليدة أجواء ذلك الدور . فكيف نصنفه ضمن شعراء البيت الفاطلي في الدور المغربي ؟ هذا التساؤل بلا شك له وجاهته التي لا تدفع . بيد أننا

---

(١) كما حدد ذلك محمد عبدالغني حسن في كتابه تميم بن المعز ٢٧ - عبدالمجيد عطية وعبدالرزاق الحليوي في كتابهما : تميم بن المعز ص ٨ ، الذي ألفاه عنه ، وذلك من نقولاتهما المختلفة .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ٢٩٠ .

(٣) نفسه .

(٤) له ديوان شعرى ضخم يحتوى على معظم فنون الشعر ، أهتدي إليه أخيرا حيث طبع عام ١٩٥٧م . أنظر محمد عبدالغني حسن : نفس المرجع السابق ،ص٣٦- ٣٧ .

نبادر فنجيب بأن شاعرية الأمير تميم بن المعز لايمكن أن تكون قد جاءت وليدة للدور المصري وحده فهو قد ولد ٣٣٧هـ ، والخليفة المعز ارتحل إلى مصر عام ٣٦٢هـ . ومعنى ذلك أنه عاش بإفريقية ٢٥عاماً ، وهي سن تظهر فيها المواهب والملكات عادة والشئ الآخرأن تميماً توفى عام ٣٧٤ومعنى ذلك أنه عاش في مصر ١٢عاماً ، فهل كانت هذه الاثنا عشر سنة بكل عطائها الشعري الغزير ، هي وحدها التي كونت شخصيته كشاعر ؟ . وبعد فلايخامرنا شك في أن شاعرية الأمير تميم قد رأت النور في إفريقية ، وأن شعره في الدور المغربي ربما يكون قد طواه الضياع أو النسيان .

الشعـــــراء الفقهـــاء :-

كما عرف العصر الأغلبي عدداً من الفقهاء الذين أوتوا حظاً من الشاعرية ، فقد عرف هذا العصر أيضاً عدداً منهم ، وهم كسابقيهم الذين عرفهم العصر الأغلبي من أشهر الفقهاء الذين رووا الدراسات الشرعية بانتاجهم ، ولعل من أوائل الفقهاء والشعراء في هذا العصر ، الفقيه أبو عثمان سعيد بن الحداد الغساني (ت : ٣٠٢هـ) ، الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن الدراسات الفقهية ، وعن الانعكاسات العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة . وقد أثنى المالكي (١) على شاعريته ، فقال عنه : (كان يقول الشعر ويجيده ، ثم أورد له عدة مقطوعات تقع كلها

(١) نفسه ،ج٢ ، ص ١١٠ .

في غرض الشكوى (١) ، وتدل على شاعرية جيدة .

والفقيه الثاني الذي نظم الشعر، فأجاده هو المحدث أبو العرب التميمي (ت : ٣٣٣هـ) ، الذي كنا عرفنا عنه كثيراً عند حديثنا عن الدراسات الشرعية وغيرها ، ولقد أثنى عليه هو الآخر المالكي (٢) ، فقال عنه : إنه كان (يصنع الشعر ويجيده) ، وعقب فأورد له عدة مقطوعات تقع كلها في غرض الشكوى والأسى (٣) .

على أن أغزر أولئك الفقهاء شعرا وأبعدهم شاعرية ورفاهة حس خلال عصر الفاطميين هذا هو الفقيه المشهور ربيع القطان (ت:٣٣٣هـ) . وهو كذلك أحد الفقهاء الذين عرضنا لهم عند حديثنا عن دور فقهاء المالكية في نشر المذهب المالكي ، وكذلك عند حديثنا عن الدراسات الشرعية ، وقد أثنى عليه عياض (٤) ، فقال : (كان يؤلف الخطب والرسائل ويقول الشعر) ، وقال عنه كذلك : (وشعره كثير وخطبه ورسائله كثيرة) . وقد أورد له مؤرخوالطبقات المغربية عدة مقطوعات تدل على شاعريته الجيدة المتمكنة في غرض الشكوى ، ومنه مايمسى بالشعر الروحي (٥)

وهناك فقيه رابع من فقهاء عصر الفاطميين اشتهر بقول جيد الشعر ،

---

(١) نفسه ، ص ١١٠ – ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١١٥-١١٦.

(٢) نفسه ، ص ٣١٠ .

(٣) نفسه ، ص ٣١١– ٣١٢– ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١١٧ .

(٤) نفسه ، ج٢ ص ٣٢٤ .

(٥) نفسه ، ص ٣٢٧ – ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٧، ١٧٤ ، ١٧٧ – ١٨٠ .

كمـا اشتهـر بالأدب البـارع ، وهو يوسف بن عبدالله القفصي التميمي (ت : ٣٣٦هـ) و قد سبق أن ذكرناه أثناء حديثنا عن الدراسات الفقهية أنه أحد أبناء مدينة قفصة الذين أثروا الدراسات الشرعية هناك ، ومن شعره الذي حفظ عنه ، توجد ثلاثة نصوص طويلة تقع في الشعر الروحي ، وتدل كلها على شاعرية متمكنة لديه (١) .

ويعد الفقيه الاسماعيلي الأشهر أبو حنيفة النعمان بن حيون (ت ٣٦٣هـ) أحد الفقهاء الذين نظموا الشعر ، ولقد وصف ابن خلكان (٢) شعره : بالشعر الفحل . ولكن على ذلك لم يشر ابن خلكان إلاّ لقصيدة واحدة لم ترد أبياتها ، وهي قصيدة فقهية عرفت بالمنتخبة .

وفيما يتصل بالفقهاء الإباضية ، فلم يخل العصر من واحد منهم على أيه حال ، فقد عرف عن الفقيه أبي خزر الحامي الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن فقهاء الإباضية في العصر الفاطمي قوله للشعر ، وقد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن فقهاء الإباضية في العصر الفاطمي قوله للشعر . وقد نسبت إليه قصيدة شعرية قالها ، وهو يودع بلده ، أثناء إكراهه على الخروج إلى مصر في صحبة الخليفة المعز لدين الله (٣) .

---

(١) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص١٨٣ - ١٨٦ .
(٢) نفسه : المجلد الخامس ، ص ٤١٥ .
(٣) صالح باجية : نفسه ،ص ١٠٥ .

الشعـــراء الأدباء :-

وازدحم هذا العصر بعدد كبير من الشعراء الأدباء الخلص الذين أسهموا في تنشيط الحركة الأدبية عموماً ، والحركة الشعرية على وجه الخصوص بعطائهم وانتاجهم الثر ، على أن وجه الحق هنا يفرض علينا الإشارة إلى أن أكثر أولئك الشعراء كانوا من الدائرين في فلك الخلافة الفاطمية المغنين بأمجادها ومذهبها . ومن الطبيعي ألاَّ تكون ثمة غرابة في هذا تأسيساً على ما سبق أن ذكرناه من قبل عن الدواعي التي فرضت هذا الوضع .

كما عرفت إفريقية أيضاً شعراء آخرين غمروا البلاد بإنتاجهم الشعري ، ولكنهم للأسف ظلوا مجهولين لدى مؤرخي الأدب وغيرهم ، فلم يعرف عنهم شئ يذكر .

وأيا ماكان الأمر ، فإن من أوائل الشعراء الذين عرفهم عصر الفاطميين ، وبالذات عهد الخليفة عبيدالله المهدي (٢٩٦- ٣٢٢هـ) الشاعر محمد البديل الكاتب (١) . وقد رأينا محمداً البديل الكاتب هذا يهب واقفاً يمدح الخليفة المهدي إبَّان حلوله بمدينة رقادة قادماً من سجلماسه عام ٢٩٧هـ بالأبيات المشهورة التي يقول مطلعها :

حل برقادة المسيـــــح حل بها آدم ونــــــوح (٢)

(١) ابن عذاري : نفسه ، ص ١٦ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ٥٨ - ٦٠ ، محمد اليعلاوي : شعراء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونيسية ، ١٩٧٣م .

(٢) أنظر قبل نص تلك الأبيات ، ص ٥١٣ .

وهي الأبيات المفرطة في الغلو ، والتي رأى فيها أهل المغرب كفراً بواحاً . وهذه الأبيات تعكس تماماً نظرة الشيعة الإسماعيلية للأئمة ، وتعكس أيضاً كل خصائص نظرية التأويل التي عرضنا لها من قبل ، أو ما يسميه ابراهيم الدسوقي جاد الرب (١) - وهو على حق - بالصيغة الفاطمية التي لازمت منذ ذلك الحين الأدب الإسماعيلي .

وعلى كل حال ، فلم تكن تلك الأبيات كل ما نظمه محمد البديل الكاتب من شعر ، فقد ذكر بأنه امتدح الخليفة عبيدالله المهدي كذلك بعدة أبيات لم يبق منها سوى بيتين ، وذلك بمناسبة إنتهائه من بناء مدينة المهدية (٢) عام ٣٠٨هـ .

ومن الشعراء المبرِّزين ممَّن عاصر الخليفة عبيدالله الشاعر المعروف : سعدون الورجيني ، وقد يقال الورجيلي (٣) . وسعدون الورجيني ، شاعر مكثر متمكن ، عاصر الدولتين الأغلبية والفاطمية . ومن هنا فقد أتينا به في عداد شعراء العصر الفاطمي ، وفقاً لما سلكناه من نهج نعتمد فيه تاريخ

---

(١) نفسه ، ص ٥٦ -٥٧ .

(٢) محمد اليعلاوي : شعراغء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ، مجلة حوليات الجامعة التونسية، العدد ١٩٧٣م .

(٣) القاضي النعمان : إفتتاح الدعوة ،ص ٣٠٠ -٣٠١ ، ويسميه المورجيني - المالكي : نفسه ،ج١، ص٤٠٤ ويقول محقق هذا الجزء حسين مؤنس في الحاشية رقم ٣من نفس الصفحة أن سعدونا الورجيني يعود إلى أصل بربري (نقلا عن حسن حسنى عبدالوهاب) - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه، ص ٣٧ ويسميه هنا بالورجيني ، وكذلك في ص ٢٠٢ ، أما في ص ١٩٧ فيسميه الوارجين - محمد اليعلاوي : نفس المقال أعلاه ، ص ١٦٦- رابح بونار : نفسه ، ص ١٦٨- ويسميه سعدون الورجيلي .

الوفاة شرطاً للمعاصرة . ومع أننا لانعرف بالضبط تاريخ وفاته ، إلاّ أن الشئ المؤكد هو أنه عاش حتى مجئ الدولة الفاطمية . وعاش ردحاً من الزمن في خلافة الخليفة المهدي .

ويبدو أن سعدوناً الورجيني كان من الشعراء الذين لايرون غضاضة في التنقل بأهوائهم وميولهم حيثما تكمن المصلحة الذاتية . فلقد عرفت له قصيدة طويلة ميمية قالها في رثاء الفقيه المالكي المشهور يحيى بن عمر (١) الأندلسي الأصل ، القيرواني الدار والوفاة ، والذي كنا قد ترجمنا له من قبل ، وهي قصيدة من عيون الشعر ، وتقع في ٥٠ بيتاً هذا على عدم خلوها من مآخذ .

غير أن هذا الشاعر ما أن تتنصب الخلافة الفاطمية في إفريقية والمغرب حتى نراه يبادر فيمجدها ، ويتقرب إلى أول خلفائها بقصائدة المختلفة الأغراض والأهواء ، فلقد روى بأنه امتدح الخليفة بقصيدة تقع في أكثر من ١٤ بيتاً ، وذلك إبَّان قدومه من سجلماسه إلى مدينة رقادة عام ٢٩٧هـ (٢) . وفي الحق فإن القصيدة لم تكن مدحاً كلها ، فقد اختلط المدح بها بالوعيد الذي كان يرسله الشاعر صارخاً ومتوعداً أعداء الخلافة في المشرق بقدوم الجيوش الفاطمية الحرارة إلى المشرق لضمه إلى سلطة

---

(١) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٤٠٤- ٤٠٦ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١٩٧(ويقول إن عدد أبياتها خمسين بيتا) ، ص ٢٠١ - ٢٠٧ (حيث تحليل لقيمة القصيدة الشاعرية .

(٢) أنظر القاضي النعمان : نفس المصدر السابق ، ص٣٠٠- ٣٠١- أنظر : كذلك محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ،ص ١٦٦-١٦٧ .

الخلافة الفاطمية واسقاط الخلافة العباسية (١) ، وهو الأمر الذي ما انفك الفاطميون يحلمون به أبدا ، و لسعدون الورجيني كذلك قصيدة أخرى في مدح الداعي أبي عبدالله الشيعي ، وقد أشرنا إليها من قبل عند حديثنا عن الانعكاسات العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة ، كما أشرنا إلى قصيدته في مدح الخليفة آنفة الذكر .

وعرف عهد الخليفة عبيدالله المهدي شاعراً ثالثاً هو : أبو عبيدالله بن حبوس الفاسي (٢) ، الذي عمل قصيدة في مدح الخليفة عند بنائه لمدينة المهدية ، وهي قصيدة كما يبدو طويلة ، لم يبق منها سوى بيتين فقط . وثمة شاعر رابع عاش في عهد الخليفة المهدي ، وهو أبو بكر أحمد (٣) بن ابراهيم بن أبي عاصم (ت ٣٠٨هـ) وقد ذكر بأنه كان شاعراً معروفاً ، وبالإضافة إلي ذلك كان مشهوراً بعلو كعبة في علوم اللغة . ومن أسف أنه لم يصلنا من شعر أبي بكر أحمد ابن ابراهيم هذا سوى بيت واحد . قد يكون مطلعاً لقصيدة أو مقطوعة غزلية .

ومن الشعراء الذين طوت الأيام اسمه فلم تذكره ، ذلك الشاعر الذي وقف بين يدى الخليفة المهدي يمتدحه لبنائه مدينة المهدية ، ثم لايكتفي بذلك

---

(١) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ٣٧- ٣٨ .

(٢) لم يشر إلى هذا الشاعر ومقطوعته التي لم يبق منها سوى بيتين فقط ، إلاّ ابن حماد وحده . أنظر ابن حماد : المصدر السابق ،ص ٤١- ٤٢ .

(٣) ابن عذارى : نفسه ، ص ١٨٤ ، ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ٦٠- ٦١ حيث يحلل المؤلف القصيدة من الناحية الشعرية والمذهبية - محمد اليعلاوي : المقال السابق ،ص ١٦٤ .

بل شرع يضفي على المهدية صفات التقديس والإجلال (١) حسبما جرت عليه العادة من صبغ القصيد بالصيغة الفاطمية التي تركز على التأويل كما أشرنا آنفا ، ويرى محمد اليعلاوي (٢) أن في القصيدة نفساً شبيهاً بنفس الفقهاء الشعراء ، ولذلك فهو يظن أن هذا الشاعر ربما يكون أحد فقهاء القيروان الذين ساندوا الفاطميين وتحولوا إلى جانبهم .

ومن الشعراء المرموقين الذين عايشوا الخلفاء الثلاثة الأول : المهدي والقائم ، والمنصور ، الشاعر المشهور أبو جعفر أحمد بن محمد المروذي أو المروزي . وأبو جعفر أحمد المروزي هو ابن الفقيه والقاضي الشيعي أبي عمر محمد بن عمر المروذي (ت : ٣٠٢) الذي ولاه القضاء الخليفة المهدي ، والذي كان قد تطاول على عدد من علماء وفقهاء القيروان وقتذاك حسبما مر بنا سابقاً (٣)

ولقد تمتع أبو جعفر هذا بشاعرية طيبة ، كما أنه عرف عنه سرعة البديهة الحاضرة في قول الشعر المناسب للأحوال والظروف (٤) ، وقد ترك عدة مقطوعات شعرية تدل على شاعرية جيدة متمكنة ، ومن بين تلك

---

(١) نفس المقال السابق .

(٢) ترجم له كل من ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٦ – ٦٨ وقد لقبه المروزي بالزاي – حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ص ٣٩٥-٣٩٦ ، ويدعوه المروذي بالذال – محمد اليعلاوي : المقال السابق ، ص ١٥٧ – ١٥٩ ، ويقول إن لقبه المروروذي . ولا شك أن ذلك بعيد ، ومرة يقول المروذي ، وثالثة : المرودي .

(٣) أنظر قبل ص ٥٥٨ .

(٤) ابن خلكان : نفسه ، المجلد الأول ص ٢٣٤ (حيث الإشارة إلى ذلك ويلقبه بالمودرزي– حسن حسين عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والقسم ، ص ٣٩٥– ٣٩٦ .

المقطوعات لتي نسبت إليه مقطوعته في الهجاء التي هجا فيها أحد خصوم الخليفة المهدي (١) ، وكذلك تلك التي هجا فيها الثائر البربري أبا يزيد مخلد ابن كيداد الخارج على الخلافة ، وهي إلى الرجز أقرب (٢) . وللمروذي مقطوعة في مدح الخليفة المنصور بن القائم (٣٣٤- ٣٤١هـ) ، قالها وهو برفقته في مطاردته لأبي يزيد (٣) وعندما تمكن الخليفة من القبض على أبي يزيد ، وما تبع ذلك من وفاته متأثراً بجراحه ، انتصب المروذي يمتدح خليفته ، ويصب قارص الكلام المذموم على أبي يزيد (٤) .

والشاعر محمد بن المنيب (٥) ، كان أيضاً أحد الشعراء الذين حاموا حول بلاطات الخلفاء الفاطميين يمدحونهم ويبجلونهم ، ثم لايكتفون بذلك ، بل كانوا ينتقصون خصومهم . ويلصقون بهم كل رذيلة . وقد ترك قصيدة تقع في ١١ بيتاً في الهجاء قالها بمناسبة قضاء الخليفة المنصور على أبي يزيد مخلد بن كيداد (٦) .

---

(١) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٠١ - ١٠٣ - عباس الجراري : الأدب المغرب خلال ظواهره وقضاياه ، ص ٦٥(حيث نص تلك المقطوعة) .

(٢) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ١٠٣ - محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ، ص١٥٩(حيث نص المقطوعة) .

(٣) محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٥٨ (حيث الإشارة إلى المقطوعة وكذلك نصها) .

(٤) ابن حماد : نفسه ، ص ٦٦ (ويدعوه أبا يعلى المروزي) - محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٥٨ (حيث نص المقطوعة).

(٥) لم يشر إلى هذا الشاعر سوى ابن حماد : نفسه ، ص ٧٤ كما لاحظ ذلك محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٦٠ .

(٦) ابن حماد : نفسه ، ص ٧٤- ٧٥ - محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٦٠ - ١٦١ (حيث نص المقطوعة) .

ومن الشعراء المطلقين في عصر الفاطميين ، الشاعر سهل بن ابراهيم الوراق (١) ، وسهل بن ابراهيم هذا يبدو أنه كان شاعر أهل السنة الذي يلهج لسانه بمدحهم ، كما يلهج بذم مخالفيهم الشيعة (٢) ، فشعره الذي وقفنا عليه يدل علي ذلك . فقد روى أنه رثى الفقيه المتكلم المشهور سعيد بن الحداد الغساني المتوفي عام ٣٠٢هـ بمقطوعتين ، إحداهما عينية ، وتقع في ٢٣ بيتاً ، والأخرى رائية ، وتقع في ٩ أبيات ، وكلتاهما تدلان على شاعرية حسنة (٣) ، وبجانب هاتين المقطوعتين هناك مقطوعة في

---

(١) لم يزودنا المؤرخون القدامى بأي معلومات ذات بال عنه ، وكذلك فعل المؤرخون المحدثون . فالمالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ١١٢ لايشير إلاّ إلى أن اسمه سهل بن ابراهيم الوراق ثم يورد له المقطوعتين اللتين رثى بهما سعيداً بن الحداد ، ثم لايزيد على ذلك شيئاً ، وابن عذارى : نفسه ، ص ٢٩٣ لم يشر إلاّ إلى اسمه : سهل بن ابراهيم فقط ، وذلك في معرض حديثه عن الأبيات التي قالها في حصار مدينة سوسة . أما المؤرخون المحدثون ، فإن ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٨٨-٨٩ ، ١٠٤-١٠٧ ، ١٩٧-١٩٨ لايمدنا بشئ مهم عنه البتة . فهو لم يعرض إلاّ إلى اسمه فقط ، والباحث الذي حقق بعضاً من أحداث حياة سهل الوراق هو : محمد اليعلاوي : المقال السابق ،ص ١٤٢- ١٤٣ . ومثله البشير اليكوش محقق الجزء الثاني من رياض النفوس في حاشية رقم ٦٥٤ ص ١١٢ من نفس الجزء .

(٢) بجانب شعره في هجاء الشيعة ، ومدح أهل السنة الذي أشرنا إليه في المتن أورد محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق، ص ١٤٢ (نقلا عن المالكي ، جملة مفيدة تدل على ذلك ، فقد ذكر اليعلاوي في نقله عن المالكي أن الشاعر ابن قتار وكان حياً في عهد الخليفة المعز لدين الله سئل ذات مرة عما إذا كان هو أشعر ، أم سهل الوراق ؟ فقال بما معناه أنه أشعر من سهل في مدح الشيعة ، وسهل أشعر منه في هجوهم .

(٣) أنظر نص المقطوعتين عند المالكي : نفسه ، والجزء ، ص١١٢- ١١٥- محمد اليعلاوي : المقال السابق ، ص ١٤٨- ١٥٣ . وانظر كذلك تحليل اليعلاوي لهاتين القصيدتين من حيث قيمتهما الشعرية .

الفخر (١) ، قالها يشيد بمدينة سوسة التي تصدت عام ٣٣٥هـ لأبي يزيد مخلد بن كيداد ، الذي تكشفت نياته لأهل السنة بعد الموقعة المشهورة التي وقعت عام ٣٣٣هـ ، وذهب ضحيتها عدد كبير من فقهاء القيروان المعروفين حسبما أشرنا سابقاً .

على أن أشهر قصائده ، تلك القصيدة التائية (٢) التي تتكون من ٣٦ بيتاً ، والتي هجا فيها الفاطميين هجاءاً عنيفاً مراً ، بدَّد فيها سهل بن ابراهيم كل دعاوى الشيعة الإسماعيلية السياسية والمذهبية بل وهدمها ونقضها .

وثمة شاعر قيرواني مبدع فرضت عليه الظروف أن يتقرب أخيراً إلي الفاطميين ، وخاصة الخليفة المنصور بن القائم ، ونعنى به الشاعر المشهور: أبا القاسم محمد بن عامر بن ابراهيم بن العباس الفزاري القيرواني (٣) (ت : ٣٤٥هـ)(٤) وأبو القاسم الفزاوي كما اشتهر يعد في الحقيقة أحد

---

(١) لم يبق منها سوى بيتان فقط ، أنظرها عند ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٩٣- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٨٨- محمد اليعلاوي : نفسه ، ص١٤٤ .

(٢) أنظر محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٤٤- ١٤٨ (نقلا عن المالكي) ، حيث نص القصيدة وتحليل اليعلاوي لها - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٠٤- ١٠٧ حيث الإشارة إلى القصيدة دون ذكرها مع تقويمه لها .

(٣) لم يشر المالكي : نفسه ،ص ٤٨٧ وما بعدها ، وهو الأصل الذي نقل عنه كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين ، لم يشر إلاَّ إلى اسمه أبو القاسم الفزارى . ولقد تتبع محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١١٩ الأقوال التي نسبت إلى الفزاري ونسبه فتوصل إلى أن اسمه الكامل هو كما أوردناه في المتن ، وذلك بناء على ماورد لأبيه وجده من تراجم في بعض مصادر طبقات النحويين واللغويين .

(٤) محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٢٠ (نقلا عن حسن حسنى عبدالوهاب في المجمل) .

أعلام النهضة الأدبية في العصر الفاطمي الذين أثروها بزخم كبير ممتع كماً ونوعاً ، وهو دون ريب كما يتضح من متابعة قصائده أحد شعراء أهل السنة ، بل أن محمداً اليعلاوي (١) يرى أنه قد يكون أحد فقهاء القيروان آنذاك . ولقد وقفنا على انتاج شعرى غزير له يدل بما لايدع مجالا للريبة على قوة الشاعرية وأصالتها عنده .

فمماً نعرفه له مما يدل على حقيقة انتمائه المذهبي ، تلك المقطوعة التي تتكون من ١٣ بيتاً (٢) ، والتي هجا بها الفاطميين هجاءا مراً ، أزرى فيها بمذهبهم وبمرتكزاته التي يقوم عليها . وبالإضافة إلى هذا ، فقد حمل عليهم حملة شديدة إزاء تنقصهم للصحابة رضوان الله عليهم ، وخاصة الخليفتين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما .

وعندما انضم علماء المالكية إلى الثائر أبي يزيد مخلد في حربه التي شنها على الفاطميين ، هب أبو القاسم يجرد سلاح النظم ، فصنع قصيدة مطوله تقع في ٦٧ بيتاً عرفت بالقصيدة الرائية (٣) . وهذه القصيدة كما

---

(١) شعراء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ،ص ١٢٠، ١٤٤ .

(٢) عن هذه المقطوعة أنظر المالكي : نفسه ، ج ٢، ص ٤٩٤ - ٤٩٥ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٠٨- ١٠٩ (حيث النص وتحليل قيمته الشاعرية والمذهبية) - محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٦-١٢٧ (حيث النص وتعليقه عليه) .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٤٨٩- ٤٩٤ (حيث نص القصيدة الرائية والظروف التي قيلت فيها - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المرجع السابق ،ص ٨٩-١٩٢ وقد أشار إلى الظروف التي قيلت فيها القصيدة - دون أن يذكرها بل أورد بضعة أبيات منها ، ثم وهو الأهم تحليله لها من حيث قيمتها الشاعرية) - محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٢ - ١٢٥ (وقد أورد نص القصيدة بتمامها ، ثم علق عليها) .

يرى ابراهيم الدسوقي جاد الرب (١) تحتل مكانة قيمة في دنيا الأدب المغربي آنذاك . فقد اطردت الأفكار فيها مع ما فيها من طول ، كما أنها تنضح بانفعال صادق حار . وهذه القصيدة الرائية مع أنها قد قيلت أساساً في مدح أبي يزيد مخلد ، إلاَّ أنها في الحقيقة تعد من قصائد الفخر (٢) . وقد افتخر فيها الفزارى بمدينته القيروان ويمكانتها الدينية والعلمية ؛ ومن هنا حظيت بالخلود في بطون كتب مؤرخي الطبقات المغربية . وعندما مات الفقيه المالكي أبو الفضل الممسي عام ٣٣٣هـ مقتولاً في الموقعة التي وقعت بين السنة المتحالفين مع أبي يزيد وبين الشيعة ، رثاه أبو القاسم الفزارى بقصيدة عينية تقع في واحد وثلاثين بيتاً (٣) .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وانتهى الأمر بمقتل أبي يزيد مخلد ابن كيداد كما هو معروف ، طلب الخليفة المنصور بن القائم ، أبا القاسم الفزارى ، وقد تناهى إلى سمعه بالطبع أهاجيه فيه وفي بنى بيته ، وتناهى إلي ذهنه كذلك امتداحه لعدوه اللدود أبي يزيد . غير أن الشاعر انتابه الهلع، ثم مالبث أن ذهب إلى الخليفة مشيعاً بدعاء الفقيه الصالح أبي

---

(١) نفسه ، ص ٨٩-٩٠ .

(٢) كما لاحظ ذلك بحق ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٩٠- محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٥، وقد قال بمنتهى الدقة : أنها تعتبر قصيدة هجاء للفاطميين ، لا قصيدة مدح لأبي يزيد مخلد ، بل هي في قسمها الأوفر قصيدة مدح للقيروان وأهلها . ومن هنا حازت اعجاب مؤرخي الطبقات الإفريقية مثل الدباغ صاحب معالم الايمان وغيره .

(٣) أنظر نص القصيدة عند المالكي : نفسه ، ص ٣٠٢- ٣٠٥ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب: نفسه ، ص ١٩٨، ٢٠٨-٢١١ (حيث نص القصيدة وتقويمه لها) - محمد اليعلاوي : نفسه : ص ١٣٧- ١٤١(حيث القصيدة بتمامها وتعليق اليعلاوي عليها) .

القاسم السبأي (١) .

ويبدو أن الشاعر قد اضطر إلى مداراة الخليفة المنصور . لذا دبج قصيدة طويلة اشتهرت بالقصيدة الفزارية (٢) ، التي تعتبر من غرر قصائد المدح (٣) في إفريقية ليست في العصر الفاطمي فحسب ، وإنما في كل العصور موضوع الرسالة ، وهذه القصيدة تمتاز بالفصاحة التي تتجلى في أبياتها ، والتي تشهد بالقدرة اللغوية الفائقة ، وهي جزلة التراكيب ، تشع منها موسيقى شاعرية تتناسب مع الموضوع ، وقد استعرض الفزاري في هذه القصيدة مقدارما تختزنه ذاكرته من إرث ثقافي (٤)، فقد استهل قصيدته بذكر مائة علم من أعلام العرب من سراة العرب وأشرافهم (٥) .

وقد نالت هذه القصيدة والتي عرفت بالفزارية نسبة إليه ، شهرة عريضة في المغرب وكذلك في المشرق حتى أنها أفردت بالشرح دلالة على عناية أهل الأدب بها (٦) .

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢ ص ٤٨٩- ٤٩٠ .

(٢) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٨- محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٠، ١٢٧ .

(٣) اعتبرها ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه أشهر مدحة ، بل أشهر قصيدة تنتمي إلى العصر الذي ألف فيه كتابه السابق شعر المغرب حتى خلافة المعز ، وبالطبع فجاد الرب لم يتحدث عن شعراء عهد المعز ولا عن شاعره الأشهر ابن هانئ الأندلسي ، ومن هنا قال عن القصيدة الفزارية ما قال آنفا .

(٤) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ٦٨-٧٠ .

(٥) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٠ - وقد ترجم في الصفحات : ١٣٠- ١٣٤ لحوالي ٣١ علماً منهم في الحواشي .

(٦) لم يتبين لابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٩- ولا لمحمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٧ من شارح القصيدة الفزارية ، الذي لم يشرح من القصيدة إلا ٣٣ بيتا ، وهي التي ورت =

ويضيق بنا الحال لو مضينا نترجم لكل شعراء العصر الفاطمي ، فهم كثيرون فعلا ، غير أننا سنكتفي بالقول أن هناك عدداً من الشعراء كانوا أقل شهرة ممّن (١) عرضنا لهم كما أن هناك عددا آخر لم نقف إلاّ على أسمائهم ، أما أشعارهم فلم يصل إلينا منها شئ (٢) وعددا آخر بقيت أشعارهم ، ولم تخلد أسماؤهم (٣) .

وفيما يتصل بشعراء بقية أقاليم ومدن إفريقية الذين عرفهم هذا العصر بالإضافة إلى أبي خزر الحامي الذي أنجبته بلاد الجريد ، ويوسف ابن عبدالله القفصي الذي أهدته مدينة قفصة ، فإن هذا العصر عرف ثلاثة شعراء مشهورين أنبتتهم ثلاث مدن هي سوسة وتونس وطرابلس فلقد انجبت مدينة سوسة شاعراً مشهوراً هو أحمد بن أفلح (٤) ، وقد يقال له بلج السوسي ، وحفظت عنه قصيدة قالها بمناسبة رفع أبي يزيد مخلد بن كيداد حصاره عن مدينة سوسة عام ٣٤٥هـ ، والقصيدة عبارة عن مقطوعة في الفخر يتغنى فيها الشاعر بمدينته سوسة (٥) .

= فيها أسماء سراة العرب ، وأشرافهم الذين أشار إليهم الفزارى في قصيدته تلك .

(١) أنظر محمد اليعلاوي ، نفسه ، ص ١٥٤ – رابح بونار : نفسه ، ص ١٧٣ .

(٢) راجع محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ،ص ٩٥– ٩٦، ١٦٩ .

(٣) محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٦٢ –٦٣ .

(٤) هذا مارجحه حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٥٧ – وكذلك محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٥٥ – ١٥٦ ، وقد أورد الأقوال التي قيلت عن الاختلاف في لقب الشاعر هذا ، ويبدو أنه قد اعتمد أخيراً لقب أفلح هذا . أما ابراهيم الدسوقي جادالرب : نفسه ، ص ٨٨ فقد أسماه أحمد بن بلج السوسي .

(٥) أنظر نص المقطوعة عند حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والقسم والصفحة – =

أما مدينة تونس ،فقد أهدت البلاد ليس على مستوى عصر الفاطميين وحده ، وإنما على مستوى كل العصور شاعراً آخر مبرزاً ، هو علي بن محمد الإيادي التونسي (١) (ت : ٣٦٥هـ) (٢) مع أن تارخ وفاته تجعلنا نضعه ضمن شعراء العصر الزيري ، إلاَّ أن الإيادي قال كل شعره في الفاطميين ، بل ولم تقم له شهرة إلاَّ بما صنعه من شعر فيهم .

وعلى الإيادي شاعر مرموق محلِّق ، عربي الأصل ، وينتسب إلى فرع من قبيلة الأنتاج النازلة آنذاك بالقرب من مدينة المسيلة بإقليم الزاب ، فهو على هذا ليس من قبيلة إياد المشهورة كما قد يتوهم (٣) ، كما أن انتسابه إلى ذلك الفرع من قبائل بني هلال يعنى أن إفريقية عرفت نزوحاً هلالياً قبل الزحف التاريخي المشهور الذي تم في منتصف القرن الخامس الهجري .

وكيفما كان الأمر فقد ولد هذا الشاعر في مدينة تونس ، وبها ترعرع ثم جذبه البلاط الفاطمي في المهدية فالمنصورية ، وهناك شرعت مواهبة الشعرية تتفتق ، حتي أصبح من أبرز شعراء إفريقية . وقد أجله الخلفاء :

= محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٦٥ – ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٨٨–٨٩ (حيث قام بتحليل المقطوعة) .

(١) تتبع ترجمته أوردها في شئ من الطول : محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٧– ٩٩ من أقوال كل من حسن حسني عبدالوهاب في مجمل تاريخ الأدب التونسي ، والشاذلي بويحيى في رسالة الدكتوراه التي أعدها عن الحياة الأدبية في إفريقية في العصر الزيري ، وغير ذلك من مصادر ، ومراجع وأقوال .

(٢) كما اعتمد ذلك فيما يبدو محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٨ (نقلا عن حسن حسني عبدالوهاب في المجمل) .

(٣) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٧ – ٩٨ .

ثم جذبه البلاط الفاطمي في المهدية فالمنصورية ، وهناك شرعت مواهبة الشعرية تتفتق ، حتي أصبح من أبرز شعراء إفريقية . وقد أجله الخلفاء : القائم والمنصور والمعز ، فأكرموه وقدروا شاعريته (١) .

أما شاعريته فلا نزاع على قيمتها الكبيرة في دنيا الأدب ، ولقد وصفه الأديب الأفريقي المشهور ابن شرف القيرواني (٢) ، بقوله : (وأما على بن الإيادي التونسي المورد العذب ، ولفظه اللؤلؤ الرطب ، وهو بحترى الغرب ، يصنف الحمام فيرق الأنام ، ويتشبب ، فيعشق ويحبب) . ولقد حصل الإيادي على شهرة تعدت حدود وطنه إفريقية إلى المشرق (٣) . ومماً ينهض دليلاً على أصالته ومكانته بوصفه شاعراً محلقاً أن الشاعر المشهور ابن هانئ الأندلسي الذي وفد على المعز لدين الله هجاء شعراء إفريقية فلم يجيبهم . وقد صرح بأنه لن يجيب أحداً منهم ، إلاَّ أن يهجوه الأيادي (٤) فيجيبه .

---

(١) محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ٩٨ –٩٩ .

(٢) مسائل الانتقاد – اعلام الكلام ،ص ٢٦–٢٧ . وأنظر كذلك محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٠٠ مع الحاشية .

(٣) أنظر محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٠٠–١٠١ حيث الإشارة إلى تأثر الشاعر المشرقي السري الرخاء يعلى الإيادي في إحدى مقطوعاته المدحية ، وكذلك الإشارة إلى خلط المشارقة في قصيدة على الإيادي ، حيث نسبوها للشاعر المشرقي الوأوأ الدمشقي . ومماً يدل على اشتهار شعر الإيادي في المشرق حتى في حياته أن الشريف الرضى ، أورد إحدى مقطوعات الإيادي الغزلية في كتابه : طبقات الخيال . أنظر محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١١٥– ١١٦ .

(٢) ابن رشيق : العمدة ، الجزء الأول ، ص ١١١ – محمد اليعلاوي : نفسه ص ٩٣ (ويبدو أن اليعلاوي يستبعد ذلك الخبر . لأن ابن هانئ كما يعتقد لم يكن هجاء ، على أننا نعتقد أن ابن رشيق بحكم قرب حياته من حياة كلا الشاعرين ابن هانئ وعلى الإيادي أصدق خبراً على كل حال .

وعلى هذه المكانة العريضة لعلى الإيادي ، فقد ضاع شعره ، ولم يبق منه سوى أثنى عشر قصيدة ومقطوعة (١) . يبدو أن مابقى من شعره هو على كل حال من رائق الشعر وأملحه . ولعل أغلب فن شعري قاله وأجاده كــان الوصــف . فــقــد ترك ثلاثة نصـــوص ، الأول في وصف أسطول الخليفة (٢) القائم بأمرالله ، والثاني في وصف قصر البحر بالعاصمة المنصورية (٣) ، والثالث في وصف جواد أحد أمراء (٤) البيت الفاطمي وهذه النصوص الثلاثة (تشهد له ببراعة فائقة في تصريف وجوه الخيال في شعره الوصفي) كما يقول محمد اليعلاوي (٥) . وأما ابراهيم الدسوقي جاد الرب (٦) فقد أخذه الانبهار بشاعرية الأيادي وقدرته الفائقة على الوصف ، فقال : (لقد أثبت المغرب أن في السويداء رجالاً ، فإن طابق أبو تمام والبحترى ، وشبَّه البحترى وابن المعتز وبرزا في الوصف ، وحرص بعض هؤلاء وكثير من المحدثين على حسن التخلص ، فصنيعهم صنع

---

(١) كما حصر ذلك وتتبعه محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٠٠-١١٨ ، من مختلف المصادر والمراجع التي تحدثت عن الإيادي .

(٢) عن هذا النص ، أنظر محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٠٨- ١١٢، حيث تناول الباحث هذا النص بالتعليق والتقويم - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٢١٥- ٢٢٢ ، حيث حلل المؤلف قصيدة الإيادي ، وبين روعتها وقيمتها الشعرية في دنيا الأدب .

(٣) محمد اليعلاوي :نفسه : ١٠٤-١٠٧ (حيث النص بتمامه والتعليق عليه) - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ - (حيث النص وتحليل قيمته الشعرية) .

(٤) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١١٢- ١١٣ (النص والتعليق عليه) - ابراهيم الدسوقي جاد الرب: نفسه ، ص٢٢٢- ٢٢٣ (النص وتحليله) .

(٥) نفسه ، ص ٩٩ .

(٦) نفسه ، ص ٢٢٨ .

الإيادي يرفده معجم واسع ، وعلم جم بالتراث القديم المعاصر ، و تسلسل له عبارة صائبة ، ويواتيه خيال نشط مغرب) .

على أن للإيادي كذلك مقطوعات أخرى في المديح الخالص بالإضافة إلى مافي قصائد الوصف سالفة الذكر من مديح . فقد ترك قصيدة في مدح المنصور بن القائم عندما أمر والده الخليفة القائم بالبيعة له عام ٣٣٤هـ(١). وله كذلك قصيدة في مدح الخليفة المنصور عند قضائه على أبي يزيد بن مخلد (٢). والإيادي في مدحه للفاطميين لايغرق إغراق معاصريه في إضنفاء صفات القداسة عليهم ، كما أن مدحه لم يصطبغ بالصيغة الفاطمية التي كنا قد ألمحنا إليها من قبل . ويرى محمد اليعلاوي (٣) أن طابع الاعتدال كان يطبع شعر الإيادي ، فهو بهذا ليس شاعر فكرة ودعوة ، مثل ابن هانئ ، وهو بشكل مَّا يعرف بشاعر بلاط غير ملتزم – إن جاز لنا استخدام هذا القول – وهذه القصيدة التي مدح بها الخليفة المنصور كانت مزيجاً من المدح والوصف والهجاء (٤) اختلط فيها المديح بالوصف والهجاء.

---

(١) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١١٣– ١١٥ (نقلا عن الدواداري صاحب الدرة المضيئة ، وقد إنفرد اليعلاوي بالإشارة إلى هذه المقطوعة دون إبراهيم الدسوقي جاد الرب الذي تتبع شعر المديح في المغرب من الفتح وحتى عهد المعز لدين الله .

(٢) الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا : ص ٢٥١-٢٥٢. وقد أورد بعض أبياتها فقط – ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٠٢ – ١٠٣ ، وقد أوردها بتمامها مع تقويمه لها .

(٣) نفسه ، ص ١٠٠ – ١١٥ .

(٤) وذلك في تصويره الدقيق حسبما يتراءى لنا إلى وصف سلخ جلد الثائر : أبي يزيد مخلد بن كيداد وحشوه بالتبن ، كما اشتهر وعرف تاريخياً عن حادثه سلخ أبي يزيد ، أنظر ابن حماد ، نفسه ص ٧٦، وأنظر استنكار محققا كتاب ابن حماد : التهامي نقرة وعبدالحليم عويس لذلك الفعل ، في حاشية رقم (١) ، ص٧٦ .

وأسهمت مدينة طرابلس في انعاش الحركة الشعرية عن طريق ابنها الشاعر والقائد الفاطمي المعروف أبي العباس خليل بن اسحاق بن ورد (١)، (مات مقتولا عام ٣٣٢هـ) . وخليل بن اسحاق أحد أبناء مدينة طرابلس الذين تحزبوا للدولة الفاطمية ، فقدموا خدماتهم لها . ولم تبخل عليه الدولة من جهتها فعينته في أكثر من منصب رفيع ، وذلك في عهدي الخليفتين : المهدي والقائم بأمر الله (٢) ، وقد انتهى به الأمر مقتولاً عام ٣٣٢هـ كما ذكرنا على يد الثائر البربري الخطير أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني .

وأيا كان الرأى في سيرة خليل بن اسحاق التي شابتها الشواب (٣) أثناء تبوئه للمناصب التي أسندتها له الدولة ، فإن الشئ الذي لا مراء فيه أنه كان شاعراً جيداً متمكناً . ولقد وقفنا من شعره الذي خلد له على قصيدتين في المديح ، الأولى منهما تقع في ١٤بيتاً ، وقد مدح بها الخليفة عبيدالله المهدي (٤) ، والأخرى قالها ممتدحاً الخليفة القائم بأمر الله لما اختصه (٥) ، والمقطوعتان أو القصيدتان كلتاهما جاءتا تشوبهما الصبغة

---

(١) ترجم له ترجمة حسنة : ابن الأبار : نفسه ، ج١ ، ص ٣٠٢- ٣٠٤ ابراهيم الدسوقي جاد الرب: نفسه ، ص ٦٢-٦٣- محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٦٨ (نقلا عن الجوذري صاحب سيرة الاستاذ جوذر) - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٢٨- ٢٣٠ .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ٣٠٢ .

(٣) أنظر ابن الأبار : نفسه ،ص ٣٠٢ - أحمد مختار عمر : نفسه ص ٢٢٨- ٢٢٩ .

(٤) أنظر نصها عند ابن الأبار : نفسه ، ص ٣٠٣ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٢-٦٣ ، ٢٣٨- أحمد مختار عمرو : المرجع السابق، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٥) ابن الأبار : المصدر السابق ،ص ٣٠٣ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المصدر السابق ، ص ٦٣ مع تحليل وتقويم لها .

الفاطمية التأويلية التي لازمت مدائح الفاطميين (١) .

أما وقد وضحت لنا معظم ملامح الحركة الشعرية الإفريقية في عصر الفاطميين ، طبيعة وشعراء ، فإن الواجب يملي علينا أن لانغفل أثر شاعر مشهور ، أثرى الحركة الشعرية الإفريقية وقتذاك بفيضوضة شعره ذي المضامين المثيرة للتساؤل ، والاستغراب ، بل والغضب والاستنكار ، نعني بذلك الشاعر المشهور ابن هانئ الأندلسي (٢) المتوفى عام ٣٦٢هـ (٣) .

وقبل أن نتحدث عن ذلك الأثر الذي أحدثه حلول ابن هانئ في إفريقية، وعن شعره وخصائصه ، تقتضى دواعي المنهج أن تعقد ترجمة مختصرة له ، توضح من خلالها مسيرته في الحياة ، قد تفتحت عيناه على الحياة ، وحتى غمضتا عام ٣٦٢هـ في نهاية غامضة ، بعد حياة قصيرة حافلة بالعطاء ، والفقر والثراء ، ولقد اتفق المؤرخون على أن أبا القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي ولد في مدينة اشبيلية ، لأب إفريقي عربي

---

(١) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه . ص ٦٣ -٦٤ .

(٢) ترجم له ترجمة واسعة بعض الشئ ، ابن خلكان : نفسه ، ج٤، ص ٤٢١- ٤٢٤ (وقد أشار محقق الكتاب احسان عباس في حاشية الصفحة ٤٢١ إلى أن لابن هانئ ترجمة في أكثر من ١٠ مصادر مشرقية وأندلسية – ياقوت : نفسه ، ج١٩ ،ص ٩٢ – ١٠٥ (عن أكثر من مصدر) – الصفدى : نفسه ، ج١ ، ص ٣٥٢، (وقد جاءت قريباً من ترجمة ابن خلكان ، ويسميه محمد بن ابراهيم بن هانئ ويكنيه بأبي القاسم وأبي الحسن) . – أكرم البساتني ناشر ديوان ابن هانئ في مقدمة الديوان ،ص ٥-٨- أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص٢٩٤-٣٠٩ .

(٣) هذا مارجحه ابن خلكان : نفسه ،ص ٤٢٤ ووافقه عليه الصفدي : نفسه ، ص ٣٥٢ ، وإن كانا قد ذكرا تاريخياً آخر كقول ثان،وهو عام ٣٦٥هـ ، ولكنهما يبدو أنها اعتمدا التاريخ الذي أشرنا إليه في المتن .

ينتسب إلى المهالبة ، نزح من مدينته المهدية إلي الأندلس ، وبالذات إشبيلية التي استوطنها هو وأسرته . وفي إشبيلية تلقى ابن هانئ علومه ، وتفتحت شاعريته . غير أنه مالبث أن انجذب إلى بريق العاصمة قرطبة ، فانتقل إليها واختلط بمثقفيها ، ثم رحل إلى مدينة ألبيرة ، وظل فيها فترة ، حتى أنه قد يطلق عليه الشاعر الألبيري (١) . وفي كل تلك التنقلات كانت شاعريته تنصقل وتتبلور . ثم قادته قدماه ثانية إلى مدينته إشبيلية فإتصل بأميرها وصاحبها . غير أن إنصرافه إلى حياة اللهو والمجون ، وما طرأ على فكره من ميل إلى المذهب الشيعي ، كل ذلك جعله منبوذاً في نظر أهل اشبيلية . مماً اضطره إلى مغادرتها ، بل الأندلس كلية والنزوح إلى إفريقية (٢) .

ولقد انتهى به المطاف في إفريقية إلى أن يحل شاعراً على الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله في عاصمتيه : المهدية والمنصورية ، الذي سمع به فأدناه واستقطبه (٣) .

ومذ ذلك طفق ابن هانئ ينشئ القصائد الطوال السائرات في مدح الخليفة وأسرته ، وفي التغني بأمجاد الدولة الفاطمية ، وتحقير خصومها السياسيين : الأمويين والعباسيين وغيرهم . ومن كل ذلك جاء عطاء شعرى

---

(١) أكرم البستاني : مقدمة ديوان ابن هانئ ، ص ٥ .

(٢) أكرم البستاني : مقدمة ديوان ابن هانئ ، ص ٥-٧ – أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

(٣) أكرم البستاني : نفس المقدمة أعلاه ، ص ٥-٦ – أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص٢٩٧ – ٢٩٨ .

غزير تمثل في ديوان كبير (١) احتوى على أ كثر من عشرين قصيدة (٢) مدحية في المعز وحده ، حتى أنها سميت بالمعزيات (٣) ، وهي ماتمثل نصف الديوان .

وأيا ماكان الأمر في المضامين المذهبية التي جاد بها شعر ابن هانئ، والتي عكست بحق كل خصائص المذهب الشيعي الإسماعيلي العقائدية والسياسية ، والتي جرّت عليه - بحق - النقمة من قبل المؤرخين السنة وغيرهم ، نقول أيا كان الرأي في طروحات ابن هانئ المذهبية تلك ، فإن الذي لا مراء فيه ، أنه قد أنعش الحياة الأدبية في إفريقية آنذاك . ويبدو أن قدومه إلى إفريقية قد جاء في الوقت المناسب جداً للفاطميين ، الذين ازدادت حملة أهل السنة عليهم ، وخاصة في عهد الخليفة المعز نفسه ، الذي ذكرنا من قبل أن الدعوة للمذهب الشيعي قد بلغت في عهده درجة كبيرة - ولذلك فقد كان الخليفة والخلافة والمذهب الشيعي في حاجة إلى شاعر يذيع أمجادهم ، وإلى شاعر يؤكد على الملأ أحقيتهم في الخلافة ، فلا يفتأ يردِّد ذلك ويردِّده حتى تستقر في الأذهان خصائص مذهبهم السياسي والعقائدي، هذا بجانب الجهود الحثيثة التي يضطلع بها الدعاة الاخرون ، ومن هنا أغدق عليه المعز (وبالغ

---

(١) كما يقول ابن خلكان : نفسه ، ج٤، ص ٤٢٤ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٢٩٨ .

(٣) أنظر مثلا ابن خلكان : نفسه ، والصفحة - أكرم البستاني : نفس المقدمة ،ص ٧(نقلا عن غير واحد من المؤرخين القدامى - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٢٩٩- ٣٠٠ ، ٣٠١ - سعد البشرى : الحياة الأدبية في عصر الخلافة في الأندلس ،ص ٢٦٠، مع الحواشي .

في الإنعام عليه) (١)، فـفـاضت إثر ذلك (حـيـاة ابن هانـئ رخـاء وبذخا) (٢) . ولقد حاول ابن هانئ من جهته - وعرف أنه اضطلع برسالة سياسية ومذهبية - ، ولقد سعى ابن هانئ من جهته - وعرف أنه اضطلع برسالة سياسية ومذهبية - ، أن يقصر جهده كله في ذلك ، أي مديح المذهب والخلافة في شخص الخليفة المعز ، ومن هنا نستطيع أن نضع أيدينا على سر اقتصاره على غرض واحد رئيسي ، هو المدح ، وكذلك نضع أيدينا على سر تأسى الخليفة المعز وأسفه ، وقد بلغته وفاة ابن هانئ ، وهو يتأهب ، أي المعز إلى الإنتقال إلى مصر عام ٣٦٢هـ كما هو معروف ، فيقول عنه : (هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك) (٣) .

وفيما يتصل بتأثيره على شعراء القيروان ،فإننا على افتقارنا إلى الشواهد التي تدل على ذلك ، نملك دليلاً واحداً لا نستبعد أن يكون له أمثلة متعددة ، فقد ذكر ابن رشيق في أنموذجة (٤) أن هناك شاعراً إفريقياً ترسم خطى اب هانئ ، وهو اسحاق بن ابراهيم المغربي الرافضي ، عرف عنه أنه بجانب كونه رافضياً ، فقد كان اعتماده في الشعر على أبي القاسم ابن هانئ المغربي ، وله كان يتعصب) . وقد دفعه إعجابه بابن هانئ إلى أن يصرح في مجلس ضمه مع ابن رشيق قبل مقتله عام ٤٢٠هـ على يد المعز

---

(١) ابن خلكان : نفسه ، ج٤، ص ٤٢٢ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٩٧- ٢٩٨ .

(٣) ابن خلكان : نفسه .

(٤) فيما ينقله عنه الصفدي : نفسه ، الجزء السابع ،ص ٣٩٨- ٣٩٩ .

إلى أن يقـول عنـه وقـد ذكر المتنبي ، أن الشعر ختم به وبأبي القاسم (١).

أما وقد عرفنا أثر وتأثير ابن هانئ في الحركة الشعرية الإفريقية بالصورة التي رأينا ، فإنه ليس من الغريب أن يضعه نقاد الأدب ومؤرخوه في جملة شعراء الطليعة الأولى في العصور الإسلامية (٢) . بل إن ابن خلكان (٣) يضعه في المرتبة الأولى باتجاه شعراء المغرب والأندلس ، حتى عصره ، أي عصر ابن خلكان ، كما يقول أيضاً أن المغاربة يعدون ابن هانئ عندهم كالمتنبي عند المشارقة ، وقد كانا متعاصرين .

بيد أن نقاد الأدب ، وقد أجمعوا على تقدير شاعرية ابن هانئ ومكانتها ، قد اختلفوا في تقويم شعره فمنهم من أنكر عليه عدم الاختراع والتوليد ، إلاّ نادراً كابن رشيق الذي يقول عنه) أنه يبهر بألفاظه أكثر ممَّا يبهر بمعانيه)(٤) ومثل ذلك الشاعر المشهور أبو العلاء المعرى ، الذي كان يقول عندما يسمع شعر ابن هانئ (وما اشبهه إلاّ برحى تطحن قروناً لأجل القعقة في ألفاظه)(٥) .

على أن نفراً آخر من مؤرخي الأدب ونقاده لايرون ذلك ، مثل ابن خلكان (٦) ، الذي أنكر على المعرى قولته ، وعزى ذلك إلى تعصبه على ابن

---

(١) الصفدي : نفسه ، ص ٣٩٩ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٣) نفسه ،ج٤ ، ص ٤٢٤ .

(٤) فيما ينقل عنه أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه .

(٥) ابن خلكان : نفسه .

(٦) نفسه : ص ٤٢٤ .

هانئ لحساب المتنبي ، وكذلك مثل الأديب الأندلسي الفتح بن خاقان (١) الذي أعجب ببدائع ابن هانئ واختراعه وتوليده ، ولم ينكر عليه (إلاّ كفره وتجرده عن الدين) ، وغير ذلك .

الشعر في عصر الزيريين :

إذا كان أهم مظهر مادي لاحظناه على الحركة الشعرية في إفريقية في العصر الفاطمي هو غزارة الانتاج الشعري ، فإننا نقول هنا أن ذلك لا يعد شيئاً أمام الانتاج الشعري الهائل الذي خلفه العصر الزيري في حدود ما يهمنا منه ، وهي الفترة الممتدة من اللحظة التي رحلت فيها الخلافة الفاطمية عام ٣٦٢هـ إلى مصر وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ، وفي الحق فإنك تستطيع أن تقول ما شئت عن كثافة الإنتاج الشعري وغزراته . وإذا كان العصر الفاطمي قد عرف شاعراً واحداً ترك ديواناً شعرياً وهو ابن هانئ الأندلسي فإن عصر الزيريين خلف العديد من الدواوين الشعرية القيمة ، والواقع أننا لانعدو الحقيقة إذا ما قلنا بأن التراث الشعري الذي خلفه العصر الزيري – بمفهومه الزمني الذي أشرنا إليه – ، يفوق كل التراث الشعري الذي خلفته العصور السابقة .

ولئن كان معظم الإنتاج الشعري الذي خلفه العصر الفاطمي والذي قلنا إنه أهم ماميز الحركة الشعرية في العصر الفاطمي عن العصور

---

(١) فيما ينقله عنه أكرم البستاني : مقدمة ديوان ابن هانئ ،ص ٧ .

السابقة نقول بأن ذلك الانتاج قد جاء نتيجة للتحول السياسي والمذهبي الذي رافق قيام الدولة الفاطمية كما أشرنا من قبل ، فإن معظم الانتاج الشعري في العصر الزيري إنما جاء وليد النهضة الحضارية الشاملة التي عاشتها إفريقية في العصر الزيري ، حسبما ألمحنا عند حديثنا الذي استهلينا به الدراسات الأدبية واللغوية ، وبجانب ذلك لايمكننا أن نغفل أن كثيراً من ذلك الإنتاج الشعري جاء وليد نظرية الفن للفن ، وهو ذروة الرقي الأدبي كما نعتقد - على أنه أيا كان وصفه ،فهو أمر لا يمكن النظر إليه بمعزل عن النهضة الحضارية الشاملة التي بسطنا بعض أبعادها من قبل .

وعدا هذا وذاك ، فإننا لاننسى أن كثيراً من جوانب ذلك الانتاج الشعري الغزير - ككل التيارات الشعرية زماناً ومكاناً - جاءه لتلبية مقتضيات ذاتية واجتماعية وسياسية وتاريخية .. الخ . ولعل أقرب مثل نسوقه هنا هو ما أحدثه سقوط القيروان على يد الهلاليين في منتصف القرن الخامس الهجري من أصداء وانعكاسات أذكت شعر الرثاء وأجّجته ، وبرز نتيجة لذلك لوناً باكياً جسّده فطاحل شعراء هذا العصر من أمثال ابن رشيق (١) وابن شرف (٢) ، والحصرى القدير (٣) ،

---

(١) أنظر قصيدته الطويلة في رثاء اقيروان عند الدباغ : نفسه ، ج١ ص ١٨- ٢٠ - عبدالعزيز الميمني السلفي الراجكوتي : المرجع السابق ص ٧٣- ٨٠ .

(٢) عن قصائده في رثاء القيروان أنظر عبدالعزيز الميمني : نفس المرجع أعلاه ص ٩٨-١٠١، ١١٠-١١١- محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : الحصري القيرواني ص ٣٨ .

(٣) عن مرثية الحصري أنظر ، محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه ص ٣٩- ٤٠، ١٢٥- ١٢٧ .

وعبدالكريم الحلواني (١) وغيرهم ، ذكرنا بأدب المراثي الذي عرفته الأندلس، واشتهرت به وهو مراثي الدول المدن .

وعلاوة على ذلك العطاء المعطاء من الانتاج الشعري ، فقد انفرد عصر الزيريين بازدحامه بالعشرات من الشعراء الذين كان الشعر فنهم الوحيد سواء كان ذلك في حق شعراء القيروان ، أو في حق شعراء بقية مدن وأقاليم إفريقية ، ويكفي للدلالة على ذلك ، أي على ازدحام البلاد بالعشرات من الأدباء أن نشير إلى أن ابن رشيق أديبنا المصقع ، لم يجد بداً وهو يتأهب لتصنيف كتابه أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، من أن يترجم لأكثر من مائة شاعر (٢) ، ومع ذلك فإن ابن رشيق لم يستوعب كل شعراء العصر الزيري ، فهو لم يعرض مثلا لبعض الشعراء الذين تناءت ديارهم عن عاصمة النور والعلم: القيروان، كما أنه لم يلق بالاً لأولئك الذين جمعوا من بين ماجمعوا من حقول المعرفة القدرة على قول الشعر ونظمة ، كبعض الفقهاء (٣)

---

(١) أنظر مريثته عند الدباغ : نفسه ، ج١ ، ص ١٦– ١٧ – محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٣٨ .

(٢) أبو القاسم كرو : مقدمة كتاب شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، الذي جمعه زين العابدين السنوسي . أنظر : ابن رشيق شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، المقدمة ، ص٦ .

(٣) كالفقيه المالكي المشهور ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ) ، الذي أوتى حظاً طيباً من الشاعرية ، و إن كان قد اقتصر على شعر الرثاء الذي قاله في رثاء أشهر فقهاء وقته ، أنظر تلك النصوص عند المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٨٨– ٢٩٠، وهي قصيدة طويلة في رثاء الفقيه ابن اللباد المتوفي عام ٣٣٣هـ ، وص ٣٠٠–٣٠٥ ، وهى طويلة كذلك في رثاء الفقيه أبي الفضل الممسي المتوفي عام ٣٣٣هـ . ولقد تجاهل ابن رشيق ، الشاعر المشهور جداً الذي معاصر له وهو عبدالله ابن يحيى الشقراطسي التوزري الذي سنترجم له في موضعه ، وقد كان ولم =

والكتاب (١) وغير ذلك تقريباً ،ولكنه اقتصر على ذكر الشعراء الأدباء الخُلَّص . بيد أن ثمة استدراك يقتضيه السياق هنا ، وهو التنبيه إلى أننا لسنا نذهب إلى القول بأن ذلك الإنتاج الشعري الغزير الذي تحدثنا عنه آنفا هو بالضرورة محصلة عطاء الشعراء الذين ضمهم كتاب ابن رشيق الأنموذج ، فالواقع أن كثيراً من ذلك الانتاج كان لشعراء لم يحتو شعرهم كتاب ابن رشيق كشعر ابن رشيق نفسه ، وشعر على الحصري القيرواني الضرير وغيرهما .

وتسوقنا معرفتنا بنوعية الشعراء الذين احتواهم كتاب الأنموذج وكذلك الذين لم يضمهم الكتاب إلى القول بأننا لا نستطيع أن نمضى في تقسيم شعراء العصر الزيري إلى الأقسام الثلاثة التي قسمنا بها شعراء العصرين : الأغلبي والفاطمي حسبما عرفناه من قبل . فأما الأمراء الزيريون فلم نتبين لهم أي محاولات شعرية . نعم ذكر بأن للمعز شعراً قليلاً صرح ابن خلكان (٢) على أنه لم يقف منه على شئ . ومع أننا عثرنا على مقطوعة من عدة أبيات نسبها أحد الباحثين (٣) له ، فإن ذلك لايجيز لنا أن ننظر إليه ، إلاَّ على أنه حالة منفردة لأبناء أسرته . أما ابنه تميم ، فليس من

= يتوف إلاَّ عام ٤٦٦هـ ، أي بعد ابن رشيق بعشر سنوات فقط وحسب الشقراطسي أنه صاحب أشهر قصيدة مدحيه في الرسول ﷺ .

(١) كالكاتب الشاعر عبدالله الكاتب (ت : ٢٧٧هـ) مثلاً الذي ذكرنا من قبل في ص ٦١٧ أنه كان بالإضافة إلى الكتابة التي مهر بها ، كان شعراً بارعاً له أشعار جزلة .

(٢) نفسه ، المجلد الخامس ،ص ٢٣٣ .

(٣) أحمد الطيب الفقيه : المرجع السابق ،ص ١٣٩ .

حقنا أن نتحدث عنه هنا ، لأنه تولى الإمرة في الفترة التي تخرج عن نطاق اهتمامنا كما هو معروف (١) تاريخياً وفيما يتصل بالفقهاء الذين أوتوا شيئاً من الشاعرية ، فإن قلة عددهم لا تحتاج منا أن نعقد لهم قسماً مستقلاً ، كما فعلنا من قبل .

والدارس للحركة الشعرية في إفريقية في عصر الزيريين لا يملك – وهو ما يمكن اعتباره أحد دلائل الازدهار الأدبي – ، إلاَّ أن يؤخذ وهو يرى أن الحركة الشعرية لا تعم عاصمة العلم والثقافة القيروان وحدها ، ولكنها تعم كثيراً من مدن وأقاليم إفريقية ، بل إن بعض المدن النائية قد عرفت شعراً وشعراء ، وهي التي لا تكاد تذكر من بين مراكز الثقافة والعلوم عادة حسبما سنشير إليه في موضعه .

وفيما يتعلق بالأغراض الشعرية التي احتوت ذلك التراث الشعري الذي وصفناه بالغزارة . فالواقع أننا لسنا في حاجة إلى القول بأنه بناء على نعومة الحياة المتحضره وطـــراوتها التي عرفتها إفريقيـــة في العصر الزيري ،فقد طرق الشعراء ذلك العصر كل أغراض الشعر تقريباً. فقالوا في المديح وبرزواه وقالوا في الهجاء وأقذعوا وقالوا في النسيب وأكثروا بل وتهتك بعضهم، وقالوا في الخمريات، وهو أمر انفرد به العصر الزيري دون بقيــه العصور الإفريقية السابقة –، فأسفُّوا، وقالوا في الرثاء فأبــكوا، وقالوا في الوصف فأبدعوا في التشخيص، وقالوا في المعاتبات والغزوا. بل إن بعضهم أوقف شعره في التخصص في غرض واحد

---

(١) أنظر ما ذكرناه قبل ، ص ٧٢ ومابعدها ، عن أمراء الدولة الزيرية .

لايعدوه (١) لغيره، وليس هذا فحسب ، لابل إن بعضاً منهم تخصص في معنى واحد من غرض واحد ، مثال ذلك الشاعر الذي أوقف شعره على وصف الحمام ، حتى غلبت صناعة الشعر عنه فيه وحده (٢) .

ويخيل إلينا أن الحياة الناعمة المليئة بالأجواء المشبعة بالأدب وعنفوانه، قد دفعت بعض شعراء هذا العصر إلى أن يتظارفوا ، أو لنقل يصطنعوا الظرف في شعرهم وقريضهم . وإلاَّ فبم نفسِّر لجوء بعضهم إلى صبغ شعره بالحديث عن الأبل والقفار (٣) في هذا العصر الذي رق فيه الشعر وتهذب ، ليس في إفريقية ، بل وفي الدولة الإسلامية ؟ ، وكيف يتسنى لنا أن نفسر أن مجئ شعر أحدهم إعرابي بدوي (٤) ؟ أو أن يأتي شعر شاعر ثان جاهلي المرمي قفري الأسلوب (٥) ؟ أو أن يذهب ثالث إلى مجاراة بعض المشارقة في الاحتيال والكذب اللغوي ، واستبدال لفظة بلفظة من مختزنه اللغوي ، حتى إذا سئل أحال إلى كتاب لم يسمع به (٦) قط ؟

---

(١) كالشاعر أبي طالب الولاي حسن بن محمد الجهني الذي فقد عدداً كبيراً من أفراد عائلته في حادثة غرق في البحر ، فجاد شعره كله في الرثاء ، أنظر عبدالرحمن ياغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٠١، ٢٢٦ .

(٢) كالشاعر حسين التميمي المعروف بعنترة لشدة سواده ، أنظر عبدالرحمن ياغي : نفس المرجع أعلاه ،ص ١٠١ ، ٢١٩ .

(٣) كالشاعر القفصي الكفيف ، أنظر عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٤٥١ .

(٤) كعبد الواحد بن فتوح الكنامي : راجع عبدالرحمن ياغي : نفسه .

(٥) كالشاعر عبدالله بن محمد ، المعروف بابن البغداد ، أنظر عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص٢١٨-٢١٩ .

(٦) كالشاعر أبي بكر عتيق بن عبدالعزيز المذحجي .. أنظر عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٠٠-١٠١، ١٨٠ .

أوأن يسلك رابع مسلك شعراء المشرق في نظم الأقوال والحكايات (١) ؟ .. الخ . الحق أننا لانعزو ذلك إلاَّ إلى الظرف الأدبى الذي كسى الحياة الأدبية في العصر الزيري ، مع تسليمنا بالرغبة الدفينة ، والظاهرة الملحاحة في اقتفاء أثر المشرق والمشارقة .

وإذا نظرنا إلى أولئك الشعراء وأشعارهم والأغراض الشعرية التي طرقوها ، سهل علينا أن ندرك شكل القريض الظاهري ، أو شكل أدوات البناء الشعري ، فهو لابد أن يكون في غالبه إنعكاساً لطبيعة الحياة المتحضرة التي كان يحياها الناس هناك . هذا أولاً ، ثم توافقا وتماثلاً لما كان عليه البناء الشعري آخر في المشرق من إغراق في البديع والصنعة ، ومن شغف باستخدام الكتابة والتشبيه والاستعارة ، إلى الولع بالإشارات ولطافة التركيب على أنهم في الحق لم يكونوا سواء في ذلك .

وأخيراً ، فنظراً لأن هذا العصر قد إزدحم كما قلنا بعشرات الشعراء فإننا سنكتفى بالإشارة إلى أولئك الذين كان لهم دور في الخصوبة الشعرية التي امتاز بها هذا العصر انتاجاً وجودة سبك ، وكذلك إلى أولئك الذين عرفتهم بعض مدن وأقاليم إفريقية ، وذلك لتوضيح الحياة العلمية عامة والأدبية خاصة في عصر الزيريين هذا .

وكيفما كان الأمر فمن أوائل الشعراء الذين أوتوا قدراً كبيراً من تلك الخصوبة الشعرية التي تحدثنا عنها ، الأديب الكاتب الناقد الشاعر

---

(١) كأبي محمد عبدالله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاض ميله ، أنظر عبدالرحمن بإغى : نفسه، ص ٩٨ –٩٩ ، ٢٠٩ ، ٤٥١ .

عبدالكريم النهشلي القيرواني (ت٤٠٥هـ) الذي كنا قد ترجمنا له من قبل .
وفي الحق ، فإن النهشلي كان إلى جانب براعته في تلك الجوانب التي عرضنا لها من قبل ، شاعراً مرموقاً ، بل إن الشعر كان صناعته الفنية الرئيسية تقريباً (١) ، ومما يؤكد على علو مكانته الشعرية أن ابن رشيق(٢) الشاعر الناقد مؤرخ الأدب ، قد أطلق عليه لقب النهشلي الشاعر ، ولقد روى ابن رشيق (٣) في أنموذجه – دونما انكار أو دفع – ، أن النهشلي سئل ذات مرة عن أشعر شعراء القيروان في عصره ، فبدأ بنفسه ، ثم ثنى بالأديب الشاعر الحسين بن محمد التميمي التاهرتي ، المعروف بابن الربيب (ت٤٢٠هـ) الذي سبق لنا أن ترجمنا له من قبل ، وسنعرض له بعد قليل أيضاً .

وعندما صنف ابن رشيق كتابه الأنموذج ، ورتب شعراءه ، كان ترتيبه بالصورة التي ظهر عليها ترتيباً مقصوداً (٤) ، هدف من خلاله الإشارة إلى شعراء القيروان حسب مكانتهم الشعرية ، ولذلك فقد استهل كتابه بعبدالكريم النهشلي (٥) ، ويرى المنجي (٦) الكعبي ، الذي ذكرنا من قبل أنه تتبَّع ترجمة النهشلي وتقصَّاها في مظانها المختلفة ، أنه لايستبعد أن

---

(١) المنجي الكعبي : النهشلي القيرواني ،ص ٦٤ .
(٢) فيما ينقله عنه المنجي الكعبي : نفس المرجع أعلاه والصفحة .
(٣) فيما ينقله عنه المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٦٥ .
(٤) كما لاحظ ذلك المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٧٠ .
(٥) المنجي الكعبي : نفسه ص ٧٠ – ٧١ .
(٦) نفسه : ص ٦٨ – ٦٩ .

يكون له ديوان شعرى ، وهو الشاعر المكثر . ومع أننا لسنا متحققين من وجود ذلك الديوان ، إلاّ أن الشئ المؤكد ، أنه قد وردت له مقطوعات شعرية تجاوزت (١) ستة عشرة مقطوعة مختلفة الأغراض من غزل ومديح ورثاء ، تدل كلها على شاعريته المتمكنة .

والنهشلي من الشعراء النقاد ، الذين أثرت آراؤهم الشعرية في أبناء عصره من الشعراء ، كابن رشيق (٢) مثلا ، ولقد عده عبدالرحمن ياغي (٣) الشيخ الثاني الذي أثر في الحياة الحياة الفكرية المنهجية والأدبية لابن رشيق ، ووضحت شدة تأثر ابن رشيق بالنهشلي وآرائه النقدية الشعرية في كتابه العمدة (٤) .

وممّن غذى الحركة الشعرية الإفريقية في العصر الزيري بجيد شعره، وغزير عطائه ، العالم اللغوي النحوى الأديب الناقد الشاعر أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز القيرواني (ت : ٤١٢هـ) ، حسبما عرفنا عند حديثنا عن النثر الفني والتأليفي من قبل، والقزاز نموذج للأديب الشامل ، فهو لم يكن لغوياً ونحوياً ولا أديباً ناثراً ، ولاناقداً شاعراً فحسب، وإنما كان كل ذلك في شخص واحد . ولقد

---

(١) كما تتبعها المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٧٠- ١٢٥ .

(٢) أنظر عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ١٤٠ - ١٤٦ .

(٣) نفسه ، ص ١٤٠ .

(٤) عبدالرحمن ياغي : نفسه حاشيه رقم ٣ ص١٤١ ،وحواشي ص ١٤٢، وحواشي ص ١٤٣-١٤٤، حيث الإشارة إلى الصفحات التي وردت في كتاب العمدة ، الجزء الأول ، التي تدل على شدة تأثر ابن رشيق بالنهشلي القيرواني .

وصف ابن رشيق (١) مكانته الشعرية بأنه كان له شعر جيد مطبوع مصنوع ، ولايستبعد المنجي الكعبي (٢) الذي تقصى حياة وترجمة القزاز القيرواني أن يكون له، وهو الأديب المرهف الشاعرية ديوان شعري وعلى كل حال فقد أورد المنجي الكعبي(٣) له عدداً من القصائد والمقطوعات الجميلة .

ويأتي الأديب الناثر الناقد الشاعر ابراهيم الحصري (ت٤١٣هـ) مثالاً لواحد من صفوة شعراء إفريقية في العصر الزيري آنذاك ، ولقد أثنى ابن رشيق (٤) على شاعريته ، ووصفها وصفاً صائباً فقال عنه وعنها : (كان شاعراً نقاداً عالماً بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبها بأبي تمام في أشعاره ، متتبعاً لآثاره ، وعنده من الطبع مالو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ، ورق رقة الهواء) . أما ابن بسام (٥) فقد قال : (له أشعار أندى من نسيم الأسحار ، وأذكى من شميم الأزهار) .

ولإبراهيم الحصري ديوان شعر ، يعرف بديوان الحصري كما يقول ابن خلكان (٦) ، إلاّ أنه يعد في عِداد المفقود من دواوين المغاربة كما يعتقد أبو القاسم كرو وعبدالله شريط (٧) . على أن النتف الذي أورده ابن رشيق،

---

(١) نفسه ، ص ١٢٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٠ – ١٠٣ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٠– ١٠٣ .

(٤) نفسه ، ص١٨– ١٩ .

(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الثاني ج٨، ص ٥٨٤ – ٥٨٥ .

(٦) نفسه ، المجلد الأول ، ص ٥٤ .

(٧) نفسه ، ص ٢٨١ .

ومن أخـذ عنه ، يدل بحق على قـوة الشـاعـرية وأصـالتـهـا عند ابراهيم الحصري.

ومن الشـعـراء الذين زهى بهم العصر الزيري وقتذاك الشاعر الأديب محمد بن ابراهيم التميمي (١) الكموني (ت ٤١٤هـ) وعده ابن (٢) رشيق شاعراً فصيحاً لفاظاً ، حسن التقيم ، جزل الشعر جيد الترسيم ، ظاهر البلاغة من الشعراء العالمين بأسرار الكلام . إذا ركب معنى أجاده ، بيد أنه مع ذلك لم يمدنا من شعره إلاَّ بنتف ضئيل .

ومن أقطاب الحركة الشعرية في إفريقية الذين وصلنا شيئ يسير من الإشارة إليهم، وإلى شعرهم دون انتاجهم ، الأديب الناثر واللغوي النحوي والقاضي الشاعر الحسن بن محمد التميمي التاهرتي المعروف بابن الربيب (ت : ٤٢٠هـ) . وابن الربيب عرضنا لذكره من قبل ونحن نتحدث عن النثر الفني ، كما أننا عرفنا ونحن نعرض للشاعر النهشلي القيرواني ، أن النهشلي وضع ابن الربيب في المرتبة الثانية من الشاعرية بعده ، وعلى أيه حال فإن ابن رشيق (٣) الذي ذكر ذلك يصف ابن الربيب بأنه قد بلغ نهاية

---

(١) ترجمته موجودة عند : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ،ص ١٠١-١٠٢ ، وهي ترجمة مختلطة مضطربة جداً - الصفدي : نفسه ، ص ٥٠٤- عبدالرحمن ياغي : نفسـه ، ص ١٦٢ - ١٦٣ - المنجي الكعبي : القزاز القيرواني : ص ٤٢ وهو الوحيد الذي أشار إلى سنة وفاته كما أثبتناها في المتن .

(٢) فيما ينقله عنه الصفدي : نفسه ، ص ٥ .

(٣) فيما ينقله عن ابن فضل الله العمري في المسالك : أنظر عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٦٨-١٦٩ .

الأدب وعلم الخبر والنسب ، وأنه كان يتكلفه بعض التكليف .

ويعد ابراهيم الرقيق القيرواني (ت٤٣٥هـ) الذي أشرنا إلى دوره في النثر الفني والتأليفي في موضعه من الشعراء المرموقين في إفريقية آنذاك ويتميز شعر الرقيق ، بأنه محكم لطيف الطبع ، قوى ، كما يرى ابن رشيق (١) ، أما حسن حسني عبدالوهاب (٢) ، فيقول عن شعره إنه ذو طلاوة وحلاوة ورونق ، ومع أن ابن رشيق (٣) يصف الرقيق بقلة الشعر ، إلاَّ أنه يورد له مقطوعات عديدة في أغراض شتى ، كالمديح والنسيب ، والحنين ، تضعه دون ريب في مرتبة عالية من الشعر .

وثمة شاعر إفريقي مبرِّز ، كان له ولأشعاره دوى وصيت ذائع آنذاك ألا وهو الأديب الكاتب الشاعر الرياضي، أبو الحسن : علي بن أبي الرجال الشيباني ، التاهرتي أصلاً ، القيرواني وفاة وسكنى ، والمتوفى عام ٤٢٥هـ. وأبو الحسن على بن أبي الرجال ، رأيناه يضطلع برئاسة ديوان الإنشاء من قبل ، ورأينا كثيراً من المؤرخين يعزون إليه السبب في عدول المعز بن باديس عن المذهب الشيعي حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل . ويرى ابن رشيق (٤) لأبي الحسن على بن أبي الرجال علماً طائلا وأدباً كاملا، وقد أورد له في كتابه العمدة (٥) عدة مقطوعات شعرية أفاض ابن رشيق في وصف

---

(١) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٨ .

(٢) الورقات ، القسم الثاني ،ص ٤٤٠.

(٣) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٨-٣٤ .

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الجزء الأول ،ص ١٧ .

(٥) أنظر الجزء الثاني ، الصفحات ، ١٤٦، ١٦٧، ١٧٤- ١٧٥ ، وغيرها .

ماتتحلى به من شاعرية جيدة السبك .

ومن شعراء العصر الزيري المتأخرين ، ممَّن كانت لهم شهرة عريضة في النظم ، الأديب الشاعر أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن أبي الليث اللخمي المعروف بابن حديده (١) (ت :٤٥٠هـ) (٢). وابن حديدة من معاصري ابن رشيق وأنداده ، وقد وصف ابن رشيق شاعريته بقوله : (شاعر فكه الشعر ، رائق التشبيه مولع به ، قليل التكلف ، قوى المنهج والظرف ، ورفض المدح والهجاء ويخبر التصنّع خبراً جيداً ولايركبه إلاّ في الأماكن التي تصلح له كما شرط حذاق المتقدمين)(٣) .

وتتجلي في مختارات ابن رشيق لشعر ابن حديدة (ميله إلى الصناعة الأنيقة الحضرية التي تبعد عن سذاجة الطبع ، وبساطة التعبير) . (٤)

على أن أشهر ثلاثة شعراء أبرزهم هذا العصر ، وتميزوا بالشاعرية التي تضعهم في مصاف شعراء العربية المبرِّزين في كل العصور ، كانوا بلا مراء ، ابن رشيق (ت : ٤٥٦هـ) ، وابن شرف (ت : ٤٦٠هـ) ، والحصري القيرواني الضرير (ت : ٤٨٨هـ) .

ولنبدأ بابن رشيق بوصفه أول الثلاثة وفاة . وابن رشيق في الحق

---

(١) ترجمته موجودة عند ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ،ص ١١- ١٥- الصفدي : نفسه ، ج٧، ص ٢٩٣ - ٢٩٥ - عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٢٠٦ - ٢٠٩ .

(٢) فيما يعتقده حسن حسني عبدالوهاب - أنظر عبدالرحمن باغي : نفسه ، حاشية رقم ٢، ص ٢٠٧ .

(٣) ابن رشيق : نفس المصدر المصدر السابق أعلاه ، ص ١١ .

(٤) عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ٢٠٨ .

تردد اسمه على مسامعنا كثيراً فيما سبق من عرض للحركة الأدبية فلي إفريقية في العصر الزيري ، كما أننا قمنا بالإشارة إلي الترجمات الواسعات التي حظى بها من قبل المؤرخين قدامى ومحدثين . وفوق هذا ، فقد تلمسنا من كثب إسهاماته في مجال التآليف الأدبية والنقدية . ولقد خرجنا من كل ذلك بانطباع هو أن ابن رشيق يعد أنموذجاً صادقاً للأديب الشامل متعدِّد المواهب . ولا نستطيع حقيقة أن نقول بأنه في هذا الجانب من الحركة الأدبية أقدر منه في الجانب الآخر ، فقد كان تبريزه في كل مجالات الأدب متساوياً متماثلا .

ولقد سبق لنا أن عرفنا أنه كان من أشهر رموز الأدب في بلاط المعز ابن باديس ، الذي استمر يقتعد صدارته حتى سقوط القيروان على يد الهلاليين في منتصف القرن الخامس الهجرى ، حيث التحقق بعد ذلك بصقلية ، وظل فيها إلى أن وافته المنية عام ٤٥٦هـ على الأرجح .

وطيلة مدة إقامته في بلاط المعز ، كان ينظم القصائد السائرات في شتى الأغراض ، تجاوباً مع الأحداث والمواقف ، وانفعالاً بها ، وكان مع ذلك لايفتأ ينظم أعذب الشعر وأروعه ، متى ما جمعته الأيام والأزمان مع أترابه ولداته من شعراء القيروان ، وبالجملة ، فإننا نستطيع أن نقول : إنه قد ملأ البلاد شعراً عذباً ، رائقاً ، كما ملأتها مؤلفاته وآرواؤه النقدية .

ولقد تصدى نفر من المحدثين ، وعلى رأسهم عبدالعزيز الميمني السالفي الراجكوني إلى تصنيف كتاب ، جمع فيه أكثر تراثه الشعري ، هو

وزميله ابن شرف ، وأطلق عليه : النتف من شعر ابن رشيق، وزميلة ابن شرف ، القيروانيين (١) ، كما مر بنا سابقاً . وكذلك فعل عبدالرحمن ياغي ، الذي كتب كتابه : حياة القيروان موقف ابن رشيق منها ، سالف الذكر . غير أنهما لم يقدرا (٢) على جمع كل شعر ابن رشيق المتناثر في بطون كتب الأدب ، ولاسيما كتاب ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .

أما شاعريته ، فلسنا نجد بعد قول ابن بسام (٣) عنه ، أنه (إن نظم طاف الأدب واستلم) ، وقوله كذلك عن شعره (وأما الشعر ، فإنه أنسى أهل وملك منه سَخْتَهُ وَجْزَلَه) ، ولا بعد قول الأديب البغدادي الأصل، الأندلسي مقاماً ووفاة أبي على القالي (٤) عن ابن رشيق : شعره (شعاع القمر ، وحديث السمر ، ومعجزة الخُبر والخَبر ، فات الأواخر والأوائل ، وأسكت المناظر والمماثل) ، ولابعد قول ابن خلدون (٥) الذي قطع به قول كل خطيب ، من أنه أشعر شعراء عصره ، نقول لانجد تقريظاً جمع فأوعى مثل هذا ، ونختتم حديثنا عن شعره يقول الميمني الراجكوني (٦) في تقديمه لشعر ابن رشيق مانصه : (هذه نتف من شعر ابن رشيق القيرواني ، أبي على الحسن مثبوته في مطاوي ودواوين الأدب ودفاتره ، اقتطفنا من

---

(١) أنظر الصفحات من ٤- ٨٧ ، حيث شعر ابن رشيق .

(٢) أنظر الحاشية رقم ١، ص٥٩٧ من المجلد الثاني ، الجزء الثامن ، من كتاب ابن بسام : الذخيرة في محاسي أهل الجزيرة التي كتبها المحقق ، احسان عباس .

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الثاني ، الجزد الثامن ، ص٥٩٧ – ٥٩٩ .

(٤) فيما ينقله عنه ابن بسام : نفس المصدر أعلاه والمجلد والجزء ، ص ٥٩٧ – ٥٩٨ .

(٥) فيما ينقله عنه أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب، ص ٣١٤ .

(٦) النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين ، ص ٢ .

أزاهرها ، وانتقينا من أخابرها ، لتكون نموذجاً من شعره ، يتوه بذكره ، ويميزه عن أبناء عصره ، ويطيب من نشره) .

أما الشاعر الثاني الأشهر الذي ازدان به جيد الشعر الإفريقي في العصر الزيري، فقد كان محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني، الذي غلب عليه اسم ابن شرف ، وابن شرف لامس اسمه أسماعنا فيما سبق من حديث عن بعض أوجه الحركة الأدبية ، وقد تتبعنا ترجمته التي حظى بها في مظانها المختلفة ، وذكرنا أنه كان ثاني اثنين اشتهر بهما بلاط الأمير المعز بن باديس ،وقلنا في حينه إنه أضطر إلى مفارقة القيروان بعد سقوطها والاتجاه إلي صقلية ، ثم الأندلس حيث تهادته بلاطات ملوك الطوائف ، وظل هناك حتى توفى عام ٤٦٠هـ بمدينة أشبيلية (١) .

وابن شرف لانجد مندوحة في وصفه بالأديب الشامل ، فهو ناثر ، وناقد ، ومؤرخ للأدب ويكفي أن نشير إلى أنه من أوائل من سبق في تحرير المقامات (٢) من المغاربة ، وهو مع ذلك شاعر مصقع . ولقد ترك تراثاً شعرياً ضخماً احتوى معظمه كتاب (النتف) (٣) لعبدالعزيز السلفي الميمني ، حسبما أسلفنا .

أما عن شاعريته ومكانته العالية فيه – أي الشعر – فقد قيل عنها الكثير ، فهذا ابن بسام (٤) مافتئ يشيد بها ويمتدحها كلما ورد ذكر لابن

(١) أظر قبل ، ص ٦٤٧ .

(٢) أنظر ما قلناه عن ذلك قبل ، ص ٨٤٩ .

(٣) أنظر الصفحات من ٨٨-١٢١ (حيث شعر ابن شرف حسب تقسيم الميمني) .

(٤) الذخيرة .

شرف . وهذا الصفدي (١) يعتبره أحد فحول شعراء المغرب ، ومن المحدثين نجد أبا القاسم كرو وعبدالله شريط (٢) يقولان عنه مانصه : (يعد من الشعراء المجيدين في المغرب لسلاسة معانيه ، وقوة تركيبه ودقة وصفه ، ووضوح أفكاره) .

والشاعر الأشهر الثالث والأخير الذي أنجبته إفريقية في العصر الزيري هو أبو الحسن علي بن عبدالغني الحصري الفهري القيرواني الضرير (٣) (ت : ٤٨٨هـ). والحصري القيرواني الضرير ، سبق أن عرفناه عالماً منهجياً من علماء القراءات المتأخرين ، وقلنا وقتها إن مكانته العالية في علوم القرآن لاتجيز لنا أن نغفلها بحجة أنه عاش فترة من الزمن بعد الفترة التي حددناها رحاباً زمنياً للرسالة ، وهي منتصف القرن الخامس الهجري .

وإذا كنا قد أجزنا ذلك منهجياً هناك ، أفليس من الأوجب أن نجيزه هنا في التنويه به كشاعر ، وهو الذي خلف أضخم تراث شعري عرفته إفريقيه لشاعر طيلة الفترة موضع الإهتمام ، لناهيك عن أنه هو صاحب

---

(١) نفسه ، ج٦ ، ص٩٧ .

(٢) نفسه ، ص ٣٢٥ .

(٢) لقد كفانا محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى عناء البحث عن الترجمات الواسعات التي حظى بها الحصري القيرواني الضرير وشعره ، من قبل المؤرخين القدامى والمحدثين ، وذلك بتاليفها لكتاب ضخم تتبُّعا فيه كل ماجاء عن الحصري ، سواءا كان ذلك فيما يتعلق بحياته وسيرته منذ ولد عام ٤٢٠هـ حتى توفى عام ٤٨٨هـ ؛ أو ما يتعلق بشعره الغزير والاهتمام الواسع الذي لقيه من قبل الشعراء القدامى والمحدثين وقد أطلقا على ذلك الكتاب : أبو الحسن الحصري القيرواني .

القصيدة التي طبقت شهرتها الآفاق حتى الآن ، وهي قصيدة (ياليل الصب).

وفي الحق فإن شهرة الحصري القيرواني الضرير قد قامت لاعلى أساس مكانته في علم القراءات - على أهميتها - ولا على مكانته في علوم العربية (١) - مع تبريزه فيها -، ولكن على مكانته الشعرية التي شهد له بها الأدنى والأبعد .

وعلى أية حال ، فإن الحصري ولد عام ٤٢٠هـ ، كما يري حسن حسنى عبدالوهاب ويرافقه عليه محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى(٢) ، وشب وترعرع في تلك البيئة العلمية التي عرضنا لمعظم أبعادها . على أنه لم يكن له صوت مسموع خلال المدة التي ظهرت فيها مخائل الشاعرية عنده ، وحتى اضطراره إلى مغادرة القيروان بعد سقوطها عام ٤٤٩هـ - ولعله كان خافتا وقتها - أمام عمالقة الشعر في ذلك الوقت . ولقد نزل المغرب الأقصى وبالذات مدينة سبتة حيث ظل فيها مدة مديدة من الزمن ، ثم غادرها عام ٤٦٢هـ إلى الأندلس ، حيث تنقل في أرجائها ، وبعث فيها جواً من النشاط الأدبي ، ثم عاد إلي المغرب الأقصى حيث توفى عام ٤٨٨هـ (٣) .

---

(١) أنظر محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيي : أبو الحسن الحصري القيرواني ص ٣٤-٣٥ .

(٢) أبو الحسن الحصري القيرواني ص ٢٣- ٢٤ .

(٣) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى ك نفس المرجع أعلاه ، ص ١٩-٨٢ (بتوسع واستفاضة) .

وأيا ماكان الرأي بشأن عدم وضوح انتاجه الشعري في الشطر الأول من عمره ، الذي قضاه في بلده القيروان (١) ، فإن الحصري قد ملأ الشطر الثاني من عمره شعراً غزيراً رائقاً جيد السبك متينه ، وهو من الشهرة والذيوع كما يقول محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى بحيث لايحتاج إلي تعريف وتقديم .

ومن مؤلفاته الشعرية التي تركها : ديوان المستحسن (٢) من الأشعار، وقد أهداه للمعتمد بن عباد ، أحد ملوك الطوائف في الأندلس وهو عبارة عن مدائح فيه وفي أسرته من بني عباد ، والقصيدة الرائية (٣) ، وهي منظومة في قرآءة نافع ، وتحتوى على ٢١٢بيتاً ، وقد أشرنا إليها في دراسات علوم القرآن ، وديوان المعشرات (٤) ، وهو ديوان في الشعر الغزلي ، نظمه على حروف المعجم ، وهو عبارة عن قصائد، كل قصيدة تتكون من عشر أبيات يبدأ كل بيت منها ، وينتهي بنفس حرف المعجم . ويتكون هذا الديوان من ٢٩٠بيتا . وقد حاول الحصري في هذا اللون من الشعر أن يستعرض مهارته الأدبية الفائقة ، ولا يستبعد محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى (٥) أن يكون الحصري صاحب السبق في هذه

---

(١) أنظر تعليل محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى لذلك : نفسه ، ص ٢٧-٢١ .

(٢) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٦٨، ١٠٣ .

(٣) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٦٧-٦٨ .

(٤) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ،ص٧٠ ، ٢٠٥-٢٠٦، ثم الديوان ص ٢١٢-٢٤٠ .

(٥) نفسه ، ص ٢٠٦ .

الطريقة من الشعر. ومن مؤلفاته الشعرية أيضاً ، مجموعة قصائد (١) قالها في هجاء خصومه من الأندلسيين، وكذلك قصائد مدح أخرى قالها في أصدقائه. ثم ديوان اقتراح القريح (٢) واجتراح الجريح وهو ديوان شعر كله في الرثاء ، نظمه الحصري في رثاء أحد أولاده الأثيرين عنده ، وقد رتَّبه على حروف المعجم ، ويقع في نحو ألفين وستمائه بيت . وبهذا الديوان وبقصيدة ياليل الصب قامت شهرة الحصري الذائعة حتى الوقت الحاضر .

وأخيراً ، فإن أشهر مؤلفات الحصري الشعرية على الإطلاق ، كانت بدون شك قصيدة : ياليل الصب ، التي طارت شهرتها في الآفاق كما أسلفنا . وقصيدة ياليل الصب قصيدة أنشأها الحصري في مدح الأمير محمد بن طاهر ملك مدينة مرسية ، وهي إحدى ممالك الطوائف التي عرفتها الأندلس في القرن الخامس الهجري . وتقع القصيدة في ٩٩بيتا (٣) ولسنا في حاجة إلى القول بأن الناس قد شغلوا بهذه القصيدة منذ أن قالها صاحبها الحصري حتى الوقت الحاضر . ولقد دفعت روعتها الأدبية وعذويتها ورقتها الكثير من الشعراء المشارقة والمغاربة القدامى والمحدثين ، إلى معارضتها بعشرات القصائد ، وقد تتبَّع محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى (٤) ، كل تلك المعارضات التي عورضت بها قصيدة ياليل

---

(١) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ،ص ١٠٣ .

(٢) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص٧٠، ٢٤٣- ٢٧٢ ، التحليل ، ثم الديوان، ص ٢٧٣ - ٤٥٤ ، ثم ذيل الديوان ، ص ٤٥٥-٤٩٠ .

(٣) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ١٩٠-١٤٠ .

(٤) نفسه ، ص ١٥٠ - ٢٠١، ٤٩٤- ٤٩٥ (حيث إلى الإشارة إلى معارضات القدامى والمحدثين) .

الصب ، كما أنهما تتبعا(١) ما اشتهر من الألحان التي صاغها بعض قدامى الملحنين والمحدثين ، فأشار إلى ذلك في موضعه .

وبعد هذا ، فليس غريباً أن يثني عليه وعلى مكانته الشعرية نقّاد الأدب ومؤرخوه وغيرهم ، فيقول ابن بسام (٢) عنه أنه كان بحر براعة ، ورأس صناعة وزعيم جماعة ، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه القيروان ، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق ، معمور الطريق ، فتهادته ملوك طوائفها تهادي الرياض للنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأندلس المقيم) . ويقول الحميدي صاحب كتاب جذوة المقتبس(٣) عنه : (شاعر أديب ، رخيم الشعر ، حديد الهجو ... وشعره كثير ، وأدبه موفور) .

أما وقد تسنى لنا التعرف على أبرز شعراء القيروان في العصر الزيري فإن الحاجة تقتضي أن نتعرف على حالة الشعر والشعراء في بقية مدن وأقاليم إفريقية في ذلك العصر أيضا ، فالواقع أن كثيراً من مدن وأقاليم إفريقية كانت موئلاً لنهضة شعرية تتجاوب في أرجائها ، ولا تقل بهاءً وتألقاً عن النهضة الشعرية التي كانت مدينة القيروان تتفيئ أريجها وعبقها .

فمدينة تونس مثلاً ظهر فيها إذ ذاك نفر من الشعراء المرموقين ، حق

---

(١) نفسه ، ص ١٣٩ مع الحواشي .

(٢) فيما ينقله عنه محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى ، نفسه ص ٦٤ .

(٣) نفسه ، ص ١٣٩

لهـا أن تزهو بهــم . نذكـر منهم ، الحـسن بن عـبـدالعـزيز بن جـربون التـونسي (١) ، (كـان حـيّاً سنة ٤٠٩هـ) ولقـد ذكـره ابن رشـيق (٢) في أنموذجه، فقال عنه (شاعر مشهور ، مباحث ، دراس ، يعرف مستعمل اللغة وتركـيب ألفـاظ الشـعـر ، وينحـو نحـو أبي القـاسم بن هانئ في الإجـلاب والتهويل ، وإن قصر عن ذلك في المعنى وحصرها) . ويرى ابن رشيق (٣) أن ابن جـربـون كان كثيراً مايميـل إلى ذكر الخيل وعدة الحرب في شعره (تقوية للكلام وتنغيماً للمستمـع) ، على أنه يري أيضـاً أنه لم يجـد له (معنى إنفرد به ، ولازاد زيادة توجبه له) (٤) .

ومن شعراء مدينة تونس كذلك ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن خليفة التونسي المعروف بالصرايري (٥) (ت ٤١٨هـ) (٦) . وأهم مايميز شعره الهجاء المقذع ، غير أن له مقطوعات في الغزل تدل مع انحراف مضامينها على شاعرية جيدة (٧) . وهناك شاعر تونسي ثالث كان كثيراً مايؤم مدينة

---

(١) ترجمته موجودة بإيجاز عند ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٧٩-٨٠ واسمه هنا الحسن بن جربون - عبدالرحمن باغي : نفسه ص٢٢٠ ، وعنده اسمه الحسن بن جربون .

(٢) ص ٧٩ .

(٣) فيما ينقله عبدالرحمن باغي : نفسه عن ابن فضل الله العمري الذي ينقل مباشرة عن ابن رشيق.

(٤) ابن رشيق : نفسه ، ص ٨٠ .

(٥) ترجم له ترجمة لا بأس بها ابن رشيق : نفسه ، ص ١١١ - ١١٥- الصفدي : نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٦١-٦٣- عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ٨٢ .

(٦) كما أشار الصفدي : نفسه ، ص ٦١ .

(٧) ابن رشيق : نفسه ، ص ١١٢- ١١٥- الصفدي : نفسه ، والجزء ص٦١-٦٣.

القيروان ويجتمع مع شعرائها ، وفيهم ابن رشيق وغيره ، وهو عبدالواحد ابن فتوح الكتامي الوراق (١) .

ولم تكن مدينة المهدية بمنأى عن النشاطات الأدبية والشعرية منها على وجه الخصوص . فلقد ذكر بأنه برز فيها عدد من الشعراء في العصر الزيري ، نذكر منهم معد بن حسين بن جبارة الفارسي (٢) أحد الشعراء المشهورين في إفريقية وقتذاك . وهو أحد الشعراء الذين طوقوا بالبلدان (وسلك طريق الشعراء في طي البلدان وقصد الأجواد) (٣) . ولمعد بن حسين بن جبارة شعر (يستغرق البناء ويستعجز الشعراء) (٤) . وبجانب ذلك يتميز شعره بأن كثيراً منه بلغ الغاية في الحلاوة والرشاقة .

ومن شعراء مدينة المهدية كذلك عبدالله بن ابراهيم بن المثنى الطوسي، المعروف بابن المؤدب (٥) (ت٤١٤هـ) ويقول الكتبى (٦) عنه إنه كان شاعراً مذكوراً مشهوراً ، قليل الشعر) ، ومنهم أيضاً على بن عبدالكريم المعروف بابن غالب (وقد نحى في الرجز نحواً عجيباً)(٧) .

---

(١) عبدالرحمن باغي : المرجع السابق ،ص ٢١٢– ٤٥١ .

(٢) عبدالرحمن باغي : المرجع السابق ،ص ١٦٠ – ١٦١ .

(٣) عبدالرحمن باغي : المرجع أعلاه والصفحة .

(٤) عبدالرحن باغي : نفسه ،ص ١٦١ .

(٥) توجد له ترجمة طيبة عند الكتبي : فوات الوفيات ، ج١، ص ٤٣١– ٤٣٣– عبدالرحمن باغي : نفسه ،ص ١٦٣– ١٦٤ .

(٦) فوات الوفيات ، ج١ ،ص ٤٣١ .

(٧) عبدالرحمن باغي : نفسه ،ص ٢٢٤ .

ونافست مدينة سوسة غيرها من المدن الإفريقية ، فأهدت البلاد نخبة من الشعراء المجيدين ، نشير إلى واحد منهم برز واشتهر آنذاك ، وهو محمد بن عبدون السوسي ، المشهور بالوراق السوسي (١) ، فلقد كان شاعراً بليغاً ، وأثنى عليه ابن رشيق (٢) ، فقال (شاعر بليغ وطئ الكلام ، كلف بعذوبة اللفظ ، والتوصل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون جأش) . والوراق السوسي أحد الذين غادروا إفريقية أنذاك ، وتوجه إلى جزيرة صقلية عام ٣٩٣هـ، حيث اتصل بأميرها يوسف بن عبدالله بن محمد بن حسين الكلبي ، ولقد حفظ عنه شعر رائق بديع في غرض الحنين ، قاله متشوقاً إلى مدينته سوسة (٣) . وثمة شاعر سوسى آخر ، أثنى عليه ابن رشيق ، وهو علي بن أحمد الصفار السوسي ، الذي كان متسع القافية ، سالم الطبع ، عالم باللغة (٤) .

واشتهر من مدينة باجة ، سواء كانت باجة الزيت ، أو باجة القمح ، نفر من الشعراء مثل محمد بن أبي مفتوح المغربي (٥) الشاعر ، أحد أبناء مدينة باجة الزيت ، وقد غلب على شعره الهجاء البهديهي ، ومثل محمد بن

---

(١) ترجم له ترجمة حسنة الصفدي : نفسه ، ج٣، ص ٢٠٥- ٢٠٧- حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ،ص ٨٢-٨٣- أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية ،ص ٩١-٩٥ .

(٢) فيما ينقله عنه الصفدي : نفسه ، والجزء ، ص ٢٠٥ .

(٣) الصفدي : نفسه ، ج٣ ، ص٢٠٥- ٢٠٧- حسن حسني عبدالوهاب ، المرجع السابق، ص ٨٢-٨٣ – أحمد بن عامر : نفسه ، ص ٩١-٩٥ .

(٤) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٤ .

(٥) الصفدي : نفسه ، الجزء الخامس ،ص ٤٧ – عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص٢٣١ .

خلوف أو مخلوف ابن مشرق السلمي (١) ، أو المسلمي ، وقد أشاد ابن رشيق بشعره فقال (٢) : (شاعر مطبوع . درب عذب الألفاظ ، واضح المعاني ، سهل الطريق ، حسن التلويح) . ومما اختار له من شعر يصفه بأنه (شعر سلسل غير شرس ، عذب الظاهر ، رطب المكاسر ، سالم من التعسف والإكراه ، يشرب شرباً ، ويلصق بالقلوب حبا) (٣) .

وشارك إقليم الجريد في نهضة إفريقية الشعرية خلال العصر الزيري ونستطيع أن نعد من أبرزهم يحيى بن علي بن زكريا الشقراطسي التوزري (٤) من مدينة توزر ، وهو أحد الفقهاء والشعراء المشهورين آنذاك، ويقول عنه الهادي مصطفى التوزري (٥) إنه كان عالماً بفنون الأدب وضروبه وعالماً بالنقد ، ويورد المعنى الدقيق في أسلوب الشعر الجاهلي ، ويرى الهادي مصطفى التوزري (٦) كذلك أن شعر يحيى الشقراطسي خلا من الصنعة وألوان البديع ، وللشقراطسي قصيدة جيدة في رثاء الفقيه المالكي محمد بن أبي زيد القيرواني المتوفي عام ٣٨٦هـ .

---

(١) ترجم له ترجمة واسعة الصفدي : نفسه ،ج٣، ص ٤٧ – ويلقبه بالسلمي – عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ ، ويلقبه بالمسلمي .

(٢) فيما ينقله عنه الصفدي : نفسه ج٣، ص ٤٧ .

(٣) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٤) لم تزودنا كتب طبقات علماء وفقهاء إفريقية بأي معلومات عنه ، وقد حصلنا على تقريظ لترجمته وحياته وفقهه وشعره لدى الهادي مصطفى القدزرتي : أعلام الأفارقة ، ص ٧–١٥ في معرض ترجمته للشاعر الفقيه المشهور عبدالله الشقراطسي ابنه .

(٥) أعلام الأفارقة ص ١٢–١٣ .

(٦) أعلام الأفارقة ، ص ١٣ .

على أن أشهر شاعر خلال عصر الزيريين أهدته مدينة توزر بإقليم الجريد هو بلامراء الشاعر الفقيه أبو محمد عبدالله بن أبي زكريا يحيى بن علي الشقراطسي (١) (ت ٤٦٦هـ) ، ابن يحيى المذكور آنفا. وبالطبع فليس ثمة ضير علينا . أو تثريب عددنا الشقراطسي من شعراء الفترة موضع الإهتمام . فقضاؤه جل عمره في الفترة موضع الاهتمام من جهة ، وذيوع شهرته من جهة أخرى ، كل ذلك خليق بأن لانغفل ذكره البتة .

وعلى أية حال ،فقد ولد عبدالله الشقراطسي في مدينة توزر ، وإن كنا نجهل تاريخ ولادته ، لما بلغ سن التعليم ، التحق بحلقات شيوخ بلده من علماء المالكية ، ومن بينهم والده يحيى ، حيث تلقى علوم الشريعة على أيديهم . وبعد أن ملأ إهابه من علم شيوخه في توزر ، ارتحل إلى القيروان عام ٤٢٩هـ ، فتلقى العلم على أيدى شيوخها ، وفي هذا كله كانت شاعريته تتفتق وتتكون وتنصقل ، ثم تاقت نفسه إلي الحج ، فارتحل إلى مكة المكرمة، حيث أدى الفريضة ، ثم عاد إلى بلده عن طريق مصر ، التي مكث فيها بعضاً من الوقت ، وفي توزر كرس نفسه للإقراء والتدريس حتى وافته المنية عام ٤٦٦هـ (٢) .

وفي الحق فإن شهرة عبدالله الشقراطسي لم تقم على مكانته في علوم الفقه وغيره ، ولكن على شهرته في فرض الشعر ونظمه ، فقد كان شاعراً

---

(١) تتبع ترجمة حياته وأشعاره ، الهادي مصطفى التوزري ، الذي ألف فيه كتاباً بعنوان : أعلام الأفارقة – عبدالله الشقراطسي .

(٢) الهادي مصطفى التوزري : – عبدالله الشقراطسي ص ١٦–٢٠ .

قوياً متبحراً متمكناً . ولقد قال الشعر في كثير من الأغراض ، في الغزل ، وفي الرثاء وفي الفخر ، وكان في كل ذلك مجلياً (١) .

لكن شهرته في الحقيقة بوصفه شاعراً لم تقم إلاَّ بالقصيدة التي ذاعت وشاعت شرقاً وغرباً ، وهي القصيدة اللامية المعروفة (بالشقراطسية في مدح خير البرية) ، وقصيدة عبدالله الشقراطسي هذه ، المسماة باسمه تعد من عيون وغرر قصائد المديح النبوي ، وهي (طويلة بديعة على نسق واحد في الترتيب والجودة ، وحسن السبك ، تعد أبياتها ١٣٥بيتا) (٢) .

والواقع أن القصيدة الشقراطسية – كما يخيل إلينا – ، ذات دلالات عديدة . منها أنها تعد دليلاً على مقدار حب أهل المغرب للرسول ﷺ ، ومنها أنها تعد خير مؤشر للمكانة السامية التي وصلتها الحركة الشعرية في إفريقية آنذاك ، وأنها كانت المثال المحتذي لكل قصائد المديح النبوي ، ولقد سبق الشقراطسي في قصيدته هذه بردة البوصيري بنحو قرنين من الزمان (٣) ، ويقول الهادي مصطفى (٤) إن البوصيري نسج بردته على غرارها بحراً ومعنى ، ولم يخالفها إلاَّ في اللفظ والقافية .

ولقد ذاع صيت القصيدة الشقراطسية ، ولكن بين المغاربة بدرجة أوسع والمشارقة بدرجة أقل . وقد ظلت لفترة طويلة هدفاً للتفسير

---

(١) أنظر الهادي مصطفى التوزري : نفس المرجع أعلاه ،ص ٢٣-٣١ .

(٢) الهادي مصطفى التوزري : نفسه ، ص ٣٢ .

(٣) الهادي مصطفى التوزري : نفسه ، ص ٣٢ .

(٤) نفسه ، ص ٣٢ .

والتخميس (١) .من جانب المغاربة . أما شروحاتها الكثيرة ، فقد اضطلع بها نفر عديد من المغاربة بصورة أوسع (٢) ، وكذلك نفر من المشارقة (٣) .

ولم يتخلف إقليم طرابلس عن المشاركة في النهضة الشعرية في إفريقية خلال عصر الزيريين ، فقد لمع فيه آنذاك شاعر معروف ، هو أبو الحسن على بن أبي اسحاق بن ابراهيم السوداني ، الذي كان شاعراً رقيق الشعر ، وله فيه ديوان (٤) . ويروى أنه كان على صلة صداقة بالأديب الشاعر ابن رشيق (٥) وقد بقى من شعره مقطوعة تقع في خمسة أبيات (٦) .

ولم يكن إقليم الزاب بعيداً أيضاً عن الإسهام في النهضة الشعرية الإفريقية حينئذ ، فقد برز فيه غير واحد من الشعراء ، نذكر منهم الأديب الشاعر المشهور أبا محمد عبدالله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة (٧) ، وقد أثنى على شاعريته عدد من الأدباء مثل

---

(١) الهادي مصطفى التوزري : نفسه ، ص ٣٣-٣٨ .

(٢) الهادي مصطفى التوزري : نفسه ، ص ٣٩-٤١ .

(٣) أنظر كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ،ج٥، ص ١٠٨ -١٠٩ .

(٤) عبدالمنعم خفاجي : قصة الأدب في ليبيا ، ص ١٠٥ .

(٥) عبدالمنعم خفاجي: نفس المرجع أعلاه ، ص ١٠٥ -١٠٦ - أحمد مختار عمرو :نفسه، ص ٢٣٣ .

(٦) عبدالمنعم خفاجي : المرجع السابق، ص ١٠٦ - أحمد مختار عمرو : نفسه ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ مع الحواشي .

(٧) ترجم له حسنة ابن بسام: نفسه ، المجلد الثاني ، الجزء الثامن ،ص ٥٢٩-٥٣٦- ابن دحية : المطرب في أشعار أهل المغرب، ص ٤٨- ٤٩ - ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس، ص١٥٩-١٦٢ - عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٢٠٩-٢١١ .

ابن رشيق (١) ، الذي يرى فيه شاعراً لسناً مقتدراً ، يميل إلى الاستعارة ، واستخدام الزجر والعياقة ، ويقتفي أثر الشاعر الأمرى المشهور عمر بن أبي ربيعة في نظم الحكايات والأقوال . أما ابن بسام (٢) ، فقد وصفه بأنه ضرب في الأدب بأعلى قدح ، وقال عن أشعاره بأنها (أشعار شاردة ، سارت على ألسنة الأنام ، وكتبت في جبهات الأيام) .

وقد أورد له أولئك الذين ترجموا له العديد من المقطوعات الشعرية الجيدة ، أشهرها القصيدة المدحية التي قالهافي مدح أمير جزيرة صقلية ثقة الدولة الكلبي (٣) .

---

(١) فيما ينقله عبدالرحمن ياغي : نفسه ،ص ٢٠٩ .

(٢) نفسه ، المجلد الثامن ،ص ٥٢٩– ٥٣٠ .

(٣) ابن بسام : نفسه ، ص ٥٣٠ –٥٣٦ – ابن دحية : نفس المصدر أعلاه والصفحات – ابن خلكان: نفسه – عبدالرحمن باغي : نفسه .

اللغــــــة والنحـــــو

- اللغة والنحو في عصر الولاة ،
- اللغة والنحو في عصر الأغالبة .
- اللغة والنحو في عصر الفاطميين .
- اللغة والنحو في عصر الزيريين .

اللغة والنحو :-

لعل من قبيل القول المكرر المعاد الإشارة بأن انتشار اللغة العربية قد رافق بالضرورة انتشار الإسلام ليس في إفريقية والمغرب فحسب ، بل وفي كل الأقطار المفتوحة ، وإلي جانب تأثير عامل حتمية انتشار اللغة العربية هذا ، تضافرت فيما يتصل بإفريقية والمغرب عموما، عوامل عديدة أدت إلى انتشار اللغة العربية حسبما أشرنا من قبل أثناء حديثنا عن عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية . ولقد أسهمت جميع تلك العوامل في تعريب البلاد المغربية . على أن المغاربة . وقد استفتحت أمامهم مغالق اللغة – ، لم يكتفوا بمجرد التأثر والتشبُّع باللغة العربية فقط ، ولابمجرد الانتصاب للإقراء والتدريس والتفرغ للرواية – على أهميته – ، فحسب ، ولكنهم انتقلوا إلى المشاركة والإسهام في إثراء علوم العربية عن طريق الغوص في استكشاف كنه وأداة التعبير تلك لغةً ونحواً ، ومن هنا فقد وجدنا أنفسنا أما أعداد كبيرة من أبناء البلاد ينقبون في علوم العربية ، فيستخرجون مادة غزيرة في اللغة والنحو والعروض ، وهي إن لم تكن مخترعة مبتكرة ، إلاَّ أنها أسهمت دون ريب في إرساء وتقنين قواعد اللغة والنحو التي حمل مدرستا الكوفة والبصرة مشعلها في المشرق ، كما هو معروف تاريخيا .

اللغـــة والنحـــو في عصر الـــولاة :

الحق أن طبيعة دراسات علوم العربية في هذا العصر لم تتعد مجرد الانتصاب للإقراء ، ورواية علوم اللغة والنحو على أبناء البلاد ولقد حمل لواء هذه الجهود لغويون ونحاة وافدون ، قدموا إلي إفريقية ، أما في رفقة بعض الولاة مثل يزيد بن حاتم المهلبي ، وإما قدموا برغبة ذاتية فردية منهم .

فمن أوائل اللغويين والنحويين الوافدين إلى إفريقية في هذا العصر عياض بن عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي (١) (ت ١٧٥هـ) . وعياض بن عوانة سليل بيت عربي ، أشتهر بالعلم والأدب والنحو ورواية الأخبار (٢) ، وقد ولد في الكوفة وعاش بها زمناً طويلاً ، تلقى خلال ذلك كثيراً من العلوم، ولكن النحو غلب عليه حتى اشتهر به (٤) ، ولقد قادته قدماه أخيراً إلي إفريقية ، حيث الأمير يزيد بن حاتم ومن خلفه من الأمراء المهالبة الذي كانوا يكرمونه وظل عياض يقيم في كنف المهالبة ويعلم أولادهم فترة من الزمن غير أنه لم يقتصر عليه وعلى أولاد الأمراء فحسب ، وإنما أغدقه

---

(١) ترجم له كل من : الزبيدي الأندلسي ، طبقات النحويين واللغويين ،ص ٢٢٦- ٢٢٧- القفطي : أنباة الرواة ، ج٢ ، ص ٣٦١ - ٣٦٣ - الفيروز أبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، ص ١٧٨- السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ص ٢٣٤- حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٥٦-١٦٠ .

(٢) الوحيد الذي أشار إلى هذا التاريخ ، هو حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ، والقسم ص ١٦٠ ، على أنه لايقطع بذلك ولكنه يغلب الظن في ذلك .

(٣) الزبيدي الأندلسي : نفس المصدر أعلاه ،ص ٢٢٦ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ص ١٥٧ (نقلا عن عدد من المؤرخين) .

أيضاً على عدد من أبناء (١) البلاد الذين بلغوا بعد لأي شأواً بعيداً ، في علوم العربية مثل أبي الوليد المهري وغيره ممَّن سنترجم له في موضعه إن شاء الله .

ومن علماء النحو الوافدين على إفريقية كذلك في عهد الأمراء المهالبة ، وخاصة الأمير يزيد بن حاتم ، أبو على الحسن بن سعيد البصري (٢) (ت : ١٧٨هـ) (٣) ، وأبو علي الحسن بن سعيد البصري من العلماء الذين وصلتنا أسماءهم ولم تصلنا آثارهم . وغاية ماعرفناه عنه أنه كان في عِداد نحاة البصرة المعروفين وأنه كان كاتب سر الأمير يزيد ومباشر أمره ، وأنه بالإضافة إلى ذلك كان من كبار المترسلين وكتّاب الدواوين . (٤)

وعرف عهد الأمير يزيد بن حاتم المهلبي عالم لغة ونحو آخر ، هو أبو عبدالرحمن يونس بن حبيب الضبي بالولاء (٥) (ت ١٨٢هـ) . ويونس بن حبيب الضبي أحد نحاة البصرة المشهورين ، وجعله الزبيدي (٦) في الطبقة الخامسة للمدرسة النحوية البصرية ، ومما يدل على عظم مكانته في النحو أنه سمع منه عدد من مشاهير اللغة والنحو كالكسائي والفراء وسيبويه (٧)

---

(١) حسن حسنى عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٥٨ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ص ١٦١ .

(٣) كما يعتقد حسن حسني عبدالوهاب ، نفسه ،ص ١٦٢ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب ، نفسه ، ص ١٦٢ .

(٥) له ترجمه عند الزبيدي الأندلسي : المصدر السابق، ص٥١- ٥٣ حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ص ١٤٦- ١٤٨ .

(٦) نفسه ، ص ٤٦-٥١ .

(٧) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٤٦ .

وغيرهم ، وقد قدم إفريقية إلى الأمير يزيد بن حاتم الذي احتفى به كثيراً . ويعتقد حسن حسني عبدالوهاب (١) اعتقاداً يقرب اليقين بأن يونس ابن حبيب هذا قد انتصب للإقراء والتدريس في القيروان ، حيث عكف على نشر علوم العربية والأدب بين أفراد الجيل الإفريقي الناهض آنذاك . على أن إقامة يونس النحوي لم تطل في إفريقية فمالبث أن عاد إلى موطنه البصرة (٢) حيث ظل هناك حتى توفى عام ١٨٢هـ كما أسلفنا آنفا .

والإضافة إلى هؤلاء النحويين واللغويين الذين قدموا إلى إفريقية في عهود الأمراء المهالبة ، هناك نحوى مشهور قدم إلى الأمير يزيد بن حاتم ، وهو قتيبة النحوي الجعفي (٣) الكوفي أحد كبار مدرسة الكوفة النحويه ، وجعله الزبيدي (٤) الأندلسي أحد أفراد الطبقة الثالثة من أتباع هذه المدرسة – ولقد سمع منه عدد من مشاهيرها ، ثم قدم إلى أفريقية كما ذكرنا حيث ظل في كنف الأمير يزيد بن حاتم معززاً مكرماً . وبالطبع فقد مارس طيلة فترة بقائة في إفريقية تدريس علوم العربية ، حيث انتفع به عدد من أبناء البلاد الذين استهوتهم الدراسات اللغوية

---

(١) الورقات ، القسم الأول ص ١٤٦ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب ، نفسه ،ص ١٤٧ –١٤٨ .

(٣) ترجم له ترجمة قصيرة : الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص ١٣٥ –١٣٦ ، وقد أشار محقق الكتاب محمد ابراهيم أبو الفضل في حاشية رقم ١٠–ص ١٣٦– أنه ترجم لقتيبه : أبو نعيم صاحب كتاب تاريخ أصبهان وسماه قتيبه بن مروان ، وأبو محمد الإزاذاني ، وكذلك أشار المحقق إلى أن له كذلك ترجمة في أنباه الرواة للقفطي – حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٤٨ – ١٤٩ ، وقد ذكر أن اسمه قتيبه الجعفي النحوي فقط .

(٤) نفسه ، ص ١٣١ – ١٣٥ .

والنحوية من أمثال أبي الوليد المهري وغيره (١) . ويروي له المؤرخون موقفاً علمياً نحوياً جرى له في مجلس الأمير يزيد بن حاتم مع الفقيه المشهور عبد الله بن غانم الرعيني الذي ترجمنا له من قبل ، دل على علو مكانته في علم النحو (٢) . بيد أن قتيبة مالبث أن غادر إفريقية إلى المشرق ، حيث ظل هناك حتى توفي بعد سن عالية كما يقول حسن حسني عبد الوهاب (٣) .

وأخيراً فإن ثمة عالماً لغوياً ونحوياً ينتمي إلى عصر الولاة هو : أبو مالك أمان بن الصمصامة بن الطرماح بن حكم (٤) . وأمان النحوي هذا ، وليس أبان كما ورد في بعض المصادر (٥) ، من بيوتات العرب المشهور آنذاك ، وجدُّه الشاعر المشهور الطرماح بن حكم المتوفي عام ١٠٠هـ وقدم والده الصمصامة إلى إفريقية في مطلع القرن الثاني الهجري واستقر هناك، حيث ولد له ابنه أمان هذا (٦) وكان أمان محل الثناء من قبل عدد من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين لعلو مكانته في علوم العربية والأدب

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، والقسم ص ١٤٨ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، الجزء الأول ،ص ١٤٦ – حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، والقسم ص ١٤٨– ١٤٩ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب ، نفسه ،ص ١٤٩ .

(٤) ترجمته موجودة عند : الزبيدي الأندلسي : نفسه ،ص ٢٢٥– ياقوت : معجم الأدباء ج٧، ص ٥١– ٥٢– الفيروز أبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة ص ٣– السيوطي بغية الوعاة ، الجزء الأول ، ص ٤٥٩– حسن حسني عبدالوهاب نفسه ،ص ١٦٠–١٦٣ .

(٥) وهو مايعتقد حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٦٣، من أنه ليس إلاّ تحريفاً من النساخ فحسب .

(٦) حسن حسني : نفسه ص ١٦٠ .

فالسيوطي (١) مثلا يقول عنه : (وكان عالماً باللغة والشعر حافظاً للقريض شاعراً) ، وكان أمان شأنه شأن غيره من كبار اللغويين والنحاة يتصدى للتدريس ورواية علوم العربية والأدب لطلبة إفريقية وقتذاك (٢) . ولم تسعفنا المصادر بشئ عن وفاته وأقصى ماعرفناه في هذا الصدد ، هو أنه عاش حتى عهد الأمير ابراهيم بن الأغلب الذي تولى (٣) الإمرة في عام ١٨٤هـ ، ولعل هذه الإشارة ، وإشارة الزبيدي الأندلسي الأخرى التي جعلت أمان وعياض بن عوانة على رأس طبقة النحويين واللغويين القرويين ، هي التي جعلتنا نعده في عداد لغوي ونحوي عصر الولاة .

اللغة والنحو في عصر الأغالبة :

المتتبع لمسيرة دراسات علوم العربية في إفريقية في عصر الأغالبة ، سيلحظ دون شك أن الدراسات اللغوية والنحوية توسعت خلال هذا العصر كماً ونوعاً ، فمن حيث الكم بدأت تلامس أسماعنا أسماء كثيرة لعلماء لغة ونحو أنجبتهم البلاد الإفريقية . والأمر الملفت للنظر في هذا الصدد هو أن الاهتمام بعلوم اللغة والنحو لم يكن قاصراً على أبناء القيروان فحسب ، وإنما شاركت بعض مدن وأقاليم إفريقية في إهداء البلاد عدداً من اللغويين والنحاة المعروفين ، وأما من حيث النوع ، فقد شرع أولئك العلماء الذين

---

(١) بغية الوعاة ، ج١ ، ص ٤٥٩ .

(٢) حسن حسني : نفسه ،ص ١٦١ .

(٣) أنظر السيوطي : نفسه ، ص ٤٥٩ – حسن حسني : نفسه ،ص ١٦٢– ١٦٣ .

سنترجم لهم على التو في تصنيف المؤلفات التي أسهمت في إثراء علوم العربية ، ليس على المستوى المحلي فحسب وإنما على مستوى الدولة الإسلامية أيضاً . ففي هذا مايؤكد وضوح أثر عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية بصفة عامة ، والأدبية بصفة خاصة .

وكيفما كان الأمر فإن من أوائل علماء اللغة والنحو في عصر الأغالبة، العالم اللغوي النحوي ابراهيم بن قطن المهري (١) ، شقيق عالم اللغة والنحو المشهور أبي الوليد المهري الذي سنترجم له بعد قليل . وفي الحق فإن معلوماتنا عن ابراهيم بن قطن المهري لاتزيد عن مجرد معرفة اسمه ، وأنه كان أحد علماء النحو في إفريقية ، وأنه كان أسبق في التخصص في علم النحو من أخيه إلاّ أن أخاه مالبث أن فاقه علماً وشهرة . ومكانة ، فلم يعد يعرف ابراهيم إلاّ القليل من الناس (٢) .

أما أشهر شخصية لغوية ونحوية عرفها العصر الأغلبي ، فقد كانت بلا جدال شخصية أبي الوليد عبدالملك بن قطن المهري (٣)

---

(١) مع ضآلة المعلومات التي وردتنا عنه ، فقد حرص عدد من المؤرخين على أن يأتوا بها في مؤلفاتهم ، مثل : القفطي : المصدر السابق ، ج١، ص ٢٠- ياقوت : معجم الأدباء ، ج١ ،ص ٢٠٨ - الصفدي : نفسه ، ج٢، ص ٩٤ - الفيروز أبادي : المصدر السابق ، ص ٧- السيوطي : المصدر السابق ،ج١ ، ص ٤٢٣ .

(٢) أنظر مثلا القفطي : نفس المصدر السابق ، والجزء والصفحه - السيوطي : نفس المصدر السابق والجزء والصفحه .

(٣) ترجم له كل من الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص ٢٢٩-٢٣٢ ، المالكي : نفسه ، ج١، ص ٣٢٢-٣١٤- الفيروز أبادي : المصدر السابق، ص ١٣٠- السيوطي : المصدر السابق ،ج٢، ص١١٤ .

(ت : ٢٥٦هـ) (١) ، فلقد أثنى عليه وعلى مكانته في اللغة والنحو عدد من المؤرخين ، فالزبيدي الأندلسي (٢) يقول عنه : (شيخ أهل اللغة والنحو والرواية ، ورئيسهم وعميدهم ، والمقدم في عهده وزمانه عليهم . وكان من أحفظ الناس لكلام العرب وأشعارها ووقائعها وأيامها ، وكانت الأشعار تقرأ عليه مجردة من الشرح ، فيشرحها ، ويفسر معانيها ، فلما دخلت المشروحات نظر طلبة العربية والنحو فيها ، وفيما كانوا رووا عنه منها ، فلم يجدوا في شرحه خلافاً لما قال أصحاب الشرح ، ولا وجدوا عليه في روايته وتفسيره شيئاً من الخطأ) .

وعبدالملك بن قطن المهري أحد الذين تتلمذ على كبار النحاة الذين قدموا إلي إفريقية في عصر الولاة من أمثال عياض بن عوانه، وقتيبة الجعفي النحوي ويونس بن حبيب الضبي(٣) وغيرهم ، كما أنه أخذ عن أمان بن الصمصامة (٤) أيضاً . وبالإضافة إلى علو كعبة في علوم العربية،

---

(١) هذا هو التاريخ الصحيح ، فقد ذكر المالكي : نفسه ، ص ٣٦٠ أنه عندما توفى الفقيه محمد بن سحنون عام ٢٥٦هـ رثاه الشعراء بقصيدة قدموا بها إلى المهرى لكي ينقدها نقداً أدبياً . ولقد تنبه إلي ذلك أيضاً حسين مؤنس محقق الجزء الأول من الرياض ، فقال في حاشية رقم (١) من ص ٣١٢ أنه توفى عام ٢٥٦هـ ، لكن دون أن يوثق معلومته الصحيحه هاته بما ورد في ترجمة محمد بن سحنون – أما الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣١– ٢٣٢، ومن أخذ عنه قالوا بأنه توفى عام ٢٥٣هـ ولاشك أن هناك خطأ تاريخياً لايستقيم مع ماذكرناه آنفا .

(٢) نفسه ، ص ٢٢٩– ٢٣٠ .

(٣) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٢٩– الفيروز أبادي : نفس المصدر السابق أعلاه والصفحة.

(٤) أنظر قبل ، ص ٧٤٢ .

كان شاعراً خطيباً بليغاً (١) ، وفوق هذا وذاك ، كان ناقدا معروفا ، وقد تجلت مكانته في مجال النقد عندما كانت تعرض عليه أشعار المراثي التي قيلت عند وفاة الفقية المشهور محمد بن سحنون عام ٢٥٦هـ (٢) .

وممَّا هو جدير بالذكر أن أبا الوليد المهرى خاض مجال التصنيف في علوم العربية ، فمن الكتب التي ذكر بأنه وضعها : كتاب الألفاظ ، وكتاب في اشتقاق الأسماء ممَّا لم يأت به قطرب (٣) وغير ذلك .

ومن علماء اللغة والنحو الذين اشتهروا في عصر الأغالبة أبو سعيد ابن حرب بن غورك (٤) ولاتزدنا المصادر للأسف توضيحاً عن كثير من جوانب ترجمته ، فلا تذكر لنا اسمه . ولاتوضح لنا سنة وفاته ، والأمر الوحيد الذي هدانا إلى وضعه ضمن لغوي ونحوي العصر الأغلبي ، هو أنه كان كما يفهم ممَّا روته المصادر معاصرا لأبي الوليد بن عبدالملك بن قطن المهري الذي ترجمنا له آنفا . أما عن مكانته في علوم العربية . فقد كانت واضحة لحسن الحظ ، فلقد روى الزبيدي الأندلسي (٥) أنه (كان يقال إنه أعلم من المهري بالقرآن وبحدود النحو ، وكان المهري أوسع منه رواية وأعلم باللغة والشعر) .

---

(١) الزبيدي : نفسه ،ص ٢٣٠ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٦٠ .

(٣) الزبيدي : نفسه ، ٣٠ : الفيروز أبادي : نفسه : ١٣٠- السيوطي : نفسه .

(٤) ممن ترجم له ترجمة لابأس بها ، الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص ٢٣٣- السيوطي : نفسه ، ج١، ص ٥٨٦ .

(٥) طبقات النحويين واللغويين ،ص ٢٣٣ .

ومن علماء اللغة والنحو الذين زهي بهم عصر الأغالبة بجانب ما ذكرناه ، أبو الأسود أحمد بن أبي الأسود (١) النحوي المكنى بأبي العباس (ت أواخر القرن الثالث الهجري) (٢) فلقد كان أحد علماء اللغة والنحو المعدودين آنذاك ، ووصفه الزبيدي الأندلسي (٣) بقوله : (وكان غاية في علم النحو واللغة ، وهو من أصحاب أبي الوليد المهري . وله أوضاع في النحو والغريب) . ومع أن الزبيدي (٤) أشار إلى أن لأبي الأسود النحوي (مؤلفات حسان) إلاّ أنه لم يعن هو ولاغيره ممّن ترجم له بالإشارة إلى أسماء تلك الكتب التي صنفها ، ولابما تضمنته من موضوعات، وممّا يجدر ذكره أن أبا الأسود كان بالإضافة إلى براعته في علوم العربية شاعراً مجيداً ، كما يقول الزبيدي (٥) .

ويعد العالم اللغوي والنحوي أبو عبدالله حمدون بن اسماعيل

(١) ترجمته موجوده عند الزبيدي : نفسه ، ص٢٣٣- ٢٣٤- القفطي : نفسه ، ج١-٣٢- ياقرت : معجم الأدباء ج٢، ص٢٣٠- ٢٣١- الفيروز ابادي : نفسه ، ص١٣- حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص١٦٣-١٦٤ .

(٢) لم يشر إلى وفاته أحد من أولئك المؤرخين القدامى ، والوحيد الذي حدد وفاته بأنهاكانت في آواخر القرن الثالث الهجري هو حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ص ١٦٤- على أن في الحق لم يرو لنا سنده .

(٣) نفسه ، ص٢٣٣ .

(٤) نفسه ، ص ٢٣٣-٢٣٤ .

(٥) نفسه ، ص ٢٣٤ .

المعروف بالنعجة (١) (ت : ٢٨٥هـ) (٢) أحد أبرز علماء إفريقية المتأخرين في العصر إفريقية المتأخرين في العصر الأغلبي في علوم العربية ، ولقد وصفه الزبيدي (٣) فقال : (وكان مقدماً بعد المهري في اللغة والنحو ، وكان يقال إنه أعلم بالنحو خاصة من المهري ، لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه) . وحمدون النعجة كان له أثر علمي تمثل في تصنيفة لكتاب في النحو كما يقول الزبيدي (٤) نفسه إلاَّ أنه لم يدلنا على عنوان ذلك الكتاب ، ولا على مايحتويه من موضوعات ، وبالإضافة إلى براعة حمدون النعجة في علوم العربية فقد كان كما ينقل حسن (٥) حسن عبدالوهاب عن الصفدي في كتابه : نكت الهيمان ، واحداً من علماء اللغة والنحو الذين كانوا ينتصبون للتدريس والإقراء في مجال تخصصهم .

وفيما يتصل بلغوي ونحوي بقية مدن وأقاليم إفريقية ، فرن لدينا لحسن الحظ معلومات عن ثلاثة من علماء اللغة والنحو وكلهم من مدينة

---

(١) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦- القفطي : نفسه ،ج١، ص٣٣٢-٣٣٣- الفيروز أبادي - نفسه، ص ٧٥-٧٦- السيوطي : نفسه ،ج١، ص٥٦-حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٦٧-١٦٩ .

(٢) الحقيقة أن الذي أورد هذا التاريخ للوفاة هو حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ، القسم ص١٧٠، في حين أن الزبيدي ومن تقل عنه من المؤرخين السابقين قالوا إنه توفى بعد المائتين . ولاشك أن هناك فارقاً كبيراً بين التاريخين . لكن منطق الأحداث يؤيد ماذهب إليه حسن حسني عبدالوهاب لأن حمدون النعجه كان تلميذاً لأبي الوليد المهري المتوفي عام ٢٥٣هـ حسبما عرفنا في ترجمته .

(٣) نفسه ، ص ٢٣٥.

(٤) نفسه ، ص ٢٣٥ .

(٥) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٦٩..

واحدة هي طرابلس ينتمون إلى هذا العصر ، وهم من الذين اشتهروا في تخصصهم في علوم العربية تقريباً . فمن أوائل أولئك اللغويين الثلاثة : محمد بن صدقة المرادي الإطرابلسي (١) الأفريقي . ولقد وصفه الزبيدي (٢) بأن كان عالماً باللغة متقعراً في كلامه متجاوزاً الحد في ذلك . على أن الزبيدي لم يعن هو ولا من ترجم للمرادي بأن يمدنا بمعلومات أكثر تفصيلاً ممَّا ذكر، كما أنهم أغفلوا الإشارة إلى تاريخ وفاته .

والعالم اللغوي الثاني الذي أهدته مدينة طرابلس لدراسة علوم العربية هو خلف بن مختار (٣) الأطرابلسي (ت ٢٩٠هـ). ولقد وصفه (٤) الزبيدي بأنه (كان صاحب نحو ولغه) كما وصفه في موضع آخر بأنه كان ممَّن يقرض الشعر ويجيده .

أما عالم اللغة والنحو الثالث والأخير الذي أهدته مدينة طرابلس للحركة الأدبية عموماً ، وحركة علوم العربية خصوصاً خلال عصر الأغالبة، فهو الفقيه اللغوي الإباضي أبو عبيدة الأعرج . فلقد كان أبو عبيدة الأعرج بجانب اشتهاره بعلم الفقه والكلام ، عالماً باللغة . وممَّاينسب إليه أنه كان يقرئ الطلبة عدداً من مصنفات المشارقة ، ومن بينها كتاب اصلاح اللغة لعبد الله بن مسلم بن قتيبة (٥) .

(١) الزبيدي : نفسه ، ص٢٣٢ – القفطي : نفسه ، ج٣،ص١٥٢– الصفدي : نفسه ، ج١، ص١٥٢– السيوطي : نفسه ،ج١، ١٢٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٣٢ .

(٣) الزبيدي : ص ٢٣٧ – ٢٣٨ – القفطي : نفسه ، ج١، ص٣٥١– الفيروز أبادي : نفسه ،ص ٨٧.

(٤) نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٥) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٥٣ .

اللغة والنحو في عصر الفاطميين :

الواقع أنه ليس ثمة ما يميز دراسات العلوم العربية في عصر الفاطميين عن عصر الأغالبة ، فأغلب من أشتهر باللغة والنحو في هذا العصر كانوا من الذين عاصروا الدولتين : الأغلبية والفاطمية وإن كان هؤلاء أكثر تصنيفاً من سابقيهم الذين عاشوا كل حياتهم في العصر الأغلبي ، وإضافة إلى هذه الخصوصية التي ميزت بعض الشيء دراسات علوم العربية في العصر الفاطمي عن العصر الأغلبي عرف العصر الفاطمي تزايداً في عدد اللغويين والنحاة ، وبالإضافة إلى ذلك ، فقد عرف عن أحد الخلفاء الفاطميين، وهو الخليفة المعز لدين الله تضلعاً في علوم العربية بشقيها : اللغة والنحو ، وكذلك كان قاضيه وداعيته الأشهر النعمان بن حيون .

وعلى أية حال فإذا مضينا نبحث عن لغوي ونحوي عصر الفاطميين فإننا سنجد ذكراً لعالم لغوي ونحوي عاصر الدولتين الأغلبية والفاطمية ، وهو أبو محمد عبدالله بن محمد المكفوف (١) (ت : ٣٠٨هـ) وأبو محمد المكفوف أحد أبناء إفريقية المبرَّزين في علوم العربية التي تكاد تكون فنه أو تخصصه العلمي الوحيد . ولقد ذكره الزبيدي الأندلسي (٢) فقال عنه : (كان من أعلم خلق الله بالعربية والغريب ، والشعر وتفسير المشروحات ،

---

(١) ترجمته مبسوطة عند الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص٢٣٦- ٢٣٧- القفطي : نفسه ، ص١٣-١١٤- السيوطي : نفسه ،ج٢، ص٦٢- ٦٣ .

(٢) نفسه ، ص ٢٣٦ .

وأيام العرب وأخبارها ووقائعها) وفي موقع آخر يقول عنه (١) : (وعليه قرأ الناس المشروحات ، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب ،وكان يجلس مع حمدون في مكتبه ، فربما استعار بعض الصبيان كتاباً فيه شعر أو غريب أو شئ من أخبار العرب فيقتضيه صاحبه فيه ، فإذا ألح عليه أعلم بذلك أبا محمد المكفوف ، فيقول له : اقرأه علي ، فإذا فعل ، قال أعده ثانية، ثم يقول رده على صاحبه ، ومتى شئت فتعال حتى أمليه عليك) .

ولا شك أن رجلاً بهذه المكانة العالية في علمي اللغة والنحو لايستغرب منه أن يخوض غمار التصنيف في علمه الذي أحبه وقضى عمره قبه عمره فيه . على أن من بين ماذكر من كتب كثيرة له (أملاها في اللغة والعربية والغريب) لم يصلنا شئ عن أسماء تلك الكتب ، ولاعما تشتمل عليه من موضوعات ، وبجانب هذا روى أن له كتاباً في العروض نال شهرة عريضة وقتذاك ، كما روى أيضاً أن له (كتابا في شرح صفة أبي زبيد الطائي للأسد) (٢) ، وكانت له كذلك قيمته التي لاتنكر ، وممّاهو جدير بالإشارة هنا أن أبا محمد المكفوف من أهل مدينة سرت بإقليم طرابلس .

ومن علماء اللغة والنحو الذين ينتمون إلى عصر الفاطميين كذلك اللغوي والنحوي الشاعر أبو بكر أحمد بن ابراهيم بن أبي عاصم اللؤلؤي (٣)(ت ٣١٨ هـ) الذي كان من أمهر العلماء في علوم اللغة وغريبها،

---

(١) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٢) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٣) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٣- ٢٤٤- القفطي : نفسه ، ج١، ص٢٧-٢٨- ياقوت : المصدر السابق ، ج٢، ص٢١٨-٢٢٤- الصفدي : نفسه ، ج٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

وفي النحو ، كما كان مشهوراً بالحفظ أيضاً . وقد ترك اللؤلؤي كتاباً في الضاء والظاء لقي سمعة طبية آنذاك (١) .

وممَّن أبرزهم هذا العصر من علماء اللغة والنحو ، أبو علي : الحسن ابن على السنجي المكفوف (٢) (ت٣٤٢هـ) ، الذي كان أحد اللغويين والنحاة الذين تلقوا علومهم على يدي أبي محمد اللغوي النحوي المكفوف الذي ترجمنا له آنفاً . وأثنى المالكي (٣) على مكانتة في علوم العربية فقال عنه مانصه : (وكان عالماً باختلاف العلماء واتفاقهم مع المعرفة الواسعة بالنحو واللغة وعلوم القرآن الكريم، وبالإضافة إلى اشتهاره بعلوم العربية ، كان مشتهراً بالزهد والتقلل من الدنيا ، وهو أيضاً ممن أوتى شيئاً من الشاعرية كما نص على ذلك المالكي (٤) . ولأبي على الحسن بن على المكفوف كتاب لغوي بعنوان : (أقيسه الافعال) ، على نمط الأمالي تصدي لجمعه بعض تلاميذه (٥) .

ومنهم أبو محمد حسين بن محمد التميمي العنبري الداروني المعروف

---

(١) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٣ – القفطي : نفسه ، ص ٢٧ .

(٢) لم يترجم له من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين سوى الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٢ ، على أنها ترجمة وجيزة جداً لاتزيد عن سطر واحد ، ولكن الذي ترجم له ترجمه واسعة على أنه لغوي وزاهد وشاعر هو المالكي : نفسه ج٢، ص٤٠٦– ٤١٠ – ثم حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق، القسم الأول ص ١٧٠– ١٧٢ .

(٣) نفسه ،ج٢، ص٤٠٦ .

(٤) نفسه ، ج٣، ص ٤١٠ .

(٥) حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

بابن أخت العاهة (١) ت ٣٤٣هـ) وهو أيضاً ممَّن نال شهرة واسعة في وقته لبراعته في علوم العربية والأدبية والمعرفة الكبيرة بأخبار العرب وأيامها ووقائعها وأنسابها (٢) . ويبدو أنه كان أحد المنتمين (٣) لغوياً ونحوياً إلى مدرسة الكوفة التي كانت تتقاسم زعامة علوم العربية مع مدرسة البصرة .

على أن أشهر شخصية لغوية ونحوية انتمت إلى عصر الفاطميين ، كان بلا مراء العالم اللغوي والنحوي ذائع الصيت أبو القاسم ابراهيم بن عثمان المعروف بابن الوزان (٤) النحوى (ت ٣٤٦هـ) وفي الحق فإن ابن الوزان لا يعد أحد أئمة اللغة والنحو في عصره فحسب ، وإنما في الفترة موضوع البحث ، ولقد أفاض الزبيدي الأندلسي(٥) وممَّن جاء بعده في الثناء عليه وعلى مكانته في علم العربية . فقال في معرض ترجمته له (.وهو يعد إمام الناس في النحو وكبيرهم في اللغة و عظيمهم في العربية والعروض) وفي موضع آخر يقول مانصه : (وانتهى من اللغة والعربية إلي مالعله لم يبلغه أحد قبله ، وأما في زمانه فما يشك فيه) .

---

(١) ترجم له كل من : الزبيدي : نفسه ، ص٢٤٥- ٢٤٧- الفيروز ابادي : نفسه ، ص ٦٦٠- السيوطي : نفسه ،ج١، ص ٥٤٠- والجزء الثاني ، ص ٤١ .

(٢) الزبيدي : نفسه ،ص ٢٤٦ .

(٣) الزبيدي : نفسه ،ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٤) الزبيدي : نفسه ، ص٢٤٧-٢٤٩- القفطي : نفسه ،ج١، ص١٧٢-١٧٤- ياقوت : المصدر السابق، الجزء الأول ،ص ٢٠٣-٢٠٤ - الصفدي : نفسه ، ج٦،ص٥٠ -٥١ السيوطي ، نفسه، ج١، ص٤١٩ .

(٥) نفسه ، ص ٢٤٧ .

ولقد اشتهر ابن الوزان بحافظته الكبيرة ، فلقد روى أنه كان يحفظ أمهات كتب اللغة التي ألفها أئمة اللغة العظام من أمثال الخليل بن أحمد وابن السكيت والفـــراء ، وسيـبـويه ، وغيرهم (١) . ويقــول الزبيـدي الأندلسي (٢) أنه كان يميل إلى مدرسة البصرة اللغوية والنحوية ، مع علمه بمدرسة الكوفة . ولقد بالغ بعض واصفيه فقال إنه لو قيل إنه أعلم من العالمين اللغويين المشهورين : المبرد ، وثعّلب لما جافى الحقيقة في قوله (٣) . وممَّا يدل على مكانته في اللغة بصفة خاصة إنه خطَّأ الإمام الشافعي ، وهو مـن هو في علوم العربية فيما ذهب إليه من تفسير بعض ألفاظ القرآن الكريم (٤) . على أن ابن الوزان على إمامته في علوم العربية بشقيها : اللغة والنحو ، إلاَّ أنه لم يحفظ عنه أنه أسهم في التصنيف في مجال تخصصه ولعله اكتفى بالإقراء والتفرغ للرواية .

وبالإضافة إلى هؤلاء اللغويين والنحاة المشهورين نستطيع أن نضيف إليهم عدداً آخر ممَّن نص على أنه كانوا لغويين ونحاة عاشوا في عصر الفاطميين ، كأبي سعيد عثمان بن سعيد المعروف بالصيقل (٥) (ت في الأندلس عام ٣٣٠هـ) وعامر بن ابراهيم بن العباس الفزاري (٦) ، وعبدالله

---

(١) الزبيدي : نفسه .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٧ .

(٣) الزبيدي : نفسه ،ص ١٤٧ .

(٤) الزبيدي : نفسه ،ص ٢٤٩ .

(٥) حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق القسم الأول ص ٢٤٩-٢٥٠ .

(٦) القفطي : نفسه ،ج٢، ص٣٨٣- الفيروز ابادي : نفسه ، ص ١٠٢ - السيوطي : نفسه ج٢، ص ٢٤٩ .

ابن عبدالله الجهني القياس (١) النحوي (٢) ، وغيرهم . على أنه فيما عدا الإشارة إلى أسمائهم والتنويه باشتهارهم بعلوم العربية ، لم نعثر لهم على مايشير إلى تصديهم للإقراء والتدريس ، فضلا عن التصنيف .

وبوسعنا أخيراً أن نعد الخليفة المعز لدين الله أحد الذين نبغوا في علمي اللغة والنحو ، بالإضافة إلى الجوانب العلمية الأخرى التي لمع فيها ، فلدينا في الحقيقة العديد من الشواهد ، التي تدل على ذلك ، فلقد روى القاضي النعمان بن حيون في كتابه المجالس والمسايرات (٣) أن المعز طلب ذات مرة من أحد أئمة النحويين المشهورين في وقته وهو القزاز القيرواني(٤) تأليف كتاب في النحو ، وإن لم يشر النعمان إلي المادة التي اقترح الخليفة على القزاز أن يضمنها كتابه ، سوى مارغب فيه الخليفة من أن يأتي الكتاب مخالفاً لرأى العالم اللغوي ، والنحوي المشرقي المشهور أحمد بن يحي بن ثعلب (ت٢٩١هـ) في المجال نفسه بالطبع ، ومما ذكره القاضي النعمان (٥) عن براعة الخليفة المعز اللغوية والنحوية أن الخليفة كان كثيراً مايعقد حلقات مجلسه مع كبار العلماء ، تناقش فيها كثير من

---

(١) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٣ .

(٢) ص ١٣٤ .

(٣) ص، ١٣٤ .

(٤) الحقيقة أن النعمان لم يسم النحوى الذي طلب إليه الخليفة المعز تأليف ذلك الكتاب في النحو ولكن المنجي الكعبي في الكتاب الذي ألفه عن العالمي اللغوي والنحوي الإفريقي المشهور القزاز القيرواني و الذي أطلق اسمه على الكتاب نفسه أشار إلى ذلك . وقال بأن الخليفة المعز طلب من القزاز تأليف ذلك الكتاب في النحو .

(٥) المجالس والمسايرات ، ص ١٥٩ - ١٦٤ .

القضايا اللغوية والنحوية ، وأقوال أئمة اللغة والنحو المشارقة المشهورين من أمثال الخليل بن أحمد ، وابن قتيبة ، وغيرهما وكان المعز يدلي في تلك الحلقات بأقوال علمية ينقض فيها آراء أولئك اللغويين المشارقة ويدحضها ممًّا يدل على تمكنه من فقه اللغة والنحو . وفي بعض الأحيان كان الخليفة كثيراً مايعمد إلى طرح أحاج نحويه على أتباعه الذين يعجزون عن فك معانيها (١) على أن الشئ الجلي الواضح الذي أشار إليه القاضي النعمان(٢) ، هو أن الخليفة كان يفسر الكثير من القضايا اللغوية سواء تلك التي كان يرد بها على اللغويين المشارقة، أو تلك التي كان يطرحها على شكل أحاج نحويه بمنظور اسماعيلي تأويلى باطني ، أكثر منه بمنظور لغوي ونحوي صرف .

ويمكننا أن نعد أيضاً القاضي النعمان بن حيون الذي تردّد اسمه كثيراً فيما سبق من تقويم لبعض جوانب الحياة العلمية في العصر الفاطمي، أحد الذين عنوا بعلوم العربية عن طريق تأليفه لكتاب لغوي ، هو : (الرسالة ذات البيان) التي صنفها في الرد على العالم اللغوي الكوفي عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٣) (ت٢٩٦هـ) ، حسبما يومئ بذلك عنوان الرسالة .

---

(١) القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، وأنظر الحواشي كذلك في نفس الصفحات .

(٢) نفس المصدر السابق أعلاه ، ١٦٢ -١٦٤ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٤٧٦- ٤٧٧- حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص٢٦١ .

وفيما يتصل بلغوى ونحوي بقية مدن وأقاليم إفريقية فقد ذكر بأن الفقيه المالكي يوسف بن عبدالله القفصي التميمي (ت٣٣٦هـ) الذي ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن الدراسات الفقهية والحديثية ، كان يجمع إلي براعته في ذلك ، البراعة في اللغة والنحو والأدب عموماً . وقد صنف كتاباً في اللغة عبارة عن مناقضة لعالمي اللغة المشرقيين : أبي عبيدة بن سلام ، وابن قتيبة (١) .

وعرف إقليم طرابلس في عصر الفاطميين نفراً من اللغويين والنحويين، منهم محمد بن سالم الإطرابلسي المعروف بالعقعق (٢) ، الذي كان ماهراً في علوم اللغة والنحو ، بالإضافة إلى نظم الشعر وكذلك أبو بكر محمد بن مؤمن بن محمد الكندي (٣) البرقي النحوي (ت٣٥١هـ) وكان مشتهراً بالبراعة في علم النحو ، الحديث .

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٣٥٦- حسن حسني عبدالوهاب ، المرجع السابق، القسم الأول ، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٢) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٩ - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٥٧- صالح مفتاح : الرسالة السابقة ،ص ٢٣٥ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٥٧ .

اللغة والنحو في عصر الزيريين :-

شمل التطور والرقي علوم العربية في العصر الزيري مثلما شمل كافة ضروب الأدب التي عرضنا لها من قبل ، وإن كانت لم تواكب الإزدهار الكبير الذي عرفته الحركة الأدبية : النثرية والشعرية في هذا العصر توسعاً وعطاءً . وفي الحق فإنه ليس ثمة مايميز دراسات علوم العربية في العصر الزيري عن عصر الفاطميين ، فجل من استهر بالدراسات هذه كانوا من الذين عاصروا الدولتين الفاطمية والزيرية ، وإن كان عددهم قد ازداد هنا ، وصبغت مصنفاتهم مسحة من التعمق أو العمق العلمي ، وبالإضافة إلى هذا ، فإن ثمة أمر تميزت به الدراسات اللغوية والنحوية في العصر الزيري ، وهو أن كثيراً من علماء علوم القرآن ، كانوا في نفس الوقت علماء لغة ونحو، وأن أكثر مؤلفاتهم في علوم القرآن ، لارتباط علوم القرآن بعلوم العربية ، أي اللغة والنحو .

ومهما يكن من أمر فإن من أوائل علماء اللغة والنحو في العصر الزيري عبدالعزيز بن أبي سهل الخشني النحو اللغوي القيرواني ، المعروف بابن البقال (١) الضرير كما نعتقد (٢) ولقد كان ابن البقال من أئمة اللغة

---

(١) ترجم له ترجمة لابأس بها القفطي : نفسه ، ج٢ ،ص ١٧٨- ١٨٠ - (وقد أشار محقق الكتاب في حاشية ص ١٧٨ إلى حوالي ستة مصادر وردت فيها ترجمته الخشني الضرير) - عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٥٩-١٦٠ .

(٢) ومرد ذلك الاعتقاد يرجع إلى اعتبارات ثلاثة أولها أن المنجي الكعبي مؤلف كتاب القزاز القيرواني ، يعد الخشني أحد شيوخ القزاز المغاربة ، وليس ثمة مايمنعنا من الأخذ =

والنحو في إفريقية آنذاك ، مشهوراً فيهما (مفتقراً إليه فيهما)(١) وهو بالإضافة إلى ذلك كان شاعراً مرموقاً رائق الشعر (٢) . على أننا فيما عدا مايمكن أن نفهمه من كلام ابن رشيق ، من أنه كان منتصباً للإقراء والتدريس ، لم نتبين له أي مشاركة في التصنيف في علوم العربية تلك . ولعله وقد غدا مرجعاً في اللغة والنحو قد اطمأن إلى خلود علمه وبقائه في صدور وتلاميذه ، دونما الحاجة إلى التصنيف .

على أن اشهر شخصية لغوية ونحوية عرفها العصر الزيري كان الأديب الثائر الناقد الشاعر أبو عبدالله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز القيرواني (٣٢٢-٤١٢هـ) والقزاز القيرواني رأيناه أديباً بارعاً بما يسهم به في إثراء للحركة النثرية التأليفية، ورأيناه شاعراً جيد الشاعرية، والجانبان الأديبان الآخران اللذان لم نتبينها في شخصيته العلمية هما علماء اللغة والنحو .

والواقع أن تبريز القزاز القيرواني في الجوانب الأدبية التي سبق لنا أن عرضنا لها من قبل ، لاتعد شيئاً على أهميتها - أمام مكانته في علوم

= بذلك - والإعتبار الثاني هو أن ابن رشيق يصرح فيما ينقله عنه القفطي : نفسه والجزء ،ص ١٧٨، بأنه قد أدركه عندما نزل القيروان لأول مرة وقد تجاوز السبعين وفي رواية أخرى التسعين، ومعلوم أن ابن رشيق قد جاء إلى القيروان لأول مرة عام ٤٠٦هـ - كما يقول كارل بروكلمان : المرجع السابق وغيره ، ج٥ ، ص ٣٤٣، وغيره ، والإعتبار الثالث ان ابن البقال الخشني الضرير قد عاصر الأمير باديس بن المنصور (٣٨٦-٤٠٦هـ) وأنه كان يجل الخشني كما صرح بذلك ابن رشيق فيما ينقله القفطي : نفسه ، ص ١٧٩ .

(١) القفطي : نفسه ،ص ١٧٨ .

(٢) عن شعره وتقريظ ابن رشيق ، أنظر القفطي : نفسه ، ص١٧٩- ١٨٠ ، عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٥٩- ١٦٠ .

العربية – ذلك لأن علوم العربية هي التي غلبت عليه (١) ، وهو الجانب الذي (فضح به المتقدمين ، وقطع ألسنة المتأخرين) (٢) ، وهي التي قامت على أساسها شهرته العلمية والتي جعلت مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين (٣) يحرصون على وضعه بالصفة التي غلبت عليه وهي النحو في عداد اللغويين والنحاة الذين عرفتهم الدولة الإسلامية .

ولقد قلنا ونحن نتحدث عن مؤلفاته الأدبية فيما سبق من حديث عن النثر التأليفي في عصر الزيريين ، إن القزاز عاش فترة طويلة من عمره في العصر الفاطمي ، وأنه بلغ آنذاك من المكانة والتجلة – ماجعلت الخليفة المعز لدين الله يصطحبه معه إلى مصر عام ٣٦٢هـ ، إلا أنه مالبث أن عاد إلى بلده إفريقية ، حيث ظل هناك حتى عام ٤١٢هـ ، ومن هنا فليس غريباً أن نتوثق الصلة بين الرجلين إلى الدرجة التي يطلب فيها الخليفة من القزاز تأليف كتاب في النحو على ماسنعرف بعد قليل .

ومما يجدر ذكره وينهض في نفس الوقت دليلاً على مكانة القزاز اللغوية والنحوية أنه ارتحل إلى بغداد ، وإن كنا نجهل متي تم ذلك ؟ فقابل هناك العالم المشهور الآمدى العراقي صاحب كتاب : الموازنة ، حيث تتلمذ

---

(١) القفطي : نفسه ، ج٣ ، ص ٨٤ – السيوطي : نفسه ، ج١، ص ٧١ .

(٢) ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ،ص ١٢٥ – القفطي : نفسه .

(٣) أنظر حاشية الصفحة ٨٤ من الجزء الثالث من كتاب القفطي : إنباة الرواة على أنباة النحاة ، حيث الإشارة إلى من كتب عنه من مؤرخي طبقات اللغويين والنحاة وغيرهم .

عليه (١) ، ولا يستبعد المنجي الكعبي (٢) أن يكون القزاز قد قابل غير الآمدي ، عدداً من أساطين اللغة والنحو آنذاك .

ومهما يكن من أمر ، فإن القزاز القيرواني أسهم في إثراء وإرواء الدراسات اللغوية والنحوية بمصنفاته العديدة ، ذات العمق العلمي ، الذي أهلّها لكي تحتل مكانها بين مصنفات اللغة والنحو على مستوى الدولة الإسلامية .

وبالإضافة إلى نشاطه العلمي المتمثّل في التصنيف كان له نشاط علمي آخر تمثل في التصدي للتدريس والإقراء والرواية ولعل من أشهر من تتلمذ عليه كما هو ثابت ، الأديب الشاعر ابن رشيق ، الذي أخذ عنه علوم اللغة والنحو ، ويبدو أنه قد تأثر تأثراً كبيراً بإستاذه وبآرائه اللغوية والنحوية والنقدية ، فيما كتب من مصنفات ، كما توحي بذلك المادة الطبية التي وردت فيها آراء القزاز في كتب ابن رشيق كالعمدة وغيره . (٣) .

وممَّن تتلمذ على يدى القزاز القيرواني الأديب الشاعر الناقد ابن شرف القيرواني ، وكذلك الحسن بن محمد التميمي النحوي التاهرتي المعروف بابن الربيب (٤) ، الذي سبق أن عرضنا له من قبل عند حديثنا عن النثر الفني ، ومن تلاميذه كذلك عالم القرآءات المشهور مكي بن أبي طالب

(١) المنجي الكعبي : القزاز القيرواني ، ص٦ ، ٢٣-٣٣ .
(٢) نفس المرجع أعلاه ،ص ٣٣ .
(٣) أنظر المنجي الكعبي : نفسه ، ص٣٦، ٨٢- ٩٩ (حيث الإشارة إلى صفحات العمدة التي ورد فيها تأثير القزاز في تلميذه ابن رشيق) .
(٤) المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٢٦ -٢٧ .

القيسي المتوفي عام ٣٢٧هـ ، وقد قرأ عليه كتاب الظاء والضاد ، وكتاب الحروف ، وكتاب المثلث (١)، وغير ذلك، ومنهم عبدالرحمن بن عبدالله المطرز وهو الذي نقل كتاب القزاز : مايجوز للشاعر في الضرورة (٢) وغير ذلك .

ومهما يكن فإن من أهم مؤلفات القزاز القيرواني في اللغة سبع مصنفات، هي الجامع والمثلث ، وكتاب فيه ذكر شئ من الحلي والعشرات ، والمئات ، والضاد ، الظاء ، والكلمات المشاكلة الصور (٣) .

أما كتاب الجامع فهو من كتب المعاجم اللغوية ، وهو كتاب كبير يقع في نحو خمسة عشر مجلداً ، أو نحواً من ذلك ، وقد اثنى عليه كثير من المؤرخين ، ووضعوه في مرتبة أشهر المعاجم اللغوية كصحاح الجوهري ، وككتاب التهذيب لأبي منصور الأزهري (٤) وغيرهما، وقد رجح المنجي الكعبي (٥) - بعد بحث مضن - أن الكتاب هذا للقزاز القيرواني وليس لأحد غيره كما توهم البعض من المؤرخين .

أما كتاب المثلث ، فهو على غرار ماجاء في أمثاله من اهتمام بايراد الكلمات التي على صورة واحدة ، وتحمل مع ذلك ثلاثة معان مختلفة ، بحسب الحركات الثلاث ، الفتح والضم والكسر(٦) . (وكتاب فيه ذكر شئ

---

(١) المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٢٧ .

(٢) المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٢٧ .

(٣) المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٢٥ .

(٤) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٥٦، ٦٠- ٦٢ .

(٥) المنجي الكعبي : ص ٥٦- ٦٠ .

(٦) للاستزاده عن هذا الكتاب وموضوعاته ، أنظر المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٦٢-٦٤ .

من الحلي ، هو عبارة عن كتاب صنفة القزاز متتبعاً الصفات الخلقية للبشر وهو صغير الحجم وقد يعد رسالة أوكتيب أكثر منه كتابا (١) .

والكتاب الرابع هو كتاب العشرات ، وموضوعه ، البحث في (المعاني المفترقة التي يعبر عنها بألفاظ متفقة) ، أي أنه يتعلق بالحديث عن اللفظة ومعانيها المختلفة التي تصل إلى عشرة ألفاظ . وهو على غرار ما ألف في المشرق قبل بعض اللغويين والنحاة (٢) . أما الكتاب الخاص فهو (كتاب المئات) ، وهو على نسق كتاب العشرات ، وإن كان بالطبع القصد منه الإتيان بمئات اللفظات التي يعبر عنها بألفاظ مختلفة (٣) .

والكتاب السادس هو : الضاد والظاء ، وهو موضوع طرقه الكثير من علماء اللغة والنحو من المشارقة والمغاربة والأندلسيين (٤) أما الكتاب السابع والأخير فهو كتاب : (الكلمات المشاكلة الصور) وهذا الكتاب لم يشر إليه في الحقيقة أي من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين ، ولكن المنجي الكعبي استنتج أن يكون أحد كتب القزاز اللغوية ممًّا ورد عرضاً له أثناء الحديث عن كتاب الحروف الذي سنتطرق إليه بعد قليل . وعلى كل فموضوع الكتاب هو البحث فيما يجيئ من الكلمات المشاكلة الصور في الأمر والنهي والصفة (٥) .

---

(١) راجع بشأن هذا الكتاب : وماجاء فيه موسعاً : المنجي الكعبي ، نفسه ، ص ٦٤- ٦٧ .

(٢) أنظر عنه : المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٦٧ - ٧٢ .

(٣) المنجي الكعبي : نفسه ، ص٧٢ .

(٤) المنجي الكعبي : ص ٧٢ - ٧٣ .

(٥) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٧٣- ٧٥ .

وللقزاز مؤلفات في النحو مهمة ، يصل تعدادها إلى خمسة كتب هي كتاب الحروف واعراب الدريدية وشرحها ، وكتاب المعترض ، وكتاب المفترق، ثم كتاب مايجوز للشاعر في الضرورة .

أما كتاب الحروف فسنؤجل الإشارة إليه إلى مابعد الحديث عن كتبه الأربعة الأخرى سالفة الذكر ، أما كتاب إعراب الدريدية وشرحها ، فموضوعه شرح وإعراب قصيدة العالم اللغوي البصرى المشهور أبو بكر بن دريد (ت : ٣٢١هـ) المعروفة الشهيرة بالمقصورة وقد احتذى القزاز في شرحها واعرابها حذو كثير من الشعراء واللغويين والنحاة الذين تأثروا بمقصورة ابن دريد ، وأما كتاب مايجوز للشاعر في الضرورة ، فهو كتاب كما يؤمئ عنوانه ، يبحث عن الضرائر الضرورات النحوية التي تبيح ضرورة الوزن والقافية للشاعر أن يتجاوزها وفيما يتصل بكتابي : المعترض والمفترق، فليس ثمة معلومات عنهمافيما عدا ماذكر عن نسبتهما للقزاز القيرواني (١) هذا ولم يعن المنجي الكعبي بالبحث عن الموضوع الذي يقومان عليه .

أما كتاب الحروف الذي أجلنا الحديث عنه ، فهو أشهر كتب القزاز النحوية على الإطلاق ، وفي الحق فإن لنا قبل أن نتصدى للحديث عن موضوعه وعن المكانة التي بلغها وقفتين تجاهها . أما الوقفه الأولى ، فهي أننا كنا قد ذكرنا عند حديثنا عن اللغة والنحو في العصر الفاطمي ، أن

(١) عن هذه المصنفات أنظر المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٤ – ٤٥ – ٥٥ .

الخليفة الفاطمي المعز لدين الله طلب كما أشار القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات من أحد أئمة اللغة والنحو السنَّة ، أن يؤلف كتاباً في النحو ، وضح له طريقة صنعه اعتمادا على ماقاله كثير من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين كالقفطي وغيره ، أشار إلى أن ذلك النحوي واللغوي هو أبو جعفر محمد بن عبدالله القزاز القيرواني ، الذي نعرض له الآن .

وفي الحق فإن القاضي النعمان فضلاً عن إغفاله اسم ذلك النحوي لم يذكر فيما إذا كان النحوي قد نفذ المهمة التي طلبها منه الخليفة ، أم لا ، بدليل قول القاضي (١) النعمان أن ذلك النحوي قد تعاظم التأليف في الموضوع الذي طلب منه الخليفة ان يصنِّف فيه ؟ مع أنه من غير المعقول أن يجرؤ على مخالفة أمر الخليفة .

والآن وقد أوضحنا هذه النقطة ، نجد في المقابل إصراراً من قبل مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين على أن ذلك النحوى، هو القزاز القيرواني ،هذا أولا ، والشئ الثاني هو حشدٌ من المعلومات عن عنوان الكتاب ، هو كتاب الحروف ، وقد جاء على مارسمه له الخليفة من نهج - وهنا اتفاق بين الروايتين على الأقل فيما يخص موضوع الكتاب - والشئ الثالث أن القزاز قد ألَّف الكتاب فعلاً حسب رغبة الخليفة ، وبصورة فريدة غير مسبوقة ممَّا دعى الخليفة إلى أن يثنى عليها ويشيد بها (٢) .

---

(١) كتاب المجالس والمسايرات ، ص ١٣٤ .

(٢) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٥- ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨- ٤٩ .

وبناءً على كل هذا،فإننا لانملك إلاَّ أن نرجح الرواية السنية (١) ، ولاسيما وهي مليئة بالمعلومات المهمة التي أشار إليها عرضاً القاضي النعمان ، وأن نطرح الرواية الشيعية مع أخذ مايتفق وما أشرنا إليه منها . وممَّا نود الإشارة إليه أخيراً أن المنجي الكعبي لم يشر من قريب ولا من بعيد إلى رواية القاضي النعمان هذه التي عرضنا لها نحن ، وكذلك لم يفعل مؤرخو الطبقات قبله .

أما الوقفة الثانية ، فهي أن المنجي الكعبي (٢) أثبت بعد بحث طويل ، دقيق في الرد على أحد الباحثين التونسيين وهو الشاذلي بويحي - أن كتاب الحروف هو كتاب نحوي صرف ، وهو غير كتاب الجامع اللغوي كما ظن الشاذلي بويحيى . وفي الحقيقة فإن المنجي الكعبي بعد بحثه الدقيق ذلك لم يترك مجالاً للشك بأن كتاب الحروف هو فعلاً غير كتاب الجامع (اللغوي).

وأخيراً ، فإن الموضوع الذي قام على أساسه كتاب الحروف هو شرح الحروف التي روى النحاة أنها قد جاءت لمعنى ، وقد أجراه المؤلف على حروف المعجم . وهو كتاب مشهور كما ذكرنا من قبل ، ويقع في ألف

---

(١) يجب أن نشير إلى أن أحد المصادر السنية وهو وفيات الأعيان لابن خلكان يعزو إلي العزيز بالله ابن المعز لا إلى المعز الطلب من القزاز تأليف كتاب الحروف ، ولكن يبدو أن تلك رواية ضعيفة فالثابت أن الخليفة المعز هو الذي طلب من القزاز ذلك كما تشير أغلب المصادر السنية ، وكذلك رواية القاضي النعمان . عن رواية ابن خلكان : أنظر المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٨- ٤٩ .

(٢) نفسه ، ص ٤٦- ٥١ مع الحواشي .

ورقة (١) ، ويرى المنجي الكعبي (٢) أن القزاز كان صاحب السبق إلى ذلك المعنى والنهج النحوي البحث دون غيره من النحويين واللغويين الذين ألفوا في ذلك المعنى ولكن بطريقة مختلفة قبل وبعد القزاز .

ومن لغويي ونحويي إفريقية في العصر الزيري ، ممّن وردتنا إشارات عديدة ، لصفتيهم اللغوية والنحوية ، عبدالعزيز بن خلف النحوي المغربي (٣) الذي كان بالإضافة إلى مهارته في علم اللغة والنحو ، شاعراً بارعاً . ويقدر عبدالرحمن ياغي (٤) أن عبدالعزيز بن خلوف النحوي ، كان أحد شيوخ ابن رشيق الذين تلقى عنهم علوم العربية .

ومن اللغويين والنحويين المعروفين آنذاك بإفريقية أبو الفضل جعفر بن أحمد النحوي الذي يقدر عبدالرحمن ياغي أيضاً أنه أحد شيوخ ابن رشيق اللغويين والنحاه ، ولانعرف لأبي الفضل جعفر النحوي آي جهود علمية تضعه في مصاف علماء اللغة والنحو سوى ما أشار إليه ابن رشيق في كتابه العمدة من آراء لغوية ونحوية له في غاية من الأهمية (٥) .

وبوسعنا أن نعد عالم القرآءات القيرواني الأصل والمنشأ الأندلسي السكني والوفاة ، مكياً بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) من علماء اللغة

---

(١) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٦- ٤٧ ، ٤٩ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٣) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٧١ - ١٧٥ ، ، نقلا عن عدد من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين كما القفطي والسيوطي وابن فضل الله العمري وغيرهم) .

(٤) حياة القروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٧١ .

(٥) عبدالرحن يغي : نفسه ، ص ١٨٠- (نقلا عن غير واحد من مؤرخي الطبقات) .

والنحو في إفريقية في عصر الزيريين ، وقد رأيناه يتتلمذ على القزاز القيرواني ، ويقرأ عليه بعض كتبه . ومكي بن أبي طالب يعد لغوياً ونحوياً ، لأنه بجانب كتبه ذات الصبغة اللغوية والنحوية التي أشرنا إليها في الحديث عن علم القرآءات في العصر الزيري له كتب في النحو صرفة، مثل : (كتاب الزاهي في اللمع الدالة على أصول مستعمل الإعراب) ويقع في أربعة أجزاء وكتاب (دخول حروف الجر بعضها مكان بعض) وكتاب : (أصول الظاء في نحو وقرآءات القرآن والكلام وذكر مواضعها في القرآن) وكتاب ، التذكرة لأصول العربية ومعرفة العوامل ، وكتاب الموصول إلى تذكرة كتاب الأصول لابن السراج في النحو) (١) ... الخ .

وبإمكاننا بل هو فعلاً أن نعد ابن رشيق الشاعر الثائر الناقد مؤرخ الأدب الذي عرضنا له من قبل ، لغوياً ونحوياً ، وكيف لانفعل ذلك ، وقد قال يافوت فيما ينقله عنه السيوطي : (٢) (كان شاعراً نحوياً لغوياً ، أديباً عروضياً) ، وعلى أية حال فقد ذكر بأن لابن رشيق كتابين في الفخر: الأول (كتاب الشذوذ) وقد ذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها والثاني : (شرح كتاب الشذاذ) نفسه (٣) .

وعالم القرآءات المشهور علي بن أبي فضال المجاشعي القيرواني (ت٤٧٩هـ) ، الذي كنا قد تلمسنا أثره العلمي في إفريقية من قبل والذي

---

(١) القفطي : نفسه ،ج٣ ، ص ٣١٥ - ٣١٧ .

(٢) بغية الوعاة ، الجزء الأول ،ص ٥٠٤ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ،ص ١٣٢ .

قلنا إنه نزل القيروان وارتحل إلى المشرق ليلحق ببعض ملوكه يعد من علماء اللغة والنحو ، وقد ذكر بأن له عدة مؤلفات قيمة منها كتاب إكسير الذهب في صناعة الأدب) ، وهو في النحو ، و(كتاب العوامل والهوامل) في النحو أيضا وكتاب (الفصول في معرفة الأصول) ، و (الإشارة إلى تحسين العبارة) ، وكذلك (شرح عنوان الإعراب) و (المقدمة) وأيضاً (شرح معاني الحروف) (١) وكلها في النحو .

وأخيراً قبل أن نختتم الحديث عن الدراسات اللغوية والنحويه في إفريقية في العصر الزيري ، لايفوتنا الإشارة إلى أن بعضاً من مدن وأقاليم إفريقية أسهمت خلال عصر الزيريين في إنعاش حركة العلوم العربية وتقدمها . ولعل أشهر من نذكره من علماء بعض مدن إفريقية العالم اللغوي والنحوي اسماعيل بن ابراهيم المعروف بابن الخازن المغربي (٢) (كان حياً سنة ٤٢٠هـ) وهو أحد أبناء مدينة المهدية . ومع أننا لم نعثر على أي نشاطات علمية له سواء فيما يتعلق بالتصنيف أو التصدي للإقراء والتدريس، إلاّ أنه اشتهر بأنه أحد علماء اللغة والنحو ، ويصفه ابن رشيق (٣) بأنه كان كثيراً مايبحث عن الشاذ في اللغة ويضمنه أشعاره ، وممّا يذكر أن لابن الخازن رحلة إلى المشرق ، لقي فيها عدداً من شيوخ علماء اللغة والنحو .

---

(١) القفطي : المصدر السابق ،ج٢، ص٢٠٠ .

(٢) أنظر ترجمة جيدة له عند ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٤٩-٥٢
الصفدي : نفسه ، ج٩، ص٦٨-٦٩ .

(٣) ابن رشيق : نفس المصدر السابق ، ص٤٩ .

وفي وسعنا أن نعد عالم القرآءات المهدوي أصلا الأندلسي وفاة أحمد ابن عمار بن أبي العباس المهدوي من علماء اللغه والنحو الذين أهدتهم مدينة المهدية للعلم والعلوم الشرعية والعربية . وقد أطلق عليه القفطي وهو يعرض لترجمته هكذا : أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي المغربي النحوي اللغوي المفسر .. الخ . وكتبه التي ألفها في علم القرآءات يمكن عدها كتب لغة ونحو أيضاً .

الفصـــل الخامـــس

الدراســـــات الإنسانيـــة

- الجغرافيا
- الفلسفة
- التاريخ

الجغرافيـــــــــا

تصادف المتتبِّع للدراسات الإنسانية في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة حقيقة مفادها أن إفريقية قد قصرت بها همتها العلمية عن أن تجاري في مجال الدراسات الإنسانية هاته غيرها من الأمصار الإسلامية ، كبعض بلدان المشرق أو حتى جارتها الأندلس ولا تكاد نستثنى من ذلك الحكم العام سوى الدراسات التاريخية ، ومع ذلك فإن لنا وقفة مع الدراسات التاريخية نقفها معها بعد قليل بإذن الله .

وتزداد مساحة الاستغراب عندما نرى أن بلاد المغرب الأدنى كان لها في الفترة الزمنية نفسها التي تعنينا حضور علمي – إن جاز هذا التعبير – في حقل الدراسات الطبيعية أو التجريبية ، وأن ذلك الحضور العمي لبعض تلك الدراسات كان من الوضوح بحيث شغل موقعاً طيباً في حركة البناء العلمي على مستوى الدولة الإسلامية .

ففي علم الجغرافيا نستطيع القول إن إفريقية افتقرت إلى وجود جغرافيين مبرَّزين، وما وجد من إشارات عن اشتغال عالمين هما محمد بن يوسف الوراق، وأحمد بن أبي خالد الجزار بالجغرافيا وبالتالي التصنيف فيها،لايعدو أن يكون مجرد حالتين فرديتين. هذا فضلاً عن أن هذين العالمين ترجع شهرتهما إلى مجال التاريخ أكثر من مجال الجغرافيا، ولذلك نؤثر الحديث عنهما في سياق حديثنا فيما بعد – عند الدراسات التاريخية. وما يقال عن الجغرافيا يمكن أن يصدق على الرحلات بمعناها الجغرافي، أو أدب الرحلة الجغرافي الذي شاع آنذاك في المشرق وفي المغرب بعد فترة

لاحقــــه .

وفي الحق فإننا لانملك الأدلة التي تفسر لنا سر عزوف أبناء إفريقية عن طرق هذه الحقول من حقول الدراسات الإنسانية ، ذلك لأن كل المؤشرات تؤكد حتمية الاهتمام بها ، فمعظم الدواعي التي دعت المسلمين إلى الاهتمام بعلم الجغرافيا (١) كانت إفريقية في حاجة إليها ، ومن المعلوم أن (عناية العرب بالجغرافية وليدة ظروف البيئة إلى حد كبير) (٢) .

فمن الناحية السياسية والإدارية (٣) لانعتقد أنه لم تكم ثمة حاجة لدى الأنظمة السياسية التي تعاقبت على حكم إفريقية إلى تنظيم البلاد إدارياً ، مع مايتبع ذلك من ضرورة التعرف على طرقها ومسالكها ودروبها ، وما تحتويه المناطق والأقاليم من ثروات وغير ذلك ؟ هذا شئ والشئ الآخر هو أننا نعرف الأهمية الجغرافية التي يتيحها علم الجغرافيا للتعرف على موارد المياه ومنابت الكلأ (٤) .. الخ ، فكيف نتصور خلو البلاد من المصنفات التي توضح تلك المعالم ؟

---

(١)عن الدواعي التي دعت المسلمين إلى الاهتمام بعلم الجغرافيا وبفن الرحلة ، أنظر نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ص ١١-١٢، ١٣٧-١٣٨، ص١٦٠ - عبدالرحمن حميده أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ص ٢٨- ٦١ - كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، الجزء الرابع ، ص ٢٣١- ٢٣٤- شوقي ضيف - الرحلات ، سلسلة من فنون الأدب العربي (الفن القصصي) ص ٨-١٢- أحمد على الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص ١٦٩-١٧٠ .

(٢) عبدالرحمن حميده : نفس المرجع أعلاه ، ص٢٨ .

(٣) وهو عامل من أهم العوامل الذي أشار إليه المؤرخون من دواعي الاهتمام بالجغرافيا .

(٤) هو كذلك من عوامل أو دواعي الاهتمام بالجغرافيا .

ثم أن الرغبة في التجارة وكسب العيش ، وهو عامل من أهم عوامل الاشتغال بالجغرافيا والأدب الجغرافي ، ألم تكن هناك حاجة إليها هنا ، خاصة إذا عرفنا أن لإفريقية سواحل طويلة هذا من جهة ، وحركة اتصال واسعة ببلاد السودان من جهة أخرى ؟

ونحن فيما عدا ماذكرناه من عوامل لن نمض في تتبُّع بقية تلك العوامل التي تؤكد وجود الاهتمام بالجغرافيا وبالرحلات الجغرافية ، ولكننا نتساءل : ألم تكن الرغبة في المعرفة الجغرافية وحدها تداعب أذهان علماء بلاد المغرب الأدنى ومفكريِّهم ؟

ونخلص من هذا كله إلى القول بأننا عبثاً نحاول تبين أثر حسى جغرافي يتعامل مع ظروف الطقس والمكان والأوضاع السياسية والاقتصادية لدى المغاربة في إفريقية في الفترة موضع الاهتمام .

بيد أنه في وسط ذلك التَّقصي الشديد لمعرفة الاسهامات الجغرافية للإفريقيين ، أمكننا العثور على مصنف جغرافي لباحث قامت شهرته في الأصل على علم التاريخ ، أعني بذلك محمداً بن يوسف الوراق ، أحد مؤرخي العصر الزيري ، فلقد صنَّف كتاب مسالك إفريقية وممالكها للخليفة الحكم المستنصر ، وهو كتاب يحمل أهمية بالغة في توضيح مسالك ودروب إفريقية ، وقد اعتمد عليه كثيراً المؤرخ الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكرى في كتابه المسالك والمبالك (١) .

---

(١) الضبي : المصدر السابق ،ص ١٤١ - ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ج٢، ص ٣٦٦ - حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيين والجغرافيين في الأندلس ، ص ٧٣ - ١٤١ .

وهناك كتاب في الجغرافيا كتبه الطبيب المورخ الأديب أحمد ابن ابراهيم بن أبي خالد بن الجزار ، المعروف بابن الجزار ، وهو من علماء العصر الزبري كذلك ، وهذا الكتاب هو كتاب : عجائب البلدان ، أو عجائب الأمصار (١) .

ولايستبعد أن ثمة مؤرخين آخرين قد ضمت مصنفاتهم ومعلومات جغرافية ، أو أنهم ألفوا كتباً في الجغرافيا ، ولكنها لم تصل إلينا .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ٣١٩ – ٣٢٠ .

الفلسفـــــــة

وإذا تركنا الجغرفيا والرحلات الجغرافية جانباً ، لنستطلع أثر حقل آخر من حقول الدراسات الإنسانية في إفريقية ، وهو الفلسفة ، فإننا سنخرج بانطباع جد مهم ، وهو أن الفلسفة لم تكن بأحس حال من الجغرافيا هناك . فالواقع أننا عدا ماطرق أسماعنا من ذكر لرجلين أطلق عليهما لقب فيلسوف (١) – دون أن نتبين مجهوداتهما التي خولت إطلاق ذلك اللقب عليهما ، نقول عدا هذين الرجلين لم نعثر على أي شئ ذي بال عن الفلسفة ورجالها .

وفي الحق فإذا كانت الأسباب قد أعوزتنا في تفسير عزوف أهل إفريقية عن الجغرافيا والأدب الجغرافي ، فإنها فيما يخص الفلسفة لم تعزنا لحسن الحظ، وهو ماسنتطرق إليه على التو .

بيد أنه يحق لنا أن نأخذ على المستشرق ت . ج . دي بور(١) الذي أرخ للفسلفة في الإسلام عدم إشارته إلى أسباب خلو إفريقية من الدراسات

(١) هما الفقيه أبو بكر القمودي ، والشاعر يعلى بن ابراهيم الأبرسي ، أما أبو بكر القمودي ، فقد كان أحد فقهاء إفريقية المشهورين بالجدل والمناظرة ، وقد ترجمنا له من قبل (أنظر ص٥٥٥) ، وقد أطلق عليه من أرخ له لقب الفيلسوف . ولانعرف سر إطلاق هذا اللقب عليه ، فإذا كان السبب هو اشتهارة بالجدل والمناظرة ، فقد كان هناك نفر آخر غيره اشتهر بالمناظرة والجدل ، وقد أشرنا لهم من قبل ، وإذا كان قد اشتهر بالفلسفة بمعناها الدقيق فإننا لم نتبين أي أثر فلسفي له من خلال ترجمته . أما الشاعر يعلى ابراهيم الأبرسي الذي عاش في العصر الزيري ، والذي كان ذا حظ في علمي الطب والهيئة ، فقد قيل بأنه كان كذلك يذهب إلي الفلسفة . وهو جل ماقيل عنه . أنظر عبدالرحمن ياغي :نفسه ، ص ١٠٦ .

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ، نقله إلي العربية وعلّق عليه محمد عبدالهادي أبوريدة ، ط٥ ، ص ٣٦١ .

الفلسفية وذلك عندما راح يصف واقع إفريقية الفلسفي بقوله : (فأما إفريقية فشأنها « في الفلسفة » ثانوي ذلك لأن الأسباب كانت من الوضوح بحيث لاتخفى على أحد) . وبالطبع فلسنا في حاجة إلى كبير عناء لنستنتج بأن كره أبناء إفريقية العميق للتفلسف والتنظير والجدل ، هو السبب الرئيسي في خلو البلاد من الفلاسفة وآثارهم. وإذا كان المالكية قد واجهوا تيار أتباع المذاهب الكلامية بتلك الموجة الساخطة التي رأيناها من قبل ، فمن باب أولى ألاّ يرحبوا بأي تيارات فلسفية ، لاسيما وأن الفلسفة بما تعنى به من مضامين فكرية عقلية حول قضايا الوجود، والعدم ، والجوهر، والعرض ، وقضايا ماوراء الطبيعة أو مايعرف بالميتافيزيقيا ، وكذلك ماتعنيه من البحث في المسائل بحثاً مجرداً من المؤثرات والاعتقادات وقضايا الوجود المطلق ، إلى غر ذلك من القضايا . (١) كل هذا كان كافياً لأن يعرض أهل إفريقية عن الفلسفة ويديروا لها ظهورهم وهم في ذلك كانوا ينظرون إلي الفلسفة نظرة إخوتهم الأندلسيين ، الذين كانوا يرون في الفلسفة على أنها (علم ممقوت لايستطيع صاحبه إظهاره) (٢) .

نقول هذا مع التأكيد على أننا لانملك الأدلة القطعية فيما إذا كانت إفريقية قد استسلمت لتيارات الفلسفة (أم قاومتها ونفرت منها ، أم تكيفت

---

(١) عن الفلسفة وتعريفاتها ، أنظر مثلا مصطفى عبدالرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ٣-٧٥- أحمد أمين : ضحى الإسلام ج٣،ص١٢، ١٨ .

(٢) فيما ينقله سعد البشري : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤٠١هـ / ١٤٠٢هـ (لم تطبع) ص ٣٣٦(عن المقري في نفح الطيب ، الذي ينقل عن ابن سعيد المؤرخ الجغرافي في الأندلس) .

معها ، وأخذت عنها مايتناسب وطابعها الخاص ويمتاشى وذاتها ؟) ، كما تساءل محي الدين عزوز (١) .

ولقد كان المظنون في تصورنا أن تبلغ الدراسات الفلسفية درجة من الرقي في ظل الشيعة الإسماعيلية ، وهم الذين كانوا يعتمدون في كثير من قضايا مذهبهم الإعتقادية والسياسية على مبادئ المذهب الفلسفي للافلاطونية الحديثة . و بالتالي فقد كان من الطبيعي أن تظهر مؤلفات فلسفية في عهدهم ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . صحيح أنه قد ظهرت كتب الباطن ، التي كنا قد أشرنا إليها من قبل ، ولكن كان ينظر إليها - على ما فيها من نظرات فلسفية - على أنها كتب فقه في المقام الأول ، وليست كتباً فلسفية محضة .

وكيفما كان الأمر فإن الأثر العلمي الوحيد الذي نُص على انتمائه للفترة الزمنية موضوع الرسالة هو ماذُكر عن تآليف الطبيب والصيدلي والمؤرخ والمربي القيرواني المشهور ابن الجزاز لكتاب في الفلسفة عرف عنوانه : رسالة في النفس (٢) .

أما وقد أوضحنا ما أوضحناه بشأن الجغرافيا والرحلات الجغرافية ؛ وكذلك بشأن الفلسفة ، فإننا بناء على كل تلك المعطيات التي تبدت لنا نستطيع التأكيد على أن إفريقية لم تعرف في الفترة الزمنية موضوع الرسالة من حقول الدراسات الرنسانية سوى التاريخ وحده .

---

(١) التطور المذهبي بالمغرب ،ص ٧ .

(٢) محي الدين عزوز : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٤ .

التاريــــــــخ

ولعل الشئ الذي لاخلاف حوله هو أن بلاد إفريقية شهدت خلال الفترة موضوع الرسالة اهتماماً ملحوظاً من قبل أبنائها في العناية بأخبار بلادهم وتدوين أخبارها وأخبار رجالاتها ، وبمعنى آخر فقدل كان هناك حرص على تسجيل وحفظ مكتسبات البلاد في المجالات المختلفة . وبإمكاننا أن نؤكد بأن الحس التاريخي قد نمى مبكراً لدى أبناء إفريقية .

غير أن عناية المغاربة بالتاريخ والدراسات التاريخية في الفترة موضوع الرسالة – تبدو في تصورنا غير تامة ، فثمَّة بعض الملاحظات عليها، وهو الأمر الذي عنيناه في الاستهلال ، عندما ذكرنا بأن لنا وقفة مع التاريخ والدراسات التاريخية الإفريقية .

ففي البدء نلاحظ أن أبناء إفريقية لم يعنوا بكل مناحي التاريخ الإسلامي بمعنى أنهم لم يهتموا بالكتابة في بعض حقول التاريخ كالمغازي والسير ، أو التاريخ للمدن .

كما أن الإفريقيين لم يهتموا بالتأريخ للدولة الإسلامية العامة كما فعل المؤرخون المشارقة ، وفي الأنساب لم يكن لهم إلاَّ قدر يسير من المؤلفات .

وبناء على هذا نستطيع القول : إن إفريقية لم تعرف من مناحي التاريخ سوي تلك التي كانت تهتم بالناحية الإقليمية وهو ماتمثل في ظهور مؤلفات تعني بتاريخ إفريقية ، أو تلك التي تعني بالترجمة . وهي سلسلة المؤلفات التي كانت تهتم : أما بالترجمة للآحاد من العلماء ككتب المناقب

التي كثرت كثرة معروفة آنذاك ، وأما الترجمة لطبقات العلماء سواء كانوا فقهاء أومحدثين أوزهادا وهذه كثرت كذلك في الفترة الزمنية موضوع الرسالة كثيرة ظاهرة .

وثمة ملاحظات أخرى على الدراسات التاريخية الإفريقية منها أن المغاربة مع اهتمامهم ببعض مناحي التاريخ لم يجاروا المشارقة في ذلك ، كما أنهم لم يجاروا جيرانهم الأندلسيين أيضا . ومن الملاحظات على الدراسات التاريخية الإفريقية هي أنها لم تتفرّد بمنهج تاريخي معين ، وإنما كانت تساير أسلوب المشارقة في منهجهم التاريخي ، سواء ماجاء منه على نسق الحوادث ، أوماجاء على نسق السنين . وهذا مالاحظناه من متابعتنا لما بقى من كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني .

ومن الملاحظات كذلك أن الدراسات التاريخية كانت لاترقى كثرة للدراسات الشرعية أو الدراسات الأدبية . وهذا أمر طبيعي ليس في إفريقية فحسب ، وإنما في العالم الإسلامي كله آنذاك .

والملاحظة الأخيرة التي تبدت لنا من ملاحظاتنا للحركة التاريخية ، هي أن بعض المؤرخين مثل محمد بن أبي العرب ، ومحمد بن حارث الخشني ، والمالكي كانوا يسلكون في تواريخهم مسلك المحدثين ، بحكم طبيعة تخصصهم ، وهو منهج عرفته المؤلفات التاريخية المشرقية من قبل .

وكيفما كان الأمر فسنمضى الآن في التعريف بالدراسات التاريخية في إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة على نفس النهج الذي

سلكناه من قبل عند تقويمنا لمظاهر ماسلف من الحياة العلمية . أي أننا ستتحدث عن الدراسات التاريخية حسب العصور السياسية الأربعة التي عرفتها إفريقية .

الدراسات التاريخية في عصر الولاة :-

من الطبيعي ألاّ يشهد هذا العصر اهتماماً بالدراسات التاريخية ، وهو العصر الذي ذكرنا من قبل أنه كان مخصوصاً بتباشير النهضة العلمية ، وليس بإزدهارها ، نتيجة لما أشرنا إليه من عوامل من قبل، ولكننا مع ذلك لم نعدم الإشارة إلى أحد مؤرخي إفريقية في هذا العصر ، أو إن شئنا الدقة أحد الأخباريين ، وهو الفقيه عبالرحمن بن زياد ابن أنعم (ت : ١٦١هـ) .

ويرى سعد زغلول عبد الحميد (١) أن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم قد أثّر في كثير من روايات المصريين لفتح المغرب والأندلس برواياته المغربية المختلفة ، كما أنه قد يكون قد تأثر برواياتهم أيضا .

ويعتقد سعد زغلول (٢) أيضاً من خلال الكم القليل من روايات عبدالرحمن بن أنعم للأحداث التي احتفظت بها بعض كتب المؤرخين المغاربة مثل البكري ، وابن عذاري ، وغيرهما أن عبدالرحمن بن أنعم كان

(١) نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢٤ مع الحاشية رقم ٣ .
(٢) نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢٤ مع الحاشية رقم ٣١ .

يميل إلى العناية بالروايات الأسطورية ، أو القصص الشعبي العجيب .

الدراسات التاريخية في عصر الأغالبة :

لاشك أن الدراسات التاريخية في هذا العصر قد حظيت باهتمام عدد لا بأس به من أبناء إفريقية الذين خاضوا في التأليف في مناح شتى من التاريخ كالمغازي والسير والأنساب والتأريخ للأسر إلى غيرذلك .

ومن أوائل مؤرخي هذا العصر الفقيه المالكي عبدالله بن أبي حسان اليحصبي (ت٢٢٧هـ) الذي رأيناه فقيهاً مالكياً مدافعاً عن المذهب المالكي بلسانه وقلمه . ومع أن بعض المؤرخين المحدثين نبَّه إلى أنه أحد مؤرخي البلاد في العصر الأغلبي(١)، إلاَّ أننا لم نعثر على أية إسهامات تاريخيه له.

ويأتي المؤرخ عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر(ت في القرن الثالث الهجري) مؤرخاً ثانياً من مؤرخي هذا العصر (٢) وهو حفيد القائد العسكري المشهور أبي المهاجر دينار ، الذي جاء إفريقية فاتحاً بعد حملة عقبة بن نافع الأولى .

ويرى البشير البكوش (٣) أن عيسى بن محمد يعد أقدم مؤرخي

---

(١) من الذين أشاروا إلى أن عبدالله بن أبي حسان اليحصبي كان مؤرخاً حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، حاشية رقم (١) ص٦٩– سعد زغلول عبدالحميد : نفسه .

(٢) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٦٩– حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، حاشية رقم (١) ص ٦٩ .

(٣) البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من كتاب رياض النفوس ،ص ١٣م .

إفريقية ، كما أن كتابه (فتوح إفريقية) يعد المصدر الرئيسي لتاريخ الفتح الإسلامي الذي استقى منه المؤرخون معلوماتهم .

أما سعد زغلول عبدالحميد (١) فإنه يرى أن عيسى بن محمد بن سليمان كان من تلامذة الفقيه المؤرخ المصري المشهور عبدالله بن وهب (ت١٩٧هـ) الذي يعد من مؤسسي أول مدرسة مصرية تاريخية . ومن هنا فإن روايات عيسى بن محمد لاتختلف بشأن فتح المغرب عن روايات أهل مصر .

وبوسعنا أن نعد الفقيه المشهور محمد بن سحنون بن سعيد (ت٢٥٦هـ) أحد مؤرخي عصر الأغالبة ، فلقد طرق هذا الرجل أبواباً كثيرة من العلوم ، ومن بينها التاريخ . ومماً ينسب إليه أنه كتب كُتباً في السير تبلغ نحواً من عشرين كتاباً أو جزءا . وفي التراجم والطبقات : كتب كتاباً في طبقات العلماء يقع في سبعة أجزاء ، وإن كنا لانعرف عنه في الحقيقة أكثر من أسمه . ولمحمد بن سحنون أيضاً كتاب في التاريخ يقع في ستة أجزاء ، وقيل بل أربعة ، وهو أيضاً لانعرف عنه سوى اسمه فحسب (٢) .

ويعد الأمير محمد بن زيادة الله الأغلب (ت٢٨٣هـ) أحد الرجال الذين أسهموا في الحركة التاريخية والأدبية ، ولقد ذكرنا من قبل أنه شارك في التأليف في الحركة الأدبية النشطة لبلاده (٣) أما في التاريخ فإنه ينسب

---

(١) نفسه ،ج١ ، ص ٢٣ مع الحاشية رقم ٢٨ .

(٢) عند هذه الكتب أنظر عياض : نفسه ، الجزء الثاني ص ١٠٦- ١٠٧ .

(٣) أنظر قبل ص ٦٦٧ .

إليـه تصـديـه لتـأليف كتـاب في تاريـخ أسـرته أطلق عليـه : تاريخ بنى الأغلب (١) .

ويأتي الفقيه الأخباري أبو سهل فرات بن محمد العبدي (ت: ٢٩٢هـ) على رأس مـؤرخي وإخباري عصر الأغالبـة المتـأخرين (٢)، ويقول محـمد مخلوف (٣) . أن فرات بن محمد العبدي (له لسان طويل ومعرفة بالأنساب وكـان أعلم النـاس بالنـاس وأوقع النـاس في النـاس حـتى أنه نسب إلى الكذب).

وأياً ماكان الرأي في فرات بن محمد العبدي فإن الأمر الثابت هو أن كثيراً من مؤرخي الطبقات المغربية كأبي العرب التميمي بصفة خاصة ، وغيره ، اعتمدوا على أقواله ومروياته . (٤) وممَّا هو جدير بالذكر أن فرات ابن محمد العبدي يستحق قصب السبق بانفراده عن مؤرخي بلده بالتأليف في الأنساب .

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، الجزء الأول ،ص ١٨ .

(٢) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ص٧٢– حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، الحاشية رقم (١) ص ٦٩ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص٢٤ مع الحاشية رقم ٣٤ – البشير البكوش ، مقدمة الجزء الأول ، من رياض النفوس ، ص١٣م .

(٣) نفسه ص ٧٢ .

(٤) محمد بن محمد مخلوف : نفسه – البشير البكوش ، نفس المقدمة أعلاه والصفحة .

الدراسات التاريخية في عصر الفاطميين :

الملاحظ على الدراسات التاريخية في هذا العصر ، هو أنه عدا ازدحامها بعدد أكبر من المؤرخين عن ذي قبل ، فإن مناحيها قد تعدد خلال هذا العصر، فهناك مصنفات عُنيت بالترجمة للأفراد والأسر ، وهو ماعرف بكتب المناقب ، كما دخل الشيعة الإسماعيلية طرفاً في الدراسات التاريخية عن طريق المصنفات التي تؤيد وجهة نظرهم .

ولعل أول من يأتي في مقدمة مؤرخي هذا العصر من حيث التسلسل الزمني والمكانة التاريخية الفقيه المحدث المشهور محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي المعروف بابن أبي العرب التميمي (ت:٣٣٣هـ). وابن أبي العرب التميمي تردد اسمه كثيراً في تنايا الرسالة الأمر الذي يدل على علو مكانته العلمية . وفي مجال الدراسات التاريخية صنف ابن أبي العرب مجموعة من الكتب أهمها كتابه المشهور : طبقات علماء إفريقية (١) ، وهو الكتاب الذي احتذاه بعده كثير من مؤرخي الطبقات المغربية سواء أولئك الذين عاشوا في العصور الزمنيه التي نؤرخ لها ، أو أولئك الذين اعقبوهم ، والكتاب على ما يوحى به عنوانه ، إلاَّ أنه تضمن الكثير من الإشارات التاريخية المهمة في مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية ... الخ . ونحن وإن كنا نتفق مع المنجي الكعبي (٢) محقق كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني فيما ذهب إليه من أنه في كثير من كتب الطبقات

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ٣٣٤- محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ .

(٢) تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ١٥ .

المتأخره غنى عن كتاب طبقات علماء إفريقية لكننا لانميل إلى موافقته كليةً ونتفق مع ما يقوله البشير البكوش في أنه يكفي هذا الكتاب أن يكون المصدر الأساسي لكل من كتب في تراجم رجال إفريقية (١) .

ولأبي العرب التميمي كذلك كتاب آخر في الطبقات يعرف بكتاب : عبّاد إفريقية (٢) ، وهذا الكتاب وكتاب طبقات علماء إفريقية نهج فيهما ، ابن أبي العرب نهج المحدثين في مؤلفاتهم ، ولايستبعد ذلك عنه إذا عرفنا أنه كان من أشهر محدثي إفريقية في العصر الفاطمي (٣) .

ومن مصنفات ابن أبي العرب التاريخية أيضاً سلسلة من كتب التراجم للأفراد والقبائل . مثل كتاب فضائل سحنون (٤) . وكتاب مناقب تميم (٥) ، وهي القبيلة التي ينتسب إليها .

ولابن أبي العرب كذلك كتاب بعنوان : كتاب المحن (٦) ويقوم موضوعه على تتبّع من تعرض من رجال الإسلام في المشرق أو المغرب إلى محن دارت عليه من قبل بعض الخلفاء والأمراء . وقد سبق لنا أن أفدنا منه عند حديثنا عن محنة خلق القرآن التي تعرض لها الفقية المشهور سحنون ابن سعيد .

---

(١) مقدمة الجزء الأول من رياض النفوس بتحقية هو ، ص ١٤م .

(٢) عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ٣٣٥ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ .

(٣) أنظر قبل ، ص ٤١٥ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٣٥– البشير البكوش : نفس المقدمة أعلاه والصفحه .

(٥) البشير البكوش : نفسه ،ص ١٤م .

(٦) عياض : نفسه ،ص ٣٣٥– البشير البكوش : نفسه ، ص ١٤م .

ومـــن كتب التـاريــخ الدقيق التي كـتـبـهـا ابن أبي العـرب ، كـتـاب التاريخ (١) ، ويقـع في سبعة عشر جزءا . ويرى البشير البكوش (٢) أن ابن أبي العرب سلك فيه أسلوب التأريخ على نسق الحوليات .

ومن مؤرخي عصر الفاطميين ممَّن اقتصر على علم التاريخ وحده ، المؤرخ أبو على الحسن بن أبي سعيد بن عبدالرحمن بن عبيد البصري (٣) المعروف بالوكيل (كان حياً سنة ٣٤٦هـ) (٤) . ولقد اشتهر الوكيل بكتابه الذي صنَّفه وأطلق عليه عنوان : الكتاب المعرب عن أخبار إفريقية والمغرب، وقد اعتمد كثير من مؤرخي طبقات العلماء واللغويين والنحاة من أمثال عياض في مداركة وابن الأبار في الحلة السيراء ، وأبي بكر الزبيدي الأندلسي في كتابه : طبقات اللغويين والنحويين ، على كتاب الوكيل وأفادوا منه ، وكان ذلك من حسن الحظ ، إذا حفظوا بذلك معلومات تاريخية مهمة جداً كان يحتويها هذا الكتاب الذي فقد (٥) .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٢٣٥ (وهو الذي أشار إلى عدد أجزاء الكتاب – البشير البكوش نفسه ص١٤م .

(٢) مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ١٤م .

(٣) ترجم له حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني حاشية رقم (١) ص ٥٨ – البشير البكوش : مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ١٤م .

(٤) ذكر حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه القسم والصفحة أن وفاته كانت عام ٣١٠هـ – وكذلك قال سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص٢٤– والمنجي الكعبي : مقدمة كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ، ص١٥ ، غير أننا أخذنا في المتن برواية البشير البكوش : نفس المقدمة والصفحة أعلاه ، لأنه ذكر بأن الوكيل قد أخذ علومه في العربية على يدي اللغوي النحوي المشهور ابن الوزان المتوفي سنة ٣٤٦هـ .

(٥) البشير البكوش : نفس المقدمة أعلاه والصفحة .

وهناك مؤرخ إباضي المذهب شارك كما يُظن في مسيرة الدراسات التاريخية في العصر الفاطمي هو أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد الثائر الخارجي المشهور ، الذي خرج على الخلافة الفاطمية كما أشرنا إلى ذلك من قبل . وأيوب بن أبي يزيد كان مشاركاً لأبيه في الأحداث التي وقعت آنذاك ، وقد انتهى الأمر بمقتله عام ٣٣٦هـ ، ومع أن سعد زغلول عبدالحميد هو الذي أشار إلى أن أيوب بن أبي يزيد هو أحد أخباري إفريقية وقتذاك ، إلاَّ أننا لم نعرف عن إسهاماته التاريخية سوى ماذكره عن نقل ابن خلدون في كتابه العبر فقرات من أخبار أيوب ورواياته (١) .

ومن مؤرخي العصر الفاطمي أبو عبدالله الحسين بن سعيد الخراط ٠ (كان حياً بعد ٣٥٠ هـ) و يقول البشير البكوش بأن الفقيه المؤرخ الإفريقي المالكي صاحب رياض النفوس قد اعتمد في كثير من زوايا كتابه على أخبار ومرويات ينقلها عن الخراط ، سواء مايتصل منها بالفتح الإسلامي للمغرب أو مايتصل بمناقب الصحابة وأخبار العلماء ، وغير ذلك ، وأنه – أي المالكي –، هو الوحيد الذي نقل مباشرة عن الحسين بن سعيد الخراط (٢).

وفيما يتصل بالدراسات التاريخية الشيعية فإن الملاحظ أنه كان هناك حرص على تدوين أحوال الخلافة الفاطمية وأخبارها في الدور المغربي من تاريخها ، وهذا ماوضح من اضطلاع القاضي النعمان بتلك المهمة .

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٥ .

(٢) مقدمة تحقيقه للجزء الأول من رياض النفوس ،ص ٢١٥ .

وعلى أيه حال فإن من أوائل المصنفات التاريخية الشيعية كتاب الإمامة الذي قيل : إن الخليفة المنصور بن القائم (ت :٣٤١هـ) قد صنَّفه ، ولقد ذكر كذلك بأن الذي صنَّف الكتاب هو القاضي النعمان وليس الخليفة المنصور (١) . وفي الحق فإن القاضي النعمان كتب سلسلة من المصنفات التاريخية القيمة التي تعكس نظرة الفاطميين الشيعة الإسماعيلية للأحداث .

فمن بين تلك الكتب المهمة كتاب افتتاح الدعوة ، وهو كتاب يتناول بالشرح والتحليل أخبار انتشار الدعوة الشيعية في المغرب منذ أن فكر جعفر الصادق في بعث دعاته إلى المغرب وحتى قيام الخلافة الفاطمية ، بل وحتى خلافة الخليفة المعز لدين الله (٢) وقد حمل الكتاب بجانب عنوانه المشهور سالف الذكر عناوين أخرى مثل كتاب أخبار الدولة وكذلك : شرح الأخبار عن الأئمة الأخيار أو الأطهار (٣). ومن مصنفات النعمان التاريخية أيضاً كتابان أشار عليه بتصنيفهما الخليفة المعز لدين الله كما يُصرح هو نفسه في كتابه المجالس والمسايرات (٤) . هذان الكتابان هما : كتاب بنى هاشم ، وكتاب مثالب بنى عبد شمس ، وقد جاءا كتابين ضخمين جامعين في موضعهما (٥) .

ولايفوتنا – ونحن نشير إلى كتب القاضي النعمان التاريخية – ،

---

(١) أنظر قبل ص ٥٤٣ .

(٢) أنظر فرحات الدشراوي : مقدمة كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان .

(٣) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، الحاشية رقم (١) ص ١١٧ .

(٤) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، حاشية رقم (٢) ص ١١٧ .

(٥) القاضي النعمان : نفسه ، ص ١١٧ .

الإشارة إلى الأهمية الكبيرة التي يمثّلها كتاب المجالس والمسايرات ، فهو كتاب جامع بحق : مذهبي واجتماعي وتاريخي وعقائدي إلى غير ذلك حسبما أشرنا من قبل (١) .

ولقد ذكر القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات (٢) أن أحد رجالات الخلافة الفاطمية في إفريقية قد صنّف كتابين في سيرة بنى أمية ، وبنى العباس ، وهو الأمر الذي أغضب الخليفة المعز الذي كان ينتظر من تابعه هذا أن يكتب في سير الأئمة (العلويين) بدلاً من أن يكتب عن خصومهم .

ومن أبرز المؤرخين المتأخرين في العصر الفاطمي أبو عبدالله محمد ابن يوسف الورّاق القروى المعروف بالتاريخي (٣) (ت : ٣٦٣هـ) ومحمد بن يوسف الوراق أندلسي الأصل ، إفريقي المنشأ والتعليم ، ثم ارتحل ثانية إلى الأندلس ، فعاش في كنف الخليفة الحكم المستنصر ، الذي رعاه وقربه إليه وحفزه على التأليف .

---

(١) أنظر قبل ص ٦١٩ .

(٢) ص٢٨٦ .

(٣) ترجمته موجودة عندالضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ،ص ١٤١- ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ج٢،ص٣٦٦ - حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ،ص ٧٣ - ٧٥ ، ١٤١ - ١٤٥ - كارول بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، الجزء الثالث ، ص ٩١ عمر رضا كحالة : التاريخ والجغرافيها في العصور الإسلامية ،ص ٨٦- ٨٧ وص ٢٥٧ (وعنده أن وفاته كانت عام ٣٦٢هـ) - عبدالسلام بن عبدالقادر بن سودة المرى : دليل مؤرخي المغرب الأقصى ، الجزء الأول ،ص ٢٩- ٣٠ ، ٦٠ ، ٦٢، ٦٣ ، ١٢٢ .

ونحن بالطبع قد ملنا إلي عدِّه أحد مؤرخي إفريقية بحكم أنه عاش فيها (ونشأ وتعلم وانتشر له صيت في العلم بأحوال إفريقية والمغرب وتاريخهما) (١) ، ومن هنا حق لنا أن نضعه في عِداد مؤرخي إفريقية ، لهذا الأمر من جهة ، ولأن شهرته العلمية قامت على مؤلفاته التي اختص بها بلاد إفريقية التي عاش بها مدة مديدة من الزمن من جهة أخري .

وعلى أية حال فقد كان محمد بن يوسف الورَّاق القروى من المشهورين بعلم التاريخ حتى أنه لقب بالتاريخي لكثرة (٢) تآليفه فيه كما مر سابقاً ويقول حسين مؤنس (٣) إن الوراق هو أول من كتب في (المغرب الإسلامي كتاباً بعنوان المسالك والممالك) ، كما أن ممَّا يدل على مكانة الورَّاق العلمية أنه هو الذي ابتكر مزج الجغرافية بالتاريخ ، وهي الطريقة التي سار عليها البكري والرحالة التيجاني بعد ذلك (٤) .

أما مصنفاته في التاريخ فقد تعدَّدت أيضاً ، نذكرمنها كتابه ، الذي صنفه في (أخبار ملوكها - أي أفريقية - والغالبين عليهم) (٥).

ومن مصنفاته التاريخية أيضاً مجموعة من الكتب (في أخبار تيهرت (تاهرت) ووهران ، وتنس ، وسجلماسة ، ونكور ، والبصرة (المغربية)

---

(١) حسين مؤنس : نفس المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٢) أنظر الضبي : نفسه - حسين مؤنس : نفس المرجع السابق والصفحه..

(٣) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين ، ص ٧٥ .

(٤) حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٥.

(٥) كما نقل حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٣ (عن الحُميدي في جذوة المقتبس وابن الأبار في التكلمة وغيرهما) .

هنالك) (١) . وقد اعتمد المؤرخ المغربي المشهور ابن عذارى في كثير من أخباره على سلسلة الكتب هذه التي كتبها الورَّاق للخليفة الأموي الحكم المتنصر (٢) .

وممَّا ينسب إليه كذلك كتاب في الأنساب ، بعنوان : أنساب البربر ، نقل عنه البيدق مؤلف كتاب محمد بن تومرت وغيره (٣) .

---

(١) كما ينقل حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٣ (عن الحميدي والضبي وابن الأبار) .

(٢) حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٣ – ٧٦ .

(٣) حسين مؤنس : نفسه ، ص٧٥– كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ .

الدراسات التاريخية في عصر الزيريين :

لقد تابعت الدراسات التاريخية في هذا العصر توسعها وازدهارها من حيث الكم والنوع ، فمن حيث الكم ازدادت أعداد المؤرخين في هذا العصر عن ذي قبل ، ومن حيث النوع فقد تنوعت المصنفات التاريخية في معظم مناحي التاريخ ، كالتأريخ للأقاليم والأقوام والترجمة لطبقات العلماء وغيرهم ، مع كثرة عددها .

ومن أوائل المؤرخين الذين عرفهم هذا العصر الفقيه المحدث المشهور محمد بن حارث بن أسد الخشني (ت ٣٦٦هـ) الذي طرق أسمه أسماعنا كثيراً فيما قبل . ولقد خاض محمد بن حارث التأريخ للحديث والفقه وغيرذلك . ويأتي كتابه طبقات قرطبة وعلماء إفريقية على رأس أشهر كتبه التاريخيه . وهذا الكتاب ترجم فيه ابن حارث الخشني لمن تولى القضاء في الأندلس منذ الفتح وحتى سنة ٣٥٦هـ . (١) كما أنه ترجم لعشرات من علماء إفريقية . ومما يلاحظ على كتابه هذا أنه قد ترجم بالإضافة إلى العلماء الذين سبقوا عصره إلي علماء معاصرين له ، فأورد لهم تراجم تفاوتت من حيث الطول والقصر (٢) .

---

(١) سعد البشري : الحياة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة ، ص ٢٩٤ (نقلا عن أكثر من مصدر) – البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ،ص ١٥م .

(٢) أنظر مخمد بن حارث الخشني : طبقات علماء إفريقية الوارد ضمن كتاب طبقات علماء إفريقية لأبي العرب التميمي ، ص ٨٠-١٩٧- (باب في ذكر الرجال العراقيين) وقد ترجم فيه لعلماء معاصرين له من علماء المذهب الحنفي ، وغيرهم ، بل إنه قد أورد مناظرته لبعض منهم (أنظر ص ١٩٥، ١٩٧) .

ومن مصنفات محمد بن حارث الخشني في مجال التراجم والطبقات عدّة كتب منها : كتاب في تاريخ علماء المالكية ، وكتاب آخر بعنوان كتاب فقهاء المالكية ، وإن كنا لا نعرف الفرق بينهما . ومنها كتاب في تاريخ علماء الأندلس ، وكتاب المولد والوفاة ، وكتاب تاريخ قضاة الأندلس (١) .

أما في مجال كتب التاريخ العامة ، فقد كتب : كتاب الإفريقيين (٢) وكتاب تاريخ الأندلس (٣) وكتاب التعريف (٤) وفي الأنساب كتب كتاباً بعنوان : كتاب في النسب (٥) .

ومن المؤرخين المبرزين في هذا العصر الطبيب المشهور أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد بن الجزار المعروف بابن الجزار (٦) (ت: ٣٦٩هـ) . وابن الجزار رجل متعدِّد المواهب ، فهو طبيب حاذق ، وصيدلي متمكن ، وهو مؤرخ ، وأديب أيضا . فمن مصنفاته في التاريخ نذكر كتاب « مغازي إفريقية» ويتعلَّق كما يوحى عنوانه بالفتح الإسلامي لبلاد إفريقية (٧) ، ويقول حسن حسنى عبدالوهاب (٨) بأن الجغرافي الأندلسي أبا عبيدة

---

(١) عياض : نفسه ،ج ٢ ، ص ٥٣١ .

(٢) عياض : نفسه – البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ، ص ١٥م (ويسميه كتاب الأفارقة) .

(٣) سعد البشري : الحياة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة ، ص ٢٩٥ .

(٤) عياض : نفسه ،ص ٥٣١– البشير البكوش : نفس المقدمه أعلاه والصفحه .

(٥) عياض : نفسه ،ص ٥٣١ .

(٦) عن ترجمته ووفاته والاختلاف فيها ، أنظر بعد ص ٨١٥ – ٨١٦ .

(٧) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ٣١٩– البشير البكوش : نفسه أعلاه والصفحه .

(٨) الورقات ، القسم الأول ،ص ٣١٩ .

البكري قد نقل عنه كثيرا في كتابه المسالك والممالك .

ومن كتب التاريخ العام التي صنَّفها ابن الجزار كذلك كتاب : تاريخ الدولة أو : أخبار الدولة (١) ويعنى بها الدولة الفاطمية .

ويرى حسن حسني عبدالوهاب (٢) أن المؤرخ المصري المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا قد نقل عنه كثيراً . والكتاب التاريخي العام الذي صنَّفه ابن الجزار هو كتاب : التعريف بصحيح التاريخ (٣) وهو كتاب جليل الفائدة يدل على ارتقاء الحس التاريخي في إفريقية آنذاك ، ويقول حسن حسني عبدالواب (٤) إن ابن أبي أصيبعة صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وياقوت الحموي في كتابة معجم الأدباء قد ذكراه وأثنيا عليه . أما الحبيب الهيلة محقِّق كتاب الحلل السندسية في الأخبار التونسية لابن السراج ، فإنه يذكر بالإضافة إلى ابن أبي أصيبعه وياقوت ، نقولات كل من الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات ، وحاجي خليفة في كشف الظنون ، والبغدادي في هدية العارفين عن كتاب التعريف هذا ، ويضيف إلى ذلك قوله إنه قد نقل عن ابن الجزار في كتابه هذه أكثر مؤرخي الطبقات المغربية والأندلسية مثل القاضي عياض في المدارك ، والمالكي في رياض النفوس ، والدباغ في

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٣١٨ البشير البكوش : نفسه ، ص١٥م.

(٢) الورقات ، القسم الأول ،ص ٣١٨ .

(٣) ابن السراج : الحل السندسية في الأخبار التونسية ، الجزء الأول ، القسم الثالث ، حاشية ، رقم(٢) ص ٧٦٣ – حسن حسنى عبدالوهاب : نفسه .

(٤) نفسه ، ص ٣١٨ .

معالم الإيمان والمؤرخ الأندلسي ابن حيان في كتابه المقتبس (١) .

وأخيراً فإن لابن الجزار كتاباً في التراجم بعنوان : طبقات القضاة ، ترجم ، ترجم فيه لقضاة إفريقية حتى عصره . (٢)

ويوسعنا أن نعد الفقيه أبا القاسم أو أبا سعيد المعروف بالبراذعي (ت بعد ٣٧٢هـ) أحد مؤرخي هذا العصر ، فقد صنَّف كتاباً (في تصحيح نسب بني عبيد) ، وهو الكتاب الذي كان أحد أسباب نقمة فقهاء المالكية عليه كما أوضحنا من قبل (٣) .

ومن أولئك المؤرخين ، أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد بن رشيق (ت ٣٧٦هـ) الفقيه المحدث الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن دراسات علم الحديث . فلقد ذكر بأنه كان ذا اهتمام بعلم التاريخ ، وقد وصف بأنه كان له (تقدم في معرفة الآثار والسير والأخبار) (٤) .

ومن الذين عنوا بالترجمة لبعض علماء وفقهاء إفريقية المشهورين آنذاك الفقيه : أبو عبدالله الحسين بن أبي العباس عبدالله بن عبدالرحمن الأجدابي (ت٣٨٤هـ) . فلقد صنف مجموعة من الكتب ككتاب : مناقب ربيع القطان ، وكتاب مناقب أبي الفضل الممسى ، وكتاب مناقب أبي اسحاق السبأي ، وكتاب مناقب ابن نصرون – وكلهم فقهاء لهم شهرة معروفة –

---

(١) الجزء الأول ، القسم الثالث ، حاشية رقم (٢) ص ٧٦٣ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والقسم ، ص ٣١٩ .

(٣) أنظر قبل ص ٣٦٠ .

(٤) عبدالرحمن ياغي : نفسه ص ١٨٩– ١٩٠ .

آنذاك - . (١)

ومن مؤرخي إفريقية المشهورين أيضاً أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (ت : ٤٢٢هـ) وله كتاب مشهور يعرف بكتاب الافتخار بمناقب شيوخ القيروان وماتعلق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار (٢) . وللتجيبي كتاب آخر يعرف بكتاب الطبقات (٣) .

على أن أشهر وأبرز مؤرخي إفريقية ليس في عصر الزيريين وإنما ، في كل عصور الرسالة ، كان بلامراء المؤرخ الكاتب الأديب ابراهيم الرقيق المعروف بالرقيق القيرواني (٤) (ت : ٤٢٥هـ) . والرقيق القيرواني عرفناه كاتباً مرموقاً من كتاب الدولة الزيرية . لكن مالم نعرفه بعد هو مكانته في علم التاريخ . وفي الحق فإن شهرته في علم التاريخ قد فاقت شهرته في

---

(١) ترجم له كل من عياض : نفسه ، ج٢، ص٦٢١ - ٦٢٢ - الدباغ : نفسه ، ج٣، ص١٠٦- ١٠٧- (وهو الذي أشار إلى تاريخ وفاته) - البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ، ص ٢١٦ (وقد ذكر أن وفاته كانت سنة ٤٣٢هـ) ولكن يبدو أن هذا وهم منه .

(٢) هذا مازودنا به البشير البكوش : نفس مقدمة الجزء الأول من الرياض أعلاه ص ٢١٦- أما الدباغ : نفسه ، ص ١٥٨- ١٥٩- فقد أشار إلى أن اسم الكتاب هو كتاب الافتحار فحسب .

(٣) الدباغ : نفسه ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - البشير البكوش : نفسه ص ١٦. .

(٤) ترجم له كل من ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج ج الزمان ص ٢٨-٣٤ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٦ ، ص ٩٢ - ٩٣ - ابن الخطيب : تاريخ المغرب في العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، حاشية رقم (١) ص ٦٩- الزركلي : نفسه ، ج١ ، ص٥٧ (وعنده أن وفاته كانت سنة ٤٢٥هـ) - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات القسم الثاني ، ص٤٣٨- ٤٤٧(وعنده أن وفاته كانت سنة ٤٢٥هـ) .

الأدب والكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار وهو بذلك أحذق الناس) (١) .

أما ابن خلدون فقد قال عنه مانصه : (ابن الرقيق (٢) مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان ، ولم يأت من بعده إلاّ مقلد) (٣) .

ولقد ترك الرقيق القيرواني مجموعة من المصنفات القيمة مثل كتاب تاريخ إفريقية والمغرب ، ويقع في عشر مجلدات ، تناوله فيه أحداث بلاد إفريقية والمغرب حتى سنة ٤١٧هـ (٤) . وهذا الكتاب من أجل المصنَّفات التاريخية، وقد اعتمد عليه كثير من مؤرخي إفريقية وغيرهم في تأريخهم لأحداث المغرب العربي (٥) .

ويرى المنجي الكعبي (٦) محقق القطعة التي وجدت من كتاب تاريخ إفريقية والمغرب أن كتاب الرقيق هذا قد احتوى على كثير من التفصيلات التاريخية المهمة التي خلت منها نقولات بعض المؤرخين عنه كابن عذاري وغيره .

---

(١) فيما ينقله عنه حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق والقسم : ص ٤٤١ .

(٢) هذا خطأ تاريخي ، فالثابت تاريخياً أن كلمة ابن التي تسبق كلمة الرقيق هي وهم تاريخي جرى عليه كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين . أما الصحيح فهو : ابراهيم الرقيق أو الرقيق القيرواني ، وهو نعت له وليس اسما لابيه أنظر اشاذلي بويحيى : مقاله حول نشر كتاب قطب السرور ، أو من سوء حظ ابراهيم الرقيق ، ص ٨-٩ .

(٣) فيما ينقله عنه حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم والصفحه .

(٤) كما لاحظ ذلك حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٤٤٢- ٤٤٣ .

(٥) حسني حسني عبدالوهاب : نفسه ، ص ٤٤٢-٤٤٣ - المنجي الكعبي : مقدمة تحقيق كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق ص ٧-٨ ، ١٠-١١- ١٣ .

(٦) مقدمة تحقيق تاريخ إفريقية والمغرب ،ص ١٠- ١١ ،١٣ .

أما حسن حسني عبدالوهاب (١) ، فإنه يرى أن كتاب تاريخ إفريقية والمغرب هو مأثرة الرقيق الخالدة ، ويرى أيضاً أن الكتاب أستمد أهميته من اعتماد مؤلفه على الوثائق التاريخية التي كان يطّلع عليها بحكم اشتغاله في ديوان المراسلات الزيري كما ذكرنا من قبل .

ومما هو جدير بالذكر أن معلومات الرقيق القيرواني تزداد كثافة كلما قرب من الأحداث التي عاصرها ، والمتتبِّع للقطعة الموجودة من تاريخه التي تقف عند إمارة الأمير عبدالله بن ابراهيم بن الأغلب (ت : ٢٠١هـ) وما تناثر من معلومات تاريخيه مهمة في كتاب ابن عذارى نقلاً عن الرقيق القيرواني بشأن أخبار الأمراء الزيريين (٢) . سيلمس الفارق ، وهذا أمر طبيعي إذ كان الرقيق يؤرخ للأحداث السياسية والاجتماعية التي شاهدها وعايشها بحكم اضطلاعه برئاسة ديوان الإنشاء مدة ربع قرن ، ولذلك أتت معلوماته كثيفة غزيرة كشاهد عيان عاصرها وشارك فيها .

وللرقيق كتاب تاريخي آخر بعنوان أخبار بني زيري الصنهاجيين ، ويحتوى على معلومات وأخبار عن الأمراء : زيري بن مناد ، وابنه بلكين بن زيري ، وحفيده المنصور بن بلكين (٣) . كما أن للرقيق كتاباً في التاريخ بعنوان : الإختصار البارع للتاريخ الجامع ، ويقع في عدة مجلدات كما ذكر الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات (٤) .

---

(١) الورقات ، القسم الثاني ،ص ٤٤٣– ٤٤٤ .

(٢) أنظر مثلا ابن عذاري ، نفسه ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ،ص ٤٤٤ .

(٤) فيما ينقله عنه حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٤٤٦ .

وبإمكاننا أن نعد ابن رشيق الأديب الإفريقي المشهور (ت : ٤٥٦هـ) من مؤرخي العصر الزيري المتأخرين ، فقد ذكر بأن له كتاباً في التاريخ بعنــوان : ميزان العمــل في أيام الــدول (١) ، أو ميزان العمل في التاريخ (٢) .

وفي وسعنا كذلك أن نعد ابن شرف القيرواني الأديب المشهور (ت ٤٦٠هـ) هو الآخر مؤرخاً ، فقد ذكر بأن له كتاباً في التاريخ ذيَّل به كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني (٣) .

وأخيراً فإن الفقيه المشهور أبا بكر المالكي يعد بتصنيفه لكتابه الممتع رياض النفوس ، من مؤرخي إفريقية المتأخرين ، فالكتاب عدا القيمة الفقهية العظيمة التي نستمدها منه يعد كتاباً تاريخياً قيِّما .

وكتاب رياض النفوس للمالكي يلقى ضوءاً جديداً على تاريخ المغرب الإسلامي كما لاحظ بحق حسين مؤنس (٤) . فالكتاب يقدم معلومات قيِّمة عن الفتح الإسلامي للمغرب ، كما أنه يقدِّم معلومات مهمَّة عن الحياة العامة للإفريقيين سواء ما يتصل منها بالنواحي السياسية والإجتماعية أو العلمية أو العمرانية . ومن ناحية أخرى فالكتاب يسلِّط الضوء على موضوع جديد كان له السبق في خوضه ، وهو التأريخ للأربطة وسكانها من العباد والعلماء

---

(١) كما يقول عبدالسلام عبدالقادر المري : دليل مؤرخي المغرب الأقصى ، ص ١٦٦ .

(٢) كما يقول عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص١٧٨- ١٧٩ (نقلا عن مصادر مختلفة) .

(٣) البشير البكوش ، مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ص ١٧ م .

(٤) مقدمة تحقيقه للجزء الأول من رياض النفوس ،ص ٢٤ ومابعدها .

المتطوعين ، الذي سكنوها . (١)

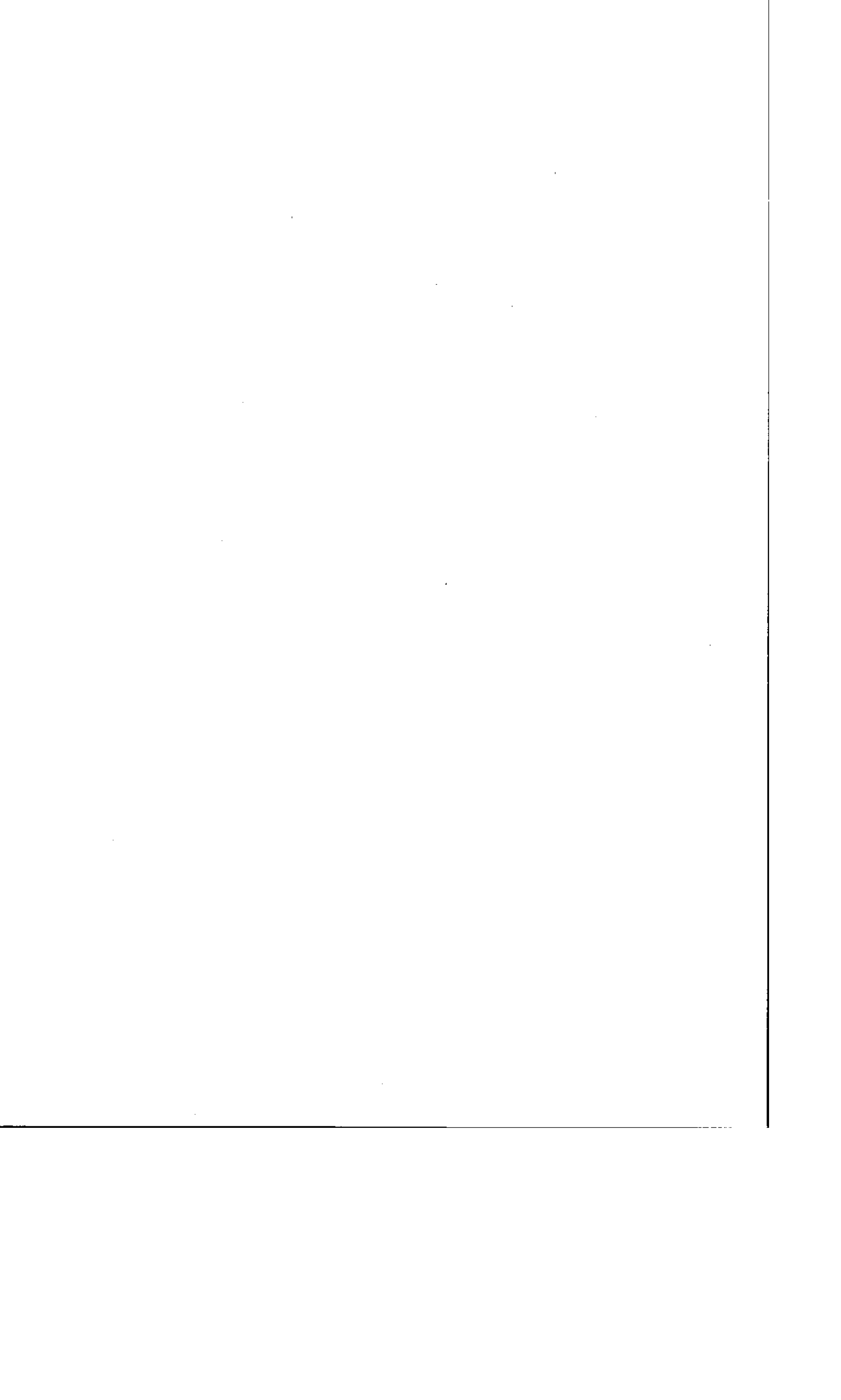
وتزداد أهمية الكتاب أكثر فأكثر بالنقولات المهمة التي نقلها المالكي عن المصـــادر التي سبقتــه في التأريخ لإفريقية . ولقد أحصى البشير البكوش (٢) في جهد مشكور جميع المصادر التي أعتمد عليها المالكي في روايته للأخبار والتواريخ ، سواءاً كانت مصادر تاريخية أو مصادر فقهية أوحديثية وسواءاً تلك التي نص صراحة على نقله منها أو أغفل ذكرها .

وهكذا نرى أن الدراسات التاريخية قد بلغت في عصر الزيريين مبلغاً كبيراً من الرقي والإزدهار والتوسع .

---

(١) أنظر حسين مؤنس : مقدمة تحقيقه للجزء الأول من الرياض ، ص ٢٢م - ٢٧م .

(٢) البشير البكوش : في مقدمة تحقيقه للجزء الأول من رياض النفوس ص ٢٠م - ٢٢م .



الفصـــل الســادس

الدراســات الطبيعيــة

- الطب والصيدلة
- الفلك والرياضيات

ـ الطب والصيدلة :

في حديثنا السابق عن الدراسات الإنسانية ذكرنا أن إفريقية قد سجلت حضوراً علمياً في الدراسات الطبيعية ، وإن كان ذلك الحضور العلمي لايتساوى مع الحضور العلمي في حقلي الدراسات الشرعية والأدبية من جهة ، ولايجاري – من جهة أخرى – مثيله في المشرق أو الأندلس .

ومع ذلك فإنه يحق لنا أن نشيد بالتقدم والإزدهار الذي أسداه ذلك الحضور العلمي لمسيرة الحياة العلمية في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فإفريقية على عدم توفر الأسباب الكفيلة بتقدم الدراسات الطبيعية بها ، إلاَّ أنها أهدت إلى حركة العلوم الإسلامية العديد من الرموز العلمية الطبية التي كان لها الأثر الحسن في تقدم الدراسات الطبيعية تلك .

وكيفما كان الأمر فإننا إذا مضينا نبحث عن الطب وعلومه في إفريقية – وهو حقل من أهم حقول الدراسات الطبيعية – فإننا سنجد حضوراً متميزاً بشأنه خلال الفترة موضع الاهتمام . فلقد رعت الأنظمة السياسية التي تعاقبت على حكم إفريقية وخاصة الدولة الأغلبية علوم الطب وشجعتها ، واستمر الاهتمام بها يتواصل ممَّا حفز أبناء إفريقية على مواصلة جهودهم في إثراء البلاد ببحوثهم ومصنفاتهم .

وممَّا يلاحظ على حركة العلوم الطبيعية في إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة أن بزوغها ومن ثم ازدهارها قام على أكتاف فئة من الأطباء المشارقة وفدت إلى إفريقية فنشرت علومها ومعارفها الطبية في البلاد من ناحية ، ورعت بعض أبناء البلاد وشجعتهم على الانخراط في تعلم

علوم الطب من ناحية أخرى . بيد أننا نستدرك فنقول إن نسبة هؤلاء الأطباء من أبناء البلاد كانت ضئيلة .

والملاحظة التي اتضحت لنا ونحن نرقب الحركة الطبية الإفريقية أن عدداً من أطباء إفريقية وقتذاك كانوا من غير المسلمين ، وهذا أمر يمكن فهم أبعاده من خلال أوّلية اليهود والنصارى في هذا المجال عادة .

العلوم الطبية في عصر الولاة :-

من المعلوم أن عصر الولاة في إفريقية قد اكتنفت معظم سنواته الفتن والإضطرابات ، فكان من الطبيعي ، ألاّ يشهد عناية بعلوم الطب ، ونستثنى من ذلك عصر الوالي يزيد بن حاتم المهلبي ، الذي عرف عهده قدوم أحد أطباء المشرق المشهورين ، وهو الطبيب السرياني أبو يوحنا ماسويه . وأبو يوحنا ماسويه كان أحد الأطباء المهرة من أتباع مدرسة جند يسابور الطبية في ألعراق، ثم قدم على الأمير يزيد بن حاتم ، حيث ظل في معيته فترة من الزمن ، ويميل حسن حسني عبدالوهاب إلى القول بأن أبا يوحنا ماسويه ربما يكون قد عاد ثانية إلى المشرق بعد وفاة الأمير يزيد بن حاتم لاسيما أن ابنه يوحنا بن ماسويه قد نال درجة رفيعة في الطب في بغداد في عهد الخلفاء : الرشيد، والأمين، والمأمون ، والمتوكل . (١)

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب الورقات ، القسم الأول ،ص ٢٧١ .

على أننا في الحقيقة فيما عدا ماذكره حسن حسني عبدالوهاب (١) من قدوم أبي يوحنا ماسويه إلى إفريقية ، لم نعثر على أي نشاطات طبية له في هذه البلاد ، اللهم إلاَّ إشـــارة عابرة أوردها المالكي في سياق ترجمته للقـاضي عـبـــدالرحـمن بن زياد بن أنعم (ت : ١٦١هـ) تنوه بمهـارته في الطب (٢) .

العلوم الطبية في عصر الأغالبة :

لإخفاء في أن العلوم الطبية في عصر الأغالبة قد شملها الكثير من التـوسع والإطراد في الكم والنوع ، وبوسـعنا أن نقول بـأن هذا العصـر هو العصر الذي شـهد البداية الحقيقية للدراسات الطبية الإفريقية . ومامن ريب في أنه كان لجهود الأمراء الأغالبة ، ولاسيما الثلاثة الآخر منهم : ابراهيم الثـاني وابنه عبـدالله ، وحـفـيـده زيادة الله الثـالث الدور الكبـيـر فـي تقـدم الدراسات الطبيعية عامة والطبية على وجه الخصوص . ولقد تمثَّل ذلك الدور في تأسـيس بيت الحكمـة برقـادة الذي قـصـد منه العناية بتلك العلوم التي شغفت لب أولئك الأمراء .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ،ص ٢٧١ .

(٢) ذكر المالكي أن القاضي عبدالرحمن بن زياد بن أنعم أكل في الليلة التي مات فيها حوتاً وشرب لبناً على مائدة الأمير يزيد بن حاتم . وكان الطبيب يوحنا (وهكذا يسميه بدون : أبو) حاضراً ، فاستنتج من خلال خبرته الطبيه أن ذلك ربما يكون سببا في موت القاضي . ولقد توفى القاضي فعلاً في فجر تلك الليلة ، أنظر المصدر السابق والجزء ،ص ١٠٢ .

وممَّا ساعد على تقدم الدراسات الطبية في عصر الأغالبة قيام الأمراء الأغالبة بتأسيس البيمرستانات أو المستشفيات للمصابين بالأمراض المعدية. ولقد عرفت تلك البيمرستانات أو المستشفيات في كتب مؤرخي التراجم والطبقات الإفريقية بالدمنة . (١) والدمنة في الأصل عبارة عن ناحية من نواحي مدينة القيروان أنشئ فيها أو تلك المستشفيات ، ثم مع تتابع الأمر صارت اسم علم المستشفى بحيث أصبحت الدمنة تعنى المستشفى نفسه ، وقد تتابع إنشاء تلك الدمن في كثير من مدن إفريقية ، كتونس ، وسوسه ، وصفاقس (٢) .

ومهما يكن من أمر ،فإن من أوائل الأطباء الكبار الذين عرفهم العصر الأغلبي الطبيب المشهور اسحاق بن عمران الملقب بسم ساعة (٣) . الذي استقدمه الأمير زيادة الله الثالث آخر الأمراء الأغالبة إلى بلاطه في القيروان . ويذكر ابن جلجل في كتابه : طبقات الأطباء والحكماء (٤) . أن الأمير زيادة الله كان حريصاً على قدوم اسحاق بن عمران إلى بلاطه ، حتي أنه وافق على الشروط التي وضعها اسحاق بن عمران للموافقة على المجئ

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ – بساط العقيق ،ص ٢٢-٢٣ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ص ٢٧٤ .

(٣) ترجمته موجودة عند ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد السيد ، ص ٨٤ – ٨٧ – ابن أبي أصيبعة : عيون الأخبار في طبقات الأطباء ،ص ٤٧٨– ٤٧٩– شوكت الشطي : مختصر في تاريخ الطب وطبقات الأطباء عند العرب ،ص ١٧٩– ١٨٠– كارل بروكلمان : تاريخ الأدب الجزء الرابع ،ص ٢٦٨– عمر رضا كحالة : العلوم البحته في العصور الإسلامية ،ص ٢٠٠ .

(٤) ص ٨٤ – ٨٥ .

إلى القيروان .

أما من حيث مكانته في عالم الطب فإنها ليست مجال نزاع ولقد قال ابن جلجل (١) عنه مانصه : (وبه ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة ، وكان طبيباً حاذقاً مميَّزاً بتأليف الأدوية المركبة) . كما أورد ابن جلجل (٣) في ترجمته له حادثة طبية جرت له مع الأمير زيادة الله دلَّت على علو كعب اسحاق بن عمران في التطبيب والمعالجة .

وعندما غضب الأمير زيادة الله على الطبيب اسحاق بن عمران وصرفه من خدمته اتخذ اسحاق بن عمران من إحدى ساحات مدينة القيروان مكاناً للمعالجة ، فوضع (هنالك كرسياً ودواة وقراطيس ، فكان يكتب الوصفات كل يوم بدينار) (٣) ، غير أن الأمير زيادة الله مالبث أن تخلص منه بالقتل بعد ذلك .

أما عن مصنفاته الطبية ، فقد كتب مجموعة من الكتب القيِّمة ، مثل كتاب نزهة النفس ، وكتاب في داء المالخونيا ، الذي لم يسبق إلى مثله كما يقول ابن جلجل ، ومن تلك الكتب أيضاً ، كتاب في الفصد ، وكتاب في النبض (٤) ، ومقالة في الاستسقاء وكتاب العنصر والتمام ، ومقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته ، وكتاب في البول من كلام أبقراط وجالينوس

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٨٥ .

(٢) طبقات الأطباء ،ص ٨٦ – ٨٧ .

(٣) ابن جلجل : نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٧ .

(٤) عن كتابه نزهة النفس وكتاب المالخونيا ، وكتاب الفصد ، وكتاب النبض أنظر ابن جلجل نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٥–٨٦– ابن أبي أصيبيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٧٩ .

وغيرهما ، وكتاب جمع فيه أقاويل جالينوس في الشراب ، ومقالة في بياض المعدة ورسوب البول ، إلى غير ذلك من الكتب والرسائل (١) .

ومن أطباء إفريقية في العصر الأغلبي طبيب يهودي كان منافساً للطبيب اسحاق بن عمران في بلاط الأمير زيادة الله ولم يذكر لنا ابن جلجل (٢) الذي أشار إلى هذه الحقيقة ، أكثر من ذلك ، فلم يذكر لنا اسمه ولا أي نشاطات طبية أخرى له .

وهناك صيدلي معروف عرفه عصر الأغالبة هو اسماعيل بن يوسف القيرواني النحوي المعروف بالطلاء المنجم (٣) واسماعيل بن يوسف الطلاء رجل متعدد المواهب ، فقد كان نحوياً ومنجماً وصيدلانيا . ومما يذكر عن براعته في علم الصيدلة أنه عندما عزم على مغادرة العراق عائداً إلى بلدة القيروان رغب في أن يدخل إلى بلاده الطلاء العراقي الذي كان عبارة عن طلاء يعمل من خلط العقاقير بمائع خلطاً محكماً ، ويسمى الضماد أيضاً . ولقد تلطف اسماعيل بن يوسف في الحصول على سر هذا المركب الكيميائي حتى استطاع فعلا أن يحصل على صناعته من البغداديين (٤) .

---

(١) عن كتب الاستسقاء ، والعنصر والتمام ، وعلل القولنج ، والبول ، ومقالة الشراب ، ومقالة بياض المعدة ورسوب البول ، أنظر ابن أبي اصيبعه : نفسه ، ص ٤٧٩ .

(٢) نفسه ، ص ٨٧ .

(٣) ترجمته موجودة عند الزبيدي الأندلسي : نفسه ص ١٦٤– ١٦٥– القفطي : نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢١٣ – ٢١٤ (وقد ذكر محقق كتاب القفطي ابراهيم أبو الفضل ابراهيم أن لاسماعيل الطلاء عدة تراجم في أكثر من مصدر من مصادر الطبقات الطبية واللغوية.

(٤) القفطي : نفسه .

العلوم الطبية في عصر الفاطميين :

الحقيقة أنه ليس ثمة مايميِّز العلوم الطبية في عصر الفاطميين عن عصر الأغالبة ، فأطباء هذا العصر هم أطباء عاشوا ردحاً من الزمن في العصر الأغلبي ثم عاصروا الدولة الفاطمية وأدركتهم المنية في عهدها ، وهم في معظمهم اتباع للمدرسة الطبية التي وضع أساسها الطبيب اسحاق بن عمران .

ومن أطباء هذا العصر المشهورين اسحاق بن سليمان الإسرائيلي (١) (ت قريباً من سنة ٣٢٠هـ) (٢) . واسحاق بن سليمان الإسرائيلي مصري الأصل، قيرواني السكني والوفاة ، ولقد لازم الطبيب اسحاق بن عمران وتتلمذ عليه ، وعندما سقطت الدولة الأغلبية وقامت الخلافة الفاطمية التحق بخدمة الخليفة عبيدالله المهدي .

ويقول ابن جلجل (٣) عنه : (وكان طبيباً لسناً عالماً بتقاسيم الكلام). أما عمر رضا كحالة (٤) فإنه يقول عنه إنه أسهم في إثارة حركة علمية

---

(١) ترجمته موجودة عند ابن جلجل : نفسه ص ٨٧- ابن أبي أصبعة : نفسه ص ٤٨٠-٤٨١ شوكت الشطي : مختصر في تاريخ الطب وطبقات الأطباء عند العرب ،ص ١١٩- ١٢٠ - كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي ، ج٤، ص ٢٨٦- ٢٨٨- عمر رضا كحالة : العلوم البحته في العصور الأسلامية ، ص٢١، ٣٠ .

(٢) كما ذكر محقق كتاب ابن جلجل في حاشية ص ٨٧- عمر رضا كحالة : نفس المرجع أعلاه ، ص٢١.

(٣) ابن جلجل : نفسه ، ص ٨٧ .

(٤) نفسه .

قيمة في ذاتها في إفريقية ، كما يذكر أنه قد صنف كتاباً في الطب ، والذي سرعان ماترجم إلى العربية بأمر من الخليفة عبيدالله المهدي .

ومهما يكن من أمر فإن اسحاق بن سليمان الإسرائيلي قد ترك مجموعة من الكتب الطبية القيِّمة مثل كتاب البول (وهو أشبع كتاب ألفه مؤلف بذَّ فيه جميع المتقدمين) كما يقول ابن جلجل (١) ، وكتاب الحميات (٢) وكان صاحبه معجباً به كثيراً ، وقد ترجم إلى العربية ، وكتاب في الغذاء والدواء ، وكتاب في الترياق ، وكتاب في المدخل إلى صناعة الطب ، وكتاب الإسقطسات (٣) ، إلى غير ذلك .

ومن أطباء إفريقية الذين عاصروا الدولتين الأغلبية والفاطمية زياد بن خلفون مولى بنى الأغلب (٣٠٨هـ) وهو أحد الذين تلقى علومه الطبية على يدى سليمان بن عمران ، ولمَّا قامت الخلافة الفاطمية التحق بخدمة الخليفة عبيدالله المهدي (٤) .

وممَّا يذكر أن زياد بن خلفون كان أيام الحكم الأغلبي يضطلع بمعالجة الأمراء والرؤساء والأعيان ، كما أنه كان يباشر عمله في دمنة القيروان (٥) .

---

(١) نفسه ، ص ٨٨ – وأنظر كارل بروكلمان : المرجع السابق والجزء ص ٢٨٦ .

(٢) ابن جلجل : نفسه ، ص ٨٨– كارول بروكلمان : نفس المرجع السابق أعلاه والجزء والصفحة .

(٣) ابن جلجل : نفسه – ابن أبي اصيبعه : نفسه ، ص ٨١– كارل بروكلمان : نفسه ، ص ٢٨٦–٢٨٧ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص٢٤١– ٢٤٢ .

(٥) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٢٤١ .

ومن الأطباء المعروفين آنذاك أبو الفضل بن الفضل بن على بن ظفر (ت ٣٢٣هـ) الذي تلقى علومه الطبيه على يدى اسحاق بن عمران وتلميذه اسحاق بن سليمان وغيرهما . وهو أحد أطباء بيت الحكمة القيرواني . ومع أن مؤرّخي الطبقات المغربية كالخشني وابن ناجي ، وكذلك ابن عذاري قد أشاروا إلى نبوغه في علم الطب إلاّ أنهم لم يوردوا لنا شيئاً عن نشاطاته في مجال التصنيف (١) .

ومن الأطباء المذكورين وقتذاك أبو سهل دونش (ت٣٦٠هـ) ، ويسمى باسم آخر هو أونيم بن تميم الملقب بالشَقْلُجي الإسرائيلي. وأبو سهل دونش أحد أطباء إفريقية الذين تتلمذوا على اسحاق بن عمران ، وكان مع اتقانه للعبرية وبراعته فيها ، يتقن اللغة العربية أيضاً .

ولقد اتصل بالخلفاء الفاطميين وخاصة الخليفة المنصور وابنه المعز لدين الله ، وصنف لهما العديد من كتبه ، ومما يذكر أنه بقى على ديانته اليهوديه ، وكان يتبادل الرسائل الطبية وغيرها مع أطباء اليهود في الأندلس كالطبيب حسداى بن اسحاق الذي كان طبيباً للخليفة الحكم المستنصر .

وقد صنف أبو سهل دونش مجموعة من الكتب الطبية مثل كتاب : التلخيص في الأدوية المفردة ، وقد احتوى على بيان في المكاييل الطبية التي كانت مستعملة آنذاك . ومنها كتاب المستلحق ، وسلسلة رسائل كرسالة التسوية ، ورسالة التغريب والتسهيل ، ورسالة التنبيه ، ورسالة الأصول ،

---

(١) أنظر حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٤٣، ٤٤ (حيث الإشارة إلى ذلك وإلى معلومات أخرى عن مهارات الفضل بن على الأدبية) .

إلى غير ذلك (١) .

وفي منتصف القرن الرابع للهجرة شهدت إفريقية بزوغ نجم أسرة طبية مشهورة ، هي أسرة الجزار التي اشتغلت بالطب مدة مائة عام وقد عاش في ظل الفاطميين اثنان منهما هما : أبو بكر محمد أبي خالد بن الجزار ، وشقيقة ابراهيم بن أبي خالد ، ولقد نبع الإثنان في الطب وتلقيا علومهما على يدى اسحاق بن عمران وغيره . وكان للأول منهما شهرة عريضة ومصنفات في الطب والصيدلة بينما كان الثاني كحالاً أي طبيباً من أطباء العيون (٢) آنذاك .

كما عرف العصر الفاطمي نبوغ أسرة العزار التي اشتغلت بالطب في عهدهم ، وهي أسرة يهودية عاشت في إفريقية آنذاك وأول رجال هذه الأسرة الطبية هو موسى بن العزار المكنى بأبي ابراهيم (ت بعد ٣٦٣هـ في مصر) . الذي التحق بخدمة الخليفتين المنصور ، والمعز ، ولكن شهرته الطبية زادت في عهد الخليفة المعز الذي اصطحبه معه عند ماغادر المغرب إلى مصر ٣٦٢هـ ، حيث توفى بها في العام التالي كما ذكرنا آنفا .

ويبدوا أن موسى بن العزار كان الطبيب الرسمي للبلاط الخلافي . فقد ذكر بأنه ركّب للخليفة عدة أدوية كشراب التمر هندي وهو أول من ركّبه وشراب الأصول المنقح للسدد والمحلل للرياح الشراسيفيه والأمغاص

---

(١) عن أبي سهل دونش الأسرائيلي ومكانته الطبيه وغيرها ، وتفاصيل واسعة عن حياته ، أنظر حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، القسم الأول ص ٢٩٧- ٣٠٠ .

(٢) عن أبي بكر محمد بن أبي خالد وأخيه ابراهيم راجع ماكتبه مفصلاً حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٢٣٩ - ٢٤١ .

العارضة للنساء عند حضور الطمث ، وغير ذلك .

ومن الكتب الطبية المحضة التي كتبها موسى بن العزار كتاب المعزي، وقد صنفه للخليفة المعز ، وكتاب السعال ، وفي الصيدلة كتب الأفراباذين في جزء واحد (١) .

ومن أفراد هذه الأسرة الطبية التي عاشت في كنف الخليفة الفاطمي سواء في المغرب أوفي مصر عون الله بن موسى بن العزار وهو أكبر ابناء الطبيب موسى . ولقد اعتنق عون الله الإسلام كما التحق مع والده بالخليفة المعز إبان مغادرته المغرب إلى مصر ، وظل يعمل في خدمة الخليفة حتى توفى في مصر عام ٣٦٣هـ بعد أبيه بوقت قليل .

ومنهم شقيقه اسحاق بن موسى وكان مقرباً كذلك من الخليفة المعز ، وتوفى أيضاً بمصر عام ٣٦٣هـ ، بعد أخيه عون الله بيوم واحد . وبالإضافة إلى هذين الولدين كان هناك ابن آخر لموسى بن العزار اشتغل بمهنة الطب، وكان مقرباً من الخليفة المعز أيضاً ، وهو اسماعيل بن موسى وهو أصغر اخوته . وقد قدمه الخليفة في مكان أخيه المتوفى اسحاق . وهناك طبيب خامس من أفراد هذه الأسرة، عمل في خدمة الخليفة المعز أيضاً وهو يعقوب بن اسحاق بن موسى حفيد موسى بن العزار رأس هذه الأسرة الطبية (٢) .

---

(١) عن موسى بن العزار وتفاصيل أخرى عن حياته الطبية ، أنظر حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، والقسم ص ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٢) عن هؤلاء الأطباء ، أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : المرجع السابق والقسم ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

ومن أطباء العصر الفاطمي أيضاً الطبيب أعين بن أعين (ت في مصر ٣٨٥هـ) الذي كان مشتهراً ببراعته في طب العيون ، وهو الحقل الذي تخصص فيه . ولقد اصطحبه الخليفة المعز لدين الله معه إلى مصر في جملة من اصطحب من الأطباء. ومما ينسب إليه من مصنَّفات كتاب أمراض العين ، ومداواتها ، وكتاب في الطب (١) .

العلوم الطبية في عصر الزيريين :-

إن ممَّا يلفت النظر بشأن العلوم الطبية في هذا العصر، هو أنها لم تلق حظاً من العناية والاهتمام من قبل الإفريقيين . فلم نلحظ في ذلك العصر تلك الكثافة في عدد الأطباء ، ولا تلك الكثرة في المصنفات الطبية التي شهدناها في العصرين : الأغلبي والفاطمي . كما أن معظم الأطباء الذين ينتمون إلى هذا العصر، عاشوا شطراً طويلاً من عمرهم في العصر الفاطمي وكانت وفاتهم في العصر الزيري .

وكيفما كان الأمر فقد عرف هذا العصر طبيباً مشهوراً جداً هو الطبيب والمؤرخ ذائع الصيت أبو جعفر أحمد بن ابراهيم ابن أبي خالد

---

(١) عن براعته في طب العيون أو الكحاله : الدباغ : نفسه ج٣ ، ص ١٥٤- ١٥٥- أما عن المعلومات التي وردت عنه في المتن ، فانظر حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والجزء أعلاه ، ص ٣٠٥ .

ابـن الجـزار (١) (ت : ٣٦٩هـ) (٢) . وأحـمـد بن أبي خـالد بن الجـزار واحد من رموز العلم والمعارف الإفريقية قاطبه ، ليس لعصره فحسب ، بل لكل عصور الرسالة ، ولقد رأيناه من قبل مؤرخاً مشهوراً وجغرافياً مبرزاً ، كما رأيناه عالم تربية مرموق ، وفوق هذا وذاك فقد كان أدبياً لامعاً .

لكن العلم الذي برز فيـه ونبغ ، كـان بلا نزاع الطب والصيـدله وفي الحق فإن شـهرة ابن الجزار الطبية تعود إلى عدة أسـباب : أولها أنه أول طبيب إفريقي محلي مسلم بلغ تلك المرتبة العالية في الطب . والسبب الثاني أن شـهرته في الطب تجاوزت بلده إفريقية – وذلك في حياته وبعد موته – ،

---

(١) لم يلق طبيب إفريقي من العناية والإهتمام من قبل المؤرخين مثل مالقيه ابن الجزار، فقد ذكره : ابن جلجل : نفسه ، ص ٨٨–٩١ ابن أبي اصيبعه : نفسه ، ص ٤٨٢– ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، ج٢، ص١٣٦– ١٣٧ – الصفدي : نفسه : ج٦، ص ١٠٨– ٢٠٩– ومن المحدثين : كارل بروكلمـان : تاريخ الأدب العـربي ج٢، ص٢٩٦–٢٩٩– الزركلي : نفسـه ، ج١، ص ٨٥– ٨٦– حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، والقسم ص ٣٠٦–٣٢٢ (وهي ترجمة وافية واسعة) – شوكت الشطي : مختصر في تاريخ الطب ، ص ١٨١– عبدالعزيز بن عبدالله : الطب والأطباء بالمغرب ،ص ١١ – عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٨٢ – عمر رضا كحاله : العلوم البحته في العصور الإسلامية ،ص ٢٢ . وغير ذلك .

(٢) لقد اختلف في تاريخ وفاته اختلافاً بيناً ، فهناك فريق من المؤرخين القدامى والمحدثين يرى أنه توفى سنة ٣٩٥هـ أو سنة ٤٠٠هـ ، وهناك فريق آخر يستبعد ذلك من الناحية التاريخيه والطبية ويذكر أدلة قوية على أن وفاته كانت سنة ٣٦٩هـ حسبما اثبتناه في المتن . عن كل ذلك أنظر ابن جلجل : نفسه ، هامش ، ص ٨٨ بقلم المحقق فؤاد السيد (وقد تعرض لأكثر الأقوال المختلفة واثبت أن وفاته كانت سنة ٣٦٩هـ) – وأنظر حسن حسني عبد الوهاب نفس المرجع السابق ،ص ٣١١– ٣١٢ وقد ذهب معتمداً على أقوال موثوق فيها بان وفاته كانت عام ٣٦٩هـ) .

إلى المشرق والأندلـــس، فقـد كان المشارقة ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير (١) . أما الأندلسيون فيكفي حرصهم على جلب مؤلفاته إلى بلادهم دليلاً على صدق مانقوله حسبما سنعرف بعد قليل .

والسبب الثالث أن شهرة ابن الجزار الطبية لم تكن على مستوى الدولة الإسلامية ، بل تجاوزت المشرق والمغرب، إلى أوربا ، حيث حظيت الكثير من مصنفاته بالعناية والاهتمام اللذين تمثلا في ترجمة تلك المصنفات إلى اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ثم أخيراً الفرنسية (٢) . وممًا يجدر ذكره أنه يعرف لدى الأوربيين باسم «ALgizar » (٣) .

والسبب الرابع هو أن ممَّايدل على براعة ومقدرة ابن الجزار الطبية ماتمثَّل في مصنَّفاته من دقة علمية تأخذ في حسبانها ظروف بلاد إفريقية البيئية والإجتماعية ، ممَّا جعل لها ميِّزة مفردة فوق ميزتها العامة (٤) .

والسبب الخامس أن لابن الجزار بعض الأوليات الطبية على مستوى العالم أجمع بدون مبالغة، وهو تصنيفه لأول كتاب في علم طب الأطفال ،

---

(١) أنظر مثلا تقريظ الشاعر المشرقي كشاجم لابن الجزار وكتابة الأشهر زاد المسافر . عن ذلك أنظر حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٣١٠- شوكت الشطي : نفس المرجع السابق ، والصفحه .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق والقسم ص ٣١١ ، ٣١٣- ٣١٧- كارل بروكلمان : المرجع السابق ،ج٤ ، ص ٢٩٦- ٢٩٩ .

(٣) شوكت الشطي : نفسه ، ص ١٨١ .

(٤) أنظر عن هذا الموضوع ماينقله حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ص ٣١٠ عن الطبيب التونسي أحمد الخميري الذي عاش في القرن العاشر الهجري .

وهو كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم (١) . وممّا هو جدير بالذكر أن ذلك الكتاب يحتوي بجانب معلوماته الطبية على نظريات تربوية قيِّمة ، هذا وإن كثيراً من آراء الجزار في طب الأطفال لاتزال موضع التقدير حتى الآن (٣) .

وأخيراً ففيما يختص بمصنفات ابن الجزار الطبية والصيدلانية فقد أحصى حسن حسنى عبدالوهاب في جهد كريم كل تلك المصنفات من مظانها المختلفة ، وأشار إلى أهميتها في عالم الطب عند المسلمين والفرنجه وإلى ماترجم منها للغات الأجنبية .

ونظراً لأن تلك المصنَّفات قد بلغت نحواً من خمسة وعشرين كتاباً كما ذكر حسن حسني عبدالوهاب ، فإننا سنشير إلى أبرزها وأكثرها شهرة .

فمن تلك المصنَّفات بل لعلة أولها كتابه الأشهر : زاد المسافر وقوت الحاضر في علاج الأمراض . ويقع في مجلدين . وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية منذ عهد مؤلِّفه وحتى وقت قريب ، وقد ترجم إلى اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والفرنسية كما أنه كان يدرَّس في كلية سالرنو في جنوب إيطاليا ، وقد نقله إلى الأندلس الطبيب اليهودي المعروف ابن طيبون .

ومن كتبه الاعتماد في الأدوية المفردة ، وهو عبارة عن أربع مقالات في

---

(١) محمود محمود الحاج قاسم : الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقه به ؛ ص ٤٩ - ٥١ .

(٢) عن آراء ابن الجزار من حيث العناية الطبية بالأطفال ، أنظر محمد محمود الحاج قاسم : نفس المرجع أعلاه ، ص ٥٤- ٥٧، ٦٢ .

معالجة الأمراض ، وقد نقل إلى اللغة العربية بعناية الطبيب اليهودي الأندلسي ابن طبون .

ومن تلك الكتب طب المشائخ ، وهو رسالة يعالج فيها الحالات التي تعترض كبار السن والمعمِّرين ، ومنها كتاب أبدال الأدوية ، وهو رسالة في الأدوية ، وكذلك نذكر كتاب الزكام وأسباب علاجه، وكتاب الجزام وأسبابه وعلاجه ، وكتاب المختبرات ، وكتابه سياسة الصبيان وتدبيرهم ، وغير ذلك (١) .

ومن الأطباء الذين عرفهم العصر الزيري الطبيب ابن الماعز الذي كان يفزع إليه في الفتيا في الطب كما يفزع إليه في الفتيا في الفقه (٢) .

وكذلك ممَّن عرف ببراعته في الطب الشاعر يعلى بن ابراهيم الأبرسي الذي كان ذا حظ وافر في علم الطب والهيئة والفلسفة (٣) .

ومنهم ابن عطاء اليهودي طبيب الأمير المعز بن باديس الخاص، كما صرحت بذلك مصادر كتب الطبقات (٤) .

---

(١) عن جهود حسن حسني عبدالوهاب في تقصي كتب ابن الجزار من المظان المختلفة وعن كتب ابن الجزار نفسها سواء التي أشرنا إليها ، أو التي أحلنا القارئ لمكانها ، أنظر المرجع السابق ، والقسم ص٣١٣ - ٣١٨ .

(٢) عبالرحمن ياغي : نفسه ، ص١٠٦(فيما ينقله عن أماری في مجموعته المكتبة الصقلية ، ذيل ص ٦٧) .

(٣) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص١٠٦ .

(٤) الجنحاني : المغرب الأسلامي ، ص ٩١.

وهناك طبيب إفريقي مشهور أنجبته البلاد في العصر الزيرى ، وهو قسطنطين الصقلي أوالإفريقي (٤٠٩-٤٨٠هـ). وقسطنطين الإفريقي كما يوحى لقبه ولد بإفريقية ، ثم تطلع إلى علوم الطب والحكمة فأتقنها، وكان مع اشتغاله بالعلوم الطبية يعمل بالتجارة وقد قادته مهنته هاته إلى جزيرة صقلية ، حيث نزل بمدينة سالونه ، وهناك توطت الصلة بينه وبين أمير المدينة جيزولف ، ثم اتقن اللغة اللاتينية ، ولقد وجد من الأمير رغبة في العلوم الطبية ، فما كان منه إلاَّ أن عاد ثانية إلى بلده إفريقية ، حيث انكب على جمع معلومات طبية غزيرة حملها معه إلى مدينة سالونه ، ومنذ ذلك الوقت أصبح يعرف بقسطنطين الإفريقي أو الصقلي .

وفي مدينة سالونه عكف قسطنطين على ترجمة أهم كتب الطب العربي ككتاب زاد المسافر لابن الجزار ، الذي أصبح لصاحبه طريقة مشت عليها أوروبا حتي وقت قريب ، كما ترجم مجموعة من كتب أطباء المشرق الكبار كالرازي ، وعلي بن العباس صاحب كتاب المالكي في الطب وحنين بن اسحاق صاحب كتاب أمراض العيون وغيرهما ، وترجم أيضاً بعضاً من كتب الطبيب الإفريقي اسحاق بن سليمان .

وبالإضافة إلى جهود قسطنطين العلمية سواء في ترجمة الكتب الإسلامية المشهورة أو في براعته في الطب ، فقد ترك مجموعة من المصنَّفات الطبِّية القيِّمة مثل كتاب البول وتحليله ، والأعضاء الداخلية في جسم الإنسان وكتاب العيون ، وكتاب الماليخوليا وكتاب الجراحة ، وكتاب المعدة ، وكتاب الحمة للمرضى ، وكتاب النبض وكتاب جسم المرأة

وأعضاءها وغير ذلك من الكتب (١)

الفلــك والرياضيــات :-

لعلنا لانجد حرجاً في القول بأن هذا الجانب من العلوم الطبيعية أو التجريبية - أي الفلك والرياضيات -، لم يصل لدى الإفريقيين إلى مستوى اهتمامهم بالطب والصيدلة ،

وإذا كان مفهوماً أن ينظر المغاربة إلى علم الفلك نظرة الكراهية لاسيما وأن جانبه النظرى مرتبط بالتنجيم (٢) الذي لايقر الإسلام كثيراً من

(١) لخصنا هذه المعلومات عن أحمد توفيق المدني في كتابه المسلمون في جزيرة صقلية ، ص ١٩٩-٢٠٢ . وتجب الإشارة إلى أن المكانة التي احتلها قسطنطين الإفريقي جاءت من ترجمته لهذا الكتب ذات الأهمية الطبية البالغة لهؤلاء العلماء المسلمين ، لامن مكانته هو نفسه في عالم الطب .

عن قسطنطين الإفريقي وماذكره بعض من الباحثين الغربيين من أن سطا على مؤلفات غيره من الأطباء المسلمين، انظر زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوربا) ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي ، راجعه ووضع حواشيه ، مارون عيسى الخوري ، ط ٤ ، ص ٢٩٣-٢٩٩ .

(٢) من الواضح أن التنجيم بمعناه الساذج المتمثّل في رصد بعض الكواكب والنجوم وحركاتها وتأثيرها في الحياة المستقبلية للإنسان تعد ضرباً من الأوهام والخرافات التي ليس لها أساس علمي - أما علم الفلك فهو العلم الذي يميل بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والعلم والاختبار أو التطبيق ، وهو ما يعرف بالفلك التطبيقي الذي يعتمد على استخدام الآلات والمراصد والرياضيات البحتة في مراقبة حركات أفراد المجموعات الشمسية ومدارات الكواكب السيارة وأبعاد بعضها عن بعض .. الخ . والإسلام من هذا الجانب يحث على تعلم علم الفك بمعناه الدقيق ، ذلك ليتمكن المسلمون من تطبيق نظرياته الرياضية على جوانب مهمة من القضايا التعبدية ، كتحديد أوقات الصلوات التي تقتضي معرفة أوقاتها . معرفة عرض الموقع الجغرافي وحركة الشمس في البروج .. الخ . =

مناحيه . نقول إذا كان مفهوماً أن يقصِّر الإفريقيون في علم الفلك ، فإن ما لانستطيع تصوره أن يقصروا في علوم الرياضيات وهي علوم لاتثريب عليها، من وجهة النظر الإسلامية . بل إن الإسلام في كثيرمن قضاياه الحياتيه يدعو إلى تعلم مبادئها كما هو معلوم (١) . وعلى أية حال فإن إفريقية لم تكن خلوا من بعض الجهود العلمية في ذلك المجال الذي نؤِّرخ له هنا . ولربما كان الإفريقيون أو لنقل بعضهم كان مدفوعاً بعوامل محلية وشخصية إلى أن يسجل حضوراً في تلك العلوم ، حتى ولو كان ضئيلا .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الولاة :-

لعل الأثر العلمي الوحيد الذي استطعنا الظفر به ، والذي ينتمي إلى هـذا العصر هو ماتمثَّل في تصنيف العالم العابد أبي علي شقران بن علي (ت١٨٦هـ) كتاباً في علم الفرائض أو المواريث (٢) . وقد صرح المالكي (٣) بأن أحدا لم يكتب مثله ، أي أن أحداً في إفريقية لم يكتب مثله.

= وللاستزادة عن هذا الموضوع أنظر قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ط٢، ص٨٧ ومابعدها - علي عبدالله الدفاع : أثرعلماء العرب والمسلمين في تطور علم الفلك ص ١٧-١٩ (نوابغ علماءالعرب والمسلمين في الرياضيات) ص ٤٣-٤٥ .

(١) أنظر علي عبدالله الدفاع : إسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، تعريب وتعليق جلال شوقي ، ص٩-١٣ .

(٢) الزركلي : نفسه ، ج٣، ص١٧٠ (نقلا عن أكثر من مصدر) .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٢ .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الأغالبة :-

من البديهي أن تخطو علوم الفلك والرياضيات في عصر الأغالبة خطوات حسنة ، لاسيما وأن عصرهم قد تميز بازدهار الدراسات الشرعية أولاً ، ثم العلوم التجريبية ثانياً كما ذكرنا من قبل .

ومن أوائل المشتغلين بالرياضيات في هذا العصر أبو زكريا يحيى بن سليمان الفارسي الخضري (ت ٢٣٧هـ) ويقول الدباغ (١) . عنه : (وكان ثقة ، عالماً بالفرائض ، والحساب ، فطُلب لخدمة السلطان لأجل علمه بالحساب فهرب إلى المشرق .. الخ) .

ويوسعنا أن نعد اسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم أحد فلكي ومنجمي عصر الأغابة . واسماعيل الطلاء رأيناه عند حديثنا عن الدراسة الطبية في العصر الأغلبي صيدلانياً بارعاً ، على أنه قد اشتهر بعلم النجامة كما يقول الزبيدي الأندلسي ومن هنا فقد كان مقرَّباً من الأمير ابراهيم الثاني بن أحمد الأغلبي (ت ٢٨٩هـ) الذي كان هو الآخر (ينتحل علم النجامة) (٢) .

كما عرف عصر الأغالبة رياضياً مشهوراً هو أبو اليسر ابراهيم بن أحمد الشيباني (ت٢٩٨هـ) الذي عرفناه رئيساً لديوان المراسلات في عهود

---

(١) نفسه ، ج٢، ص ٦٤ وهو الوحيد الذي أشار إلى ترجمة هذا العالم الرياضي .

(٢) عن انتحال اسماعيل الطلاء وابراهيم الثاني الأغلبي لعلم النجامة والعلاقة بينهما ، أنظر الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص ٢٤١-٢٤٢- حسن حسني عبدالوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

الأمراء الأغالبة الثلاثة الآخيرين وفي عهد الخليفة الفاطمي عبيدالله المهدي . كما رأيناه أديباً يشارك في تصنيف عدد من الكتب الأدبية الجيدة .

ومع أن لقب الرياضي كان يسبق اسم ابراهيم الشيباني (١) عند مؤرخي التراجم والطبقات ، إلاّ أننا لم نعرف أي نشاط له في علم الرياضيات الذي عرف به .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الفاطميين :-

والأمر الذي نستخلصه من عصر الفاطميين فيما يتصل بعلم الفلك ، هو أن الخلفاء الفاطميين كانوا مولعين بالفلك والتنجيم، فالخليفة عبيدالله المهدي الذي كان له بصر بعلم النجوم، قام ببناء عاصمته المهدية وفق حسابات فلكية (٢) ، وهي وإن كانت أقرب إلى علم التنجيم ، إلاّ أنها على كل حال تدل على ميله لهذا الجانب من العلوم .

والخليفة المنصور كان عالماً بالنجوم ، ولكنه كان غير مؤمن بتأثيرها ، وكان يقول دائماً : (والله ماطلبنا هذا العلم إلاّ لما يدلنا عليه من توحيد الله جل ذكره وتأثير حكمته في منفعلاته) (أي مخلوقاته) فإياك أن تشغل نفسك بغير هذا ولا تلتفت إليه (٣) .

---

(١) أنظر ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج١ ص١٧٣ - الزركلي : نفسه ، ج١ ، ص ٢٨، ٦٠ .

(٢) ابن حماد : المصدر السابق، ص ٤١ .

(٣) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ،ص ١٣١- ١٣٢ .

أما المعز لدين الله فقد كان ماهراً في علم النجوم بجانب مهارته في علـوم الطب والهندسة والفلسفة ، بل إن علماء هذه العلوم يعتبرون عالة علية (١) . لكنه كان غير مؤمن بتأثيرها أيضا. وكان يرى أن النظر في النجوم صالح ولمعرفة قدرة الله ، ولكنه غير نافع في معرفة حظوظ الناس (٢) .

أما عن علوم الرياضيات ، فقد كان للخلفاء الفاطميين : القائم والمنصور، والمعز حس رياضي هندسي - إن صح هذا التعبير- فممّا نذكر للخليفتين : القائم و المنصور من نظر هندسي ماروواه القاضي النعمان من رغبتهما في إجراء نهر يقع بعيداً من القيروان يدعى نهر أيوب إلى المدينة عن طريق قناة محمولة على قناطر أو حنايا . ولقد حاولا أن يمضيا في تحقيق المشروع على تهويل مستشاريهما لهما ، ولكن فتنة أبي يزيد وثورته حالت دون ذلك (٣) .

غير أن الخليفة المعز لدين الله بما أوتي من نظر هندسي وثروة كبيرة واستقرار سياسي - عمل على أن ينفِّذ المشروع ، ولكن نمو مدينة المنصورية العاصمة الجديدة التي بناها أبوه بعد انتصاره على ثورة أبي يزيد ، وذلك مع معارضة مستشاريه أيضا، (٤) قلَّل من متجه المشروع .

---

(١) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، ص ١٤٨ .

(٢) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، ص ٣٢٦- ٣٢٧ - ٤٣٩، ٥٣٢ - ٥٣٣ .

(٣) القاضي النعمان : نفسه ص٣٣١-٣٣٢ وأنظر الحاشية رقم (٢) ص٣٣١ حيث تناول محققو الكتاب تحليل ذلك العمل وأهميته للقيروان .

(٤) القاضي النعمان : نفسه ص٣٣٢- ٣٣٣ - وأنظر كذلك الحاشية رقم ٥١ ، ص ٣٣٢ .

والحقيقة أن الخليفة المعز لدين الله كان ذا نظرة هندسية ثاقبة ، وقد أورد القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات (١) أعمالاً عديدة نفّذت بإشارة من الخليفة – هذا وان صحت – ومن ذلك تفكيره في إجراء البحر إلى عاصمته المنصورية (في خليج حتي تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا) على حد قول الخليفة نفسه ، ويقول محققو كتاب المجالس والمسايرات أن هذه الرواية التي أوردها القاضي النعمان ذات دلالة في الإشارة إلى إمكانية ربط المنصورية والقيروان أيضاً بالبحر (٢) .

وأيا ما كان الأمر عن الفلكيين والرياضيين الذي عاشوا في عصر الفاطميين ، وكذا عن مصنفاتهم فإننا نستطيع القول إن هناك عدداً منهم ظفرنا بإشارات لهم ، كالطبيب أبي سهل دونش الشفلجي الإسرائيلي المتوفى عام ٣٦٠هـ ، وكنا قد ترجمنا له من قبل . إذ يذكر أنه صنّف كُتباً في الفلك والحساب، ككتاب في الحساب الهندي المعروف بحساب الغبار ، وكتاب في الفلك وحركة الكواكب كتبه لصديقه الطبيب الأندلسي اليهودي أبي يوسف حسداي ، وكتاب كبير في علم الفلك قدّمه إلى الخليفة المنصور ابن القائم (٣) .

وبالإضافة إلى أبي سهل دونش ، هناك فلكي يهودي يدعى نسيم بن

---

(١) ص ٣٤٣- ٣٣٣٤، ٥٣٠- ٥٣١ .

(٢) أنظر الحاشية رقم (٤) ، ص ٥٣٠ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ص ٢٩٩- ٣٠٠ .

يعقوب القيرواني كان بارعاً في علم الهيئة ، وحركة الكواكب إلى درجة أنه كان يُستفتي من قبل بعض يهود العراق والأندلس والمغرب في شأن مواقيت مواسمهم الدينية (١) .

وأخيراً فقد أمدنا القفطي (٢) بإشارة مهمَّة لعالم فلكي إفريقي هو أبو عبدالرحمن : محمد بن عبدالله بن محمد العتقي (ت في مصر سنة ٣٨٥هـ) . فلقد أشار إلى أن العتقي كان متفنناً في علوم عدة ، غير أن الغالب عليه هو علم النجوم والنظر ، وقد خرج إلى مصر مع الخليفة المعز لدين الله عام ٣٦٢هـ في جملة من خرج معه من العلماء والأطباء وغيرهم ، وظل هناك حتى توفى عام ٣٨٥هـ ، ويذكر أنه صنَّف مجموعة كبيرة من النجوم وأحكامها .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الزيريين :-

الواقع أن حركة العلوم الفلكية والرياضية في عصر الزيريين تعد متواضعه شأنها في ذلك شأن أمثالها في العصور السابقة . وغاية ماعرفناه - في هذا الصدد - أنه كان هناك بعض نفر اشتغلوا بعلمي الفلك والرياضيات ، بجانب تخصُّصاتهم الأصلية .

فمن بين هؤلاء الأديب الكاتب أبو الحسن : على بن أبي الرجال

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع ، والقسم ص ٢٨ .

(٢) تاريخ الحكماء ، وهو مختصر الزويزيني المسمى : المنتخبات الملتقطات من أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢٨٥ .

الشيباني (ت٤٣٢هـ) الذي عرفناه من قبل كاتباً يلي رئاسة ديوان الإنشاء في عهد المعز بن باديس ورأيناه كذلك شاعراً مرموقاً ، وفوق هذا وذاك فقد تلمَّسنا دوره في مساعدة المعز بن باديس على نبذ المذهب الشيعي الإسماعيلي .

أما مكانته في علم الفلك فلم تكن لتقل عن مكانته في دنيا الكتابة والأدب ، وقد ذكر بأن له عدَّة مصنَّفات قيِّمة نالت شهرة تعدَّت إفريقية إلى المشرق ، وإلى أوروبا .

وأهم تلك المصنفات ، كتاب البارع في أحكام النجوم ، وهذا الكتاب كانت له شهرة علمية كبيرة ، وقد ترجم إلى اللغة العبرية بعناية عالم يهودي يدعى يهودا بن موشى (ت ٢٥٦هـ) (١) ثم ترجم إلى اللغة اللاتينية مرارا. كما أنه ترجم إلى اللغة القشتالية (الإسبانيه الفصحى) وكذلك إلى الأسبانية الغربية (البرتغالية) (٢) .

وبجانب هذا الكتاب هناك منظومه شعرية له في التنجيم ، وتسمى الدلالات الكلِّيَّة على الحركات الفلكية . وممَّا يدل على أهميتها أنها خضعت للشرح من قبل أحد العلماء المتأخرين وهو أحمد بن حسن القنفذي القسطنطيني المتوفي عام ٨١٠هـ (٣) .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٤، ص ٢٢٥- ٢٢٦ عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٧٨- ١٧٩ عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ج١، ص٢٧ .

(٢) كما يقول عمر فروخ : نفس المرجع أعلاه ، حاشية رقم (٢) ص ١٧٨ .

(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ،ج٤ ، ص٢٢٧٦ - عبدالعزيز بن عباالله ، الموسوعة =

وله كـذلك أرجـوزه فـي دليل الرعـد (١) وأرجـوزة شـعـرية أخـرى في الأحكام النجـومـيـة ، ثم مراسـلات فلكيـة أخرى . (٢) وممّا يجـدر ذكره أن اسم ابن أبي الرجال في اللاتينية هو " ABENRAGEL " (٣) .

وهناك فقيه إفريقي استـهواه علم الهندسة والرياضيات ، هو الفقيه أبو الطيب عبدالمنعم بن محمد بن ابراهيم الكندي (ت٤٣٥هـ) الذي كنا قد ترجمنا له عند حديثنا عن الدراسات الفقهية في العصر الزيري ، وقد قال فيه أحد أئمة الفقه المالكي المتأخرين بصقليه مانصه : (لم تمنعه الإمامة في الفقه عن الإمامة الهندسة)(٤) . وممّا هو جدير بالتنويه أنه فكر في جعل مدينة القيروان مرسى بحرياً يجلب إليها الماء من مدينة تونس ، وقد وضع رسالة هندسية توضح هذه الفكرة (٥) .

وممّا يدل على براعتـه الهندسـيـة أنه حـاول فك كـتـاب اقليـدس في الهندسة بذهنه . وعندما مات رثاه الشـاعر أبو زكريا يحيى الشقراطسي التوزري والد الشاعر المشهور عبدالله الشقراطسي بقصيدة تشير إلى هذا المعنى (٦) .

= المغربية ، ج١، ص ٢٧ .

(١) كارل بروكلمان : نفس المرجع السابق والجزء والصفحه – عبدالعزيز بن عبدالله : نفس المرجع السابق ، والجزء والصفحة .

(٢) عن أورجوزة الأحكام النجومية والمراسلات الفلكية أنظر عبدالعزيز بن عبدالله : نفسه ،ص ٢٧ .

(٣) كارل بروكلمان : نفسه ،ص ٢٢٥ .

(٤) فيما بنقله عنه الزركلي : نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

(٥) الزركلي : نفسه .

(٦) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٠٧ .

وهناك أيضا عالم إفريقي هو ابراهيم بن عبدون بن عبدون بن غانم بن عبدون، اشتهر بالاشتغال بالهندسة والرياضيات ، ويقول عنه ابن رشيق أنه كان منفرداً بعلم المساحات والأشكال) بجانب شهرته في الأدب (١) .

وأخيراً هناك أديب يدعى محمد بن أحمد الإفريقي ويكنى بأبي الحسن (ت نحوسنة ٤٠٠هـ) كان بجانب اشتهاره بالأدب يميل إلى الاشتغال بالتنجيم . وقد غادر بلده إفريقيه وأتجه إلى المشرق ، حيث استقر به الأمر في اصبهان حتى أدركته المنية هناك (٢) .

(١) ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ،ص ٢٣ .

(٢) الزركلي : نفسه ، ج٥ ، ص ٣١٣ .

الخاتمة

الخاتمة

لعل من آكد الأمور وأوجبها ونحن نشرع في الانتهاء من الحديث عن الحياة العلمية في إفريقية في الفترة التي إخترناها إطاراً زمنياً للرسالة أن نشير في عجالة مركزة إلى أهم النتائج التي استخلصناها من متابعتنا لمسيرة الحياة العلمية تلك .

وبوسعنا في البدء أن نشير إلى حقيقة تاريخية وعلمية مهمة ،وهي أن الحركة العلمية في إفريقية قد تدرجت في شئ من البطء نتيجة للأوضاع الساسية والعسكرية التي عرفتها إفريقية – والمغرب عموماً منذ إتمام الفتح وحتى قيام الدولة الأغلبية .

والحقيقة التاريخية التي تسنى لنا استخلاصها من متابعتنا للحركة العلمية الإفريقية هي أنه كان لقيام الدول المستقلة : الأغلبية ، والفاطمية ، والزيرية . الأثر الواضح والبارز في إعطاء حركة العلوم والمعارف دفعة قوية.

ومن المعروف أن هذا الأمر هو من قبيل المسلمات التاريخية التي عرفتها مسيرة النهضة الحضارية – والعلوم على رأسها – ، في ظل الدويلات التي انفصلت عن السلطة المركزية للخلافة العباسية . فلقد سعت بلاطات تلك الدول إلى منافسة البلاط الخلافي من جهة ، علاوة على الرغبة في منافسة بلاطات الأمصار من جهة أخرى .

وبجانب هذا ، فإن الرغبة الشخصية في العلم والميل إليه لدى الأمراء والخلفاء كان باعثاً لنشاط علمي ملحوظ . ويضاف إلى ذلك كله مايوفره

المناخ العلمي الذي توفره تلك الدول للعلماء والأدباء ليبدعوا وليقدموا زبدة محصلاتهم العلمية ومخزونات ثقافاتهم .

وإذا تركنا هذه الحقائق التاريخية والعلمية العامة إلى الحديث عن العلوم والمعارف الإفريقية وحركة سيرها، فإن في مقدورنا أن نشير بادئ ذي بدء إلى أن أهم مظهر علمي رئيسي غلب على الحياة العلمية في إفريقية آنذاك كان بلا مراء الدراسات الشرعية بصفة عامة ، والفقه منها على وجه الخصوص .

ويقودنا إقرار هذه النتيجة إلى نتيجة أخرى لاحظناها وهي أن المذهب المالكي – التي قامت الدراسات الشرعية وفق منحاه الفقهي – ، كان الموجّه لتلك الدراسات والمحرك لها ، بل لعل دوره قد تعدى الجانب العلمي إلى التأثير في المناحي الحياتية الأخرى للإفريقيين من سياسية واجتماعية واقتصادية . ولقد صدق حسين مؤنس في مقولته التي جاءت في ثنايا تحقيقه للجزء الأول من كتاب رياض النفوس عندما قال إن المالكية كانت العصب الأول من أعصاب التاريخ الإفريقي والمغربي .

وممّا يناسب أن نشير إليه إزاء الحقيقة أو النتيجة السالفة هو أن الفقهاء المالكية كانوا يشكلون ضمير الأمة النابض بالحياة . تفزع إليهم العامة في كل مايؤرّق ليلها ويستشكل عليها من قضايا فقهية وعقائدية . وحسبنا أن نذكر أنه عند ماثارت مسألة هل الكفار يعرفون الله أم لا ؟ ، وهي القضية التي أقلقت بال العامة خشية تأثير ذلك على العقيدة ، بادروا إلى الشيخ أبي عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ) يسألونه .

وممّا يندرج ضمن النتائج المستخلصة من التوجه العلمي الرئيسي نحو الدراسات الشرعية ، هو مالاحظناه من أن الاهتمام بالدراسات الشرعية تلك كان متفاوتاً في ظل العصور السياسية الأربعة التي تعاقبت على حكم إفريقية ، فقد كانت تزيد في عصر ، وتنقص في عصر تبعاً لأسباب عديدة أشرنا إليها في تضاعيف الرسالة .

وممّا خلصنا إليه من نتائج من خلال المتابعة الحثيثة لحركة العلوم والمعارف الإفريقية أن الدراسات الأدبية قد أتت في المحل الثاني من الإهتمام من قبل الإفريقيين . وفي الحق فإننا قد ذهبنا عند الحديث عن الدراسات الأدبية إلى توضيح الأسباب العديدة التي أدت إلى ذلك .

لكن المهم الآن هو التأكيد على إقرار وإبراز هذه النتيجة هنا كأحد أهم النتائج التي كشف البحث أبعادها في ظل قواعد البحث العلمية .

ويقودنا هذا إلى التذكير بأن الإهتمام بالدراسات الأدبية قد تفاوت أيضاً بتفاوت العصور السياسية المختلفة التي حكمت إفريقية في الفترة التي نؤرخ لها ، وذلك وفقاً لدواعٍ عديدة بسطناها في مكانها .

وتوصلنا من خلال بحثنا عن أوجه المعارف والعلوم الأخرى في إفريقية إلى حقيقة تثير الانتباه ، وهي أن الدراسات الإنسانية بفروعها الثلاثة : الجغرافيا والفلسفة والتاريخ كانت متأخرة عن مثيلاتها في المشرق . ولعل التاريخ وحده من بين تلك العلوم الذي لقي شيئاً لابأس به من الإعتناء .

ولقد كنا خلال معالجتنا لتلك الموضوعات نضع اليد على الأسباب المفهومة التي أدت إلى قصور همة الإفريقيين في الفلسفة مثلاً . ولكننا فيما يختص بالجغرافيا لم نستطع أن نهتدي إلى أسباب عدم إهتمامهم بهذا العلم .

ومايصدق على الدراسات الإنسانية من إقرار هذه النتيجة التي تتعلق بقلة الإعتناء بها ، والأسباب المفهومة وغير المفهومة لذلك ، يصدق أيضاً على الدراسات الطبيعية ، وإن لم يكن الأمر سواء في كل جوانبها كما يلاحظه القارئ من خلال متابعته لهذا الفصل من فصول الرسالة .

ومن هنا فإن ترتيبنا لمفردات الحياة العلمية علي النحو الذي خلصنا إليه في الرسالة إنما هو ترتيب مقصود جاء نتيجة مباشرة لمراقبة خط سير مستخرجات الحياة العلمية تلك .

ومن النتائج المهمة التي خرجنا بها بل لعلنا نحسب أننا إنفردنا بها نتيجة تمثلت في أنه قد ترتب علي الصراعات المذهبية التي شهدتها إفريقية في الفترة موضع الإهتمام أصداء علمية مهمة ظهرت آثارها فيما شهدته البلاد آنذاك من شيوع المناظرات ، وكثرة التآليف ، وتكاثر حلقات العلم والمدارس . وما من ريب في أن كل تلك الجوانب قد أفادت الحركة العلمية حسبما فصّلناه في موضعه ، وأفادت كذلك في تثبيت عقيدة الأكثرية الغالبة من السكان ، وهم المالكية أمام سبيل المناظرات ومجالس الجدل التي كانت تثيرها وتعقدها المذاهب الكلامية الدينية السياسية مثل المذهب الشيعي الإسماعيلي ، وأتباع المذاهب الكلامية .

وممّا خلصنا إليه من نتائج الدور العلمي الكبير الذي أسدته وسائط الثقافة للنهضة العلمية الإفريقية مثل المساجد والكتاتيب والرباطات والمكتبات العامة والخاصة . وليسص من شك في أن الاهتمام الذي حظيت به تلك الوسائط من قبل الأنظمة السياسية التي حكمت المغرب أو من قبل الأفراد العاديين كان له أثره في اضطلاع تلك الوسائط بمسؤولياتها .

على أننا قد أكدنا في حينه على ملاحظة مهمة وهي أن وسائط الثقافة تلك لم تقم بدورها العلمي بقدر متساو ، فجامع الزيتونة بتونس لم يتبوأ مركزه العلمي الريادي إلاّ متأخراً ، أي في القرن السادس الهجري ، ومنذ ذلك الوقت شرع يمارس دوره العلمي الريادي وحتى الآن .

ولقد قادنا الحديث عن المراكز العلمية الرئيسية في بلاد المغرب الأدنى إلى ملاحظة أن مدن وأقاليم إفريقية لم تشهد قدراً متساوياً من النهضة العلمية . ولقد أفصحنا في حينه إلى أن ثمة أسباباً سياسية وجغرافية واجتماعية ومذهبية قد قادت إلى ذلك الوضع .

ومن الملاحظات الجديرة بالإنتباه التى قادنا إليها جهد التقصى أن أتباع المذهب المالكي لم تقتصر مشاركتهم على الدراسات الشرعية وحدها ، وإنما كان لهم حضور علمي في كل فن من فنون العلم ، حتى الطبيعية منها . بينما كانت مشاركة أتباع المذاهب الكلامية ، والمذاهب الدينية السياسية الأخرى ضئيلة . ولقد أوضحنا وقتها أن السبب في ذلك هو أن المذهب المالكي كان مذهب الغالبية من السكان .

وجاءت الدراسة لتؤكد حقيقة مهمة وهي أن الإفريقيين لم يكونوا

بعيدين عن الاشتغال بالعلوم التي كان المشرق يتسيَّدها . وبمعنى آخر أن الإفريقيين كانوا يتفاعلون مع معظم التيارات الثقافية التي كان المشرق يذخر بها ، سواء فيما يتصل بالدراسات الشرعية واتجاهاتها ، أو الدراسات الأدبية ، أو حتى العلوم الطبيعية .

وجاءت الدراسة كذلك لتوضح أنه كان للإفريقيين في كثير من جوانب الحياة العلمية أسهام لايقل عن مثيله في المشرق والأندلس . فلقد إحتلت تلك الإسهامات العلمية حيزاِ في الثقافة الإسلامية العامة ، وظلت مصدراً مهما لتلك الثقافة . فكتاب الأسدية لأسد بن الفرات ظل معتمد فقهاء المالكية في مصر لمدة طويلة . أما المدونة فهي المصدر الرئيسي الثاني للفقه المالكي في كل الأمصار التي تتمذهب به بعد الموطأ . وبجانب هذا يحضرنا دليل آخر يوضح لنا مقدار مابلغته مؤلفات المغاربة من سمعة علمية تعدت حدود بلادها ، فعندما ألف محمد بن سحنون كتاب : الإمامة ، تخاطفه المشارقة ، وأمر الخليفة بكتابته بماء الذهب . ثم لاننسى الرسالة في الفقه التي ألفها الفقيه الأبرز ابن أبي زيد القيرواني ، والتي بسطت إتجاهات المذهب المالكي الفقهية في شئ من اليسر والسهولة ، وكان ذلك مدعاة إلى انتشارها والتعويل عليها ، وعمل الشروحات لها .

وفيما يتعلق بالدراسات الأدبية ، فقد كان للإفريقيين حضور أدبي سامق الذرى وخاصة في العصر الزيري . ولايمكن للملاحظ للدراسات الأدبية إلاَّ أن يقرر بأن المؤلفات التي تركها الإفريقيون لاتقل بحال من الأحوال عن أضرابها في المشرق والأندلس ، وحسبنا أن نؤكد على أن أولئك

الأدباء بلغوا مع تبريزهم في التأليف الأدبية مبلغاً عظيماً في الشاعرية المرهفة .

ومن المناسب أن نشير إلى أنهم ، أي أدباء إفريقية ، قد أحرزوا قصب السبق في بعض المجالات الأدبية وأعنى بذلك سبق الأديب الشاعر عبد الله الشقراطسي في طرق موضوع أدبي طريف ، وهو : المدائح النبوية التي غدت تحتذي بعد ذلك من قبل المشارقة .

أما في العلوم الطبيعية ، فقد كان لبعض إسهاماتهم القدر الأسنى من القيمة ، وحسبك بكتاب : زاد المسافر لابن الجزار القيرواني شاهداً على ذلك .

ولعل في هذا الغيض من فيض النتائج التي توصلنا إليها ماتكفي الإشارة إليه هنا ، فهناك العديد من النتائج الأخرى التي أثبتناها في ثنايا الرسالة .

وأخيراً فإن بإمكاننا أن نقرر بأن إفريقية قد عرفت في الفترة الزمينة موضوع الرسالة حياة علمية لاتقل في بعض جوانبها عمّا أسدته الأمصار الأخرى ، بل لعلها تفوق كثيراً من الأمصار في تلك الجوانب .

وبجانب هذا فقد سجلت إفريقية حضوراً علمياً متواضعاً في الجوانب الأخرى مثل الفلسفة والجغرافيا ، والطب والصيدلة ، والفلك والرياضيات. ولكنها مع ذلك لم تخل ساحتها البتة من تلك الجوانب ، وكأنما هو حرص من رجالاتها على أن يكون لبلدهم إفريقية ذكر في كل العلوم ، حتى ولو كان متواضعاً في بعض جوانبه .

المصــــادر
والمراجــــع
والدوريات

قائمة المصادر والمراجع والدوريات

المصادر :

- ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) :

(١) الحلة السيراء ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، جزآن ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣م .

(٢) التكملة لكتاب الصلة، عُني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني ، مطبة السعادة ، القاهرة، ١٩٥٥م

- ابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ) :

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضى ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م .

- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) :

(٤) الكامل في التاريخ ، ١٠ أجزاء ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

- البخاري (ت ٢٥٦ هـ) :

(٥) صحيح البخاري .

- ابن بسام (ت ٥٤٢هـ) :

(٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، ٨ أجزاء منشورات دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩ م .

- ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) :

(٧) الصلة في تاريخ علماء الأندلس ، قسمان ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

- البكري (ت ٤٨٧هـ) :

(٨) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، طبعة دي سيلان ، الجزائر ، ١٨٥٧م .

- ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) :

(٩) غاية النهاية في طبقات القرآء ، عني بنشره ج برجستراسر ، طبعه لأول مرة بنفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م .

- ابن جلجل (ت بعد ٣٨٤هـ) :

(١٠) طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد السيد ، أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية ، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

- ابن حماد (ت ٦٢٨هـ) :

(١١) أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبد الحليم عويس ، منشورات مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٤٠١هـ /١٩٨١م .

- الحميدي (ت ٤٨٨هـ) :

(١٢) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ، ١٩٦٦م .

- ابن حوقل (ت في القرن الرابع الهجري) :

(١٣) صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩م.

- ابن حيون (القاضي النعمان المغربي) (ت ٣٦٣هـ) :

(١٤) كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق الدشراوي ، منشورت الشركة التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٥م .

(١٥) كتاب دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضاء والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام ، تحقيق أصف بن علي أصغر فيضي ، منشورات دار المعارف ، القاهرة جزآن ، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

(١٦) كتاب المجالس والمسايرات ، تحقيق الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومحمد البعلاوي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية ، ١٩٧٨م .

- الخشني (ت بعد ٣٦٦هـ) :

(١٧) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، نشر وتصحيح عزت العطار الحسني ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٣٧٣هـ.

- الخطيب البغداد (ت ٤٦٣هـ) :

(١٨) الرحلة في طلب الحديث ، حقّقه وعلّق عليه نور الدين عتر ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

- ابن الخطيب (ت ٧٦٦هـ) :

(١٩) تاريخ المغرب في العصر الوسيط أو الجزء الثالث من أعمال الأعلام - تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م .

- ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) :

(٢٠) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، طبعة مستكملة ومقارنة مع عدة نسخ ومخطوطات ومذيلة بحواشي وشروح وتمتاز بفهارس للموضوعات والأعلام والأماكن الجغرافية ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحاته وراجعه سهيل زكار ، ٨ أجزاء بما فيها المقدمة ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) :

(٢١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، ٨ أجزاء منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- ابن خير (ت ٥٧٥هـ) :

(٢٢) فهرسة مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف . وقف على نسخها وطبعها ومقابلتها على أصل محفوظ في خزانة الأسكوريال فرنششكو كديرة وخليان رياره ، طبعة جديدة منقحة عن الأصل المطبوع عام ١٨٩٣م ، ط٢ منقحة ومنقطة باعتناء زهير فتح الله ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .

- الداودي (ت٩٤٥هـ) :

(٢٣) طبقات المفسرين ، تحقيق علي محمد عمر ، منشورات مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

- الدباغ (ت ٦٩٦ هـ) :

(٢٤) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، صنَّفه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي الدباغ ، أكمله وعلَّق عليه أبو الفضل بن ناجي التنوخي ، ٤ أجزاء ، صحَّح الجزء الأول وعلَّق عليه ابراهيم شبوح ، ونشرته مكتبة الخانجي بمصر عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، وحقق الجزء الثاني محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور ، ونشرته المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر ، وحقَّق الجزء الثالث وعلَّق عليه محمد ماضور ، ونشرته المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر عام ١٩٧٨م .

- ابن دحية (ت ٦٣٣هـ) :

(٢٥) المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد ، مراجعة طه حسين، بيروت ، د . ت، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع .

- ابن أبي دينار (كان حياً سنة ١١١٠ هـ) :

(٢٦) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، منشورات المكتبة العتيقة بتونس ، ١٩٦٧م .

- الذهبي (ت ٧٤٨هـ) :

(٢٧) تذكرة الحفاظ ، تحقيق أحمد أمين دمج ، ٤ أجزاء ، منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٤ (د . ت) .

- ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) :

(٢٨) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، صنَّفه الحسن بن رشيق ، سلسلة من تراثنا رقم ١٠ ، جمع وتعليق زين العابدين سنوسي ، طبع على مرتين من ص٩ إلى ١٤٤ بمطبعة العرب ، تونس ، ١٩٥١م ، وطبع الغلاف مع التقديم والفهرس ونشرته دار المغرب العربي ، تونس ، ١٩٧٣م .

(٢٩) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حقّقه وفصّله وعلّق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، منشورات دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٢م .

(٣٠) قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، تحقيق الشاذلي بويحي ، الشركة التونسية للتوزيع ، توفى ١٩٧٢م .

- الرصّاع (ت ١٠٣٣هـ) :

(٣١) فهرست الرصّاع ، تحقيق وتعليق محمد العنابي ، منشورات المكتبة العتيقة ، سلسلة من تراثنا الإسلامي رقم ٤ ، تونس ، ١٩٧٦م .

- الرقيق القيرواني (ت ٤٢٥هـ) :

(٣٢) تاريخ إفريقية والمغرب ، قطعة تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الثاني الهجري ، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي منشورات رفيق السقطي ، تونس ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

- الزبيدي الأندلسي (ت ٣٧٩هـ) :

(٣٣) طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم منشورات دار المعارف بمصر . د. ت .

- ابن أبي زرع (عاش في القرن الثامن الهجري) :

(٣٤) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس ، قدّمه وعلّق عليه عبد الوهاب منصور ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ١٩٧٣م.

الجامعية ، الاسكندرية ، د . ت .

– أحمد مختار عمر :

(١٩) النشاط الثقافي في ليبيا ، منشورات كلية التربية ، الجامعة الليبية ، طرابلس ، الطبعة الأولى ، ١٣٩١هـ .

– إحسان عباس :

(٢٠) العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والأدب ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥م .

– آدم متز :

(٢١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، جزءان ، ط٤ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م . د . ت .

– إسماعيل العربي :

(٢٢) دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٠م .

– أنخل جينثالث بالنثيا :

(٢٣) تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

– بونارد لويس :

(٢٤) أصول الإسلماعيلية ، بحث تاريخي في نشأة الخلافة الفاطمية

نقله إلى العربية خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب ، وقدم له عبد العزيز الدوري ، منشورات دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٤٧م .

- ت . ج . دي بور :

(٢٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام نقله إلى العربية وعلّق عليه محمد عبد الهادي أبو ريده ، منشورات دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨١م .

- الحبيب الجنحاني :

(٢٦) المغرب الإسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية (القرن ٣-٤هـ / ٩-١٠م) الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨م .

(٢٧) القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربي ، منشورات الدار التونسية ، تونس ١٩٦٨م .

- حسن ابراهيم حسن :

(٢٨) انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربيها ، منشورات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

(٢٩) تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريه وبلاد العرب ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٨م .

- حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف :

(٣٠) المعز لدين الله ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٣م .

- حسن أحمد محمود :

(٣١) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، منشورات دار النهضة المصرية ، جزءآن ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

- حسن حسني عبد الوهاب :

(٣٢) الإمام المازري ، سلسلة نوابع المغرب العربي ، رقم ١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٥٥م.

(٣٣) بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، تقديم محمد العروسي المطوي ، منشورات مكتبة المنار، تونس ، ط٢ ،١٩٧٠م .

(٣٤) خلاصة تاريخ تونس ، مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمن الحاضر ، الدار التونسية للنشر ، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٩٧٦م .

(٣٥) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، ٣ أقسام ، منشورات مكتبة المنار ، تونس ، القسم الأول والثاني ، ١٩٧٢م ، القسم الثالث ، ١٩٨١م .

- الحسن السائح :

(٣٦) الحضارة المغربية عبر التاريخ ، جزءآن ، منشورات دار الثقافة الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٦٢م .

- حسن سليمان محمود :

(٣٧) ليبيا بين الماضي والحاضر ، منشورات مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

- حسين مؤنس :

(٣٨) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، منشورات معهد الدراسات الإسلامية المصري في مدريد ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م .

- خير الدين الزركلي :

(٣٩) الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب ، والمستعربين و المستشرقين ، منشورات دار العلم اللملايين ، ٨ أجزاء ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠م .

- رابح بونار :

(٤٠) المغرب العربي تاريخه وثقافته ، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط٢ ، ١٩٨١م .

- رفعت فوزي عبد المطلب :

(٤١) الخلافة والخوارج في المغرب العربي والصراع بينهما حتى قيام

دولة الأغالبة ، ط١ ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .

- سعدي أبو حبيب :

(٤٢) سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ط١ ، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ط١، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- سعد البشري :

(٤٣) الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي) من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤٠١ / ١٤٠٢هـ (لم تطبع) .

- سعد زغلول عبد الحميد :

(٤٤) تاريخ المغرب العربي ، منشورات ، منشأة المعارف ، الاسكندرية جزءآن ، ١٩٧٩م .

- سليمان الحاج داوود يوسف :

(٤٥) ثورة أبي يزيد جهاد لإعلاء كلمة الله ، منشورات دار البعث للطباعة والنسر ، قسطنطينة ، الجزائر ، ط١ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

- السيد عبد العزيز سالم :

(٤٦) تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، منشورات مؤسسة شباب

الجامعة ، الاسكندرية ، الطبعة الثانية المصورة ، ١٩٨٢م .

- السيد محمد أبو العزم داود :

(٤٧) الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ، منشورات المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

- شارل أندري جوليان :

(٤٨) تاريخ إفريقيا الشمالية ، تونس ، الجزائر ، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠م ، تعريب محمد مزالي والبشير ابن سلامة ، منشورات الدار التونسية للنشر ، جزءآن ، النشرة الثانية ، ١٩٨٣م .

- شوقي ضيف :

(٤٩) الرحلات ، سلسلة فنون الأدب العربي رقم ٤ ، منشورات دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

- شوكت الشطي :

(٥٠) مختصر تاريخ الطب وطبقات الأطباء عند العرب ، نشر جامعة دمشق ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .

- صالح باجية :

(٥١) الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى ، منشورات دار

بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

- صالح مصطفى مفتاح :

(٥٢) برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الآداب قسم التاريخ ، بجامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، (لم تطبع) .

- صبحي الصالح :

(٥٣) علوم الحديث ومصطلحه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة ١٥ ، ١٩٨٤م .

- الطاهر أحمد الزاوي :

(٥٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، منشورات دار الفتح ، ودار التراث العربي بليبيا ، مطبوعات مؤسسة الخدمات الطباعية ، بيروت ، د . ت .

(٥٥) معجم البلدان الليبية ، منشورات مكتبة النور ، طرابلس ، ليبيا ط١ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

- الطاهر المعموري :

(٥٦) جامعة الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ، منشورات الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨٠م .

- عادل نويهض :

(٥٧) معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ،

بيروت ، ١٩٧١م .

- عباس الجراري :

(٥٨) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، جزءآن ، منشورات مكتبة المعارف ، الرباط ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

(٥٩) وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ، منشورات دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

- عبده بدوي :

(٦٠) مع حركة الإسلام في إفريقية - دراسة من خلال الدول التي قامت قبل الاستعمار ، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

- عبده عبد العزيز قلقيلة :

(٦١) النقد الأدبي في المغرب العربي ، منشورات مكتبة الانجلو المصرية ، جزءآن ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

- عبد الجبار الشريف وعلي دب :

(٦٢) ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب ، دراسة ومنتخبات ، منشورات الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٨١م .

- عبد الحليم عويس :

(٦٣) دولة بن حماد – صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ، منشورات دار الشروق ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

– عبد الرحمن حميده :

(٦٤) أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

– عبد الرحمن الشرقاوي :

(٦٥) أئمة الفقه التسعة – شخصيات إسلامية ، منشورات دار إقرأ ، ط١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

– عبد الرحمن ياغي :

(٦٦) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦١م .

– عبد الرؤوف عبد العزيز مخلوف :

(٦٧) ابن رشيق ونقد الشعر – دراسة نقدية تحليلية مقارنة ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م .

– عبد السلام عبد القادر بن سوده المري :

(٦٨) دليل مؤرخي المغرب الأقصى « ببلوغرافيا » ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، جزءآن ، ١٩٦٠م .

– عبد السلام الكثنوني :

(٦٩) المدرسة القرآنية في المغرب من الفتح الإسلامي إلى ابن عطية ، مكتبة المعارف ، الرباط ، الجزء الأول ، ط١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

– عبد العزيز بنعبد الله :

(٧٠) الطب والأطباء بالمغرب ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٦٠م.

(٧١) مظاهر الحضارة المغربية ، منشورات دار السلمي ، جزءآن ، الدار البيضاء ، ١٩٧٧م ، أو تاريخ الحضارة المغربية وهو مقرر لتلامذة الثانوية في المغرب .

(٧٢) الموسوعة المغربية للاعلام البشرية ، ٤ أجزاء ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

– عبد العزيز السلفي الميمني الراجكوني :

(٧٣) النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين ، منشورات المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ .

– عبد العزيز المجذوب :

(٧٤) الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

– عبد الله العروي :

(٧٥) تاريخ المغرب – محاولة في التركيب ، ترجمة ذوقان قرقوط ،

المؤسسةالعربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٧م .

- عبد المجيد عطية وعبد الرزاق الحليوي :

(٧٦) تميم بن المعز ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ط١، ١٩٧٧.

- عبد الهادي التازى :

(٧٧) جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ٣ أجزاء ، د. ت .

- عثمان الكعاك :

(٧٨) تاريخ الجزائر ، الدار العربية للنشر ، تونس ، ١٣٤٥هـ .

(٧٩) المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ، مطبعة العرب ، تونس ، ١٩٢٥م .

(٨٠) محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

- عزيز أحمد :

(٨١) تاريخ صقلية الإسلامية ، نقله إلي العربية وقدّم له مع إضافة حواشي وتعليقات مناسبة أمين توفيق الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ١٩٨٠م .

- علي عبد الله الدفاع :

(٨٢) أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٨٣) إسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، تعريب وتعليق جلال شوقي ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٨٤) نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ، منشورات دار الأمل للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٧هـ .

- علي مصطفى المسراطي :

(٨٥) أعلام من طرابلس ، تراجم ودراسات ، دار الفكر ، طرابلس - ليبيا - ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

- علي يحى معمر :

(٨٦) الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتَّاب المقالات في القديم والحديث ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

(٨٧) الإباضية في الجزائر ، مكتبة وهبة ، ط١ ، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م .

- عمر كحالة :

(٨٨) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، مؤسسة الرسالة دمشق ، ٥ أجزاء ، ط٣ ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، ماعدا الجزء الأول من منشورات المطبعة الهاشمية بدمشق ، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م .

(٨٩) التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية ، المطبعة التعاونية ،

دمشق ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

(٩٠) العلوم البحتة في العصور الإسلامية ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢ م .

- عمر فروخ :

(٩١) تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

(٩٢) تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ،دار العلم للملايين، بيروت . د. ت .

(٩٣) العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

- عوض خليفات :

(٩٤) نشأة الحركة الإباضية ، نشر بتعضيد من اتحاد المؤرخين العرب ، مطابع دار الشعب ، عمان ، الأردن ، ١٩٧٨م .

- ألفرد بل :

(٩٥) الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن بدوي ، منشورات دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي - ليبيا ، ١٩٦٩م .

- قدري حافظ طوقان :

(٩٦) تراث العرب في الرياضيات والفلك ، منشورات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ط٢ ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م .

- كارل بروكلمان :

(٩٧) تاريخ الأدب العربي في ستة أجزاء ، ج١-٣ ، ج٦ ترجمة عبد الحليم النجار ، والجزءآن الرابع والخامس ، ترجمة السيد يعقوب ورمضان عبد التواب ، دار المعارف ، القاهرة . د . ت .

- كتاب :

(٩٨) كتاب أصدرته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بمناسبة ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونة .

- مجموعة من العلماء والأدباء :

(٩٩) تاريخ قفصه وعلمائها ، دار المغرب العربي ، تونس ، ط١ ، ١٩٧٢م .

- مجموعة من المستشرقين والباحثين العرب :

(١٠٠) دائرة المعارف الإسلامية ، منشورات دار الشعب ، القاهرة . د . ت .

- محمد أبو زهرة :

(١٠١) تاريخ المذاهب الإسلامية ، جزءآن ، دار الفكر ، القاهرة . د . ت

- محمد التونجي :

(١٠٢) عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، منشورات مكتب قورينا للنشر والتوزيع ، بني غازي - ليبيا - ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

- محمد جمال الدين سرور :

(١٠٣) الدولة الفاطمية في مصر - سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م .

- محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي :

(١٠٤) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، تخريج وتعليق عبد النذير عبد الفتاح القاري ، جزءآن ، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- محمد الحسيني عبد العزيز :

(١٠٥) الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، وكالة المطبوعات،الكويت.

- محمد طه الحاجري :

(١٠٦) دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- محمد عبد السلام عبود :

(١٠٧) تاريخ المغرب ، منشورات دار الطباعة المغربية الرباط، جزءآن، ١٩٥٧م .

- محمد عبد الغني حسن :

(١٠٨) الأمير الشاعر تميم بن المعز ، منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

– محمد عبد المنعم خفاجي :

(١٠٩) قصة الأدب في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى اليوم ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٧م .

– محمد العروسي المطوي :

(١١٠) سيرة القيروان رسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ١٩٨١م .

– محمد علي دبوز :

(١١١) تاريخ المغرب الكبير ، ٣ أجزاء ، منشورات عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م .

– محمد بن عمرو الطمار :

(١١٢) تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٦٥م.

– محمد الفاضل بن عاشور :

(١١٣) التفسير ورجاله ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ط٢، ١٩٧٢م .

– محمد كامل حسين :

(١١٤) طائفة الإسماعيلية وتاريخها ، نظمها ، عقائدها ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م .

- محمد محمود الحاج قاسم :

(١١٥) الموجز لما أضافة العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧٤م .

- محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحى :

(١١٦) أبو الحسن الحصري القيرواني - عصره ، حياته ، دواوينه ، مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٦٣م .

- محمد الهادي العامري :

(١١٧) تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، الشركة التونسية للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٩٧٤م .

- محمود اسماعيل عبد الرازق :

(١١٨) الأغالبة - سياستهم الخارجية ، مكتبة وراقة الجامعة ، فاس ، ط٢ ، ١٩٧٨م .

(١١٩) الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، منشورات دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٧٦م .

- محمود شيت خطاب :

(١٢٠) عقبة بن نافع الفهري ، قادة الفتح الإسلامي ، دار الفكر ،

بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

– محى الدين عزوز :

(١٢١) التطور المذهبي بالمغرب أو دراسة قصة حي بن يقظان ، منشورات الشركة التونسية للنشر والتوزيع ، تونس . د. ت .

– مصطفى عبد الرزاق :

(١٢٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة ، القاهرة ، ١٩٤٤م .

– المنجي الكعبي :

(١٢٣) القزاز القيرواني حياته وآثاره ، منشورات الدارالتونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨م .

(١٢٤) النشهلي القيرواني ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ١٩٧٨م .

– نقولا زيادة :

(١٢٥) الجغرافيا والرحلات عند العرب ، منشورات الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٠م .

– الهادي مصطفى التوزري :

(١٢٦) أعلام الأفارقة (عبد الله الشقراطسي) ، منشورات مطبعة الترقي ، تونس ، ١٩٥٥م .

الدوريات

- أحمد مختار العبادي :

(١) سياسة الفاطميين نحوالمغرب والأندلس ، بحث نشر في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م .

- ايفا نوف :

(٢) استتار الامام وسيرة جعفر الحاجب ، بحث نشره المستشرق الروسي إيفانوف ، ترجمه محمد كامل حسين ، مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، المجلد الرابع .

- تقرير :

(٣) تقرير للجمهورية التونسية في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ، ١٩٦٣م .

- الشاذلي بويحى :

(٤) حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الأول ، ١٩٦٤م .

(٥) حول نشر قطب السرور أو من سوء حظ ابراهيم الرقيق ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثامن ، ١٩٧٠م .

- فرحات الدشراوي :

(٦) سياسة الصبيان وتدبيرهم ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثالث ، ١٩٦١م .

- محمد الشابي :

(٧) دولة صاحب الحمار ونقوده ، بحث قدم إلى المؤتمر الرابع للآثار الذي نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ، ١٩٦٣م .

- محمد عبد الهادي شعيرة :

(٨) من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة ، بحث ألقي في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية الذي نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ،١٩٦٣م .

- محمد الفاضل بن عاشور :

(٩) الآثار الحفصية في المرسي ، بحث قدم إلى المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية الذي نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ، ١٩٦٣م .

- محمد اليعلاوي :

(١٠) شعراء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد عشرة ، ١٩٧٣م .

كشاف الفهرس العام

كشاف فهرست الجزء الأول

كشاف فهرست الجزء الثاني